



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



الرمضان
عليكم يا صابرين

WWW. **Ghaemiyeh** .com
WWW. **Ghaemiyeh** .org
WWW. **Ghaemiyeh** .net
WWW. **Ghaemiyeh** .ir

آية الله العظمى شهاب الدين

تكملة التلويح

شرح مختصر على تلويح الأعلام

مناهج كبرى في الفقه
إعداد: محمد بن محمد

المجلة العلمية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نفحات الولاية: شرح عصرى جامع لنهج البلاغه

كاتب:

آيت الله العظمى ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابى طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٦	نفتح الولايه (شرح عصرى جامع لنهج البلاغه) المجلد ١٠
١٦	اشاره
١٧	اشاره
٢١	الرساله ٣٢: إلى معاويه
٢١	اشاره
٢١	نظره عامه للرساله
٢٣	الشرح والتفسير: لا تهلك نفسك ولا الناس
٢٣	اشاره
٢٧	تأمل
٢٧	رسائل متواليه
٣٠	الرساله ٣٣: إلى قُتْمِ بْنِ الْعَبَّاسِ وَهُوَ عَامِلُهُ عَلَى مَكَّةَ
٣٠	اشاره
٣٠	نظره عامه للرساله
٣٢	الشرح والتفسير: راقب أوضاع مَكَّةَ بدقه
٣٢	اشاره
٣٦	تأمل
٣٦	من هو قثم بن العباس؟
٣٨	الرساله ٣٤: إلى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ
٣٨	اشاره
٣٨	نظره عامه للرساله
٤٠	الشرح والتفسير: تطيب خاطر محمد بن أبى بكر
٤٤	تأمل
٤٤	من هو محمد بن أبى بكر؟

٤٦	الرسالة ٣٥: إلى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، بَعْدَ مَقْتَلِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ
٤٦	اشاره
٤٦	نظرة عامته للرسالة
٤٨	الشرح والتفسير: شكوى من الأتباع الضعفاء
٥٢	تأمل
٥٢	روعه البلاغه في هذه الرسالة
٥٦	الرسالة ٣٦: إلى أَخِيهِ عَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ
٥٦	اشاره
٥٦	نظرة عامته للرسالة
٦٠	القسم الأول
٦٠	اشاره
٦٠	الشرح والتفسير: قصة الضحاک بن قيس
٦٦	القسم الثاني
٦٦	اشاره
٦٦	الشرح والتفسير: لا أكف عن مقارعة الخائنين
٧٠	الرسالة ٣٧: إلى معاوية
٧٠	اشاره
٧٠	نظرة عامته للرسالة
٧٢	الشرح والتفسير: ما أنت والطلب بدم عثمان ؟
٧٢	اشاره
٧٥	تأمل
٧٥	رساله معاوية إلى ابن عباس وجوابه
٧٨	الرسالة ٣٨: إلى أَهْلِ مِصْرَ لَمَّا وَتَى عَلَيْهِمُ الْأَشْتَرُ
٧٨	اشاره
٧٨	نظرة عامته للرسالة
٨٠	القسم الأول

٨٠	اشاره
٨٠	الشرح والتفسير: المصريون الذين غضبوا لله
٨٤	القسم الثاني
٨٤	اشاره
٨٤	الشرح والتفسير: نصبت عليكم واليا مقتدراً وبصيراً بالأمر
٩٠	الرسالة ٣٩: إلى عمرو بن العاص
٩٠	اشاره
٩٠	نظرة عاتقه للرسالة
٩٢	الشرح والتفسير: لقد بعث دينك بدنيا غيرك!
٩٦	تأملان
٩٦	١. عمرو بن العاص في الجاهلية والإسلام
٩٦	٢. بعض أعمال معاوية
٩٨	الرسالة ٤٠: إلى بغض عُمّالِه
٩٨	اشاره
٩٨	نظرة عاتقه للرسالة
١٠٠	الشرح والتفسير: سخط الله وعصيان الإمام
١٠٤	الرسالة ٤١: إلى بغض عُمّالِه
١٠٤	اشاره
١٠٤	نظرة عاتقه للرسالة
١٠٦	القسم الأول
١٠٦	اشاره
١٠٦	الشرح والتفسير: ألا تؤمن بالمعاد؟!
١١٣	القسم الثاني
١١٣	اشاره
١١٣	الشرح والتفسير: لا أتسامح في بيت المال حتى مع أولادي
١١٧	تأمل

- ١١٧ من هو ابن عباس؟
- ١٢٥ الرسالة ٤٢: إلى عُمرِ بْنِ أَبِي سَلْمَةَ الْمُخْزُومِي
- ١٢٥ اشاره
- ١٢٥ نظره عاتقه للرساله
- ١٢٧ الشرح والتفسير: أحسننا! لقد أدت الأمانه
- ١٢٧ اشاره
- ١٢٨ تأمل
- ١٢٨ التعرّف على عمر بن أبي سلمة المخزومي والنعمان بن عجلان؟
- ١٣١ الرسالة ٤٣: إلى مَضَقَلَةَ بْنِ هُبَيْرَةَ الشَّيْبَانِي
- ١٣١ اشاره
- ١٣١ نظره عاتقه للرساله
- ١٣٣ الشرح والتفسير: جميع المسلمين سواسيه في بيت المال
- ١٣٣ اشاره
- ١٣٨ تأمل
- ١٣٨ جواب مصقله للإمام عليه السلام
- ١٣٩ الرسالة ٤٤: إلى زِيَادِ ابْنِ أَبِيهِ
- ١٣٩ اشاره
- ١٣٩ نظره عاتقه للرساله
- ١٤١ الشرح والتفسير: إحدّر من أغوائهم!
- ١٤١ اشاره
- ١٤٦ تأمل
- ١٤٦ قصه نسب زياد المعقده
- ١٥٢ الرسالة ٤٥: إلى عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفِ الْأَنْصَارِي
- ١٥٢ اشاره
- ١٥٢ نظره عاتقه للرساله
- ١٥٧ القسم الأوّل

١٥٧ اشاره

١٥٧ الشرح والتفسير: دعوه الوالى إلى مادبه فاخره!

١٥٧ اشاره

١٥٩ تأمل

١٥٩ من هو عثمان بن حنيف؟

١٦١ القسم الثانى

١٦١ اشاره

١٦١ الشرح والتفسير: لم أذخر من الدنيا شيئاً لنفسى

١٦٥ القسم الثالث

١٦٥ اشاره

١٦٥ الشرح والتفسير: كيف أكون أميرالمؤمنين ولا اشاركهم فى مكاره الدهر؟

١٦٥ اشاره

١٧٣ تأمل

١٧٣ قصه فذك المحزنه

١٧٨ القسم الرابع

١٧٨ اشاره

١٧٨ الشرح والتفسير: لست كالبهيمة المربوطه!

١٨٦ القسم الخامس

١٨٦ اشاره

١٨٦ الشرح والتفسير: أيتها الدنيا ابتعدى عنى!

١٨٦ اشاره

١٩٤ تأمل

١٩٤ طلاق الدنيا

١٩٧ القسم السادس

١٩٧ اشاره

١٩٧ الشرح والتفسير: هل الغرض الأكل والنوم فقط؟

- ١٩٧ اشارة
- ١٩٩ تأمل
- ١٩٩ الرياضه المشروعه وغير المشروعه
- ٢٠٦ القسم السابع
- ٢٠٦ اشارة
- ٢٠٦ الشرح والتفسير: أيها الوالي! إحذر المشاركه فى مثل هذه الضيافه!
- ٢٠٦ اشارة
- ٢٠٩ تأملان
- ٢٠٩ ١. الزهد والانتفاع من المواهب الإلهيه
- ٢١٢ ٢. من هم حزب الله؟
- ٢١٤ الرساله ٤٦: إلى بغضِ عَمَالِهِ
- ٢١٤ اشارة
- ٢١٤ نظره عاقه للرساله
- ٢١٦ الشرح والتفسير: عامل الناس بالرفق!
- ٢٢٣ الرساله ٤٧: لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَام لَمَّا ضَرَبَتْهُ ابْنُ مُلْجَمٍ لَعْنَهُ اللَّهُ
- ٢٢٣ اشارة
- ٢٢٣ نظره عاقه للرساله
- ٢٢٥ القسم الأول
- ٢٢٥ اشارة
- ٢٢٥ الشرح والتفسير: كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً!
- ٢٣١ القسم الثانى
- ٢٣١ اشارة
- ٢٣١ الشرح والتفسير: أفضل الأعمال صلاح ذات البين!
- ٢٣٥ القسم الثالث
- ٢٣٥ اشارة
- ٢٣٥ الشرح والتفسير: وصايا هامته على فراش الشهاده!

٢٣٥	اشاره
٢٤٤	تأمل
٢٤٤	أهتبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
٢٤٩	القسم الرابع
٢٤٩	اشاره
٢٤٩	الشرح والتفسير: توصيه الإمام عليه السلام المؤكده حول قاتله!
٢٥٣	الرساله ٤٨: إلى مُعاوِيَةَ
٢٥٣	اشاره
٢٥٣	نظره عاينه للرساله
٢٥٥	الشرح والتفسير: نصيحه جامعه لمعاويه
٢٥٩	الرساله ٤٩: إلى مُعاوِيَةَ
٢٥٩	اشاره
٢٥٩	نظره عاينه للرساله
٢٦١	الشرح والتفسير: الحرص على الدنيا لا يوصلك إلى شيء!
٢٦٩	الرساله ٥٠: إلى أُمِّرَائِهِ عَلَيَّ الْجَيْشِ
٢٦٩	اشاره
٢٦٩	نظره عاينه للرساله
٢٧١	القسم الأول
٢٧١	اشاره
٢٧١	الشرح والتفسير: لا يبعدنكم المقام عن الناس!
٢٧٣	القسم الثاني
٢٧٣	اشاره
٢٧٣	الشرح والتفسير: حقوق الإمام وحقوق القاده
٢٨١	الرساله ٥١: إلى عُمَايَةَ عَلَيَّ الْخِرَاجِ
٢٨١	اشاره
٢٨١	نظره عاينه للرساله

- ٢٨٣ القسم الأول
- ٢٨٣ اشاره
- ٢٨٣ الشرح والتفسير: حذارٍ من ظلم الناس!
- ٢٨٣ اشاره
- ٢٨٥ تأمل
- ٢٨٥ ماذا يعنى الخراج؟
- ٢٨٧ القسم الثاني
- ٢٨٧ اشاره
- ٢٨٧ الشرح والتفسير: رعايه إنصاف فى أخذ الخراج
- ٢٩٣ الرسالة ٥٢: إلى أمراء البلاد فى مَعْنَى الصَّلَاةِ
- ٢٩٣ اشاره
- ٢٩٣ نظره عاقته للرساله
- ٢٩٥ الشرح والتفسير: آداب الصلاه وأوقاتها!
- ٢٩٥ اشاره
- ٢٩٩ تأمل
- ٢٩٩ أداء الصلوات الخمس فى ثلاثه أوقات
- ٣٠٦ الرسالة ٥٣: كَتَبَهُ لِلْأَشْتَرِ التَّخَعَّى
- ٣٠٦ اشاره
- ٣٠٦ نظره عاقته للرساله
- ٣٠٦ خمسون نكته مهمته فى عهد واحد
- ٣١٧ القسم الأول
- ٣١٧ اشاره
- ٣١٧ الشرح والتفسير: التوصيه الأولى: التقوى وجهاد النفس
- ٣١٧ اشاره
- ٣٢١ تأمل
- ٣٢١ أخطار النفس الأماره

أهميته بلاد مصر ٣٢٣

القسم الثاني ٣٢٧

اشاره ٣٢٧

الشرح والتفسير: احترام حقوق جميع المواطنين! ٣٢٧

القسم الثالث ٣٣٥

اشاره ٣٣٥

الشرح والتفسير: لا تكن مغروراً أبداً! ٣٣٥

القسم الرابع ٣٤٣

اشاره ٣٤٣

الشرح والتفسير: إحذر من لعنه المظلومين! ٣٤٣

القسم الخامس ٣٤٧

اشاره ٣٤٧

الشرح والتفسير: كن مع جمهور الناس! ٣٤٧

تأمل ٣٥٣

أنواع الحكومات ٣٥٣

القسم السادس ٣٥٥

اشاره ٣٥٥

الشرح والتفسير: عليك بستر العيوب! ٣٥٥

اشاره ٣٥٥

تأمل ٣٦٠

موارد الاستخبارات والتستر على عيوب الناس ٣٦٠

القسم السابع ٣٦٢

اشاره ٣٦٢

الشرح والتفسير: إحذر هؤلاء المستشارين! ٣٦٢

اشاره ٣٦٢

تأمل ٣٦٤

أهميته المشوره فى حياه الإنسان ٣٦٤

القسم الثامن ٣٦٨

اشاره ٣٦٨

الشرح والتفسير: الوزير الجيد والوزير السيء! ٣٦٨

القسم التاسع ٣٧٤

اشاره ٣٧٤

الشرح والتفسير: إحيى السنن الحسنه ٣٧٤

تأمل ٣٨٠

سبب ظهور السنن ٣٨٠

القسم العاشر ٣٨٢

اشاره ٣٨٢

الشرح والتفسير: الطبقات الاجتماعيه المختلفه ٣٨٢

اشاره ٣٨٢

تأمل ٣٨٥

الشرائح الاجتماعيه ٣٨٥

القسم الحادى عشر ٣٨٨

اشاره ٣٨٨

الشرح والتفسير: الأواصر بين الطبقات الاجتماعيه ٣٨٨

القسم الثانى عشر ٣٩٨

اشاره ٣٩٨

الشرح والتفسير: شروط قاده الجيش ٣٩٨

القسم الثالث عشر ٤٠٥

اشاره ٤٠٥

الشرح والتفسير: أفضل قاده الجيش ٤٠٥

القسم الرابع عشر ٤١٢

اشاره ٤١٢

٤١٢ الشرح والتفسير: طرق حلّ المشكلات

٤١٢ اشاره

٤١٤ تأمل

٤١٤ من هم اولوا الأمر؟

٤١٨ القسم الخامس عشر

٤١٨ اشاره

٤١٨ الشرح والتفسير: يجب أن يتصف القضاة بهذه الصفات الاثني عشر!

٤٣٠ تعريف مركز

عنوان و نام پديدآور: نفحات الولاية: شرح عصرى جامع لنهج البلاغه المجلد ۱۰ / ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء؛ اعداد عبدالرحيم الحمدانى.

مشخصات نشر: رقم: مدرسه الامام على ابن ابى طالب (ع)، ۱۴۲۶ق. = ۱۳۸۴.

مشخصات ظاهرى: ۱۰ ج.

شابك: ۳۰۰۰۰ ريال: دوره ۹۵۸-۸۱۳-۹۶۴-X؛ ج. ۱ ۹۰۷-۸۱۳-۹۶۴-۵؛ ج. ۲ ۹۰۸-۸۱۳-۹۶۴-۳؛ ج. ۳ ۹۶۴-۸۱۳-۹۶۴-۲؛ ج. ۴ ۹۱۸-۸۱۳-۹۶۴-۰؛ ج. ۵ ۹۶۴-۸۱۳-۹۶۴-۵؛ ج. ۶ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۰-۵؛ ج. ۷ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۱-۲؛ ج. ۸ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۲-۹؛ ج. ۹ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۳-۶؛ ج. ۱۰ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۴-۳.

يادداشت: عربى.

يادداشت: ج ۱-۵ (چاپ دوم: ۱۳۸۴).

يادداشت: ج. ۶-۱۰ (چاپ اول: ۱۴۳۲ ق. = ۱۳۹۰).

يادداشت: كتابنامه.

مندرجات: ج. ۶. من خطبه ۱۵۱ الى ۱۸۰. ج. ۷. من خطبه ۱۸۱ الى ۲۰۰. ج. ۸. من خطبه ۲۰۱ الى ۲۴۱. ج. ۹. من رساله ۱ الى ۳۱. ج. ۱۰. من رساله ۳۲ الى ۵۳

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. -- خطبه ها

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. -- كلمات قصار

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. -- نامه ها

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. . نهج البلاغه -- نقد و تفسير

شناسه افزوده: حمرانى، عبدالرحيم

شناسه افزوده: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. . نهج البلاغه. شرح

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رده بندی کنگره: ۲/۳۸/۰۲/ BP م/ ۱۳۸۴۷

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۵۱۵

شماره کتابشناسی ملی: م ۸۴-۴۰۳۴۷

ص: ۱

اشاره

نفحات الولاية: شرح عصرى لجامع لنهج البلاغه المجلد ١٠

ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء

اعداد عبدالرحيم الحمدانى

ص: ٣

تشكل هذه الرساله (طبقاً لما أورده السيد الرضى فى نهج البلاغه) من ثلاثه أقسام:

القسم الأول: يتضمّن نصيحه لمعاويه، النصيحه المقترنه بالتوبيخ والتحذير من إضلال الناس وإعادتهم إلى عصر الجاهليه، وأنه ينبغى عليه أن يتدبّر فى عاقبه هذا الأمر.

وفى القسم الثانى، يتحدّث الإمام عليه السلام عن الأشخاص الذين يحيطون بمعاويه وهم

ص: ٥

١- (١). سند الرساله: لم ينقل فى مصادر نهج البلاغه سند خاص لهذه الرساله سوى ما ذكره ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغه فى مقدمه هذه الرساله وصرّح فى ختامها أنّ ما ذكر السيد الرضى فى نهج البلاغه يمثّل مقطعاً من رساله الإمام على عليه السلام والتي ذكرها أبو الحسن على بن محمّد المدائنى بكاملها، وهذا يشير إلى وجود مصدر آخر غير نهج البلاغه لدى ابن أبى الحديد حيث نقل عنه عبارات اخرى لهذه الرساله (على بن محمّد المدائنى من مؤرخى فى القرن الثالث الهجرى وتوفى فى سنه ٢٢٥، وقد ورد فى بعض العبارات أنّ الطبرى والبلاذرى نقلوا عنه فى كتبهم التاريخيه، وقيل إنّ اسم الكتاب فتوحات الإسلام، طبقاً لنقل ریحانه الأدب ونقلًا عن دائره المعارف دهخدا (بالفارسيه)، ماده مدائنى).

السائرون فى خط الضلاله والانحراف ويعيشون التفاخر القومى والقبلى ويتبعون معاويه على هذا الأساس، ولكن ثمه جماعه من أهل البصيره عندما اطلعوا على مسلك معاويه المشبوه والفاقد تركوا التعاون معه وأداروا ظهورهم إليه وأنابوا الله تعالى، وفى ختام هذا المقطع من الرساله، يدعو الإمام على عليه السلام معاويه إلى الالتزام بتقوى الله والورع وعدم اتباع الشيطان ويذكره بأن الدنيا فانيه وغير ثابتة على كل حال وأن الآخرة قريبه.

وفى القسم الثالث، يدعو معاويه إلى الالتزام بتقوى الله والورع وعدم اتباع الشيطان ثم يلفت نظره إلى إقتراب أجله وأنه عما قريب سوف يواجه صحيفه أعماله فى محكمه العدل الإلهيه.

ص: ٦

وَأَزْدَيْتَ جَيْلًا مِّنَ النَّاسِ كَثِيرًا؛ خَدَعْتَهُمْ بِعَيْكَ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ، تَغْشَاهُمُ الظُّلُمَاتُ، وَتَتَلَاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ، فَجَاوَزُوا عَن وِجْهَتِهِمْ، وَنَكَصُوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ، وَتَوَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ، وَعَوَّلُوا عَلَىٰ أَحْسَابِهِمْ إِلَّا مَن فَاءَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ فَأَبَانَتْهُمْ فَارْقُوكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ وَهَرَبُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ مُوَازَرَتِكَ، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى الصَّعْبِ، وَعَدَلْتَ بِهِمْ عَنِ الْقَصْدِ. فَاتَّقِ اللَّهَ يَا مَعْاوِيَةَ فِي نَفْسِكَ، وَجَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنكَ، وَالْآخِرَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ، وَالسَّلَامُ

الشرح والتفسير: لا تهلك نفسك ولا الناس

إشاره

ما أورده السيّد الرضى من هذا الكتاب يمثل مقطعاً من رساله كان الإمام على عليه السلام قد أرسلها لمعاويه، ويتحدّث الإمام عليه السلام فى مطلعها، طبقاً لنقل المؤرخ المعروف المدائنى، من موقع النصيحة والتحذير من الغرور بالدنيا الخداعه والمتقلبه وأن يلتزم بالتقوى ويعلم أنّ الله تعالى للظالمين بالمرصاد، فالدنيا سريعاً ما تنقلب عليه وتعرض عنه وسيواجه حينئذ الحسره والندامه، فينبغى عليه فى هذا السن المتقدمه من العمر أن يفكر فى نهايه حياته واقتراب أجله وأن لا يعمل شيئاً يكون وبالاً عليه يوم القيامه.

ثم إنّ الإمام عليه السلام تعرض لهذا الموضوع، وهو أنّك ستتحمّل، مضافاً لمسؤوليه ضلالك وانحرافك، مسؤوليه إضلال جمهور من الناس، وكما ذكر السيّد الرضى فإنّ

الإمام عليه السلام يقول في مستهل حديثه:

«وَأَرَدَيْتَ (١) جَيْلاً (٢) مِنَ النَّاسِ كَثِيراً؛ خَدَعْتَهُمْ بِعَيْتِكَ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ، تَعَسَّاهُمْ الظُّلْمَاتُ، وَتَتَلَاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ».

وهذه إشارته إلى أن معاوية يتحمل مسؤوليته انحراف جمهور غفير من المسلمين الذين خدعهم بمكره وغيبه وسوف يقف يوم القيامة ليجيب عن ذلك.

وعبارته

«مَوْجِ بَحْرِكَ» تعبير لطيف عن الحوادث والأزمات التي تشبّهه عادة بأمواج البحر، وهي الحوادث الصعبة التي يصعب مواجهتها والتصدي لها، لأنّ الأمواج العاتية كالجبال في البحر تقذف بالبشر من هنا إلى هناك كالريشه في مهبّ الريح، وأحياناً تقتلعهم في مطاويها ودواماتها ويعيش الإنسان في تلك اللحظات الحرجة الظلمة والشدة بحيث تسود الدنيا في عينيه.

والتعبير بـ

«الظُّلْمَاتُ» و «الشُّبُهَاتُ» إشارته إلى أعمال معاوية من قبيل طرح مسأله قتل عثمان والدفاع عنه، ورفع قميصه الدامي وإثاره الناس ضد الإمام عليه السلام والخليفة بالحق لرسول الله صلى الله عليه وآله، وكذلك (والعياذ بالله) الأمر بلعن الإمام على عليه السلام على المنابر وسبّه وشتمه في المحافل، فهل هناك ظلمه أشدّ من هذا، أو شبهه أوحش من هذه؟

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى نتيجة هذه الأساليب الماكره والشبهات المضلله ويقول:

«فَجَاوَزُوا (٣) عَنْ وَجْهِتِهِمْ، وَنَكَصُوا (٤) عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ، وَعَوَّلُوا (٥) عَلَى أَحْسَابِهِمْ (٦)»، أى أنّ هذه الأمور أدت إلى عوده بعض الناس عن الحق إلى

ص: ٨

١- (١). «أرديت» من ماده «إرداء» بمعنى إهلاك.

٢- (٢). «جيل» الجماعة والصفة والنسل.

٣- (٣). «جاوزوا» من ماده «جواز» وتعنى العبور والعدول.

٤- (٤). «نكصوا» من ماده «نكوص»، بمعنى العوده والرجوع.

٥- (٥). «عولوا» من ماده «تعويل» وهى الاعتماد والاتكال.

٦- (٦). «أحساب» جمع «حسب» على وزن «نسب» تأتي أحياناً بمعنى الفضائل التى تنسب للآباء والأجداد ويفتخر بها الإنسان، وأحياناً أخرى تعنى الصفات البارزه والملكات المشهوده للإنسان نفسه كالشجاعه والسخاء والعلم والمعرفه.

زمان الجاهليته وأعرضوا عن الإسلام والرسالة الإلهية وأخذوا يتفاخرون بالحسب والنسب كما كان العرب يتفاخرون في الجاهليته.

ونعلم أنّ معاوية كان من بقايا العصر الجاهلي، وأبوه أبوسفيان العدو الأوّل للإسلام والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأنّ غالبية الحروب والفتن ضد الإسلام كانت بقيادة أبي سفيان، وقد أعلن أبوسفيان الإسلام ظاهراً وأخذ ينتظر اليوم الذي تملك فيه بنو امية مقاليد الأمور وسيطروا على أجهزه الحكومه الإسلاميه ويجلسون مجلس النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وحينئذ يتحركون على مستوى إعادة الناس إلى قيم وثقافة الجاهليته، ويذكر التاريخ أنّ هؤلاء قد نجحوا في مسعاهم غايه النجاح، ولولا حادثه عاشوراء ومقتل الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه في كربلاء ويقظه المسلمين في ظلّ هذه الحوادث الداميه بحيث لم تستمر حكومتهم أكثر من ثمانين عاماً، فإنّه لا يعلم أحد ما سيجرى على الإسلام والمسلمين.

ثمّ يستثنى الإمام عليه السلام طائفه من أهل الشرف والدين والإيمان، هؤلاء من الذين انخدعوا بأساليب معاوية وكلامه البراق، ولكنهم عندما رأوا عن كذب أعماله وعرفوا حقيقه أمره أعرضوا عنه والتحقوا بالإمام على عليه السلام وأصحابه يقول الإمام عليه السلام:

«إِلَّا مِنْ فِئَاءٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصَائِرِ فَإِنَّهُمْ فَارَقُوكَ بَعِيدَ مَعْرِفَتِكَ وَهَرَبُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ مُوَازَرَتِكَ (١) ، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى الصَّعْبِ، وَعَيَّدْتَ بِهِمْ عَنِ الْقُصْدِ».

مفرده

«إِلَّا» استثناء من

«جيل» التي قالها الإمام عليه السلام في مطلع رساله وإشار إلى المخدوعين والمغرورين الذين تأثروا بشبهات معاوية من قبيل شبهه قتل عثمان والمطالبه بدمه وشبهات أخرى والتحقوا به، ولكنهم عندما رأوا أعماله وسلوكياته عن كذب وشاهدوا فساد أعوانه وأنهم عموماً من بقايا عصر الجاهليته أو من أبنائهم،

ص: ٩

١- (١). «مُوَازَرَهُ» من ماده «وزر» تعنى الحمل الثقيل، وإنّما سمى الوزير وزيراً لأنّه يحمل مسؤوليته ثقيله على عهده، وموازره تأتي أيضاً بمعنى المعاونه والمساعده، لأنّ الإنسان عندما يعين الشخص الآخر فإنّما يحمل قسماً من عمله ومسؤوليته على عهده.

فالتفتوا بسرعه إلى خطئهم وغفلتهم وابتعدوا عنه، هذه الفئه رغم أنهم قلّه في مقابل الكثير ممّن أتبعه، ولكن مقامهم الكريم يستوجب أن يذكرهم الإمام عليه السلام بوصفهم أهل البصائر والسائرون في طريق الحقّ والمنيبون إلى الله تعالى.

ويذكر المحقق التستري في شرحه لنهج البلاغه ذيل الخطبه ١٥٥ أسماء جماعه من أهل البصائر الذين التحقوا بالإمام على عليه السلام في معركة صفين ومنهم: ابن عم عمرو بن العاص وابن اخته شرحبيل، وعبدالله بن عمرو العنسي، وكذلك جماعه من قراء القرآن(١).

ثم إن الإمام عليه السلام في المقطع الثالث من هذه الرساله يوصي معاويه بتقوى الله ويقول:

«فَاتَّقِ اللَّهَ يَا مُعَاوِيَةَ فِي نَفْسِكَ، وَجَاذِبِ (٢) الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ (٣)، فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ، وَالْآخِرَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ، وَالسَّلَامُ».

ورغم أن معاويه بعد شهادته الإمام على عليه السلام بقي على قيد الحياه عشرين سنه، ولكن مع الالتفات إلى أن عمره ستون في ذلك الزمان الذي كتبه الإمام عليه السلام هذه الرساله فإنه قد مضى عليه الشطر الأكبر من حياته وكل شخص في مثل هذا العمر لابد أن يفكر في نهايه عمره وعاقبته.

وجمله

«وَجَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ»، تشير إلى أن معاويه قد سلّم زمام أموره بيد الشيطان، فالإمام عليه السلام يوصيه بأن يمسك زمامه ولا يترك الشيطان يقوده في دروب الضلاله والانحراف، لأنّ نهايه عمره قريبه وأهم شيء في حياه الإنسان هو حسن العاقبه حيث يمكنه حلّ مشكلاته بهذه الطريقه.

والعجب أن مثل هؤلاء الجتّارين عندما يحين أجلهم، كما هو حال فرعون عندما غمرته أمواج النيل، يتبهون من غفلتهم وفي حين أنه قد ولى وقت جبران

ص: ١٠

١- (١). انظر: شرح نهج البلاغه، للعلامة التستري، ج ١٠، ص ٢٦٩.

٢- (٢). «جَاذِبِ» صيغه أمر، يعنى مأخوذ من ماده «جذب» بمعنى جر الشيء إلى نفسه.

٣- (٣). «قِيَادًا» بمعنى زمام، وأصلها من «قياده» وهى الزعامه وتولى أمور الآخرين.

الأخطاء وتغير المسار فلا ينفع الندم والحسره، وربما لو عادوا لساروا في نفس الخط وكما يقول القرآن الكريم: «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» (١).

يقول ابن كثير في كتاب «البداهه والنهائه»: عندما اشتد المرض بمعاويه ويأس من شفائه ورأى نفسه مشرفاً على الموت أخذ ينشد هذه الآيات:

لَعَمْرِي لَقَدْ عَمَّرْتُ فِي الدَّهْرِ بُرْهَةً

وَدَانْتُ لِي الدُّنْيَا بِوَقْعِ البُوتِ

وَأُعْطِيتُ حُمْرَ المَالِ وَالْحُكْمَ وَالنَّهْيَ

وَلِي سُلِّمَتْ كُلُّ المُلُوكِ الجَبَابِرِ

فَأَضْحَى الَّذِي قَدْ كَانَ مِمَّا يَسْرُنِي

كَحُكْمِ مَضَى فِي المُرْمَنَاتِ العُوبِرِ

فَيَا لَيْتَنِي لَمْ أَعْنِ فِي المُلْكِ سَاعَةً

وَلَمْ أَسْعَ فِي لَدَاتِ عَيْشِ نَوَاصِرِ

وَكَنتُ كَذِي طِمْرَيْنِ عَاشَ بِبُلْغِهِ

فَلَمْ يَكُ حَتَّى زَارَ ضَيْقَ المَقَابِرِ

ولاء يبعد أن لقب «ذى طمرين» إشاره إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يتأسف معاويه على أنه لم يختر طريقه ولم يسلك في طريق الحق، لأن هذه الكلمه قد وردت في كلام الإمام على عليه السلام نفسه في رساله ٤٥ من نهج البلاغه حيث يقول:

«أَلَا- وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدْ اِكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرِيهِ...». ولكن التأسف والتحسر في مثل هذه المواقع كاذب، فلو زالت الأزمه وحلت المشكله لعادوا إلى حالهم السابق وتحركوا في نفس الخط.

تأمل

رسائل متواليه

يستفاد من شرح ابن أبي الحديد لهذه الرساله وجود مراسلات بين أمير المؤمنين على عليه السلام ومعاويه في هذا المقطع الزمنى

وبلغت بمجموعها خمس رسائل من قِبَل الإمام عليه السلام وأربع رسائل من قِبَل معاويه، وفي كلِّ رساله كان معاويه يزداد وقاحه وجرأه على الإمام عليه السلام، والعجيب أنه يتحدّث عن نفسه وكأنّه من أولياء الله المقربين

ص: ١١

١- (١). سورة الأنعام، الآية ٢٨.

وقد نسي ماضيه وحاضره وأخذ يتحدث في رسائله بكلمات ناييه وعبارات وقحه.

والملفت أن ابن أبي الحديد بعد نقله لهذه الرسائل يتحدث بما خلاصته:

«وأعجب وأغرب ما جاء به الدهر، وإن كانت عجائبه وبدائعه جمّه، أن يفضى أمر على عليه السلام إلى أن يصير معاويه نداً له ونصيراً مماثلاً يتعارضان الكتاب والجواب، ويتساوى فيما يواجه أحدهما صاحبه، ولا يقول له على عليه السلام كلمه إلّاقال مثلها، وأخشن مساً منها، فليت محمّداً صلى الله عليه وآله كان قد شاهد ذلك عياناً لا خبراً أنّ الدعوه التي قام بها وقاسى أعظم المشاق في تحملها، وكابد الأهوال في الذب عنها، وضرب بالسيوف عليها لتأييد دولتها وشيّد أركانها وملاً الأفاق بها، خلصت صفواً وشفواً لأعدائه الذين كذبوه لما دعا إليها، وأخرجوه عن أوطانه لما حض عليها وأدموا وجهه وقتلوا عمّه وأهله، فكأنه كان يسعى لهم، ويدأب لراحتهم كما قال أبو سفيان في أيام عثمان وقد مرّ بقبر حمزه وضربه برجله وقال: يا أبا عماره، إنّ الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمس في يد غلماننا اليوم يتلاعبون به، ثم آل الأمر إلى أن يفاخر معاويه عليّاً كما يتفاخر الأكمفاء والنضراء...».

إِذَا عَيَّرَ الطَّائِي بِالبُخْلِ مَادِرٌ

وَقَرَعَ قَسًا بِالفَهَاهِ بِاِقْلٍ

وَقَالَ السُّهَى لِلشَّمْسِ أَنْتَ خَفِيهٌ

وَقَالَ الدُّجَى يَا صُبْحَ لَوْنِكَ حَائِلٌ

وَفَاخَرَتِ الأَرْضُ السَّمَاءَ سَفَاهَهٌ

وَكَاتَرَتِ الشُّهْبُ الحِصَى وَالجِنَادِلُ

فِيَا مَوْتَ زُرْ إِنَّ الحَيَاةَ ذَمِيمَهٌ

وَيَا نَفْسُ جِدِي إِنَّ دَهْرَكَ هَازِلٌ (١)

ص: ١٢

إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكّه (١)

نظرة عامه للرساله

تشكل هذه الرساله من قسمين:

القسم الأول: يمثّل تحذيراً من الإمام عليه السلام إلى قثم بن العباس واليه على مكّه

ص: ١٣

١- (١). سند الرساله: ورد في مصادر نهج البلاغه أنّ ابن أبي الحديد وابن ميثم في شرحهما لنهج البلاغه ذكرا في شأن صدور هذه الرساله: أنّ معاويه أرسل جماعه من أهل الشام بشكل خفي إلى مكّه في موسم الحج لدعوه الناس للانضمام إليه واطاعته والتمرد على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أو تقويه هذه الشبهه في الأذهان أنّ الإمام على عليه السلام هو قاتل عثمان أو على الأقل لم يمد له العون والنصره في الموقع المناسب، وفي كلا الحالتين فإنّ علي بن أبي طالب لا يصلح لمقام الإمامه والخلافه، وكذلك يتحدّثون عن كرم معاويه وسخائه وما إلى ذلك، وعندما وصل هذا الخبر إلى الإمام على عليه السلام كتب هذه الرساله إلى واليه على مكّه قثم بن عباس وحذره من هذه المؤامره. ثمّ إنّ صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه يستنتج ممّا تقدم أنّ ابن أبي الحديد وابن ميثم كانا يملكان مصدراً آخر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣١٩)، ولكن لا يبعد أنّهما أخذوا هذا الكلام من كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي المتوفى سنة ٣١٤، حيث أورد هذا الكلام فيما يتصل بهذه الرساله (الفتوح، ج ٤، ص ٢٢٠-٢٢٢). واللافت وجود سند آخر لهذه الرساله في كتاب «الغارات» وهو كتاب الذي تمّ تأليفه في القرن الثالث وقبل ولاده السيّد الرضى بسنوات، وهو يختلف عمّا أورده السيّد الرضى، ولكنّ أساس كلا الرسالتين واحد (الغارات، ج ٢، ص ٥٠٩).

وينبهه إلى أنّ جماعه من أزلام معاويه ممن باعوا دينهم بدينهم أرسلهم معاويه في موسم الحج ليثيروا الفتنة وليعملوا على تغيير الواقع لصالح معاويه على حساب إضعاف المؤيدين للإمام عليه السلام، وقد تحدّث الإمام في هذه الرساله عن أزلام معاويه بكلمات دقيقه وبلغه حيث نجد نظائر هؤلاء في كلّ عصر وزمان وخاصّه في عصرنا الحاضر.

وفي القسم الثاني يوصيه أن يأخذ جانب الحيطة والحذر في مقابل هذه المؤامره الخطيره ولا يعمل شيئاً يحتاج بعده إلى الاعتذار وطلب الصفح.

ص: ١٤

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ عَيْنِي - بِالْمَغْرِبِ - كَتَبَ إِلَيَّ يُعَلِّمُنِي أَنَّهُ وَجَّهَ إِلَيَّ الْمَوْسِمِ أَنَسُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ الْعُمِّيِّ الْقُلُوبِ، الصُّمِّ الْأَسْمَاعِ، الْكُمِّهِ الْأَبْصَارِ، الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، وَيَحْتَلِبُونَ الدُّنْيَا دَرَهًا بِالدِّينِ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِأَجْلِ الْمَأْبُرِ الْمُتَّقِينَ؛ وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عِيَامِلُهُ، وَلَا يُجْزَى جِزَاءَ الشَّرِّ إِلَّا فَاعِلُهُ. فَأَقِمِ عَلَيَّ مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الصَّلِيبِ، وَالنَّاصِحِ اللَّيْبِ، وَالتَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ، الْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ. وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَدَرُ مِنْهُ، وَلَا تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطْرًا، وَلَا عِنْدَ الْبُأْسَاءِ فَشَلًّا، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: راقب أوضاع مكة بدقه

إشاره

كما أشرنا آنفاً أنّ هذه الرساله أرسلها الإمام عليه السلام إلى قثم بن العباس عندما وصل الخبر إلى الإمام عليه السلام من مكة من قبل بعض عيونته وجواسيسه، أنّ معاوية بعث جماعه من أهل الشام لإشاعه الأكاذيب وتسميم الأجواء ضد أمير المؤمنين عليه السلام في أيام الحج، ويستفاد من كلام ابن الأعمش الكوفي في الفتوح أنّ معاوية أرسل جيشاً مكوناً من ثلاثه آلاف رجل ومعهم العده الكامله بشكل خفي إلى مكة ليقوموا بانتفاضه عندما تسنح الفرصه المناسبه ويواجهوا أنصار الإمام على عليه السلام ويربكوا أوضاع الحج.

وكيف كان فالإمام في مستهل هذه الرساله يقول:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ عَيْنِي (١)»

ص: ١٥

١- (١). «عين» أصلها في اللغه العضو المبصر في الوجه، ولكن بما أنّ عناصر الاستخبارات في الحكومه بمثابه العين لرئيس الحكومه فاطلقت هذه الكلمه عليهم.

بِالْمَغْرِبِ (١) - كَتَبَ إِلَيَّ يُعَلِّمُنِي أَنَّهُ وُجِّهَ إِلَى الْمَوْسِمِ (٢) أَنَسٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ.

ثم يذكر صفاتهم في ثلاث جمل مختصره وأعمالهم في أربع، ويقول:

«الْعُمَى (٣) الْقُلُوبِ، الصُّمُّ (٤) الْأَسْمَاعِ، الْكُمَهْ (٥) الْأَبْصَارِ».

وهذا الكلام في الحقيقة مقتبس من الآية الشريفة في قول تعالى: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ» (٦).

وكما ورد في تفسير الآية الشريفة أيضاً أنّ طرق معرفه الإنسان ثلاثه: العقل، الذى يفكر ويتدبر به، العين التى يرى بها الحوادث المختلفه، والتجارب المتنوعه، والأذن، التى يسمع بها العلوم النقلية، والأشخاص الذين يفقدون هذه الأعضاء الثلاثه فإنّ جميع طرق المعرفه ستكون موصده أمامهم.

أجل، فمعاويه اختار هؤلاء البعيدين عن الله والأزلام الذين اختاروا الضلاله على الهدى، والدنيا على الآخرة، ومهمتهم أن يثبوا الإشاعات المغرضه والأكاذيب الملقفه ويرتكبوا ما يحلوا لهم من ذنوب وآثام للوقيعه بأتباع أميرالمؤمنين عليه السلام وإثاره الفتنة فى صفوف حجاج بيت الله الحرام.

ثم تحدّث الإمام عليه السلام عن أعمالهم وقال:

«الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ (٧) الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ،

ص: ١٦

١- (١) . «المغرب»: فى هذه العبارة تعنى الشام لأنها تقع شمال غرب العراق.

٢- (٢) . «الْمَوْسِم» من ماده «وَسَيْمَ» على وزن «رسم» فى الأصل تعنى جعل علامه، ثم اطلقت على محل الاجتماع أو زمان الاجتماع، لأنّ ذلك المحل أو الوقت علامه على ذلك التجمع، وتطلق هذه الكلمه ولا سيما فى الفقه على أيام الحج.

٣- (٣) . «العمى»، جمع «أعمى».

٤- (٤) . «الصم»، جمع «أصم».

٥- (٥) . «الكمه»، جمع «أكمه».

٦- (٦) . سوره الأعراف، الآية ١٧٩.

٧- (٧) . «يَلْتَمِسُونَ» من ماده «لَبَسَ» على وزن «حَبَسَ» وهو التشويش وخلط الأمور، و «لَبَسَ» على وزن «خُمَسَ» تعنى اللباس والملبس.

وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، وَيَحْتَلِبُونَ (١) الدُّنْيَا دَرَّهَا (٢) بِالَّذِينَ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِأَجْلِ الْآبِرَارِ الْمُتَّقِينَ».

وبديهي أنّ الأشخاص الذين يعيشون العمى فى القلب، والصمم فى الأسماع لا يتبهبون إلى هذه الأمور ومن أجل التمويه على الناس يخلطون الحقّ بالباطل، ومن أجل كسب رضا المخلوق ونيل الجوائز والعطايا لا يطيعون أمر الله ولا يمثلون لتعاليمه، ومن أجل تحصيل متاع الدنيا يبيعون رأسمالهم الدينى، هؤلاء الذين بلغ العمش فى بصيرتهم إلى درجة أنّهم لا يرون سوى دنياهم الفاتية والملذات الرخيصة ويغفلون عن الآخرة وما فيها من المواهب المعنوية والماديّة العظيمة والأبدية، ولهذا السبب لا يعيرون أهمّيه للآخرة ويبيعونها بأبخس الأثمان من أمور الدنيا.

وبديهي أنّ معاويه لا يختار أبداً الأشخاص الذين يملكون بعض الإيمان ولهم سابقه فى الإسلام لهذه لأعمال الشنيعة، بل يبحث عن الأشخاص الذين لا يملكون ذره من الإيمان أو العقل أو الوجدان، فهم عبيد وغلماان وضعوا أرواحهم فوق أكفهم سمعاً وطاعة لأوامر السلطان، وهذا هو منهج جميع حكام الجور وقوى الاستكبار والهيمنه.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام أشار إلى هذه الحقيقه، وهى أنّ كلّ إنسان يعمل الخير أو يقترب المنكر فسوف يثاب ويعاقب حسب عمله، يقول:

«وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عَامِلُهُ، وَلَا يُجْزَى جَزَاءَ الشَّرِّ إِلَّا فَاعِلُهُ».

وهذا المفهوم مقتبس من الآيات الشريفه قال تعالى: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» (٣).

وهو إشاره إلى أنّ هؤلاء عندما يتحركون فى خط خلق الفتنه وإيجاد المفسده

ص: ١٧

١- (١). «يَحْتَلِبُونَ» من ماده «حَلَبَ» على وزن «حَمَدَ» بمعنى اخراج اللبن من الضرع.

٢- (٢). «دَرَّ» بمعنى اللبن أو اللبن الكثير، وبمعناها المصدرى تعنى هطول المطر أو السوائل الأخرى.

٣- (٣). سورة الزلزله، الآيتان ٧ و ٨.

والاختلاف بين المسلمين لا ينالون في نهايه المطاف سوى الشر والفساد وسوف تصل إليهم هذه النار وتحرقهم.

ثم يخاطب الإمام عليه السلام قثم بن العباس ويقول:

«فَأَقِمْ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الصَّلِيبِ (١)، وَالنَّاصِحِ اللَّيْبِ (٢)، وَالتَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ، الْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ».

وبهذه الطريقه يثير فيه الإمام عليه السلام العزيمه والروحيه وتقويه الإراده لأداء المهمة الملقيه على عاتقه في مقابل مؤامرات معاويه وأتباعه من أهل الشام ويؤكد له ضمناً أنه مشرف وناظر لأعماله.

وبهذا البيان الموجز والعميق في محتواه يبين الإمام عليه السلام شروط القائد الموفق والوالى الناجح، كسعه آفاق التفكير، الاستقامه والصمود في مقابل الحوادث والتحديات، وحب الخير للناس، والإطاعه لإمامه ومقتداه وإمتثال أوامره، ومعلوم أن هذه الشروط إذا توفرت في كل مدير أو قائد فسوف يكون موفقاً في عمله وإدارته وباستطاعته مواجهه مؤامرات الأعداء وإحباطها.

ثم إن الإمام عليه السلام في ختام هذه الرساله يذكر تحذيراً آخر لعامله ويقول:

«وَأَيَّاكَ وَمَا يُعْتَدِرُ مِنْهُ، وَلَا تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطْراً (٣)، وَلَا عِنْدَ الْبُأْسَاءِ فَشِلاً (٤)، وَالسَّلَامُ».

ثمه مثل معروف متداول بين الناس يقولون: «إن الاعتذار لا يعيد ماء الوجه للإنسان» فصحيح أن الإنسان ينبغي أن يعتذر للطرف المقابل من خطئه وما صدر منه من خطيئه وزله، ولكن يجب الالتفات إلى أن هذا الاعتذار لا يعيد مكانه الإنسان إلى سابق عهدها، فالأفضل أن يعيش الإنسان الانتباه والحذر لئلا يضطر

ص: ١٨

١- (١). «الصَّلِيبُ» من ماده «صَلَب» على وزن «صَبَح» الشده والصلابه في كل شيء، وإنما يقال للصليب «صليب» لأنه يستخدم في صنعه أخشاب صلبه لتعليق المصلوب.

٢- (٢). «اللَّيْبُ» هو صاحب العقل والفهم، وأصلها من «لُب» وتعنى الدماغ والمخ.

٣- (٣). «بَطْرٌ» هو الشخص الغارق في النعمه، وأصلها من «بَطْرٌ» على وزن «نَظَرٌ».

٤- (٤). «فَشِيلٌ» وهو الشخص الكسول والضعيف وأصلها من «فشل» على وزن «نظر» يعنى الضعف والاستكانه أو الضعف المقترن بالخوف.

للإعتذار، وكذلك يجب أن يكون مسلطاً على نفسه ويملك شخصيته قويه بحيث لا يتأثر باقبال أو إدبار النعم الدنيويّه، ولا يكون كالأشخاص من الضعفاء النفوس بحيث يفرحون بشده لأدنى نجاح إلى درجه أنهم يخرجون عن طورهم وفي المقابل يتأثرون ويغتمون من أدنى اخفاق وفشل إلى درجه أنهم يفقدون مشاعرهم ولا يسيطرون على أنفسهم.

وعندما ننظر إلى هذه الرساله المختصره للإمام عليه السلام من موقع الدقه والعمق فسوف نرى أنها تتضمن كل شيء، وهذه آيه جليه من آيات الفصاحه والبلاغه لكلام الإمام عليه السلام وتشير إلى سعه إطلاعه ومعرفته بجميع الأمور السياسيّه والاجتماعيّه والأخلاقيه.

تأمل

من هو قثم بن العباس؟

«قثم» في الأصل «قائم» بمعنى الشخص الكريم الجواد «ثم سقطت ألفه» وهذا الاسم يعتبر بالنسبه لقثم ابن العباس اسماً على المسمى، لأنه كان من الأجاويد والكرماء المشهورين، وهو ابن عم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام وابن أخ عبدالمطلب وأمه ام الفضل لبابه بنت الحارث أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وذكروا أن أمه كانت بعد خديجه أول امرأه اعتنقت الإسلام، وجاء في كتب الرجال والتواريخ أن القثم كان رجلاً قوياً وذو فضائل، وفي زمان خلافه الإمام علي عليه السلام كان والياً على المدينه لمدّه معينه ثم صار والياً على مكّه من قبل الإمام عليه السلام وظل في هذا المنصب إلى زمان استشهاد أميرالمؤمنين عليه السلام، وفي سنه ٣٨ للهجره اختير أميراً للحجاج من قبل الإمام أميرالمؤمنين علي عليه السلام ويقال إن أميرالمؤمنين عندما ضربه ابن ملجم في محراب مسجد الكوفه، كان قثم حاضراً في المسجد وهو الذي قبض على ابن ملجم وهو يحاول الفرار.

وفى أيام معاويه بسبب صداقته مع سعيد بن عثمان والى خراسان توجه قثم إلى خراسان وحضر فى حرب ضد الكفار فى سمرقند ونال درجة الشهاده هناك(١).

ص: ٢٠

١- (١) . مكاتيب الأئمه، الاستيعاب، اسد الغابه، ولغه نامه دهخدا (بالفارسيه).

إلى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ لَمَّا بَلَغَهُ تَوَجُّدُهُ مِنْ عَزَلِهِ بِالْأَشْتَرِ

عَنْ مِصْرَ، ثُمَّ تُوْفِي الْأَشْتَرُ فِي تَوَجُّهِهِ إِلَى هُنَاكَ

قَبْلَ وُصُولِهِ إِلَيْهَا(١)

نظرة عامة للرساله

نعلم أنّ معاوية بعد قصه التحكيم كان يروم إثارة القلاقل في المناطق الخاضعة لسيطرته حكومه الإمام على عليه السلام، فكان يهجم على المناطق الحدودية من جهه، ومن جهه أخرى كان قد أعطى عهداً لعمر بن العاص بسبب خدماته الجليله له أنه إذا نجح في تولى الخلافة واستلام زمام الحكومه الإسلامية فإنه سيعطيه مصر، ومن أجل تحقيق هذه الغايه بذل هذان الرجلان جهوداً كبيره في هذا السبيل.

وكان الإمام على عليه السلام قد شعر بأنَّ مُحَمَّد بن أبي بكر واليه على مصر وإن كان رجلاً أميناً، إلّا أنّ مصر تحتاج إلى رجل أقوى وأشدّ منه وأكثر تجربه ليقف في

ص: ٢١

١- (١). سند الرسالة: نقل هذه الرسالة قبل السيد الرضى أبو الحسن المدائنى، والظاهر أنه نقلها من كتاب فتوحات الإسلام، وإبراهيم بن الثقفى فى كتاب «الغارات»، والطبرى فى تاريخه فى حوادث سنه ٣٨، والبلاذرى فى شرح حال الإمام على عليه السلام فى كتابه «أنساب الأشراف» (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٢٢).

مواجهه مؤامرات معاويه، ولذلك اختار مالك الأشتر لهذا الأمر وكتب له عهده المعروف ب «عهد مالك الأشتر».

وعندما اطلع معاويه على هذا الخبر وأنّ مالك الأشتر توجه إلى مصر أصابه القلق من ذلك ودبر له مكيدة لقتله قبل وصوله إلى مصر، فأمر أحد جواسيسه الذى كان على إرتباط وثيق بآل عمرو بن العاص، أن يقتل مالكاً بالسم بأيه صورته، فجاء هذا الرجل إلى مالك وأظهر له الموده وعزّف نفسه أنّه من شيعة الإمام على عليه السلام ومن أتباع أهل البيت عليهم السلام وتحدّث له عن فضائل الإمام وبنى هاشم إلى أن صدّقه مالك ووثق به واعتقد أنّه واقعاً من أتباع أهل البيت عليهم السلام وفى ذلك الوقت أهدى هذا الرجل طعاماً مسموماً لمالك «والمعروف أنّه كان عسلاً مسموماً» وعندما تناول مالك من هذا العسل شعر بالتسمم، وقبل وصوله إلى مصر توفى فى منطقته يقال لها «قلم».

وعندما وصل خبر تنصيب مالك الأشتر والياً على مصر إلى محمّد بن أبى بكر، بدا منه تأثراً من ذلك، فكتب له الإمام عليه السلام الرسالة أعلاه ليرفع قلقه ويزيل استياءه وأبقاه فى منصبه(١).

وعلى ضوء ذلك فإنّ الغرض من هذه الرسالة رفع ما خالج محمّد بن أبى بكر من تأثر واستياء من جراء تنصيب مالك الأشتر مكانه، وقد أكد له الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة أنّه راضٍ تماماً عن أفعاله وأنّ استبداله بمالك الأشتر لا يعنى أنّه قد قصّر فى مهمته بل لغرض كان محمّد بن أبى بكر يعلم به أيضاً، وكذلك تهدف هذه الرسالة لتقويه إرادته محمّد بن أبى بكر وتحكيم موقفه فى مقابل العدو لحفظ حكمه مصر، ويوصيه الإمام عليه السلام بالتوكل على الله والاستقامة فى طريق التصدى للأعداء.

ص: ٢٢

١- (١). اقتبس من: مصادر نهج البلاغه وكتب أخرى.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي مَوْجِدَتُكَ مِنْ تَسْرِيحِ الْأَشْتَرِ إِلَى عَمَلِكَ، وَإِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ اسْتِطَاءً لَكَ فِي الْجَهْدِ، وَلَا أَزْدِياداً لَكَ فِي الْجِدِّ وَلَوْ نَزَعْتُ مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ لَوَلَّيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَوْؤَنَهُ وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ وَلَايَهُ.

إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُ وَلِيِّتُهُ أَمْرٌ مِضِرٌّ كَانَ رَجُلًا لَنَا نَاصِحًا، وَعَلَى عِدْوَانَا شَدِيدًا نَاقِمًا، فَرَحِمَهُ اللَّهُ! فَلَقَدِ اسْتِكْمَلَ أَيَّامَهُ، وَلَا قَى حِمَامَهُ، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ؛ أَوْلَاهُ اللَّهُ رِضْوَانَهُ، وَضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ! فَأَضِجِرْ لِعِدْوِكَ، وَامْضِ عَلَى بَصِيرَتِكَ، وَشَمِّرْ لِحَرْبِ مَنْ حَارَبَكَ، وَدْعْ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ، وَأَكْثِرِ اسْتِعَانَةَ بِاللَّهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ، وَيُعِينِكَ عَلَى مَا يُنْزِلُ بِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الشرح والتفسير: تطيب خاطر محمد بن أبي بكر

لقد أشار الإمام عليه السلام في هذه الرسالة المختصره إلى عدّه نقاط مهمه فقال أولاً:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي مَوْجِدَتُكَ (١) مِنْ تَسْرِيحِ (٢) الْأَشْتَرِ إِلَى عَمَلِكَ (٣)، وَإِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ اسْتِطَاءً (٤) لَكَ فِي الْجَهْدِ، وَ لَا أَزْدِياداً لَكَ فِي الْجِدِّ».

وبهذا الكلام سعى الإمام عليه السلام لتطيب خاطر محمد بن أبي بكر وأكد له أنه راضٍ

ص: ٢٣

١- (١). «مَوْجِدَهُ» بمعنى الغضب والاستياء.

٢- (٢). «تَسْرِيحِ» ارسال الشخص لطلب شيء وأداء عمل معين، وتستعمل لكلّ تحرير وإزالة القيود، ومن هنا يطلق على الطلاق بأنه تسريح لأن الزوج يطلق ويسرح زوجته من قيود الزوجية.

٣- (٣). «عَمَلِ» في هذا المورد تعنى الولايه والاماره، ولذلك يقال للوالى أنه «عامل»، في رساله السابقه قرأنا أنها رساله من الإمام على عليه السلام إلى «قثم بن العباس» عامله على مكّه.

٤- (٤). «اسْتِطَاءً» ضد الاسراع، أى تأخر فى سيره، بطيء من ماده «بطء» على وزن «كفر».

عن عمله وأن هذا التغيير والاستبدال لا يعنى أبداً أن محمّد بن أبى بكر مقصّر فى عمله، أو أن الإمام عليه السلام مستاء منه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه مخاطباً لمحمّد بن أبى بكر لتهدئه نفسه أكثر ورفع أى التباس فى ذهنه وقال:

«وَلَوْ نَزَعْتُ مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ لَوَلَّيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَوْوَنَهُ وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ وَوَلَايَهُ».

وفى الحقيقه أن الإمام عليه السلام بذكره لهاتين النقطتين، وهما أنه راضٍ من جهه عن أعمال محمّد بن أبى بكر، ومن جهه أخرى أنه لو عزله عن موقع معين فإنه سيختار له موقعاً أفضل، وبذلك رفع أى التباس وقلق من واليه على مصر.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة أنه سيعطيه مكاناً أفضل وأيسر مؤنه، وهى ولاية حكومه خراسان أو بلاد فارس أو اليمن، لأنّ جميع مناطق البلاد الإسلاميه فى ذلك الوقت ما عدا الشام، كانت تحت حكومه الإمام على عليه السلام (١).

ثم ذكر الإمام عليه السلام السبب فى اختياره لمالك الأشر والياً على مصر، ليرفع من جهه الشبهه عن ذهن محمّد بن أبى بكر، ومن جهه أخرى يلفت نظره إلى بعض نقاط الضعف والقصور فى شخصيته ليتمكن من إصلاحها واستبدالها بنقاط قوه، يقول:

«إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُ وَلِيَّتُهُ أَمْرٌ مِصْرَ كَانَ رَجُلًا لَنَا نَاصِحًا، وَعَلَى عَدُوْنَا شَدِيدًا نَاقِمًا (٢)، فَزَحِمَهُ اللَّهُ! فَلَقَدْ اسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ، وَوَلَّيْتُ حِمَامَهُ (٣)، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ؛ أَوْلَاهُ (٤) اللَّهُ رِضْوَانَهُ، وَضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ!».

ص: ٢٤

١- (١). انظر: شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ١٤٤.

٢- (٢). «نَاقِمٌ» المنكر والمعترض، وإذا كان اعتراضه على مستوى العمل والممارسه فتعنى الانتقام من ماله «نَقَمٌ» على وزن «قلم».

٣- (٣). «حِمَامٌ» من ماله «حَمَمٌ» على وزن «غَمٌ» بمعنى الشىء المقدر، وبما أنّ الموت يعدّ تقديراً إلهياً على الإنسان فلذلك يطلق عليه الحمام.

٤- (٤). «أُولَى» من ماله «ولايه» وتعنى الشخص الذى يكلف بعمل معين أو يوضع فى اختياره شىء، وهنا جاءت بالمعنى الثانى، يعنى أنّ الله تعالى يضع رضاه وجنته التى تعتبر نتيجة رضا الله تعالى فى اختيار مالك الأشر.

والحقيقه أنّ مالك الأشرّ رحمه الله كان كذلك، بلائه المشهود في صفين ودفاعه الحاسم عن الإمام عليه السلام في مواقع مختلفه ووفاءه المطلق واستقامته في جميع الحوادث الصعبة التي وقعت في ذلك العصر، كلّها شاهد حي على صحه كلام الإمام عليه السلام في حق الأشرّ، فقد كان الأشرّ هو القائد الفذ الذي جعل جيش معاويه في صفين يصل إلى حدّ الهزيمة الكامله، ولكن مؤامره رفع المصاحف على الرماح أجهضت سعيه وأعاقت تحقيق النصر على معاويه.

يقول ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغه عند وصوله لجمله

«فَرِحَ اللَّهُ»:

«ولست أشك بأنّ الأشرّ بهذه الدعوه يغفر الله له ويكفّر ذنوبه ويدخله الجنّه، ولا فرق بينها وبين دعوه رسول الله صلى الله عليه وآله،

وَيَأْطُوبِي لِمَنْ حَصَلَ لَهُ مِنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْضُ هَذَا»^(١).

وقد تحدّث الإمام عليه السلام في رسائل عدّه في نهج البلاغه عن مالك الأشرّ بوصفه شخصيّة ممتازة وعالي الهمة، وهذا الثناء يشير إلى أنّ للأشرّ مكانه سامية عند الإمام عليه السلام الذي كان يكنّ له الحبّ والاحترام، وقد تحدّثنا في شرح الرساله ١٣ عن بعض فضائل مالك الأشرّ وامتيازاته النادره، وسنشير في ذيل هذه الرساله والرسائل أخرى أيضاً إلى أمور أخرى عن هذه الشخصيّة الإسلاميّه الفذه.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى نقطه ثالثه: ولكن الآن حيث استشهد مالك ولا أعرف أفضل منك لتولى هذا المنصب فعليك بالبقاء فيه والاستعداد لمواجهة العدو بشجاعه وبصيره:

«فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّكَ، وَامْضِ عَلَيَّ بِصِيْرَتِكَ، وَشَمِّرْ^(٢) لِحَرْبٍ مِّنْ حَارِبِكَ».

وجمله »

فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّكَ» إشاره إلى هذه النقطه، وهى أنّ الإمام عليه السلام أكد عليها في خطبه الدعوه للجهاد حيث قال:

«وَقُلْتُ لَكُمْ اعْزَوْهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْزَوْكُمْ فَوَاللَّهِ مَا غَزَى

ص: ٢٥

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٤٤.

٢- (٢). «أَصْحِرْ» فعل أمر من ماده «اصحار» وتعنى الخروج والظهور فى الصحراء.

٣- (٣). «شَمِّرْ» من ماده «تشمير»، وأصل شَمَّر على زون «تمر» وتعنى الجمع وحسب المنتوج والاستعداد لعمل معين.

قَوْمٌ قَطَّ فِي عَقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذُلُّوا».

وجمله

«وَأَمُضِ عَلَى بَصِيرَتِكَ» أمر بضروره التزام الحذر التام والانتباه الكامل فى مقابل مؤامرات العدو وأن يتحرك بدقه متناهيه لإبطال مساعيه وإجهاض مؤامرتة.

وجمله »

وَسَمَّرَ لِحَرْبٍ مَنْ حَارَبَكَ» إشاره من جهه إلى أنك لا تبدأ بالحرب، ومن جهه أخرى إذا بدأك العدو بالحرب فاستعد لدحره ودفع خطره وكن على أهبة الاستعداد بشكل دائم.

وهذه التوصيات الثلاث للإمام عليه السلام لا تخص محمّد بن أبى بكر فقط بل تشمل جميع المسلمين فى كل زمان ومكان، فإذا عملوا بها فذلك سيقودهم إلى النصر المحتم.

وفى ختام الرساله يدعوه الإمام عليه السلام للتوجه إلى الله تعالى والتوسل به فبيده مفتاح جميع المشكلات ولا يمكن تحقيق أى هدف إلا بمعونته، ويقول الإمام عليه السلام:

«وَأَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ، وَأَكْثِرِ الْأَسْتِعَانَةَ بِاللَّهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ، وَيُعِينِكَ عَلَى مَا يُنْزَلُ (١) بِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

ومعلوم أنّ مثل هذا الإيمان والاعتقاد وهذا التوجه للذات المقدّسه لا يورث الإنسان الأثر المعنوى الكبير فحسب، بل يمنحه القوه الروحيه والاستقامه فى العمل والنشاط فى المشاعر والانفتاح، وهذه هى الأمور التى تتسبب فى إنتصار جيش المسلمين على قوى الكفر والضلاله فى عصر النبى الإسلام عليه السلام فى حين أنّ المسلمين كانوا أقل عدداً وعدّه من أعدائهم.

ص: ٢٦

١- (١). «يُنْزَلُ» بصيغه فعل المضارع من باب «إفعال» وفاعلها الله تعالى، ولكن فى هذا المورد لا يتناسب هذا المعنى، ولذلك وردت هذه الجملة فى الكثير من نسخ نهج البلاغه بصيغه «نزل» وبصيغه الفعل الماضى بدون الإسناد الى الله، ولكن بعض الكتاب ذكرها بصيغه الفعل المضارع من الثلاثى المجرد، أى «ينزل» بفتح الياء لا من باب الإفعال بضم الياء.

من هو محمد بن أبي بكر؟

محمد بن أبي بكر، كما يتبين من اسمه، هو ابن الخليفة الأول، ومع إنتمائه لمثل هذا الأب، كان يعيش العشق الشديد للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ومستعد لكل أشكال التضحية في سبيله، وبدوره فالإمام علي عليه السلام أيضاً كان يعتمد على محمد بن أبي بكر اعتماداً كاملاً، ومن هذه الجهة اختاره على مصر، ولكنه استشهد على يد عمال معاوية وقد تأثر الإمام عليه السلام كثيراً بمقتله.

وسبق أن ذكرنا سيرته وترجمه حياته في ذيل الخطبه ٦٨ من الجزء الثالث من هذا الكتاب (١).

ج ج

ص: ٢٧

الرساله ٣٥: إلى عبد الله بن العباس، بعد مقتل محمد بن أبي بكر

إشاره

إلى عبد الله بن العباس، بعد مقتل محمد بن أبي بكر (١)

نظرة عامه للرساله

أشار الإمام عليه السلام في هذه الرساله الموجزه إلى ثلاث نقاط:

الأولى: أنه أبلغ ابن عباس بشهاده محمد بن أبي بكر في مصر على يد ألام معاويه وتحديث عن محمد بوصفه ابن له ورجلاً صالحاً وشجاعاً ومدافعاً عن الحق.

والثانيه: أشار الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة، وهي أنه كان يتوقع مثل هذا الأمر، وبذلك طلب من أهل العراق أن يهبوا لمساعدته محمد سرّاً وعلانيه بكل سرعه ولكن مع الأسف فإنّ العناصر الانتهازيه وأصحاب الادعاءات الجوفاء لم يصغوا إلى هذه الدعوه وبالتالي وقعت هذه المصيبه في أرض مصر واستشهد محمد على أثرها.

والثالثه: يدعو الإمام عليه السلام الله تعالى من قلب متحرق يحكى عن الحزن الشديد

ص: ٢٩

١- (١). سند الرساله: من جمله الأشخاص الذين نقلوا هذه الرساله قبل السيد الرضى، الطبرى في تاريخه بتفاوت يسير في حوادث سنه ٣٨، وكذلك إبراهيم بن هلال الثقفى في كتابه «الغارات» (نقلاً عن مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٢٦).

الذى جرح قلب الإمام عليه السلام، والإمام هنا يسأل الله تعالى أن يخلصه من هؤلاء الناس من ضعفاء الإيمان والمعرضين عن الحقّ ويقسم أنه لولا عشقه للشهادة لما أحبّ أن يبقى يوماً واحداً مع هؤلاء الناس.

ص: ٣٠

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ افْتِتِحَتْ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَدِ اسْتَشْهَدَ، فَعِنْدَ اللَّهِ نَحْتَسِبُهُ وَوَلَدًا نَاصِحًا، وَعَامِلًا كَادِحًا، وَسَيِّفًا قَاطِعًا، وَرُكْنًا دَافِعًا. وَقَدْ كُنْتُ حَشْتُ النَّاسِ عَلَى لِحَاقِهِ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ الْوُقْعَةِ، وَدَعَوْتُهُمْ سِرًّا وَجَهْرًا، وَعَوْدًا وَيَدًا، فَمِنْهُمْ الْآتِي كَارِهًا، وَمِنْهُمْ الْمُعْتَلُّ كَاذِبًا، وَمِنْهُمْ الْقَاعِدُ خَاذِلًا. أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجًا عَاجِلًا؛ فَوَاللَّهِ لَوْلَا طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عَدُوِّي فِي الشَّهَادَةِ؛ وَتَوْطِينِي نَفْسِي عَلَى الْمَيِّتِ، لَأَحْبَبْتُ أَلَّا أَلْقَى مَعَ هَؤُلَاءِ يَوْمًا وَاحِدًا، وَلَا أَلْتَقِيَ بِهِمْ أَبَدًا.

الشرح والتفسير: شكوى من الأتباع الضعفاء

كما هو الملاحظ في عنوان هذه الرسالة، أنّ الإمام عليه السلام يخاطب فيها عبد الله بن العباس، وكان في ذلك الزمان والياً من قبل الإمام عليه السلام على البصرة، وفي مطلع هذه الرسالة يخبره الإمام عليه السلام عن سقوط مصر بيد جيش معاوية واستشهاد محمد بن أبي بكر ويقول:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ افْتِتِحَتْ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَدِ اسْتَشْهَدَ، فَعِنْدَ اللَّهِ نَحْتَسِبُهُ (١)».

ص: ٣١

١- (١). «نَحْتَسِبُ» من مادة «احتساب» و«حسبه» بمعنى استلام الأجر، وعليه فإنّ «إحتساب» تأتي بمعنى طلب الأجر، رغم أنّ «إحتساب» في الأصل تعني كلّ عمل يعمله الإنسان بتيه التقرب إلى الله تعالى ويجعله في حسابه في الآخرة، ومعناه بالملازمه طلب الأجر من الله تعالى (لمزيد من الاطلاع راجع كتاب مقاييس اللغة ولسان العرب).

ثم يضيف:

«وَلَدًا (١) نَاصِحًا، وَعَامِلًا كَادِحًا (٢)، وَسَيْفًا قَاطِعًا، وَرُكْنًا دَافِعًا».

وهذه الصفات الأربع لشخصيه محمد بن أبي بكر متجليه بشكل واضح في سيرته وشخصيته وتعكس هذه العبارات عن جملة من فضائله، في البدايه يشير إلى كونه من أهل الخير وبمنزله الابن له، فمحمد لم يكن فقط الابن الروحاني للإمام على عليه السلام، بل مع الالتفات أن أمه أسماء تزوجت بعد وفاه أبي بكر من الإمام على عليه السلام وكان محمد قد تربى في حجر الإمام عليه السلام فإنه يعدّ بمثابة الابن للإمام عليه السلام (٣).

ثم يشير الإمام إلى صفة العامل الكادح لمحمد في منصب الوالي على مصر وأنه كان ماضى الهمه وشديد العزيمه ومدبراً خبيراً، ثم يتعرض الإمام عليه السلام لمواقف محمد في مقابل الأعداء ويقول عنه أنه كان سيفاً قاطعاً، وركناً دافعاً، وبعد ذلك يشير الإمام عليه السلام إلى لجوء محمد باتخاذ تدابير دفاعيه في مقابل هجوم الأعداء والحوادث المؤسفة ويشبهه بالعمد القوى والأساس الصلب والركن الدافع الذي يمنع البناء من الإنهيار ويدفع عنه البلايا والأخطار.

ومن أجل أن لا يتوهم أحد أن الإمام عليه السلام قصّر في الدفاع عن محمد بن أبي بكر وحفظه يقول:

«وَقَدْ كُنْتُ حَثَّتُ (٤) النَّاسَ عَلَى لِحَاقِهِ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ الْوُقْعَةِ (٥)، وَدَعَوْتُهُمْ سِرًّا وَجَهْرًا، وَعَوْدًا وَيَدًا (٦)، فَمِنْهُمْ الْآتِي كَارِهًا، وَمِنْهُمْ

ص: ٣٢

١- (١). «وَلَدًا» ذكر البعض أن ولداً منصوب بوصفه عطف بيان، والبعض الآخر ذهب إلى أنه بدل من ضمير المفعول في «نحتسبه»، ولكن لا يمكن أن يكون مفعولاً ثانياً لنحتسب، لأن معنى الجملة سيتبدل.

٢- (٢). «كَادِحٌ»، وهو الشخص الذي يبذل الكثير من الجهد والسعي، وأصلها من «كدح» على وزن «مدح» بمعنى السعي الحثيث والعمل الجاد.

٣- (٣). وأمّ محمد أسماء بنت عميس الخثعميه وهي اخت ميمونه زوج النبي صلى الله عليه وآله، وأخت لبابه ام الفضل وعبدالله زوج العباس بن عبدالمطلب، وكانت من المهاجرات الى أرض الحبشه، وهي إذ ذاك تحت جعفر بن أبي طالب فولدت له هناك محمد بن جعفر، عبدالله، عوناً، ثم هاجرت المدينه، فلما قتل جعفر تزوجها أبوبكر، فولدت له محمد بن أبي بكر هذا، ثم مات أبوبكر فتزوجها الإمام على عليه السلام وولدت له يحيى بن على ولا خلاف في ذلك. (شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٤٢).

٤- (٤). «حَثَّتُ» بمعنى التشويق والإثارة.

٥- (٥). «الْوُقْعَةُ»، الحادثه، وأحياناً تأتي بمعنى وقوع الحرب والقتال، وهنا قصد منها المعنى الثاني.

٦- (٦). «عَوْدًا» و «يَدًا» تعنى كما ورد في بعض كتب اللغه أولاً وآخراً، وفي بعضها بمعنى تكرار الشيء، وهنا يحتمل فيها كلا المعنيين.

الْمُعْتَلِّ (١) كَاذِبًا، وَمِنْهُمْ الْقَاعِدُ خَاذِلًا (٢)».

وينقل الطبري في تاريخه في حوادث سنة ٣٨ أنّ الإمام عليه السلام في هذه الأثناء دعا أهل الكوفة إلى التجمع: فقام عليّ بالناس وقد أمر فنودي الصلاة الجامعه، فاجتمع الناس فحمد الله وأثناء عليه وصلى على محمد صلى الله عليه وآله، ثم قال:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ هَذَا صِرِيحُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ وَأَخْوَانِكُمْ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ قَدْ سَارَ إِلَيْهِمْ ابْنُ النَّبِغَةِ عَدُوُّ اللَّهِ وَوَلِيُّ مَنْ عَادَ اللَّهَ، فَلَا يَكُونَنَّ أَهْلُ الضَّلَالِ إِلَى بَاطِلِهِمْ وَالرُّكُونِ إِلَى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ أَشَدُّ إِجْتِمَاعًا مِنْكُمْ عَلَى حَقِّكُمْ هَذَا، فَإِنَّهُمْ قَدْ بَدَأُواكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ فِي الْغَزْوِ فَعَجَّلُوا إِلَيْهِمُ الْمَوَاسِيَةَ وَالنَّصَرَ عِبَادُ اللَّهِ إِنَّ مِصْرَ أَعْظَمَ مِنَ الشَّامِ وَأَكْثَرَ خَيْرًا وَخَيْرَ أَهْلًا- فَلَا تُغْلَبُوا عَلَى مِصْرَ فَإِنَّ بَقَاءَ مِصْرَ فِي أَيْدِيكُمْ عَزٌّ لَكُمْ وَكِبْتُ لِعَدُوِّكُمْ اخْرُجُوا إِلَى الْجُرْعَةِ بَيْنَ الْحِيرَةِ وَالْكُوفَةِ، فَوَافُونِي بِهَا هُنَاكَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

ثم يضيف الطبري: فلما كان من الغد خرج يمشى فنزلها بكره، فأقام بها حتى التصق النهار يوم ذلك فلم يوافيه منهم رجل واحد، فرجع، فلما كان من العشي بعث إلى أشرف الناس فدخلوا عليه القصر وهو حزين كئيب فقال:

«الْحَمِيدُ لِلَّهِ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ وَقَدْ قَمَدَرَ مِنْ فِعْلٍ وَابْتَلَانِي بِكُمْ أَيُّهَا الْفُرْقَةُ مِمَّنْ لَا يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ وَلَا يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ، لَا أَبَا لِعَيْرِكُمْ مَاذَا تَنْتَظِرُوا بِصَبْرِكُمْ وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ».

(والقسم المهم من هذه الخطبه أوردناه في ١٨٠ من الجزء السادس من هذا الكتاب).

وينقل الطبري في قسم آخر من كلامه هذا الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قاله بعد استشهاد محمد بن أبي بكر حيث أخذ يوبخ أتباعه بشده ويقول:

«دَعَوْتُكُمْ إِلَى غِيَاثِ إِخْوَانِكُمْ مُنْذُ بَضْعِ وَخَمْسِينَ لَيْلَةً فَتَجَرَّجْتُمْ جَرَجْرَةَ الْجَمَلِ

ص: ٣٣

١- (١) . «الْمُعْتَلِّ» تعنى المريض، وأحياناً تعنى الشخص الذى يعتذر لفعله ويأتى بمبررات لتسويغ فعله.

٢- (٢) . «خَاذِلٌ» وهو الشخص الذى يمتنع من مدّ يد العون إلى الآخر وبالتالي يؤدّى إلى ذلّه ومهانته الطرف المقابل.

الأشدقِ وَتَثَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ تَثَاقُلٌ مَنْ لَيْسَ لَهُ تُبَىٰ فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ وَلَا اِكْتِسَابِ الْأَجْرِ...» (١).

وهذه الطوائف الثلاث الذين يتحدث عنهم الإمام عليه السلام لا ينحصر تواجدهم في ذلك العصر، توجد مثل هذه الشخصيات الهزيلة والنفوس المريضة في كل عصر وزمان وينخرطون في أحد هذه الطوائف الثلاث، فالأشخاص الذين يواجهون المصاعب ويحضرون إلى الميدان كارهين لا- يوفقون للقيام بأى عمل إيجابى، والفئة الثانية هم الذين ينسلون من ميدان المواجهات بتبريرات وأعدار مختلفة لابعاد أنفسهم عن مواجهه العدو، والفئة الأخيرة هم الذين يخالفون الحضور فى الميدان بصراحه ويحرضون الناس على القعود معهم، فالويل للمجتمع الذى تكون فيه الغالبية من الناس من هذه الطوائف الثلاث، فمهما اوتى القاده لهذا المجتمع من قدره وعزم وحنكه فى إداره الأمور فإِنَّهم وبسبب عدم توفر الأنصار والأتباع الذين يعيشون روح التضحية والشجاعه والمسؤولية، فإنهم لا يحققون أى نتيجة لمجتمعهم ولا ينجحون فى تجسيد طموحاتهم وتطلعاتهم على أرض الواقع المجتمعى.

إنَّ التدبّر فى الآيات القرآنية يرشدنا إلى أنّ هذه الطوائف الثلاث كانت موجوده أيضاً فى عصر رسول الله صلى الله عليه وآله، رغم أنّ جماعه المؤمنين المخلصين كانت هى الغالبه.

يقول القرآن الكريم بالنسبه للطائفة الأولى فى ذلك العصر: «يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعِيدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ» (٢).

وفيما يخص الطائفة الثانية يستعرض القرآن الكريم قضايا معركة الأحزاب ويقول: «وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا» (٣).

أما بالنسبه للطائفة الثالثة فيقول: «فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ

ص: ٣٤

١- (١). تاريخ الطبرى، ج ٤، ص ٨١-٨٣.

٢- (٢). سورة الأنفال، الآية ٦.

٣- (٣). سورة الأحزاب، الآية ١٣.

وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَاتَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ»(١).

ثم إن الإمام عليه السلام ينطلق بالدعاء ويتوجه إلى الله تعالى من أعماق قلبه ويسأله أن يخلصه من هذا الواقع الأليم:

«أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجًا عَاجِلًا».

ولغرض التأكيد على هذه الحقيقة يضيف الإمام عليه السلام:

«قَالَ اللَّهُ لَوْلَا - طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عِدْوِي فِي الشَّهَادَةِ؛ وَتَوَطُّبِي (٢) نَفْسِي عَلَى الْمَنِيِّ، لَمَا حَبِطَ أَلَّا أَلْقَى مَعَ هَؤُلَاءِ يَوْمًا وَاحِدًا، وَلَا أَلْتَقَى بِهِمْ أَبَدًا».

إن نذاله هؤلاء الأتباع وخستهم وصلت إلى درجة أن الإمام عليه السلام بما يملك من صبر واستقامه بحيث بقي خمس وعشرين عاماً في زاوية البيت وفي الحلق شجي وفي العين قذى كما يقول الإمام عليه السلام نفسه وقد تحمل ذلك، ولكن في هذه المدّة القصيره من خلافته واجه الإمام عليه السلام ضغوطات وصعوبات بحيث إنه تمنى أن لا يلقى مع هؤلاء الناس ولا يوماً واحداً، وما يدعوه للبقاء معهم هو شوق الشهادة في سبيل الله تعالى.

ومثل هذا الكلام ذكره الإمام عليه السلام في الخطبه ١١٩ حيث قال:

«وَاللَّهِ لَوْلَا - رَحَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعِدْوِ - وَلَوْ قَدَّ حُمَّ لِي لِقَاؤُهُ - لَقَرَّبْتُ رِكَابِي ثُمَّ شَخَّصْتُ عَنْكُمْ فَلَا أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ...».

تأمل

روعه البلاغه في هذه الرسالة

تعتبر هذه الرسالة من أفصح وأبلغ رسائل وكتب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والتي كتبها بعبارات موجزه وكلمات بليغه بحيث أدى حقّ المطلب تماماً.

وقد تأثر ابن أبي الحديد كثيراً بفصاحه وبلاغه هذه الرسالة فقال في شرحه لهذه

ص: ٣٥

١- (١). سورة التوبه، الآية ٨١.

٢- (٢). «تَوَطُّبِي» تعني تهيئه الشيء، وأصلها من «وطن» على وزن «بطن» وتعني اختيار الوطن، وبما أن كل إنسان عندما يختار محلاً للسكن فإنما يهييء نفسه للحياه في ذلك المكان، فالتوطين يعنى التهيؤ.

الرساله: «انظر إلى الفصاحه كيف تعطى هذا الرجل قيادها، وتملكه زمامها، وأعجب لهذه الألفاظ المنصوبه يتلوا بعضها بعضاً كيف تواتيه وتطاوعه، سلسله سهله تتدفق من غير تعسف ولا تكلف، حتى انتهى إلى آخر الفصل فقال:

«يَوْمًا وَاحِدًا، وَلَا أَلْتَقِي بِهِمْ أَبَدًا». وأنت وغيرك من الفصحاء إذا شرعوا في كتاب أو خطبه جاءت القرائن والفواصل تاره مرفوعه، وتاره مجروره، وتاره منصوبه، فإن أرادوا قشِيرَهَا بإعراب واحد ظهر منها في التكلف أثرٌ بين، وعلامه واضحه، وهذا الصنف من البيان أحد أنواع الإعجاز في القرآن، ذكره عبدالقاهر، قال: انظر إلى سوره النساء وبعدها سوره المائده، الأولى منصوبه الفواصل، والثانيه ليس فيها منصوب، ولو مزجت إحدى السورتين بالأخرى لم يمتزجا، وظهر أثر التركيب والتأليف بينهما.

ثم إن فواصل كل واحد منهما تنساق سياقه بمقتضى البيان الطبيعي لا الصناعه التكلفيه، ثم انظر إلى الصفات الموصوفات في هذا الفصل، كيف قال:

«وَلَدًا نَاصِحًا»،

«وَعَامِلًا كَادِحًا»، «وَسَيِّفًا قَاطِعًا»، «وَرُكْنًا دَافِعًا»، لو قال: «ولدًا كادحًا» و «عاملاً ناصحًا»، وكذلك ما بعده لما كان صواباً، ولا في الموقع واقعاً، فسبحان الله من منح هذا الرجل هذه المزايا النفيسه والخصائص الشريفه! أن يكون غلاماً من أبناء عرب مكه، ينشأ بين أهله، لم يخالط الحكماء، وخرج أعرف بالحكمه ودقائق العلوم الإلهيه من إفلاطون وأرسطو، ولم يعاشر أرباب الحكم الخلفيه والآداب النفسانيه، لأن قريشاً لم يكن أحد منهم مشهوراً بمثل ذلك، وخرج أعرف بهذا الباب من سقراط، ولم يرب بين الشجعان، لأن أهل مكه كانوا ذوى تجاره، ولم يكونوا ذوى حرب، وخرج أشجع من كل بشر مشى على الأرض، قيل لخلف الأحمر(1): أيما أشجع عنبسه وبسطام أم على بن أبى طالب؟ فقال: إنما يذكر عنبسه وبسطام مع البشر والناس، لا مع من يرتفع عن هذه الطبقة، فقيل له: فعلى كل حال، قال: والله لو صاح في وجوهها لماتا قبل أن يحمل عليهما، وخرج أفصح سحبان

ص: ٣٦

١- (١). خلف الأحمر من علماء القرن الثاني للهجره وهو صاحب اليد الطولى فى الشعر والأدب والتاريخ.

وُقِسَّ، ولم تكن قريش بأفصح العرب، كان غيرها أفصح منها، قالوا: أفصح العرب جُزْهم وإن لم يكن لهم نَبَاهه، وخرج أزهـد الناس في الدنيا، وأعفَّهم، مع أن قريشاً ذوو حرص ومحَبَّة للدنيا، ولا غرو فيمن كان محمّـد صلى الله عليه و آله مربّيه ومخرُجه، والعناية الإلهية تمده، وترفُده أن يكون منه ما كان»(١).

ص: ٣٧

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٤٥ و ١٤٦ (مع التلخيص).

إلى أخيه عقيل بن أبي طالب، في ذكر جيش أنفذه إلى بعض الأعداء وهو جواب كتاب كتبه إليه عقيل (١).

نظره عامه للرساله

ورد في المصادر التاريخيه في قصه هذه الرساله أن معاويه بعد واقعه التحكيم سمع أن الإمام على عليه السلام عازم مره أخرى على مواجهته وقتاله، فخاف خوفاً شديداً وأخذ يعمل في إضعاف معنويات أهل الكوفه والعراقيين من خلال برنامج إعلامي مدروس ومن ذلك أنه أرسل الضحاك بن قيس مع ثلاثه آلاف نفر إلى العراق وقال له: «سرّ حتى تمر بناحيه الكوفه وترتفع عنها ما استطعت، فمن وجدته من الأعراب في طاعه عليّ فأغر عليه، وإن وجدته له مصلحه (أي معهم السلاح) أو خيلاً فأغر عليها، وإذا أصبحت في بلده فأمسي في أخرى، ولا تقيمن لخييل وبلغك أنها

ص: ٣٩

١- (١). سند الرساله: جاء في مصادر نهج البلاغه أن هذه الرساله نقلها قبل السيد الرضى، إبراهيم بن الثقفي في كتابه «الغارات»، وأبو الفرج الاصفهاني في كتاب «الأغانى» وابن قتيبه الدينورى في كتاب «الإمامه والسياسه». (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٣٢). وتقدّم شرح أكثر عن سند هذه الرساله فيما يتصل بالخطبه ٢٩ للإمام على عليه السلام في الجزء الثاني من هذا الكتاب (نفحات الولاية، ج ٢، ص ١٣٥).

سرحت إليك لتلقاها فتقاتلها».

فأقبل الضحاك ونهب الأموال وقتل من لقي من الأعراب...

فوصلت أخبار حملة الضحاك إلى عقيل وهو في مكه، فقلق من ذلك وكتب كتاباً لأخيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حين بلغه خذلان أهل الكوفة وتقاعدهم عنه:

«لعبدالله على أمير المؤمنين من عقيل بن أبي طالب، سلام عليك فياني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن الله حارسك من كل سوء، وعاصمك من كل مكروه، وعلى كل حال إنني فقد خرجت إلى مكه معتمراً فلقيت عبدالله بن سعد بن أبي سرح، في نحو من أربعين شاباً من أبناء الطلقاء، - عرفت المنكر في وجوههم - فقلت إلى أين يا أبناء الشائين، أبعوايه تلحقون؟ عداوه والله لنا منكم قديماً ظاهره غير مستنكره، تريدون بها اطفاء نور الله، وتبديل أمره فأسمعني القوم وأسمعهم.

ثم قدمت مكه فسمعت أهلها يتحدثون: أن الضحاك بن قيس أغار على الحيره، فاحتمل من أموالها ما شاء ثم إنكفاً راجعاً سالمًا، فأف لحياء في دهر جرأت عليك الضحاك، وما الضحاك! إلفقع بقرقر وقد وطئت، وقد توهمت - حيث بلغني ذلك - أن شيعتك وأنصارك خذلوك، فاكتب إلي - يابن امي - برأيك، فإن كنت الموت تريد تحملت إليك بولد أخيك، وولد أبيك، فعشنا معك ما عشت ومنتنا معك إذا مت، فوالله ما أحب أن أبقى في الدنيا بعدك فواقاً، وأقسم بالأعز الأجل إن عيشاً أعيشه بعدك في هذه الدنيا لغير هنيء ولا مرىء، ولا نجيع، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته» (١).

فكتب إليه الإمام عليه السلام هذه الرسالة جواباً له واطمئنه على أن جيش الضحاك قد هرب مولياً ومُنَى بهزيمة منكره وقتل منهم من قتل، فسّر عقيل لذلك.

والملفت للنظر أن مؤلف كتاب مصادر نهج البلاغه بعد أن يورد هذه الرسالة (رساله عقيل للإمام عليه السلام) يقول: مع الأخذ بالحسبان أنها وقعت في أواخر عمر الإمام على عليه السلام وأن عقيل قد كتب هذه الرسالة له وبث فيها من شجونه وعواطفه مما

ص: ٤٠

١- (١). مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٢٩ و ٣٣٠.

يحكى عن محبته شديده وطاعه مطلقه لأوامر أخيه الإمام على عليه السلام، فما يقال من أنّ عقيل ترك أخيه أمير المؤمنين عليه السلام والتجأ إلى معاويه، ادّعاء محض وأكذوبه فاضحه.

وتشير هذه الرساله إلى عدّه أمور:

١. هجوم جماعه من أتباع معاويه على أطراف الكوفه ومواجهتهم لجيش الإمام على عليه السلام الذى أدى إلى إندحارهم وفرارهم.

٢. شكوى الإمام عليه السلام من قريش وأنهم هم الذين وقفوا فى مواجهه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله والرساله الإلهيه واتحدوا ضد الرساله الإلهيه وأنهم اتفقوا على معاداه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

٣. رأى الإمام عليه السلام بالنسبه للأشخاص الذين نكثوا بيعته والتحقوا بعدوّه وأنه يجب التصدى لهم وجهادهم إلى أن يعودوا إلى الحقّ.

٤. التذكير بهذه الحقيقه، وهى أنّ إقبال وإدبار الأفراد لا يؤثر على روحياته ومعنوياته، فهو صامد كالجبل الشامخ فى مقابل الأعداء ولا يابه لكثره التحديات والمؤامرات ولا يضعف لما يواجهه من مصائب ومصاعب.

ص: ٤١

فَسَيَرَّحْتُ إِلَيْهِ جَيْشًا كَثِيفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ شَمَّرَ هَارِبًا، وَنَكَصَ نَادِمًا، فَلَحِقُوهُ بِيَعْضِ الطَّرِيقِ، وَقَدْ طَفَلَتِ الشَّمْسُ لِلْبَابِ فَاقْتَتَلُوا شَيْئًا كَلًّا وَلَا، فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتَّى نَجَا جَرِيضًا بَعِيدَ مَا أَخَذَ مِنْهُ بِالْمَخْنَقِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ الرَّمَقِ، فَلَأْيًا بِلَأْيٍ مَيَّا نَجَا. فَمَدَّ عُنُقَكَ قُرَيْشًا وَتَرَكَاضَهُمْ فِي الضَّلَالِ وَتَجَوَّأَهُمْ فِي الشَّقَاقِ وَجَمَّاحَهُمْ فِي التِّيهِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَيَّ حَزْبِي كَأَجْمَاحِهِمْ عَلَيَّ حَزْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَتِيلِي، فَجَزَتْ قُرَيْشًا عَنِّي الْجَوَازِي! فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَسَيَلَبُونِي سَيَلْطَانَ ابْنِ أُمِّي.

الشرح والتفسير: قصة الضحاک بن قيس

كما رأينا آنفًا أنّ هذه الرسالة عبارة عن جواب من الإمام عليه السلام لأخيه عقيل بن أبي طالب فيما يتصل بحمله الضحاک بن قيس على أطراف الكوفة وهزيمتهم وفرارهم، ومن هنا فإنّ الضمير في «إليه» يعود إلى الضحاک، رغم أنّ بعض شراح نهج البلاغه يعتقدون أنّ هذه القصة تتعلق بحمله «بسر بن ارباط» على اليمن، والأعجب من ذلك أنّ بعضهم ذهب إلى أنّ الضمير يعود إلى معاوية في حين أنّ كلا هذين المعنيين بعيدان عن الصواب.

وعلى أية حال، فالإمام عليه السلام في مطلع هذه الرسالة، الذي حذفه السيّد الرضى اختصاراً (وطبقاً لما ورد في كتاب تمام نهج البلاغه ومصادر نهج البلاغه) بعد أن حمد الله أثنى عليه ودعا بالخير لعقيل أعلن له أنّ رسالته وصلت إليه بواسطة

عبدالله بن عبيد الأزدى وفهم منها الإمام عليه السلام قلق عقيل من حملة الضحاك على أطراف الكوفة.

ومن أجل رفع هذا القلق كتب الإمام عليه السلام هذه الرسالة لأخيه عقيل يشرح له حادثه حملة جيش معاويه بقياده الضحاك ويقول له:

«فَسَرَّحْتُ (١) إِلَيْهِ جَيْشًا كَثِيفًا (٢) مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ شَمَّرَ هَارِبًا، وَنَكَصَ (٣) نَادِمًا، فَلَحِقُوهُ بِنِعْضِ الطَّرِيقِ، وَقَدْ طَفَلَتِ الشَّمْسُ لِلْإِيَابِ».

«كثيفاً» يعنى المزدحم والجمع الغفير، وطبقاً لبعض الروايات فإن عدد جيش الإمام عليه السلام فى هذه الحمله أربعة آلاف نفر من الرجال المستعدين لانزال العقاب بالأعداء والذين ينقضون كالصقر، ولهذا السبب قرر أزالام معاويه وثلول الضحاك الفرار على القرار وندموا على هجومهم وعدوانهم على أطراف الكوفه، ولكن جيش الإمام عليه السلام ظل يتعقبهم إلى أن أوشكت الشمس على المغيب، حيث يبين الإمام عليه السلام فى العبارات اللاحقه أخطار هذه المواجهه.

وعبارہ

«مِنَ الْمُسْلِمِينَ» إشعار إلى أن الجيش المعادى وقائدهم الأصلي فى الشام ليسوا من المسلمين.

وجملہ

«شَمَّرَ هَارِبًا» يقصد بها السخريه من الضحاك، لأن شَمَّرَ تأتي عاده بمعنى الشخص الذى يرفع كميته استعداداً للقيام بعمل مهم لا للفرار والنكوص وهو ما اختاره الضحاك فى هذه المواجهه الحاسمه.

وجملہ »

طَفَلَتِ الشَّمْسُ» مع الأخذ بنظر الاعتبار أن «طفول» بمعنى الاقتراب، فالجمله إشاره إلى أن الجيشين التقيا عندما أوشكت الشمس على الأفول فى الأفق، والتعبير بـ «

الْإِيَابِ» كناية عن أن الشمس تطلع فى الصباح الباكر وكأنها تخرج من

ص: ٤٤

١- (١). «سَرَّحَ» من ماده «تسريح»، وكما تقدّم فى شرح الرساله ٣٤ أنّها تعنى ارسال شخص لعمل معين، وتستعمل أيضاً بمعنى مطلق الارسال والتحرير.

٢- (٢). «كثيف» يعنى الغليظ والكثير الملتف، وأصلها من «كثافه».

٣- (٣). «نَكَصَ»، من ماده «نكص» على وزن «مكث»، والنكوص يعنى التراجع والعوده.

مقرها وفي وقت العصر تعود إلى مكانها الأول، وهذا تعبير لطيف عن ظاهره غروب الشمس.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه عن هذه الواقعة ويقول:

«فَأَقْتَتَلُوا شَيْئًا كَلَّا وَلَا، فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتَّى نَجَا جَرِيضًا (١) بَعْدَ مَا أَخَذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ (٢)، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ الرَّمَقِ، فَلَأْيًا بَلَّأِي مَا نَجَا».

والجدير بالذكر أننا أشرنا إلى هذه الواقعة ذيل الخطبه ٣٩، وهذه الرساله متناغمه مع مضامين تلك الخطبه.

وعباره

«كَلَّا- وَلَا» تعنى أنّ هذا العمل تمّ انجازه بسرعه وانسجام تام كما فى لفظه «لا ولا»، وفى بعض عبارات العرب يقال: «لا وذا»، وكليهما إشاره إلى المدّه القصيره من الزمان، كما يقال فى المثل: «كلمح البصر».

وعباره

«بَعِيدَ مَيَا أَخَذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ»، والمخنق تعنى ما يشير إلى الرقبه والحجره التى تتعرض للخنق بضغط يسير، وهو إشاره أنّ جيش الإمام عليه السلام أوصلوا الضحاك وجيشه إلى حدّ الموت بحيث لم يبق منهم سوى رمق ضئيل، وهذه العبارة متداوله فى اللغه العربيه وفى اللغات الأخرى فعندما يواجه الشخص على رقبته ضغوطاً شديده يقال إنّه بلغ به الخناق، أو ضيق عليه الخناق.

واللافت أنّ إبراهيم الثقفى ينقل فى كتابه «الغارات» واقعه معينه تتضمن تفسيراً وشرحاً لعباره الإمام عليه السلام فى قوله:

«وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ الرَّمَقِ»، ويقول: عندما هرب الضحاك من «حجر بن عدى» قائد جيش الإمام على عليه السلام شعر بالعطش الشديد، لأنّه أضلّ إبله التى تحمل الماء، وعرضت عليه سنه من النوم فى ذلك الوقت، وبذلك انحراف عن الطريق، وعندما انتبه من نومه لم يجد من جيشه سوى عدّه نفر ولم

ص: ٤٥

١- (١). «جَرِيضٌ» هو شخص المختنق من شدّه الحزن أو الهيجان.

٢- (٢). «الْمُخَنَّقُ» هو محل الخنق، من ماده «خنق» على وزن «حرب» وهو الضغط على المخنق أو ضغط رقبه الشخص.

يكن معهم شيء من الماء، فأرسل بعضهم لطلب الماء ولكنهم لم يعثروا على شيء، وفجأ ظهر رجل وقال له الضحاك: يا عبدالله أنتى عطشان فاسقنى، فقال: والله لا أسقيك حتى تدفع لى ثمنه، فقال الضحاك: وما ثمنه؟ فقال: ثمن الماء دينك، ثم واصل حكاية القصة إلى وصلوا لجماعه كان معهم الماء وشربوا منه(١).

وعباره

«لَا يَأْتِي بَلَاءٌ»، ومع الالتفات أن لأى تعنى الشده، فمفهوم هذه العبارة أن الضحاك ومن بقى معه من فلول جيشه واجهوا الشده بعد الشده إلى أن نجوا بجلودهم من الهلكه.

ثم يشير الإمام عليه السلام فى مقطع آخر من رسالته لعقيل أن عبدالله بن سعد، أخ عثمان بن عفان من الرضاعه، كان يسير مع أربعين رجلاً من شباب قريش باتجاه غير معلوم، فسأله عقيل: إلى أين تذهبون يا أبناء أعداء النبى، هل تريدون للحاق بمعاويه؟ هنا يقول الإمام عليه السلام: وأما حديثك عن مخالفه قريش لى فإن قريش بجميع مساعيها فى طريق الضلال والشرك والعداء لا زالوا يتحركون فى متاهات الضلاله والشقاق:

«فَدَعَّ عَنْكَ قُرَيْشًا وَتَرَكَاصَهُمْ(٢) فِي الضَّلَالِ وَتَجَوَّاهُمْ(٣) فِي الشَّقَاقِ(٤) وَجَمَّاحَهُمْ(٥) فِي التَّيِّهِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِي كَأَجْمَاهُمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَبْلِي».

ثم يضيف:

«فَجَزَتْ قُرَيْشًا عَنِّي الْجَوَازِي! فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَسَلَبُونِي سُلْطَانَ ابْنِ أُمِّي».

جمله:

«فَجَزَتْ قُرَيْشًا عَنِّي الْجَوَازِي!»، مع الالتفات إلى أن الجوازي جمع جازيه، وتعنى الجزاء والمكافأه على العمل، فمفهوم الجمله أن جزاء أعمال قريش

ص: ٤٦

١- (١). الغارات، ج ٢، ص ٤٣٩.

٢- (٢). «تَرَكَاصٌ» هو الرخص الشديد، من ماده «رخص» على وزن «ضرب»، والتركاخص صيغه مبالغه للرخص.

٣- (٣). تجوال، بمعنى كثره الجولان والتراخص فى الميدان.

٤- (٤). الشقاق، بمعنى العداوه والمخالفه والانفصال.

٥- (٥). «الجماح» بمعنى التمرد، و «جموح» على وزن «قبول» وأصله بمعنى الحيوان المتمرد والمنفلت، ثم استعملت فى الإنسان المتمرد والحوادث التى ليست باختيار الإنسان وإرادته إطلاقاً.

سيصيبهم عمًا قريب وسواجهون عاقبه أعمالهم السيئه هذه، وهذه الحقيقه بمثابه الدعاء عليهم لأنهم لم يراعوا حق رحمة وقرابته منهم ولم يسمحوا للإمام عليه السلام بتسلم مقاليد الخلافه التي قررها الله تعالى له عليه السلام وأكد عليها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والضامنه لسعاده المسلمين فى الدنيا والآخره.

أجل، هؤلاء كانوا فى عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من ألد أعدائه وأعداء الرساله السماويه وكانوا يشعلون نيران الحروب ضد الإسلام وكانت قريش المحور لهذه الفتن والحروب وتترعم هذه الحروب وكانت آخر من أسلم أو استسلم للنبي الأكرم عليه السلام فى حين أن إسلام الكثير منهم يعدّ إسلاماً صورياً لا حقيقياً.

وبعد رسول الله صلى الله عليه وآله سلكوا ذات الطريق والمنهج مع خليفته ووصيه الإمام على بن أبى طالب عليه السلام، بل إنهم كانوا أشدّ وأنكى على الإمام عليه السلام لما كانوا يعيشونه من حالات الحقد والانتقام ضده.

ونقرأ فى الحديث الشريف للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال يوماً مخاطباً لعلى بن أبى طالب عليه السلام وهو يبكى ويذرف الدموع:

«ضَعَايُنُ فِي صُدُورِ أَقْوَامٍ لَا يُبَدُّونَهَا لَكَ إِلَّا مِنْ بَعْدِي» (١).

وقد أوردنا فى ذيل الخطبه ١٧٢ من الجزء الثالث من هذا الكتاب فى بيان شكوى الإمام عليه السلام إلى الله تعالى من قريش، بحثاً مفصلاً عن عداوه قريش للإمام على عليه السلام.

وعبارهُ

«ابْنِ أُمِّي»، عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله و آله إماماً من جهة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله والإمام على عليه السلام كليهما من أبناء فاطمه المخزوميه بنت عمرو بن عمران ام عبدالله والـد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأم أبى طالب (والد أميرالمؤمنين) أو من جهة أنّ فاطمه بنت أسد ام أميرالمؤمنين عليه السلام وكان فى ذاك زمان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله و آله تحت تكفل أبى طالب وقامت بتربيته النبي الأكرم صلى الله عليه وآله و آله كأمه، ولذلك قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله و آله عنها: «فَاطِمَةُ أُمِّي بَعْدَ أُمِّي».

ص: ٤٧

١- (١). مجمع الزوائد، الهيثمى، ج ٩، ص ١١٨؛ كنز العمال، ج ١٣، ص ١٧٦، ح ٣٦٥٢٣.

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي الْقِتَالِ، فَإِنَّ رَأْيِي قِتَالُ الْمُحِلِّينَ حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ؛ لَا يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّهُ، وَلَا تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَحْشَهُ، وَلَا تَحْسَبَنَّ ابْنَ أَبِيكَ - وَلَوْ أَسْلَمَهُ النَّاسُ - مُتَضَرِّعًا مُتَخَشِّعًا، وَلَا مُقْرَأً لِلضَّيْمِ وَاهِنًا، وَلَا سَيْلِسَ الزَّمَامِ لِلْقَائِدِ، وَلَا وَطِيءَ الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ الْمُتَعَقِّدِ، وَلَكِنَّهُ كَمَا قَالَ أُخُوْبِي سَلِيمٌ :

فَإِنْ تَسْأَلِينِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنِّي

صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبُ

يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِي كَأَبُهُ

فَيَسْمَتَ عَادٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ

الشرح والتفسير: لا أكف عن مقارعه الخائنين

إنَّ كلام الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة ناظر إلى ما ذكره عقيل في نهايه كتابه إليه وقد سبق ذكره حيث يقول: «فاكتب لي يابن امي برأيك، إن كنت الموت تريد فحملت إليك بنى أخيك وولد أبيك، فعشنا معك ما عشت وامتنا معك إذا مت...»، أى أنك إذا أردت قتال هؤلاء الناكثين للبيعه فأمرنا لنقاتلهم معك فى هذا السبيل، فكتب له الإمام عليه السلام من قوله:

«وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي الْقِتَالِ، فَإِنَّ رَأْيِي قِتَالُ الْمُحِلِّينَ (١) حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ».

وكلمه

«محلين» إما أنها تشير إلى الأشخاص الذين نقضوا بيعتهم للإمام ورفعوا

ص: ٤٩

١- (١). «المحلين» جاء فى صحاح اللغة أن «المحل» يقال للشخص الذى ينقض عهده وينكث بيعته ويخرج من إطاره.

لواء التمرد والفتنة فى البصره ووقعه الجمل والأشخاص الذين التحقوا بهم بعد ذلك، أو إشاره إلى قوى الضلاله فى الشام الذين أحلّوا سفك الدماء فى معركة صفين والذين استمروا فى نفس المسار الشيطاني، أو إشاره إلى الطائفتين.

ثم يتحرك الإمام عليه السلام ليبيّن عزمه الراسخ وإرادته الجازمه لأخيه عقيل فى قتال هؤلاء المتمردين ويؤكد له أنّ كثره المخالفين له والخارجين عليه لا تؤثر شيئاً فى عزمه وإرادته ويقول:

«لَا يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً، وَلَا تَفَرُّهُمْ عَنِّي وَخَشَةً».

وهذا الشعار، الذى ينطلق من موقع العمق الفكرى والشعور الوجدانى والمقتبس من الآيات الشريفه: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ...» (١)، أو «فَلَمَّا تَخَشَوْا النَّاسَ وَأَخْشَوْنِي...» (٢)، وأمثالها، تشير إلى أنّ أولياء الله والعظماء من رجال الحق وبالاعتماد على الذات المقدسه، لا يشعرون بشيء من الوحشه من كثره مخالفيههم ولا يعيشون حالات الغرور من جموع الموافقين، فلو أنّ جميع المسلمين اتّخذوا كلام الإمام عليه السلام هذا شعاراً لهم فى حياتهم وسلوكياتهم، فمن بالبديهى أنّهم لا يصابون بالاهتزاز والخور فى مقابل الغزو السياسى والعسكرى والثقافى للغرب وسيحققون النجاحات فى جميع هذه الجبهات.

ثم يخاطب الإمام عليه السلام أخيه فى كلام زاخر بالحيويه والعمق ويقول:

«وَلَا تَحْسَبَنَّ ابْنَ أَبِيكَ - وَلَوْ أَسْلَمَهُ النَّاسُ - مُتَضَرِّعاً مُتَخَشِّعاً، وَلَا مُقِرّاً لِلضُّيْمِ (٣) وَاهِناً، وَلَا سَلِسَ (٤) الزَّمَامَ لِلْقَائِدِ، وَلَا وَطِيءَ (٥) الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ الْمُتَعَقِّدِ».

فى هذه العبارات الأربع يبيّن الإمام عليه السلام المراحل المختلفه للتسليم والإذعان فى

ص: ٥٠

١- (١) . سورة الزمر، الآية ٣٦.

٢- (٢) . سورة المائدة، الآية ٤٤.

٣- (٣) . «ضَيْمٌ» بمعنى الظلم والجور ويأتى مصدره على هذا الوزن أيضاً، ويعنى ايقاع الظلم على الآخر وقهره والتغلب عليه.

٤- (٤) . «سَلِسٌ» المطيع والمنقاد، وأحياناً تأتى بمعنى السهل واليسير.

٥- (٥) . «وَطِيءٌ» صفة مشبهه بمعنى اللين والملائم.

مقابل العدو، أحدها أسوأ من الأخرى، الأولى أن يتخذ أسلوب التضرع والخشوع والتوسل في مقابل العدو، والأخرى أن يخشى قدره العدو ويشعر بالضعف والخور ويستسلم له، والثالثة، أنه مضافاً إلى الاستسلام يفقد زمام أموره من يده ويسلم قياده لعدوه ليرى رأيه فيه

«وَلَا سَلِسَ الزَّمَامَ لِلْقَائِدِ»، وأخيراً يحنى ظهره ليركبه العدو ويسوقه إلى حيث يريد
«وَلَا وَطِئَ الظَّهْرَ لِلرَّاكِبِ».

ما أروع هذه العبارات الدقيقه والحيه التي تحكى عن غايه الفصاحه والبلاغه في كلام الإمام عليه السلام وأن الإمام ينفى عنه نفسه أى شكل من أشكال الاستسلام والخضوع في مقابل العدو.
وكلمه

«متفعد» وردت في بعض النسخ «مقتعد»، وتعنى الشخص الذى اختار مكاناً للجلوس والقعود، وهو إشاره إلى راكب الدابه الذى يركب دابته ولا يستفيد منها فى المسير فقط، بل فى جميع حاجاته، فتاره يقف ويتحدث إلى شخص آخر، وأخرى يشتري حاجات من السوق وهو راكب، وأحياناً يعطى شيئاً لآخر وأمثال ذلك، والخلاصه أنه جالس على مركبه ويقوم بأعماله ووظائفه دون أن يهتم لهذه الدابه وثقله.

وفى ختام هذه الرساله، ومن أجل التأكيد أكثر على عزمه الراسخ وإرادته الصلبه فى مقابل العدو، يستشهد الإمام عليه السلام بشعر شاعر من طائفه بنى تميم ويقول: إنَّ حالى

كَمَا قَالَ أَحْوَبِي سَلِيمٍ :

فَإِنْ تَسَأَلْنِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنِّي

صَبُورٌ عَلَى رَيْبٍ (١) الزَّمَانِ صَلِيبٌ (٢)

يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِي كَأَبَهُ (٣) فَيَشْمَتَ (٤) عَادٍ (٥) أَوْ يُسَاءَ حَبِيبٌ

ص: ٥١

١- (١) . «رَيْبٍ» تأتي أحياناً بمعنى الشك وأخرى بمعنى الحوادث المشكله والتحديات الصعبه.

٢- (٢) . «صَلِيبٌ» تعنى المحكم والشديد، وأصلها من «صلب».

٣- (٣) . «كَأَبَهُ»، تعنى الحزن والغم والانكسار الناشئ منه.

٤- (٤) . «يَشْمَتَ» من ماده «شماه» وهى فرح العدو.

٥- (٥) . «عَادٍ» يعنى العدو، من ماده «عداوه».

وهنا خلاف في الشاعر الذي ينسب إليه هذا الشعر، فابن أبي الحديد ينسبه في شرحه لنهج البلاغه إلى عباس بن مرداس السلمى، ولكنه يقول إننى لم يجده في ديوانه.

يقول المحقق التستري في شرحه لنهج البلاغه: «قال بن أبي الحديد: الشعر نسب إلى العباس بن مرداس السلمى، ولم أجده في ديوانه»^(١).

قلت: بل الظاهر أنّ هذين البيتين لصخر بن عمرو السلمى، قال في الأغاني كان صخر طعن في جنبه في حرب، فمرض قريباً من حول وقد نتأت في موضع الطعنه قطعه مثل الكبد، فأحمسوا له شعره، ثم قطعوها لعله يبرأ، فسمع أن أخته تقول:

كيف كان صبره؟ فقال: بهاتين البيتين»^(٢).

ص: ٥٢

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٥٢.

٢- (٢). شرح نهج البلاغه، للعلامة التستري، ج ٧، ص ٥٠٢.

إلى معاويه (١)

نظرة عامه للرساله

هذه الرساله، كما ورد في تمام نهج البلاغه في بحث سندها، تبتدىء بكلام لم يذكره السيّد الرضى للاختصار، ولكن من أجل استيعاب محتوى الرساله وفهم مضامينها لابدّ من استعراض المقطع الأوّل منها، وقبل ذلك ينبغي الالتفات إلى هذه النقطه، وهى أنّ هذه الرساله لم تكن رساله ابتدائيه من الإمام عليه السلام لمعاويه بل هى جواب عن رساله أرسلها معاويه للإمام عليه السلام، ورغم أنّ نص رساله مفقود ولم يتعرض له أحد من شراح نهج البلاغه ولكن يتبين من جواب الإمام عليه السلام إجمالاً أنّ معاويه أشار في رسالته إلى ثلاثه أمور:

الأوّل: إنّهُ استند في إثبات حقايقته أنّهُ منصوب من قبل عمر بن الخطاب لهذا المقام.

والآخر: أنّه اقترح على الإمام عليه السلام أن يضع بيده وتحت اختياره الشام ومصر وأن

ص: ٥٣

١- (١). سند الرساله: لهذه الرساله مطلع حذفه السيّد الرضى طبقاً لمنهجه في الانتقاء، وقد اقتصر على ذكر ذيل هذه الرساله، وقد نقل المرحوم ابن ميثم وابن أبي الحديد صدر هذه الرساله كما سنشير إلى ذلك لاحقاً، وهذا يشير إلى أنّهما عثرا على مدرّك ومصدر غير نهج البلاغه ذكر فيه صدر الرساله (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٣٢).

يوافق الإمام عليه السلام على أن تكون الخلافة من بعد الإمام له.

الثالث: أنه اتهم الإمام عليه السلام بالمشاركة في قتل عثمان وادعى المطالبة بثأره والانتقام من قاتله.

فكتب إليه الإمام عليه السلام جواباً على ذلك يقول:

«أما بعد، فإن الدنيا حلوة خضرة ذات زينة وبهجة، لم يصب إليها أحد إلا شغلته بزینتها عما هو أنفع له منها وبالأخره أمرنا، وعليها حثنا فدع، يا معاوية، ما يفنى عمل لما يبقى، واحذر الموت الذي إليه مصيرك، والحساب الذي إليه عاقبتك.

واعلم أن الله - تعالى - إذا أردأ بعبد خيراً حال بينه وبين ما يكره، ووقفه لطاعته، إذا أردأ بعبد سوءاً أغراه بالدنيا، وأنساه الآخرة، وبسط له أمله، وعاقبه عما فيه ضلأه وقد وصي لني كتابك فوجدتكم ترمي غير عرضك، وتنشد غير ضالتك، وتخبط في عماليه وتبته في ضلاله وتعتصم بغير حجه، وتلوذ بأضعف شبيهه فأما سؤالك إلى المتاركة والإقرار لك على الشام، فلو كنت فاعلاً ذلك اليوم لفعلته أمس، وأما قولك: إن عمر ولأكها، فقد عزل من كان ولأه صاحبها، وعزل عثمان من كان عمر ولأه ولم ينصب للناس إماماً إلا ما من صالح الأمة ما قد كان ظهر لمن كان قبله، أو خفي عنهم عيبه، والأمر يحدث بعیده الأمر، ولكل وال رأى واجتهاد...»(١).

وما ذكره السيد الرضى في نهج البلاغه يمثل المقطع التالي من هذه الرسالة.

وعلى أي حال بالإمكان تقسيم ما ورد من الرسالة في نهج البلاغه إلى قسمين:

الأول: توبيخ معاوية بسبب اتباعه لهوى النفس وتجاهله الحقائق الموضوعية وإنكاره العهود الإلهية.

والثاني: الجواب عن ادعاءات معاوية في المطالبة بدم عثمان ومطالبته الإمام عليه السلام بتسليم قاتله.

ص: ٥٤

١- (١). تمام نهج لبلاغه، ص ٨٣٨؛ شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٥٣.

فَسَيُبْحَنُ اللَّهُ! مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلْأَهْوَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ، وَالْحَيْرَةِ الْمُتَعَبِّهِ مَعَ تَضْيِيعِ الْحَقَائِقِ وَاطِّرَاحِ الْوَثَائِقِ، الَّتِي هِيَ لِلَّهِ طَلْبُهُ، وَعَلَى عِبَادِهِ حُجَّتُهُ.

فَأَمَّا إِكْتِنَارُكَ الْحِجَاغَ عَلَى عُثْمَانَ وَقَتْلَتِهِ، فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: ما أنت والطلب بدم عثمان ؟

إشاره

كما أشرنا آنفاً أنّ المؤرخين وكتاب السير وللأسف لم يذكروا، بحدود علمنا، نص رساله معاويه للإمام عليه السلام، رغم أنّ بعض مقاطع تلك الرساله يمكن استيحاؤها من جواب الإمام عليه السلام له، وفي هذا المقطع من رساله الإمام عليه السلام نرى أنّ الإمام يوبخ معاويه بشدّه بسبب اتباعه للأهواء المطامع الموهومه التي تقوده إلى متهات الحيره، ويتبين أنّ معاويه كان قد كتب للإمام عليه السلام كلمات وقحه وتجراً على الإمام بعبارات لا مسؤوله، ومن هنا يقول له الإمام عليه السلام:

«فَسَيُبْحَنُ اللَّهُ! مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلْأَهْوَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ، وَالْحَيْرَةِ الْمُتَعَبِّهِ مَعَ تَضْيِيعِ الْحَقَائِقِ وَاطِّرَاحِ (١) الْوَثَائِقِ، الَّتِي هِيَ لِلَّهِ طَلْبُهُ، وَعَلَى عِبَادِهِ حُجَّتُهُ».

فالإمام عليه السلام في هذه العبارة الوجيزه والعميقه المعنى يلخص علل وعوامل انحراف معاويه عن جاده الحقّ بأربعة أمور، الأول: اتباع الأهواء والنوازع النفسائيه، والآخر: اتباع عوامل الحيره وسبل المتهاه، والثالث: غض النظر عن

ص: ٥٥

١- (١). «اطِّرَاحِ» من ماده «طرح» يعنى إلقاؤه بعيداً.

الحقائق الموضوعية، والرابع: نقض العهود والمواثيق الإلهية.

وبديهي أنّ كلّ واحد من هذه العوامل من شأنه أن يقود الإنسان إلى مهاوى الضلاله والتردى في وادى السقوط الأخلاقي، فكيف إذا اجتمعت كلّها في شخص واحد؟!

إنّ الحقائق التي أشار إليها الإمام عليه السلام في هذه الرسالة، والتي ضيّعها معاويه تعدّ من الخصائص المنحصرة بشخص الإمام على عليه السلام في العصر الأوّل للإسلام والذي كان مع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله منذ بدايه الدعوه إلى آخر أيام النبي المبارك، وفي المقابل نسيان معاويه لسوابقه في عصر الجاهليّه وما ارتكبه أبوه وأمه من أعمال شنيعه بحيث لا يسع أى عاقل أن يقارنه بالإمام على عليه السلام مع تلك الخصوصيات الفذه والخصال الممتازه التي اجتمعت فيه، ومع كلّ ذلك يريد معاويه أن يخلف الإمام على عليه السلام في مسند الحكومه والخلافه ويطمح أن تكون له السيطره في حياه الإمام على قسم عظيم من البلاد الإسلاميه.

«وثائق»: أى العهود والمواثيق، وهى إشاره إلى المواثيق التي اخذت من الإنسان المؤمن بأن يسير في خط الطاعه والتسليم لأحكام الله تعالى، وجمله

«الَّتِي هِيَ لِلَّهِ طَلْبَةٌ»، بما أن طلبه تعنى المطلوب، فهى إشاره إلى أنّ الله تعالى يطالب عبده بالوفاء بجميع هذه العهود والمواثيق.

فمن جهه فإنّ كلّ إنسان مؤمن، وبمقتضى قوله تعالى: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا»^(١)، يحمل الأمانه الإلهيه في حياته، ومن جهه أخرى وبمقتضى قوله تعالى: «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ»^(٢)، مطالب بإطاعه أوامر الله ورسوله، ومن جهه ثالثه وبمقتضى قوله تعالى: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا

ص: ٥٦

١- (١) . سورة الأحزاب، الآية ٧٢.

٢- (٢) . سورة آل عمران، الآية ٣٢.

بَنِي آدَمَ أَنْ لَاتَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» (١)، مطلوب منه ترك عباده الشيطان وأتباع وساوسه، فكل هذه الأمور متضمنه في ثنايا المواثيق الإلهية وقد أتم الله حجته على عباده بمقتضى هذه الآيات الشريفة.

ويتابع الإمام عليه السلام في المقطع الثاني من هذه الرسالة كلامه في توبيخ معاوية ويقول:

«فَمَا مَا إِكْتَارُكَ الْحِجَابِ (٢) عَلَى عُثْمَانَ وَقَتْلَتِهِ، فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَيْرَتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصِيرُ لَكَ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصِيرُ لَهُ، وَالسَّلَامُ».

فالإمام عليه السلام يتعجب من هذا الادعاء الواهي لمعاوية وكأنه يرى نفسه ولي دم عثمان، فيقول له الإمام عليه السلام بتعبير شيق وبلغ، بأنك أنت الذى منعت نصرك لعثمان وخذلته، لأننا نعلم، والتاريخ أيضاً شاهد على هذا المعنى، بأن عثمان طلب النصره والمعونه من معاوية وأن يرسل له معاوية جيشاً ليذب عنه وينصره، ولكن معاوية أمر الجيش بالاقتراب من المدينة وعدم دخولها وكأنه يريد أن يقتل عثمان ويهيبه الأرضيه اللازمه لتولى الخلافه ثم يقول للناس إننى أرسلت جيشاً لنصرته ولكن الجيش تأخر عن الوصول للمدينه.

يقول البلاذرى المؤرخ المعروف: «لما أرسل عثمان إلى معاوية يستمده، بعث يزيد بن أسد القسرى، جدّ خالد بن عبد الله بن يزيد أمير العراق وخال له: إذا أتيت ذاخشب فأقم بها، ولا تتجاوزها، ولا تقل: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فإننى أنا الشاهد وأنت الغائب».

قال الراوى: أقام بذي خُشب حتى قتل عثمان، فاستقدمه حينئذ معاوية فعاد إلى الشام بالجيش الذى أرسل معه».

ويضيف البلاذرى هنا: «وإنما صنع ذلك معاوية ليقول عثمان فيدعو إلى نفسه» (٣).

ص: ٥٧

١- (١) . سورة يس، الآية ٦٠.

٢- (٢) . «الحِجَاب» يعنى المجادله للتغلب على الطرف المقابل.

٣- (٣) . شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ١٥٤.

والملفت أنّ الشيخ مغنيه في شرحه لنهج البلاغه بعد أن ذكر هذه القصة قال:

«تشهد جميع المواقف من سيره معاويه أنّ هذه الحادثة، وفيما سبق نقلناها عن المؤرخين والباحثين القدمى والجدد، أنّ معاويه خذل عثمان في حياته وطلب منه أن يجعله وليّ دمه، وأنّه بعد أن تمّ له الأمر تجاهل عثمان ودم عثمان، وأنّه كان يستقبل قتلته ويجهزهم بالأموال (انظر كتاب معاويه، العقاد، ص ١٥٠ الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٦)»^(١). يعنى أنّ جميع الشواهد التاريخيه في سيره معاويه تشهد أنّ هذه الروايه عين الحقيقه والواقع، ولكن عندما هدأت الأوضاع ورأى معاويه أنّ الطلب بدم عثمان ذريعه جيده لدعوه الناس إليه، رفع قميص عثمان وأخذ بالبكاء والنحيب وإثاره أحاسيس الناس، والأعجب من ذلك أنّه عندما استشهد الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وجلس معاويه على مسند الخلافه، ليس فقط لم يترك فقط قتله عثمان، بل استقبلهم برحابه صدر وأجزل لهم العطاء.

تأمل

رساله معاويه إلى ابن عباس وجوابه

ومن النقاط الملفته للنظر أنّ ابن أبى الحديد أورد في ذيل هذه الرساله مورد البحث رساله معاويه إلى ابن عباس في أيام صلحه مع الإمام الحسن المجتبى عليه السلام حيث دعاه إلى بيعته، ومن جمله ما ذكر له في هذه الرساله: «ولعمري لو قتلتك بعثمان رجوت أن يكون ذلك لله رضاً، وأن يكون رأياً صواباً، فإنّك من الساعين عليه، والخاذلين له، والسافكين دمه، وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعك منى ولا بيدك أمان».

ولكن ابن عباس لم يشعر بالخوف من تهديد معاويه وأجابه جواباً حاسماً

ص: ٥٨

١- (١). في ظلال نهج البلاغه، ج ٣، ص ٥٤٩.

ومطولاً- يقول فيه: «وأما قولك إني من الساعين عليه، والخاذلين له، والسافكين دمه، وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعك مني، فأقسم بالله لأنت المتربص بقتله، والمحب لهلاكه، والحابس الناس عنه على بصيره في أمره، ولقد آتاك كتابه وصريخه يستغيث بك ويستصرخ، فما حفلت به، حتى بعثت إليه معذراً بأجره، أنت تعلم أنهم لن يتركوه حتى يُقتل، فقتل كما كنت أردت، ثم علمت عند ذلك أن الناس لن يعدلوا بيننا وبينك، فطفقت تنعى عثمان وتلزمنا دمه، وتقول: قتل مظلوماً، فإن يك قتل مظلوماً فأنت أظلم الظالمين، ثم لم تزل مصوباً مصعداً، وجاثماً ورايضاً؛ تستغوى الجهال، وتنازعنا حقاً بالسفهاء حتى أدركت ما طلبت... «وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» (١) (وهذه الجملة الآيه مقتبس من الآيه ١١١ من سورة الأنبياء).

ويستفاد من رساله معاويه إلى ابن عباس، وكذلك رسالته للإمام عليه السلام، أنه كان ينسب بكل وقاحه، ما كان سهيماً فيه للوصول إلى أهدافه ومطامعه، لأي شخص يريد لكي يثير إحساسات العامه من الناس ضده ويجعله يستسلم لمطالبه ويذعن لخلافته، في حين أن جميع الشواهد التاريخيه تشير إلى أن معاويه كان في باطنه يرغب في قتل عثمان ولم يتقدم خطوه لنصرته، مع أن عثمان طلب منه بصراحه النصره والمساعده، وعلى حدّ تعبير محمّد بن مسلمه الأنصاري الذي كتبه في جواب معاويه، أنت في حياه عثمان لم تقدم على نصرته بل نصرته بعد موته:

«وَلَنْ كُنْتَ نَصْرَتِ عُثْمَانَ مَيِّتًا لَقَدْ خَدَلْتَهُ حَيًّا» (٢).

وذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب، ص ٤٢١، والجزء الثاني، ص ٤٨٠، والجزء الثالث، ص ٢٢٦، تفاصيل جديره بالنظر فيما يخص رساله الإمام عليه السلام لمعاويه لبيعته والإشاره إلى علل وعوامل مقتل عثمان.

ص: ٥٩

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٥٤.

٢- (٢) . صفين، ص ٧٦.

إلى أهل مصر لما ولي عليهم الأشر (١)

نظرة عامه للرساله

نعلم بأن الإمام عليه السلام كتب رساله وسلمها لمالك الأشر وفيها يذكر المناهج العمليه والأساليب الإداريه فى المجالات المختلفه فى قضايا الحكومه والإيداره، وهذه الرساله المعروفه ب «عهد مالك الأشر» وردت فى نهج البلاغه، الكتاب ٥٣، وسيأتى بيانها وشرحها، وقد كتب رسائل أخرى أيضاً إلى أهل مصر عندما أرسل إليهم مالك الأشر والياً على مصر، وإحدى هذه الرسائل هى ما سنبحثه الآن، والأخرى المرقمه ٦٢ فى نهج البلاغه، ويتبين من جميعها ما كان لمالك الأشر من مقام وشخصيه قويه وإيمان عميق وأنه إنسان قوى وشجاع ومدير ومدبر ومخلص.

ص: ٦١

١- (١) . سند الرساله: نقل هذه الرساله جماعه من المؤرخين والعلماء عاشوا قبل السيد الرضى، فى كتبهم، منهم: الطبرى فى تاريخه المعروف فى حوادث سنه ٣٨ للهجره، والشيخ المفيد فى كتابيه الاختصاص والأمالى، وابن الهلال الثقفى فى موردين من كتاب «الغارات»، وفى المورد الأول نقلها عن صعصع بن سوحان وفى المورد الثانى عن المدائنى عن أحد غلمان مالك الأشر، قال: عندما توفى مالك الأشر (فى طريقه إلى مصر بسبب السم) رأوا رساله مشدوده إلى رجليه وهذه الرساله من الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام إلى أهالى مصر (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٣٦).

والرساله مورد البحث تتشكل من قسمين:

القسم الأول: يتضمّن مدح وتمجيد أهالي مصر، الذين هبّوا للدفاع عن الإسلام في وقت ساد فيه الظلم والفساد المجتمعات البشرية وانطفأت جذوه الحقّ والعدالة في الأمّة وشاعت المنكرات والقبائح في فضاء البلاد الإسلاميّه.

وفي القسم الثاني: يستعرض شخصيّة مالك الأشر بوصفه رجلاً يتمتع بامتيازات ومواهب ممتازة بحيث تجعله جديراً بالولاية والإماره، ويذكره في هذه الرسالة بعبارات راقية قلّما ذكر الإمام عليه السلام أحداً بهذه الصفات، وبعد ذلك طلب الإمام من أهالي مصر أن يتواصلوا معه من موقع الطاعة لأوامره والتقدير لشخصيّته.

ص: ٦٢

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ غَضِبُوا لِلَّهِ حِينَ عُصِيَ فِي أَرْضِهِ، وَذُهِبَ بِحَقِّهِ، فَضَرَبَ الْجَوْرُ سِرَادِقَهُ عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَالْمُقِيمِ وَالظَّاعِنِ، فَلَا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاخُ إِلَيْهِ، وَلَا مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ.

الشرح والتفسير: المصريون الذين غضبوا لله

يستهل الإمام عليه السلام رسالته لأهالي مصر، كما تمت الإشارة إليه، بوصف بليغ لهؤلاء المؤمنين، ويقول:

«مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ غَضِبُوا لِلَّهِ حِينَ عُصِيَ فِي أَرْضِهِ، وَذُهِبَ بِحَقِّهِ، فَضَرَبَ الْجَوْرُ سِرَادِقَهُ (١) عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَالْمُقِيمِ وَالظَّاعِنِ (٢)، فَلَا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاخُ إِلَيْهِ، وَلَا مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ».

وفيما يتصل بوقت صدور هذه العبارات الوارده في رسالته يتفق جميع شراح نهج البلاغه أنها تشير إلى عصر كان عبدالله بن أبي سرح المجرم المعروف والياً على مصر من قبل عثمان بن عفان، فقد سلك هذا الوالي ومعه أزماله وأعوانه طريق الظلم والجور على أهالي مصر بعيداً عن التعاليم الرساليه والأحكام الإسلاميه، فلم يعترف عملاً بالأمر المعروف والنهي عن المنكر ولا اتخذ خطوات عمليه في هذا المجال.

ص: ٦٣

١- (١). «سِرَادِق» أصلها فارسيه بمعنى الخيم التي تتخذ لتشكيل المجالس المختلفه وأحياناً تنصب في باحه الدار، وأخرى بشكل مستقل.

٢- (٢). «الظَّاعِن» هو المنتقل من محل لآخر، من ماده «ذعن» على وزن «طعن» وهو الانتقال.

ولا ننسى أنّ عبد بن أبي سرح كان من جمله كتاب الوحي في بدايه الأمر ولكن بسبب خيانتة فقد سخط عليه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ونزلت آيه من القرآن في ذمه، فكان أن ارتد عن الإسلام والتحق بالمشركين وأخذ يتآمر ضد الإسلام، وعندما فتح المسلمون مكّه كان هذا الرجل أحد الأفراد المعدودين الذي أمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بقتلهم، ولكن بما أنّ عبد الله أخو عثمان من الرضاعة فقد أخفاه عثمان في داره، ثم جاء به إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وطلب منه الأمان له، فأعرض النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بوجهه عنه وكرر عثمان طلبه هذا ثلاث مرات، وأخيراً وافق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عليه و آله على طلبه، وعندما غادر عثمان ومعه عبد الله من عند النبي قال النبي صلى الله عليه وآله لمن حوله من أصحابه:

«لَقَدْ صَمَتْتُ لِيُقَوْمَ إِلَيْهِ بَعْضُكُمْ فَيَضْرِبَ عُتُقُ»، فقام رجل من الأنصار وقال:

«فَهَلَّا أَوْمَأْتَ إِلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ»، فقال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ النَّبِيَّ لَا يَقْتُلُ بِالْإِشَارَةِ»(١).

وعلى أيّ حال فإنّ أهل مصر ثاروا ضد هذا الرجل الخائن، ولكنّه صمد لهم وتمسك بمنصبه بقوّه، ومن هنا تحرك جماعه من ألفى رجل من مصر باتجاه المدينه يطالبون عثمان بعزله، ولكنّ عثمان، ليس فقط لم يعزل هذا الوالى بل كتب إليه كتاباً وأرسله مع غلامه يتحدّث فيه عن لزوم معاقبه رؤوس المعترضين ويوصيه باعدامهم أمام الملأ ويعاقب البعض الآخر بشده ليكونوا عبره للآخرين، فاكشف الثوار المصريون هذه الرساله وارتفعت أصوات اعتراضهم ضد عثمان وقالوا: يجب علينا العوده إلى المدينه لعزل عثمان من سده الخلافه.

وفي ذلك الوقت كانت جماعات كثيره قد أقبلت من الكوفه والبصره وكانوا يحملون معهم اعتراضات وشكاوى مماثله، أضف إلى ذلك أنّ الكثير من المهاجرين والأنصار كان يرون أنّ عثمان، وبسبب أعماله السليبه، غير جديره بخلافه المسلمين وينبغي عزله، ولكنّ عثمان ثبت في موقعه وأصرّ على البقاء في الخلافه وفي هذا المقام، وتسبب ذلك بسياده الغضب وسخط الثائرين عليه وأخيراً

ص: ٦٤

١- (١) . انظر: سيره ابن هشام، والاستيعاب، ابن عبد البر.

استطاعوا قتله على يد أبي حرب الغافقي المصري، وذهب بعض المؤرخين إلى أنّ قاتله أشخاص آخرون(1)، هذا في حين أنّ الإمام على عليه السلام أرسل ولديه الإمام الحسن والحسين عليهما السلام إلى دار عثمان لمنع دخول الناس إليها، لأنّ الإمام على عليه السلام لم يكن موافقاً على قتل عثمان، رغم أنّه كان يعتقد بلزوم عزل عثمان.

وأما ما يرتبط بالرسالة مورد البحث وما ورد فيها من تقدير وتبجيل من الإمام على عليه السلام لأهالي مصر فبعض المؤرخين استنبط من هذه الرسالة أنّ الإمام عليه السلام كان موافقاً على قتل عثمان.

يقول ابن أبي الحديد في هذا المورد: «هذا الفصل يشكل على تأويله، لأنّ أهل مصر هم الذين قتلوا عثمان، وإذا شهد أمير المؤمنين عليه السلام أنّهم غضبوا لله حين عصى في الأرض، فهذه شهادته قاطعه على عثمان بالعصيان، وإتيان المنكر، ويمكن أن يقال إن كان متعسّفاً: إنّ الله تعالى عصى في الأرض لا من عثمان، بل من وُلاته وأمرائه وأهله، وذهب بينهم بحق الله، وضربت الجور سرادقه بولايتهم وأمرهم على البر والفاجر، والمقيم والضاعن، فشاع المنكر، وفقد المعروف».

ثمّ يضيف ابن أبي الحديد: «ويبقى أن يقال: هب أنّ الأمر كما تأولت، فهؤلاء الذين غضبوا لله إلى ماذا آل أمرهم؟ أليس الأمر آل إلى أنّهم قطعوا المسافة من مصر إلى المدينة فقتلوا عثمان؟ فلا تعدوا حالهم أمرين: إمّا أن يكونوا أطاعوا الله بقتله فيكون عثمان عاصياً مستحقاً للقتل، أو يكونوا اسخطوا الله تعالى بقتله، فعثمان إذاً على حقّ، وهم الفسّاق العصاه، فكيف يجوز أن يبجلهم أو يخاطبهم خطاب الصالحين؟ ويمكن أن يجاب على ذلك بأنّهم غضبوا لله، وجاءوا من مصر، وأنكروا على عثمان تأميره الأمراء الفسّاق، وحصروه في داره طلباً أن يدفع إليهم مروان ليحبسوه، أو يؤدّبوه على ما كتبه في أمرهم، فلما حصّر طمع فيه مبغضوه وأعدّاه

ص: ٦٥

١- (١). لمزيد من التفاصيل في هذا الموضوع راجع هذا الكتاب (نفحات الولاية الجزء الثاني استناد لما ورد في تاريخ الطبري).

من أهل المدينة وغيرها، وصار معظم الناس إلباً عليه، وقَلَّ عدد المصريين بالنسبة إلى ما اجتمع من الناس على حصره، ومطالبته بخلع نفسه، وتسليم مروان وغيره من بنى اميّه إليهم، وعزل عمّاله والاستبدال بهم، ولم يكونوا حينئذٍ يطلبون نفسه، ولكن قوماً منهم ومن غيرهم تسوروا داره، فرماهم بعض عبيده بالسهم، فجرح بعضهم، فقادت الضروره إلى النزول، والاحاطه به، وتسرع إليه واحد منهم وقتله، ثم إن ذلك القاتل قُتِل بالوقت، وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم وشرحناه، فلا يلزم من فسق ذلك القاتل وعصيانه أن يفسق الباقون، لأنهم ما أنكروا إلا المنكر، وأما القتل فلم يقع منهم، ولا راموه ولا أرادوه، فجاز أن يقال: إنهم غضبوا لله، وأن يثنى عليهم ويمدحهم»(١).

وقد وافق بعض شراح نهج البلاغه على هذا الكلام والتقرير، ويظهر من كلماتهم أنّ هذا الكلام خالٍ من التكلف، لأنّ القرائن التاريخيه من جهه تشير إلى أنّ الإمام على عليه السلام لم يؤيد أحداً على قتل عثمان بل كان مانعاً عن قتله، رغم أنّه كان يعترض بشدّه على أعمال عثمان وتسليطه أفراد من بنى اميّه الفاسدين على أموال وأرواح المسلمين، ومن جهه أخرى أنّ رساله مورد البحث تشير إلى أنّ قيام أهالي مصر يستحق الثناء والتبجيل، ويمكن الجمع بين هذين الأمرين بما ذكر آنفاً وأنّ كلام الإمام عليه السلام في هذه الرساله لا يدلّ اطلاقاً على مدح قتله عثمان(٢).

وضمناً فقد بين الإمام في هذه الرساله خصوصيات المجتمع الفاسد في عبارات موجزه وذلك بقوله: إنّ مثل هذا المجتمع هو الذى تظهر فيه المعاصى والمنكرات وتتكسر فيه حالات الجور والظلم لتستوعب جميع الأخيار والأشرار، فلا أمان لأحد لا فى المدن ولا فى البرارى وأنّ الرذائل ستشتد وتقوى على حساب الفضائل.

ص: ٦٦

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ١٥٦.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه، لابن ميثم وفى ظلال نهج البلاغه.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، لَا يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ، وَلَا يَنْكُلُ عَنِ الْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ، أَشَدَّ عَلَى الْفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ، فَاسْمِعُوا لَهُ، وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الْحَقَّ، فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ، لَا كَلِيلَ الظُّبَيْه، وَلَا نَابِي الضَّرِيْبَه؛ فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفَرُوا فَانْفَرُوا، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَقِيمُوا فَاقِيمُوا، فَإِنَّهُ لَا يُقَدِّمُ وَلَا يُحْجِمُ، وَلَا يُؤَخِّرُ وَلَا يُقَدِّمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِي؛ وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَشَدَّه شَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ.

الشرح والتفسير: نصبت عليكم والياً مقتدراً وبصيراً بالأمر

ينطلق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رسالته لأهالي مصر من موقع التمجيد والتعريف بمالك الأشتر، وبعد أن يصفه بست صفات ممتازة جداً، يأمر أهالي مصر بالطاعة له ويدعوهم لامتنال أمره وكأن هذا الأمر بالطاعة مقترن بالدليل على ذلك.

بدايه يقول الإمام عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ». المجرىء بكلمه «عبد» نكره يراد به التعظيم والإشاره إلى أن مالك الأشتر في مقام العبوديه لله تعالى جدير بهذا المقام، والإمام عليه السلام يصفه بأهم وأعلى صفة للإنسان وهي مقام العبوديه لله، وهذا هو ما نقوله في صلاتنا اليوميه لمقام النبوه والرساله، حيث نقول في التشهد:

«أشهد أن محمداً عبده ورسوله»، وهذه هي الحقيقه التي يفتخر بها

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ويقول:

«كفى بى عزاً أن أكون لك عبداً» (١).

يتابع الإمام عليه السلام وصفه لمالك الأشر ويذكر الصفه الثانيه والثالثه بقوله:

«لَا يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ، وَلَا يَنُكَلُّ (٢) عَنِ الْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ (٣)».

وهذان الوصفان فى الحقيقه من أهم الصفات التى يجب أن يتحلى بها الإنسان لتحقيق النصر على العدو، والاستعداد الدائم فى زمان الخوف من هجوم العدو وعدم الخشيه من حيله ومكره، ولا كثره عدده وعدته، وهو ما يلزم القائد الفذ والزعيم المقدم، والتاريخ يشهد أن القاده والأمراء الذين هزموا بالمعارك لم يكونوا يتمتعون باحدى هاتين السمتين، فإما أنهم غفلوا عن مكر العدو، أو قادهم الخوف من العدو إلى الهزيمه والذله.

ثم يتعرض الإمام عليه السلام للصفه الرابعه ويقول:

«أَشَدَّ عَلَى الْفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ (٤)».

عباره »

حريق النار تعتبر فى الحقيقه أبلغ تعبير لبيان الهجمات الشرسه لمالك الأشر على الأعداء فى ميادين القتال، لأنه ليس كمثل النار فى الإفناء والإهلاك، فالماء يغرق، والحجر يكسر، ولكن النار تحرق وتحول الشىء إلى رماد.

وينقل المحقق التستري فى شرحه نهج البلاغه عن كتاب (صفين لنصر بن مزاحم) خرج رجل من أهل الشام - فى معركة صفين - قلماً رؤى أطول وأعظم منه وشجاعاً مقداماً فدعا إلى المبارزه طبقاً للعادة المتداوله فى الحروب فى ذلك الزمان، فلم يخرج إليه إنسان من جيش أمير المؤمنين عليه السلام لمبارزته أو الخروج له - وخرج إليه مالك الأشر فقتله، فقال رجل منهم: اقسام بالله لأقتلن قاتلك، فحمل

ص: ٦٨

١- (١). بحار الأنوار، ج ٩١، ص ٩٤، ح ١٠.

٢- (٢). «لَا يَنُكَلُّ» فى الأصل من ماده «نكول» ويعنى التراجع عن خوف، وأحياناً تطلق على كل تراجع من أداء عمل معين.

٣- (٣). «الرَّوْعُ» الخوف والوحشه، وأحياناً تأتى بمعنى التخويف والترهيب.

٤- (٤). «مَذْحِجٍ» قبيله فى اليمن، ويعتبر مالك الأشر من رؤوساء تلك القبيله ثم جاء إلى المدينه ومنها إلى الكوفه وأضحى من جمله شيعه أمير المؤمنين عليه السلام الخاصين وأتباعه المخلصين.

على مالك الأشر فضربه، فإذا هو بين يدي فرسه وحمل أصحابه فاستنقذوه جريحاً، فقال أبو رفيقه السهمي:

«كان هذه ناراً فصادفت إعصاراً»، أي أنه لم يقاوم أمام الإعصار(١).

ثم يخرج الإمام عليه السلام بنتيجته من هذه الأوصاف المذكورة لمالك الأشر ويقول:

«فَاسْمَعُوا لَهُ، وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الْحَقُّ».

وبديهي أن العبد المخلص لله تعالى والمنتبه لمخططات العدو والذي لا يجفل ولا ينكل عن الأعداء بل يهجم عليهم كالنار أو الصاعقه، هو الشخص الذي ينبغي إطاعه أمره والاصغاء لتوجيهاته، والملفت للنظر أن الإمام عليه السلام يقول:

«فِيمَا طَابَقَ الْحَقُّ»، وهو إشاره إلى أنه لا أحد من البشر معصوم سوى الأنبياء والأوصياء ومن هنا فإن إطاعه أوامره يجب أن يكون محدوداً في إطار مطابقه الحق، وعلى ضوء ذلك فالإمام عليه السلام يوصى بهذه التوصيه حتى لأقرب المقربين منه، ولذلك يقول ابن أبي الحديد في شرحه لهذه العبارة: «وهذا يشير إلى قدره الإيمانيه والصلابه الروحيه للإمام بحيث إنه لا يرى التساهل والتسامح حتى بالنسبه لأحب الأفراد إليه، ولذلك يقيد إطاعه أمره بهذا القيد، لأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال:

«لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»(٢).

ثم يتعرض الإمام عليه السلام للصفه الخامسه للمال الأشر ويقول:

«فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ، لَا كَلِيلُ (٣) الظُّبَيْهِ (٤)، وَلَا نَابِي (٥) الضَّرِيئِهِ»(٦).

جمله:

«سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ» تعدد أفضل تعبير عن رجل شجاع كمالك الأشر

ص: ٦٩

١- (١). شرح نهج البلاغه للعلامة التستري، ج ٧، ص ٦٠٤.

٢- (٢). كنز العمال، ج ٥، ص ٧٩٢، ح ١٤٤٠١.

٣- (٣). «كَلِيلٌ» هو الضعيف والعاجز، من ماده «كَلَّ» على وزن «حَلَّ».

٤- (٤). «الظُّبَيْهِ» حافه السيف والرمح والخنجر.

٥- (٥). «نَابِي» هو السيف الكليل الذي لا يعمل، والكلمه في الأصل من «نوبه» على وزن «ضربه» وهو المكان المرتفع، وبما أن السيف الكليل لا يدخل في الموضوع ويقف في أعلاه فليل عنه «نابي».

٦- (٦). «الضَّرِيئِهِ» بمعنى المضروب والمحل الذي وجهت له ضربه.

من حيث قوّه شكيمته ورسوخ عقيدته وشده بطشه بالأعداء.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ سيف الله لقب خالد بن وليد، ولكنهم اختلفوا في من لقبه بهذا اللقب، فذهب بعض إلى أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هو الذي منحه هذا اللقب، ولكنّ ابن أبي الحديد يصرّح بأنّ الصحيح أنّ هذا اللقب لخالد قد لقبه به أبو بكر بسبب حروبه مع أهل الردّه ومسيلمه الكذاب وانتصاره عليهم، ولكننا نعلم أنّ خالد بن وليد كان قد اقترف أعمالاً سيئه وتصرفات سلبه كثيره ولا يقبل المقارنه مع مالك الأشتر وهو الرجل الشجاع والصادق والمخلص، والجدير بالذكر أنّ ابن الأثير يقول: «عندما قتل خالد مالك بن نويره (بدون مبرر شرعى) وتزوج من زوجته، غضب عمر عليه وقال لخالد، قتلت مسلماً ثمّ نزوت على امرأته، اقسام والله لأرجمّك بأحجارك، وأصرّ على أبى بكر أن يقتص من خالد بسبب قتله مالك بن نويره، ولكن أبا بكر قال فى جوابه: لقد فعل خالد وأخطأ ولكنى لا أشيم سيفاً سلّه الله على المشركين» (1) وهذا هو السبب الذى دعى البعض إلى أن يلقبوه بسيف الله، ولكن يا لهذا السيف!!).

ثمّ يستطرد الإمام عليه السلام بذكر نتيجه لهذا الاستدلال ويقول:

«فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِمُوا».

ثمّ يصف الإمام عليه السلام الأشتر بالصفه السادسة والأخيره ويقول:

«فَإِنَّهُ لَا يُقَدِّمُ وَلَا يُحْجِمُ (٢)، وَلَا يُؤَخِّرُ وَلَا يُقَدِّمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِي؛ وَقَدْ آثَرْتُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَشَدَّه شَكِيمَتِهِ (٣) عَلَى عَدُوِّكُمْ».

وبديهى أنّ مالك الأشتر لم يكن يصدر أوامر وتوصيات من الإمام عليه السلام فى

ص: ٧٠

١- (١). انظر: الكامل، لأبن الأثير، ج ٢، ص ٣٥٨؛ اسد الغابه، ج ٤، ص ٢٧٧ فى ترجمه حياه مالك بن نويره.

٢- (٢). «يُحْجِمُ» من ماده «احجام» و «حجم» على وزن «رجم» فى الأصل بمعنى تكميم فم الحيوان، ثمّ اطلقت على كل منع وإعاقه لعمل معين.

٣- (٣). «شَكِيمَتِهِ» هى اللجام الذى يوضع فى فم الدابه ويمنعها من أن تتحرك بما يخالف إرادته صاحبها، وفى الجمله أعلاه إشاره إلى أنّ مالك الأشتر يكبح جماح عدوكم ويمنعه من التحرك.

الأُمور الجزئية وفي التفاصيل مع تلك الفاصله الكبيره بين مصر والعراق والكوفه، هذا يعنى أن الإمام عليه السلام قد علمه مبادئ عامته وأصولاً كليّه (كما ورد في عهده المعروف للمالك الأشتر في رساله ٥٣ كما سيأتى لاحقاً) وفوض معرفه الفروع والتفاصيل لمالك من خلال ردها إلى تلك الأصول الكليّه، وهذا هو الاجتهاد بمعناه الصحيح وهو: ردّ الفروع إلى الأصول.

إنّ هذه الصفات الست إذا توفرت في أى شخص فإنّه سيبلغ مرتبه الإنسان الكامل الجامع لجميع الكمالات الماديه والمعنويّه والظاهريّه والباطنيّه.

وبذلك يقول الإمام عليه السلام في آخر جمله من هذه الرساله: بالرغم من أننى أود أن يكون مالك الأشتر معى، ولكننى

«وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ».

في هذه العبارة يصرّح الإمام عليه السلام بأنّه بالرغم من أنّ مالك الأشتر يعدّ ضرورياً ولازماً في جيشه وتحت قيادته، ولكن لأهميته مصر من حيث سعتها وتاريخها وأهلها الواعين والملتزمين بالقيم والرساله فإننى آثرتكم على نفسى وتنازلت لكم عن قائد مقدم هو مالك الأشتر، وهذا من جهه يبيّن مكانه الأشتر الساميه، ومن جهه أخرى، يبيّن أهميته مصر وأهلها.

إلى عمرو بن العاص (١)

نظرة عامه للرساله

هذه الرساله مليئه بالتوبيخ الشديد من قبل الإمام عليه السلام لعمرو بن العاص حيث يوبخه الإمام عليه السلام لخضوعه واتباعه الأعمى لمعاويه ويصف معاويه أيضاً بالصفات اللائقه به.

والقسم الآخر من هذه الرساله يتضمن تهديداً من الإمام عليه السلام لعمرو ومعاويه ويقول: لو أنى انتصرت عليكما فسأعاقبكما بما تستحقان وإن لم أنتصر فإن العقاب الإلهي ينتظركما.

ص: ٧٣

١- (١). سند الرساله: من جمله الأشخاص الذين نقلوا هذه الرساله في كتبهم قبل السيد الرضى، نصر بن مزاحم في كتاب صفين مع تفاوت يسير، وطبعاً هذا الكلام ذكره ابن أبى الحديد، ولكن بعض المحققين الذين قرأوا كتاب نصر بن مزاحم قالوا: لا وجود لهذه الرساله بهذه الصوره في نسخه كتاب نصر بن مزاحم الذى بين أيدينا (راجع شرح نهج البلاغه، للعلامة التستري، ج ٧، ص ٥١٤، والغدير، ج ٢، ص ١٣٠، ويضيف العلامة الأمينى فى الغدير أنّ ما بين أيدينا من كتاب نصر بن مزاحم يمثل مقطعاً خاصاً منه، وأصل الكتاب أكثر بكثير ممّا بين أيدينا وقد حذف الكثير منه عند طبعه)، ومن جمله الأشخاص الذين نقلوا هذه الرساله بعد السيد الرضى فى كتابهم ابن الجوزى الحنفى فى كتاب «تذكرة الخواص» والطبرسى فى «الاحتجاج». (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٣٧).

والجدير بالذكر، طبقاً لما ورد في كتاب تمام نهج البلاغه، أنّ لهذه الرساله مطلع وخاتمه في عبارات قليله لم يذكرهما السيد الرضى، فبدأيتها:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْأَبْتَرِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ بْنِ وَاثِلٍ، شَانِيءٍ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى»، وخاتم الرساله:

«وَاللَّهِ حَسْبُكُمْ وَكَفَى بِانْتِقَامِهِ إِنْتِقَامًا وَبِعِقَابِهِ عِقَابًا سَلَامٌ لِأَهْلِهِ» (١).

ص: ٧٤

١- (١). تمام نهج البلاغه، الرساله ٤٦، ص ٨٢٦.

فَإِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعًا لِدُنْيَا أَمْرِيءَ ظَاهِرٍ عَيْئُهُ، مَهْتُوكِ سِتْرُهُ، يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ، وَيُسِفُّهُ الْحَلِيمَ بِخِلْطِهِ، فَاتَّبَعْتَ أَثْرَهُ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ؛ اتِّبَاعِ الْكَلْبِ لِلضَّرْعَامِ يُلُودُ بِمَخَالِبِهِ، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيَسَتِهِ فَأَذْهَبَتْ دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ! وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكَتَ مَا طَلَبْتَ. فَإِنْ يُمْكِنُ اللَّهُ مِنْكَ وَمِنْ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزَكَيْمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتُبْقِيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: لقد بعث دينك بدنيا غيرك!

يتحرّك الإمام عليه السلام في مستهل رسالته من موقع التوبيخ واللوم لعمر بن العاص ويقول له:

«فَإِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعًا لِدُنْيَا أَمْرِيءَ ظَاهِرٍ عَيْئُهُ، مَهْتُوكِ سِتْرُهُ (١)، يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ، وَيُسِفُّهُ الْحَلِيمَ (٢) بِخِلْطِهِ (٣)» (٤).

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ جملة:

«يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ»، إشارة إلى ما أمر به معاوية من سب الإمام على عليه السلام وبنى هاشم في المجالس، حيث كان هؤلاء الأعاظم وطيله سنوات متماديه يسبون في مجلس معاوية ومجالس أخرى،

ص: ٧٥

١- (١). «مَهْتُوكِ سِتْرُهُ» هو الشخص الذي شقّه حجب الحياء لشده استهانته ودنائه، وأصلها من «هتك» يعني الشق والتمزيق.

٢- (٢). «يَشِينُ» من مادة «شين» على وزن «عين» بمعنى يقيح.

٣- (٣). «الْحَلِيمُ» تعنى فى مثل هذه الموارد العاقل، من مادة «حلم» على وزن «ربع» وتعنى العقل.

٤- (٤). «بِخِلْطِهِ» من مادة «خلطه» بمعنى المعاشرة والاختلاط.

ولكنّ معنى العبارة المذكورة لا- ينحصر بهذا المعنى، بل إنّ عمرو بن العاص كان، مضافاً إلى ذلك، يهزأ من الشخصيات المرموقة من أنصار الإمام على عليه السلام وشيعته ويتحدّث معهم لدى حضورهم في مجلس معاوية بكلمات ركيكه وعبارات نابيه قاصداً بذلك إهانتهم والسخرية منهم، وفي المقابل كان الكثير منهم يردونه بجواب قاطع وحاسم من دون الاعتناء بالأخطار المحدقة بهم بسبب جرأتهم في حضور معاوية، وعلى كلّ حال فإنّ معاوية كان رجلاً سيء الكلام وهاتكاً للحرمة.

ومن ذلك أنّ «جاريه بن قدامه» كما ينقل العقد الفريد، دخل يوماً إلى مجلس معاوية فقال له معاوية: «ما كان أهونك على أهلك إذ سمّوك جاريه! قال: ما كان أهونك على أهلك إذ سمّوك مُعاوية! وهي الأنتى من الكلاب، قال: لا أم لك! قال:

أمي ولعدنتي للسيوف التي لقيناك بها في أيدينا، قال: إنك لتهددني، قال: إنك لم تفتحننا قسراً، ولم تملكنا عنوةً، ولكنك أعطيتنا عهداً وميثاقاً، وأعطيناك سيمعاً وطاعة، فإن وقيت لنا وقينا لك، وإن فزعت إلى غير ذلك، فإننا تركنا وراءنا رجالاً شداداً، وألسنة حُداداً، قال معاوية: لا كثر الله في الناس أمثالك، قال جاريه: قل معروفاً وراعنا، فإن شرّ الدعاء المُحتطب»(١).

وجمله:

«وَيْسَ فُهُ الْحَلِيمِ بِخَلَطِهِ»، إشاره إلى أنه يقال في مجلسه كلام تافه وركيك إلى درجه أنّ الإنسان العاقل يعدّ سفيهاً في ذلك المجلس، وهذه هي نتيجة المشاركة في مجلس يحضره معاوية ورفاقه.

هذه الأوصاف الأربع التي وصف بها الإمام عليه السلام معاوية، بإمكانها تجسيد شخصيته معاوية بكل وضوح وتبين من يدعى خلفه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن يجلس على منبره، والأعجب من ذلك حال الأشخاص الذين قرأوا سيرته وتاريخه ومع ذلك يعتبرونه من الصحابه الأجلاء لرسول الله صلى الله عليه وآله ولا- يبيحون أيه إهانته تلحق به! هذه نتيجة التعصب الأعمى الذي يجر الإنسان إلى كثير من البلايا والآفات.

ص: ٧٦

١- (١). أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٦٢ (مع التخليص).

ويتابع الإمام عليه السلام خطابه لعمر بن العاص:

«فَاتَّبَعْتَ أَثْرَهُ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ؛ اتَّبَاعَ الْكَلْبِ لِلضَّرْغَامِ (١) يُلَوِّذُ بِمَخَالِبِهِ (٢)، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيْسَتِهِ (٣) فَأَذْهَبَتْ دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ!».

وعاده في مثل هذه الموارد يتم التشبيه بالثعلب الذي يتحرك تبعاً للأسد المفترس لينتفع من فضلات مائدته وبقايا فريسته، ولكن الإمام عليه السلام استخدم التشبيه بالكلاب بدل الثعلب، لإظهار شدّة دنائه ووقاحه عمرو بن العاص، ونعلم أنّ عمرو بن العاص هو الشخص الذي لم يكن قادراً على تولى الحكم والإماره بنفسه، ولكن من خلال مكره ودهائه في تقديم الخدمه لمعاويه بحيث أنّه أعطاه أخيراً ولايه مصر، فكان أن خسّر الدنيا، لأنّه لم يبق له سمعه فيها، وخسر الآخره بما لا حاجه لبيانه.

وجاء في كتاب تاريخ اليعقوبى أنّ عمرو بن العاص عندما دنت منه الوفاه نظر إلى أمواله الكثيره (وقد صعب عليه أن يفارقها جميعاً ويذهب خال اليدين) فقال لابنه: «ودّ أبوك أنّه كان مات في غزاه ذات السلاسل، إنّي قد دخلت في أمور ما أدري ما حجّتي عند الله فيها»، ثم نظر إلى ماله فرأى كثرته وقال: «ياليتّه كان بعراً ياليتني مت قبل هذا اليوم بثلاثين سنه، أصلحت لمعاويه دنياه وأفسدت ديني، آثرت دنياي وتركت آخرتي، عمى عليّ رشدي حتى حضرني أجلى، كآتني بمعاويه قد حوى مالي وأساء فيكم خلافتي» (٤).

ويواصل الإمام عليه السلام توبيخه لعمر بن العاص ويقول:

«وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكَتَ مَا طَلَبْتَ».

إشاره إلى أنّك كنت تملك الدنيا والآخره لأنك تملك الاستعداد الكافي للفوز بهما، ولكنك للأسف قد سرت في طريق الباطل وتوغلت في الرذيله في حين أنّ

ص: ٧٧

١- (١). «الضَّرْغَامِ»، يعنى الأسد.

٢- (٢). «مَخَالِبِ» من ماده «مخلب» على وزن «منبر» أظافر الحيوان المفترس.

٣- (٣). «فَرِيْسَتِهِ»، الصيد، من ماده «فرس» على وزن «فقط» بمعنى القتل.

٤- (٤). تاريخ اليعقوبى، ج ٢، ص ٢٢٢، وللمزيد من الاطلاع انظر شرح الخطبه ٨٤ من هذا الكتاب، ج ٣.

الكثير من الناس يمكنهم وبواسطه ذكائهم وقابلياتهم أن يعيشوا السعاده فى الدنيا ويتنعمون بها بطريق حلال دون أن يضر ذلك بآخرتهم ولكنهم قد يخطئون المسار ويتكبرون عن الطريق.

وهنا ربّما يثار هذا السؤال وهو: لو أنّ عمرو بن العاص كان قد أذعن للحق، فهل سيعطيه الإمام عليه السلام ما أراد، مثلاً يعطيه إماره مصر، فى حين أنّ سيره الإمام على عليه السلام تأبى ذلك؟

وفى مقام الجواب عن هذا السؤال يمكن القول: إنّ عمرو بن العاص إذا كان واقعاً يطلب الحقّ ويسير فى الصراط المستقيم ويعيش تقوى الله تعالى، فإنّه بما لديه من ذكاء ومواهب يكون جديراً بهذا المقام فلا يبعد أنّ الإمام عليه السلام سيكلفه بتولى هذا المنصب، أضف إلى ذلك أنّ المراد بجمله: «ما طلبت» ليس فقط حكمومه مصر، بل أن يملك الإنسان المقام اللائق حتى لو كان مقاماً أدنى من حكمومه مصر.

وفى ختام هذه الرساله ينطلق الإمام عليه السلام من موقع التهديد لمعاويه وعمرو ويقول:

«فَإِنْ يُمَكِّنِي اللَّهُ مِنْكَ وَمِنْ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا، وَالسَّلَامُ».

وقد أورد بعض شراح نهج البلاغه فى هذا المورد بحثاً يتلخص فى أنّ الإمام عليه السلام إذا كان قد انتصر على معاويه وعمرو بن العاص فهل سيقتلها، أو أنه سيعفو عنهما، أو سيعاقبهما بعقوبه أخرى؟ ورغم أنّ الكلام عن مسأله لم تقع إطلاقاً لا يعدّ ذا فائده، ولكن من المعلوم أنّ الإمام عليه السلام إذا كان يعفو عنهما فإنه لا يعفو عن حقّ الناس، وما إرتكباه من جرائم وجنایات فى سبيل تحقيق مطامعهما فى الرئاسه والدنيا، والشاهد على هذا الكلام ما ورد فى ذيل هذه الرساله وروایات أخرى قال:

«فَإِنْ يُمَكِّنِي اللَّهُ مِنْكَ وَمِنْ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا».

١. عمرو بن العاص في الجاهلية والإسلام

يقول العالم المصرى المعروف «محمّد عبده» في شرحه لنهج البلاغه في مستهل هذه الرساله: «من مآسى الزمن ومهازله في الوقت نفسه أنّ عمرو بن العاص هو الذى أرسلته قريش إلى نجاشى الحبشه يطالب بتسليم جعفر بن أبى طالب ومن معه من المهاجرين، وردّهم إلى مكّه لترى فيهم قريش رأيها، وأنّ عمرو بن العاص نفسه هو الذى قاتل على بن أبى طالب في صفين، فبنفس الروح التى قاتل بها ابن أبى طالب الأوّل، قاتل بها ابن أبى طالب الثانى، وهكذا كانت محنه الإسلام فى أنّ الذين قاتلوه لدى ظهوره عادوا يقاتلونه بعد انتصاره، فتلبس بلباس الإسلام نفسه.

ثم يضيف هذا العالم المصرى: وقد كان لعمرو بن العاص ما أراد من أن يكون له مصر طعمه خالصه، وذلك صورته من صور حكم ابن العاص بمصر.

ثم ينقل عن المقريزى وهو من أشهر مؤرخى القرن التاسع قوله: خلف عمرو بن العاص سبعين بهاراً دنانير، والبهار جلد ثور، وبلغه إردبان بالحصرى، هذا ما انتهى إليه أمر الإسلام: سبعون بهاراً دنانير منهوبه من أقوات الشعب وأرزاقه يخلفها وال واحد»(١).

٢. بعض أعمال معاويه

نقل ابن أبى الحديد فى شرحه لهذه العبارة من كلام الإمام عليه السلام:

«ظَاهِرٌ غَيْثٌ»، يقول: «فأما قوله عليه السلام فى معاويه: «ظاهر غيث»، لا ريب فى ظهور ضلاله وبغيه، وكلّ باغٍ هاوٍ، أمّا

«مَهْتُوكٌ سِتْرُهُ» فإنّه كان كثير الهزل والخلاعه، صاحب جلساء وسمار، ومعاويه لم يتوقّر ولم يلزم قانون الرئاسه إلّا منذ خرج على أمير المؤمنين عليه السلام،

ص: ٧٩

واحتاج إلى الناموس والسكينه، وإلّا فقد كان في أيام عثمان شديد التهتك موسوماً بكلّ قبيح، وكان في أيام عمر يستر نفسه قليلاً خوفاً منه، إلّا أنه كان يلبس الحرير والديباج، ويشرب في آنيه الذهب والفضه، ويركب البغلات ذوات السروج المحلاه بها وعليها جلال الديباج والوشى، وكان حينئذٍ شاباً وفيه نزع الصبي، وأثر الشيبه وسكر السلطان والإمره ونقل الناس عنه في كتب السير أنه كان يشرب الخمر في أيام عثمان في الشام، وأمّا بعد وفاه أمير المؤمنين واستقرار الأمر له فقد اختلف فيه، فقيل: إنّه شرب الخمر في ستر، وقيل: أنه لم يشربه، ولا خلاف في أنه سمع الغناء وطرب له وأعطى ووصل عليه أيضاً^(١).

ص: ٨٠

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٦١.

إلى بعض عماله (١)

نظرة عامه للرساله

من هو المخاطب في هذه الرساله؟ لم يتحمل بعض الشراح عناء الفحص عنه ويبنوا ذلك بصوره إجماليه، ولكن يستفاد من البلاذري في «أنساب الأشراف» وابن الدمشقي في «جواهر المطالب»، أن المخاطب بهذه الرساله هو عبدالله بن العباس الذي كان والياً على البصره.

توضيح ذلك، طبقاً لما نقله هذان المؤرخان، كتب أبو الأسود رساله بهذا المضمون إلى أمير المؤمنين عليه السلام: إن الله تعالى قد جعلك والياً أميناً لنا عارفاً بوظيفتك، وقد اخترناك ورأيناك أميناً تريد خير الأمه وتؤدي حقها للبيت المال ومعرضاً عن الدنيا، وأنتك لم تنفق من أموال هذه الأمه شيئاً لنفسك ولم تقبل رشوه، ولكن ابن عمك تصرف في أموال بيت المال بدون علمك، ولم أر من السليم أن أكتمك هذا الأمر ولهذا كتبت لك هذا الكتاب.

ص: ٨١

١- (١). سند الرساله: ذكر هذه الرساله العقده الفريد (ابن عبد ربه المتوفى، ٣٢٨ هـ) (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٥٥) والعجيب أن الشارح المعروف ابن ميثم لم يذكر هذه الرساله في شرحه لنهج البلاغه.

وفى مقام الإمام عليه السلام الجواب عن هذه الرسالة إلى أبى الأسود الدؤلى يشكره فيها على موقفه هذا، ثم كتب الرسالة مورد البحث إلى ابن عباس (١)، ويتحدث فيها معه بلغه التوبيخ واللوم ولكن ليس على محمل على القطع واليقين، بل ورد كلامه عليه السلام فى هذه الرسالة بأنه إذا كان ما وصلنى صحيحاً وقد عصيت أمرى ولم يؤدِّ حقَّ الأمانه... وكذلك أمره بأن يرسل له فوراً حساب بيت المال، وفى ختام الرسالة يحذّره من الحساب الإلهى الذى هو أدق وأعظم من حساب الناس.

ولكن تردد بعض شراح نهج البلاغه فى كون هذه الرسالة إلى ابن عباس، واعتبر مقامه بشهادته التاريخ مقاماً شامخاً أن يكون قد ارتكب مثل هذه الأعمال.

والجدير بالذكر أنّ البلاذرى بعد ذكره لرساله أبى الأسود ورساله الإمام عليه السلام لابن عباس قال: إنّ ابن عباس كتب كتاباً للإمام على وصرح فيها أنّ الخبر المذكور غير صحيح (ومن أخبرك بهذا الخبر إمّا أنّه أخطأ فى ذلك أو لديه غرض معين).

أمّا نص رساله ابن عباس للإمام عليه السلام:

«أما بعد فإنّ الذى بلغك عنى باطلٌ وأنا لما تحت يدي أحوطٌ وأضبطُ فلا تُصدِّقْ على الإطناءِ رَحِمَكَ اللهُ والسَّلام».

وسياتى المزيد من التوضيح فى هذا الموضوع فى رساله الآتية.

ص: ٨٢

١- (١). أنساب الأشراف البلاذرى، ص ١٦٩؛ جواهرالمطالب ابن الدمشقى، ج ٢، ص ٧٩.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ، إِنَّ كُنْتِ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسِيخَطْتَ رَبِّكَ، وَعَصَيْتِ إِمَامِيكَ، وَأَخْزَيْتِ أَمَانَتِيكَ. بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ الْأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ، وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ، فَارْفَعِي إِلَيَّ حِسَابَكَ، وَاعْلَمِي أَنَّ حِسَابَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: سخط الله وعصيان الإمام

يقول الإمام عليه السلام في مستهل هذه الرسالة القصيره والمثيره:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ، إِنَّ كُنْتِ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسِيخَطْتَ رَبِّكَ، وَعَصَيْتِ إِمَامِيكَ، وَأَخْزَيْتِ (١) أَمَانَتِيكَ».

في هذه العبارة الموجزه نرى أَنَّ الإمام عليه السلام تحدّث مع مخاطبه ابن عباس (أو شخص آخر) بعبارات من موقع الاحتياط، فلم يقل إنك قد ارتكبت إثماً في هذه الأعمال بل يحذّره بأنّه إذا ما وصلني من الخبر صحيحاً فأنت مسؤول أمام الله تعالى وأمام إمامك، وقد افتضحت أمام الناس والأئمّه.

ما أبلغ وأدقّه هذا التعبير بأنّ الإنسان وبسبب ارتكابه لبعض الأمور تسقط شخصيته ومكانته أمام الله والإمام والناس أجمعين.

وجمله

«وَأَخْزَيْتِ أَمَانَتِيكَ» ربّما تشير إلى الأمانه في المقام والمنصب أى مقام

ص: ٨٣

١- (١) «أَخْزَيْتِ» من ماده «خزى» على وزن «حزب» فى الأصل تعنى الإنكسار الروحى والخجل، الذى تصيب الإنسان إمّا من ناحيه ذاتيه وبشكل حياء مفرد، أو من ناحيه أخرى يفرض على الإنسان من خارجه وهذه المفرده تاره تأتى بمعنى السقوط فى البلاء، وأخرى الفضحيه والخجل الناشئ منه.

الولاية، وفيها إشاره إلى أن عملك يتضمّن فضيحتك في أمر الولاية، أو إشاره إلى الأمانة والاعتبار والحيشه في نظر الناس، أى أنك فضحت نفسك أمام الخلق فلا اعتبار لك بينهم.

ثم بيّن الإمام عليه السلام توضيحاً أكثر في هذا المجال وهو في الحقيقه تفصيل بعد الإجمال، وتبين بعد الابهام، يقول:

«بَلَّغْنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ الْأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ، وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ».

وجمله

«جَرَّدْتَ الْأَرْضَ» أى جعلته عاريه وجرءاء ربّما تكون إشاره إلى أنك أخذت المحصولات الزراعيه للأراضى الخراجيه لنفسك، وكذلك يمكن أن تكون إشاره إلى تخريبه للأراضى الزراعيه بسبب سوء تدبيره، واحتمل بعضهم أن الأرض هنا بمعنى أرض بيت المال، يعنى أنك أخذت الأموال الموجوده فى بيت المال وجعلته خالياً، ولكن الاحتمال الأول والثانى أقوى حسب الظاهر.

والجدير بالالتفات إلى أن كلمه «جَرَّدْتَ» من ماده «جريد» ويعنى تعريه الشىء، ومن هنا قيل للجراد «جراد» لأنه يعرى الأرض ويأكل الأشجار ويجعل الأرض والأشجار عاريه.

وفى ختام هذه الرساله يقول عليه السلام:

«فَارْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ وَالسَّلَامُ».

وبديهى أن حساب الناس أحياناً يخالطه الاشتباه والغفله، وأحياناً يستطيع المرء إخفاء بعض النواقص عنهم، فى حين أن الحساب الإلهى لا يمسه الخطأ والاشتباه، ولا يستطيع أى شخص إخفاء أعماله فى حكمه العدل الإلهيه، كما يقول القرآن الكريم: «يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ» (١).

والمراد من الحساب الذى أشار إليه الإمام عليه السلام حساب ما يتجمع فى بيت المال

ص: ٨٤

أعم من محصولات الأراضى الخراجيّه والزكاه والغنائم وأمثال ذلك، إذ أنّ الوالى مكلف أن يكتب للإمام عليه السلام مجموع المكتسبات وكذلك النفقات، ليتبين هل هناك حيف واختلاس فى بيت المال أم لا؟

ص: ٨٥

إلى بَعْضِ عَمَّالِهِ (١)

نظرة عامه للرساله

هذه الرساله كما سيأتى بيانه بشكل تفصيلى فى نهايه هذا البحث، كتبها الإمام عليه السلام لعبد بن عباس كما هو معروف، وفيها يوبّخه الإمام على عدم رعايه الموازين الصحيحه فى بيت المال، وكذلك يهيب به كالأب المتحرق الذى يرى ابنه يسير فى طريق الخطأ والزيغ، ويدعوه إلى إصلاح المسير والعوده إلى الطريق القويم، ومن هنا يوجّه الإمام عليه السلام لابن عباس كلمات لاذعه ويخاطبه بلغه التأنيب والتوبيخ.

وفى القسم الأول من هذه الرساله يذكره الإمام عليه السلام بإحسانه له أنّه كان يعتبره من

ص: ٨٧

١- (١). سند الرساله: أورد ابن قتيبه (المتوفى سنه ٢٧٦) مقاطع من هذه الرساله فى كتاب عيون الأخبار، والبلاذرى (المتوفى ٢٧٩) فى كتاب أنساب الأشراف، وابن عبد ربه (المتوفى ٣٢٨) فى العقد الفريد، وهؤلاء جميعاً عاشوا قبل السيّد الرضى، ومن الأشخاص الذين جاءوا بعد السيّد الرضى وذكروا هذه الرساله فى كتبهم، أحمد بن محمّد بن الميدانى فى مجمع الأمثال، وسبط بن الجوزى فى تذكره الخواص. يقول ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغه: اتفق الرواه على أنّ هذه الرساله من الإمام على عليه السلام وقد وردت فى أكثر الكتب التاريخيه. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٤٤).

خواصه وقد أوكل إليه أحد المناصب المهمّة في حكومته، أى منصب والى البصره.

وفى القسم الثانى يشير الإمام عليه السلام إلى إساءه هذا الوالى ويوبّخه على عدم رعايه موازين العدل فى أمر بيت المال ويأمره بتقوى الله تعالى وإعاده أموال المسلمين إلى بيت المال.

وفى القسم الثالث، يقسم الإمام عليه السلام لو أنّ ولديه الحسن والحسين عليهما السلام مع شدّه قريهما إليه، قد إرتكب مثل هذا العمل فإنّ سيقف منهما موقفاً حازماً ولا يتسامح معهما فى هذا الأمر.

وفى القسم والرابع والأخير من هذه الرساله يحذّره الإمام عليه السلام ويبيّن له فناء الحياه الدنيا وعدم ثباتها وأنّه سيرحل منها عمّا قريب، وسيحضر فى محضر محكمه العدل الإلهى وعليه أن يجيب على ما إرتكبه من أعمال سيئه وأنّه سيندم حين ذاك على الكثير من أعماله حيث لا ينفع الندم.

أمّا بالنسبه للمخاطب فى هذه الرساله وهل أنّه عبد الله بن عباس حقيقه، وهو من أصحاب الإمام على عليه السلام المعروفين، أم أنّه أخوه عبيدالله أم شخص آخر؟ هناك خلاف كثير بين المؤرخين وشراح نهج البلاغه وعلماء الرجال، وسنشير إلى هذه المسأله فى ختام هذه الرساله وسنبيّن ما هو الأقرب فى نظرنا.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبِطَانَتِي، وَلَمْ يَكُنْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي لِمَوَاسَاتِي وَمُؤَاوَزَتِي وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ، فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلَبَ، وَالْعَدُوَّ قَدْ حَرَبَ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزَيْتَ، وَهَذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ فَنَكْتَ وَشَغَرْتَ، قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهَرَ الْمِجَنِّ فَفَارَقْتَهُ مَعَ الْمُفَارِقِينَ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَادِلِينَ، وَخُنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ، فَلَا ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ، وَلَمَّا الْأَمِيَانَةَ أَدَيْتَ. وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ اللَّهُ تُرِيدُ بِجَهَادِكَ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّكَ، وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَتَتَوَى غَرَّتُهُمْ عَنْ فَيْئِهِمْ، فَلَمَّا أَمَكَّنْتَكَ الشَّدَّةَ فِي خِيَانَةِ الْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْكُرَّةَ، وَعَاجَلْتَ الْوُجْبَةَ، وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ الْمَصُونَةَ لِأَرَامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمْ اخْتِطَافَ الذَّنْبِ الْمَازِلِ دَامِيَةِ الْمِعْزَى الْكَسْبِيَّةِ، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبِ الصَّدْرِ بِحِمْلِهِ غَيْرِ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أَخْذِهِ، كَمَا أَنَّكَ لِأَيَّا الْغَيْرِ كَ حَادَرْتَ إِلَى أَهْلِكَ تَرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمَّكَ، فَسَبِّحَانَ اللَّهَ! أَمَّا تُوْمِنُ بِالْمَعَادِ؟ أَوْ مَا تَخَافُ نِقَاشَ الْحِسَابِ!

الشرح والتفسير: ألا تؤمن بالمعاد؟!

في بدايه هذه الرساله يشير الإمام عليه السلام إلى تعاطفه وحبّه لهذا الوالى ويذكره بخدماته ومؤازرته له في مواقع الشدّه ليثير فيه الشعور بالندم ممّا اقترفه من خطئه يقول عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي (١)»

ص: ٨٩

١- (١). «شِعَار» يطلق على الملابس الداخليه التي تلتصق بشعر بدن الإنسان، ومن هذه الجبهه تطلق هذه الكلمه على صاحب السرّ ومحرم الأسرار، في مقابل «دثار» وتعنى اللباس الخارجى، ومفرده «شعار» لها معنى آخر وهو العلامه، وكذلك تطلق على الكلمات والعبارات التي تشير إلى أهداف القوم والجماعه، وقد وردت في رساله أعلاه بالمعنى الأول.

وِبَطَانَتِي (١) ، وَلَمْ يَكُنْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي لِمَوَاسَاتِي وَمُؤَاذَرَتِي (٢) وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ».

يشير الإمام عليه السلام في هذه العبارات المقتضبه إلى ثلاث نقاط فيما يتصل بهذا الوالى:

١. إن هذا الوالى كان سهيماً ومؤازراً للإمام عليه السلام فى إداره وتديبر أمر الحكومه والأمة وكان يملك أحد أهم المناصب الحساسه فى الدوله.

٢. أنه كان محرم أسرار الإمام عليه السلام ومن بطانته والموثوقين فى الأمور.

٣. كان هذا الوالى من أكثر الولاة قرباً واعتماداً لدى الإمام عليه السلام من بين جميع أقربائه وأرحامه، ومن هذه الجبهه لم يكن يتوقع فى مقابل كل هذا الاعتماد والمحبه أن يقوم بعمل سلبى تجاه حكومه الإمام.

ثم يستعرض الإمام عليه السلام مخالفات واليه وعامله وبيئته الكلام بالقول:

«فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلَبَ (٣) ، وَالْعَدُوَّ قَدْ حَرَبَ ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزَيْتَ ، وَهَذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ فَتَكَّتْ (٤) وَشَعَرَتْ (٥) ، قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ الْمَجْنِّ (٦) فَفَارَقْتَهُ مَعَ

ص: ٩٠

١- (١) . «بطانته» وتعنى أيضاً الملابس الداخليه، فى مقابل «ظهاره» وتعنى اللباس الخارجيه، وكذلك تطلق كلمه بطانه على أصحاب السر من الأصدقاء الموثوقين، ومراد الإمام عليه السلام من هذه المفرده المعنى الأخير.

٢- (٢) «مؤازرته» تعنى المعاونه من ماده «وزر» بمعنى الثقل، لأن الشخص الذى يساعد الآخر بأنه يحمل ثقله على ظهره، ومن هذه الجبهه اطلقت كلمه وزير على معاون الملك أو الزعيم.

٣- (٣) . «كَلَبَ» فعل ماضى من ماده «كلب» على وزن «قلب» وفى الأصل تعنى الحصان بالمهميز. (المهميز شىء له نصل مدبب يوضع إلى قطب الحصان فيستفاد منه الراكب لحث الفرس على السرعة) وكَلَبَ تعنى هنا الشده والصعوبه.

٤- (٤) . «فَتَكَّتْ» فعل ماضى من ماده «فَتَكَّتْ» على وزن «قلب» وتعنى العدوان والتمرد واللجاجه.

٥- (٥) «شَعَرَتْ» فعل ماضى من ماده «شَغَرَ» على وزن «صبر» وتعنى عدم الملجأ ما يدافع به.

٦- (٦) «الْمَجْنِّ» تعنى الدرع من ماده «جَنَ» على وزن «فن» وتعنى التغطيه، لأن الدرع يغطى الإنسان من ضربات العدو.

مُفَارِقِينَ، وَخَذَلْتُهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ، وَخُنْتُهُ مَعَ الْخَائِنِينَ، فَلَا ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ (١)، وَلَا الْأَمَانَةَ أَدَيْتَ».

وجمله

«قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهَرَ الْمَجْنُونِ» تعنى فى معناها الحرفى: قلبت الدرع لابن عمك على باطنه، وهى كناية عن إعراضه عن الإمام عليه السلام، لأنَّ المجاهدين فى ميدان الحرب عندما يواجهون الطرف الآخر وجهاً لوجه يلبسون الدروع أمامهم ويكون ظهر الدرع فى الواجهه، ولكن فى حالة الهرب يكون باطن الدرع فى مواجهتهم، ومن هذه الوجهه استخدمت هذه الحاله كناية عن الشخص الذى يعرض عن شخص آخر أو عن شىء.

وفى الجمل الخمس الأولى يرسم الإمام عليه السلام حاله الزمان: صعوبه الظروف فى المحيط الاجتماعى، جرأه العدو فى الحرب، عدم اهتمام الناس بأمر الأمانه، عدوان الأئمة على الأحكام الإلهية.

ثم يستعرض الإمام عليه السلام مخالفات ابن عمه معه من أبعاد مختلفه وذلك فى عدده جمل: الإعراض عن الإمام، التماهى مع المناوئين، خذلانه للإمام وعدم نصره الحق، الانسياق مع الخاذلين وخيانتته لبيت المال مع الخائنين، وعلى ضوء ذلك فإن جميع هذه الصفات التى أطلقها الإمام عليه السلام عليه بهذه الجمل البليغه والزاهره بالمعنى جسد الإمام حالات هذا الوالى الذى خذل الإمام فى ساعات المحنه، ونرى الإمام عليه السلام بين الجملتين الآخرتين بفاء التفريع: مفارق الإمام مع المفارقين والخيانة فى الأمانه.

ثم إن الإمام عليه السلام يتحرك لرصد أعمال هذا الوالى ويتحدث معه بلغه الوجدان لإثاره أحاسيسه الدينيه بهذه العبارات:

«وَكَاأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ اللَّهُ تُرِيدُ بِجِهَادِكَ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّكَ، وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَيْدَةَ الْأُمَّةِ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَتَتَوَى غَرَّتَهُمْ (٢) عَنْ فَيْئِهِمْ».

ص: ٩١

١- (١). «آسَيْتَ» من ماده «مُواساه» وتعنى المعاونه والمساعده.

٢- (٢) «غَرَّه» وتعنى الخدعه والإغفال.

بدايه يشكك الإمام عليه السلام، في هذه الجمل الثلاثه، في إخلاص تيه هذا الوالى في أمر الجهاد، ثم يشكك الإمام في كون أعماله تستند إلى الدليل والبينه الشرعيه، وأخيراً يشبه الإمام عليه السلام عمله بمن يريد إغفال الناس وخداع الأمه لسلب حقوقهم من بيت المال.

ولعل هذا الوالى (سواء كان ابن عباس أو غيره) عند قراءته لهذه العبارات والجمل يستيقظ ضميره ويتحرك على مستوى إعادته أموال بيت المال.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه لهذا الوالى ويقول:

«فَلَمَّا أَمَكَّنِيكَ الشَّدَّةُ فِي خِيَانِهِ الْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْكُرَّةَ (١)، وَعَاجَلْتَ الْوُثْبَةَ (٢)، وَاخْتَطَفْتَ مَيَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الْإِهْمِ الْمَصُونَةِ لِأَرَامِلِهِمْ وَأَيَّتَامِهِمْ اخْتِطَافَ (٣) الذُّبِّ الْأَزْلَ (٤) دَامِيَةَ (٥) الْمِعْزَى (٦) الْكَسِيرَةَ (٧)، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبَ (٨) الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ غَيْرَ مُتَأْتِمٍ (٩) مِنْ أَخِيهِ، كَأَنَّكَ لِأَبَا لَيْغِيرِكَ حَدَرْتَ (١٠) إِلَى أَهْلِكَ تُرَاثِكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمَّكَ».

هذه العبارات البليغه في خطاب الإمام عليه السلام ناطقه بالمعنى وتشبيه الإمام لحاله

ص: ٩٢

- ١- (١). «كُرَّة» تعنى الهجوم.
- ٢- (٢) «الْوُثْبَةُ» من ماده «وُثْب» على وزن «وصف» تعنى الانتصار، ثم استعملت بمعنى القفز للامساك بشىء.
- ٣- (٣). «اخْتِطَافَ» تعنى أخذ الشىء بسرعة.
- ٤- (٤) «الْأَزْلَ» من ماده «زَلَلَ» تعنى الإنسان أو حيوان الذى يملك أفخذاً ضعيفه، وبما أن مثل هذا الشخص باستطاعته الركض بسرعة فأطلقت هذه الكلمه بمعنى السريع وفى العُدُو.
- ٥- (٥) «دَامِيَةَ» تعنى المجروحه والتى يخرج منها الدم، من ماده «دَم».
- ٦- (٦) «الْمِعْزَى» فصيله من الغنم واليشاه.
- ٧- (٧) «الْكَسِيرَةَ» التى تكسر عظمها، وعندما تستعمل فى الأغنام وأمثالها تأتى بمعنى المكسوره اليد أو الرجل.
- ٨- (٨). «رَحِيبَ» بمعنى الواسع من ماده «رُحِب» على وزن «قفل» وتعنى السعه، ورحيب الصدر يقال للشخص البارد المزاج والذى يملك سعه الصدر وعدم المبالاه فى مواجهه المثيرات.
- ٩- (٩) «مُتَأْتِمٍ» الشخص الذى يشعر بالذنب.
- ١٠- (١٠) «حَدَرْتَ» من ماده «حَدَرَ» على وزن «قدر» بمعنى الهبوط والنزول إلى الأسف، وبما أن النزول عادته يتم بسرعة، فاطلقت هذه الكلمه على السرعة أيضاً.

هذا الشخص صريح وشديد ولا يمكن تصور بيان المقصود بأبلغ من هذه العبارات الدقيقة والكلمات المتماسكه.

عبارة تعبير به

«أَسْرَعَتِ الْكُرَّةَ» و

«عَاجَلَتِ الْوُثْبَةَ» و

«اخْتَطَفَتْ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ» وتشبيهه بالذئب الذى يجرح ويدمى المعزى الكسيره، وكذلك قوله:

«تُرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ» وكأنه يحسب أن بيت المال كميراث ورثه من والديه، كلها جمل معبره عن شناعه وقباحه هذا العمل الذى يقام به هذا الوالى.

جمله

«لَا أَبَا لِعَيْرِكَ...» تعدد نوعاً من الاحترام لذلك الوالى، لأنه عندما تحقير شخص: «لا أبا لك» ومن هذا المنطق فالإمام عليه السلام فى الوقت الذى يخاطب فيه هذا الوالى بتلك العبارات اللاذعه والتوبيخات القارعه، فإنه لا يزال يحترمه بالمقدار اللازم.

وبعبارة تعبير به

«تُرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ» تعبير جميل يقال فى هذه الموارد بالنسبه للشخص الذى يقع على أموال ويتصرف بها دون وازع فيقال له: كأن هذا المال إراثاً ورثته من أبيك وأمك.

وفى ختام هذا المقطع من الرساله يظهر الإمام عليه السلام تعجبه الشديد من هذا السلوك المنحرف لعامله ويقول:

«فَسُبْحَانَ اللَّهِ! أَمَا تُوْمِنُ بِالْمَعَادِ؟ أَوْ مَا تَخَافُ نِقَاشَ (١) الْحِسَابِ!».

وهذه إشاره إلى أن الشخص الذى يؤمن بالقيامة والمعاد ويعتقد حقاً ما ورد فى قوله تعالى: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» (٢).

لا- ينبغى أن يتصرف فى أموال بيت المال مثل هذا التصرف الذميم، فمثل هذا العمل يتقاطع مع الإيمان والاعتقاد بالمعاد الحساب، أو أن يكون إيمانه ضعيفاً إلى درجه وكأنه قد نسى يوم القيامة وما سيوجهه من حساب على أعماله.

ص: ٩٣

أَيُّهَا الْمَعْدُودُ - كَانَ - عِنْدَنَا مِنْ أَوْلَى الْأَلْبَابِ، كَيْفَ تُسَيِّغُ شَرَابًا وَطَعَامًا.

وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَامًا وَتَشْرَبُ حَرَامًا، وَتَبْتَاعُ الْإِمَاءَ وَتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْأَمْوَالِ، وَأَحْرَزَ بِهِمْ هَذِهِ الْبِلَادَ! فَاتَّقِ اللَّهَ وَارْزُقْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنِي اللَّهُ مِنْكَ لِأَعْيِدَنَّ إِلَى اللَّهِ فِيكَ، وَلَأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَدًا إِلَّا دَخَلَ النَّارَ! وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ، وَلَا ظَفِرًا مَنِي بِإِرَادِهِ، حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُمَا، وَأُزِيحَ الْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتَيْهِمَا، وَأُقْسِمَ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا يَسِيرُنِي أَنَّ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي، أَثْرُكُهُ مِيرَاثًا لِمَنْ بَعْدِي، فَضَحَّ رُؤْيِدًا، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَى، وَدَفَنْتَ تَحْتَ الثَّرَى، وَعَرَضْتَ عَلَيْكَ أَعْمَالِكَ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمُ فِيهِ بِالْحَسِيرِ، وَيَتَمَنَّى الْمُضَيِّعُ فِيهِ الرَّجْعَةَ «وَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ».

الشرح والتفسير: لا أتسامح في بيت المال حتى مع أولادي

في هذا المقطع من الرسالة يواصل الإمام عليه السلام توبيخه وإعتراضه الشديد لعامله ويقول:

«أَيُّهَا الْمَعْدُودُ - كَانَ - عِنْدَنَا مِنْ أَوْلَى الْأَلْبَابِ، كَيْفَ تُسَيِّغُ (١) شَرَابًا وَطَعَامًا.

ص: ٩٥

١- (١). «تَسَيِّغُ» من مَادِه «سَوَّغَ» على وزن «قوم» بمعنى الهنيء وتطلق عادة على الأَطْعَمَةِ والأَشْرَبِ، وَلَكِنَّهَا تَسْتَعْمَلُ كُنَايَةً فِي أُمُورٍ أُخْرَى أَيْضًا.

وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَامًا، وَتَشْرَبُ حَرَامًا، وَتَبْتَاعُ الْإِمَاءَ وَتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ أَفَاءَ (١) اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْأَمْوَالُ، وَأَحْرَزَ بِهِمْ هَذِهِ الْبِلَادَ!.

والتعبير بـ «كان» ناظر إلى الماضي إلى أنك كنت عندنا في السابق من العقلاء وأهل الحزم والحنكة، ولكنك بهذا العمل الذي صدر منك، فقدت ذلك الموقع ولم تعد كما كنت في السابق.

جملة

«كَيْفَ تُسَبِّحُ..» إشاره إلى أن جميع حياتك ومعيشتك ستختلط بالحرام وسيكون ما أكلك ومشربك من مال المقتصد من بيت المال، فلا يجوز لك تناول شيء من هذا المأكل والمشرب، وهكذا في الجوارى التي تشتريها بهذا المال الحرام أو الزوجات التي تدفع لهنّ المهر من هذا المال الحرام كل ذلك يتسبب في أن تكون حياتك العائليه ومعيشتك ملوثة بالحرام.

جملة

«مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ...» إشاره إلى أنه إذا كانت هذه الأموال متعلقه بأشخاص أثرياء فإنّ قبح هذا العمل وغضب هذه الأموال كان أقلّ شناعه، وأما إذا كان الغضب من متعلقاً بأموال اليتامى والمحرومين والمجاهدين في سبيل الله فسيكون أقبح وأشنع بمراتب عديده.

ثم إنّ الإمام عليه السلام بعد هذا التوبيخ المطول يستنتج من ذلك:

«فَاتَّقِ اللَّهَ وَارْزُقْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ».

ثم يتحرك الإمام عليه السلام في خطابه لهذا الوالى بلغه التهديد الشديد، ويقول:

«فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنِي اللَّهُ مِنْكَ لَأُعَذِّبَنَّ (٢) إِلَى اللَّهِ فِيكَ، وَلَأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَدًا إِلَّا دَخَلَ النَّارَ!».

وهذه إشاره إلى أنني لا أسل سيفي إلّا في سبيل الله وفي مقابل أعدائه من قوى

ص: ٩٦

١- (١). «أفاء» من ماده «فأى» بمعنى العوده، وكأنّ الأموال التي بيد الكفار ذات طابع غصبى، فعندما تغنمها المسلمون منهم فإنّها تعود إلى أصحابها الأصليين.

٢- (٢). «أعذرن» من ماده «إعذار» بمعنى إظهار الشخص لعذره.

الظلم والكفر والانحراف، وأيما شخص ضربته بسيفي هذا فإن مصيره الحتمي سيكون إلى النار وبئس المصير.

وهنا ربّما يثار هذا السؤال، ولماذا يستحق الشخص المختلس لشيء من بيت المال للإعدام، في حين أنّ الوارد في الحدود الإسلاميّه أنّ مثل هذا السارق لا يستحقّ إلّا إجراء حدّ السرقة عليه، مضافاً إلى أنّ إجراء حدّ السرقة على هذا المورد بعيد أيضاً، لأنّ من شروط حدّ السرقة أن تقع السرقة من حرز، يعني أن يكون السارق قد سرق المال من حرز أو خزانه مقفوله، ويقوم السارق بكسر هذا القفل ويسرق ما فيه وحينئذٍ يترتب عليه حدّ السرقة، ونعلم أنّ الوالي مسلط على بيت المال وليس المال فيه مقفل وفي حرز.

وفي مقام الجواب عنه هذا السؤال يمكن القول، أولاً: أنّ مثل هذه السرقة مقترنه مع إنكار الحرمه، وبعبارة أخرى أنّ هذا المختلس كان يرى حليه مثل العمل وهذا بدوره نوع من إنكار الضرورى من الدين.

وثانياً: إنّ الإمام عليه السلام قال:

«وَوَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَعَلَمَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتُ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ (١)، وَلَمَا ظَفِرَا مِنِّي بِإِزَادَةٍ، حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُمَا، وَأُزِيحَ (٢) الْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتَيْهِمَا».

وبديهى أنّ مراد الإمام عليه السلام لا- يعني أبداً أن يقوم الإمام الحسن والحسين عليهما السلام بغصب أموال بيت المال، بل المراد بيان المبالغه في هذا المطلب وأنه لا أحد مصون عن العقاب في حال تخلفه عن الحقّ والعداله.

وبيان آخر أنّه يستفاد من القضيّه الشرطيّه التي تبدىء بكلمه «لو» وأمثالها لا يعنى احتمال وقوع الشرط، لأنّ مثل هذه التعبيرات ربّما تقال لتأكيد المطلب حتى في الأمور المستحيله، كما ورد في الآيه الشريفه: «قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ

ص: ٩٧

١- (١). «هَوَادَةٌ» بمعنى اللبونه والصلح والعلاقه بالشخص، وهنا جاءت بمعنى الأوّل.

٢- (٢) «أُزِيحُ» من ماده «إِزَاحَهُ» تعنى الإزاله.

العابدين» (١) وهذا التعبير يدل على تأكيد النفي لمقوله الجهلاء من أهل الكتاب الذين ينسبون الولد لله تعالى.

ويبين الإمام عليه السلام في هذا المقطع من كتابه من موقع التأكيد على أن المسائل العاطفية لا- ينبغي أبداً أن تتدخل في الأحكام الإلهية ولا- ينبغي أن يكون التعامل وفقاً للروابط على حساب الضوابط، كما ورد في القرآن الكريم في مسأله إجراء الحد الشرعي: «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ» (٢)، وفي مورد إجراء الحقوق يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا» (٣).

ثم يدخل الإمام عليه السلام من طريق آخر لا يقاط هذا الوالى العاصى من غفلته ويتحدث معه بلهجه الواثق وبلغه مؤثره ويقول:

«وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا يَسُرُّنِي أَنْ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي، أَتُرْكُهُ مِيراثاً لِمَنْ بَعْدِي».

وهذه إشاره إلى أن الأموال الكثيره حتى لو كانت حلالاً وقد اكتسبها الإنسان بطرق مشروعته لا توصل الإنسان إلى مرفأ السعاده والراحه، فكيف بها إذا كان قد استولى عليها بطريق حرام، لأنه لا سبيل له فى إنفاقها سوى أن يتركها ميراثاً لمن بعده، فيكون وزره ووباله عليه ولذته ونعيمه للآخرين، فهل من العقل أن يقدم الإنسان على مثل هذا العمل؟! فكيف الحال لو كان قد جمع هذا المال من طرق حرام وغير مشروعته فيما يترتب على ذلك من مصائب ووبال على صاحبه.

وفى هذا السياق ورد فى كتاب الكافى عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنه كان يدعو بهذا الدعاء:

«اللَّهُمَّ ارْزُقْ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ وَمِنْ أَحِبِّ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ الْعَفَافَ وَالْكَفَافَ وَارْزُقْ مَنْ أَبْغَضَ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ الْمِإَالَ وَالْوَالِدَ» (٤).

ص: ٩٨

١- (١) . سورة الزخرف، الآية ٨١.

٢- (٢) . سورة النور، الآية ٢.

٣- (٣) سورة النساء، الآية ١٣٥.

٤- (٤) الكافى، ج ٢، ص ١٤٠، ح ٣. وردت روايات أخرى فى هذا الباب وفى هذا الموضوع.

وفى ختام هذه الرساله يشير الإمام عليه السلام إلى نهايه الحياه والحوادث التى سيواجهها الإنسان بعد مماته لغرض إيقاظ وجدان هذا الوالى وتحريك عناصر الخير فى نفسه وبيين له الخطر الكامن فى هذا الطريق الذى سلكه، يقول:

«فَضَحَّ (١) رُوَيْدًا، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَى (٢) ، وَدُفِنْتَ تَحْتَ الثَّرَى (٣) ، وَعَرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمَ فِيهِ بِالْحَسْرَةِ، وَيَتَمَنَّى الْمُضَيِّعُ فِيهِ الرَّجْعَةَ (وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ) (٤)».

وهنا نرى أنّ الإمام عليه السلام أميرالمؤمنين هو ذلك المعلم اليقظ والقائد الفذ يسعى لتنبه مخاطبه بهذه العبارات الشديده، ويلفت نظره إلى ما سيواجهه فى ساعات الموت ومن ثمّ الدفن تحت التراب والحضور فى ساحه المحشر للحساب فى محكمه العدل الإلهى وما سيعيشه من حالات الندم الشديد وتمنيه العوده للعالم ولكن بعد فوات الأوان كما تشير إلى ذلك الآيه الشريفه: «وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ» (٥).

تأمل

من هو ابن عباس؟

ص: ٩٩

١- (١) . «ضَحَّ» صيغه أمر من ماده «تَضَحَّيه» وفى الأصل تعنى رعى الأغنام عند طلوع الشمس، وجمله «فَضَحَّ رُوَيْدًا» تطلق على مورد يكون المقصود منه أنّ الأغنام تتحرك ببطء فى المرتع إلى أن تشبع تماماً، ثم استخدمت هذه الجمله فى الموارد التى يقصد منها الحفظ والهدوء.

٢- (٢) . «مَدَى» تعنى نهايه العمل والوصول إلى سنين المتقدمه.

٣- (٣) «الثَّرَى» تعنى التراب.

٤- (٤) مفرد «لَايَ» تعنى للنفى، وفى الأصل «لَا» النافيه، وأضيفت لها تاء التأنيث للتأكيد، «مَنَاصٍ» من ماده «نوص» وتعنى الملجأ والملاذ، يقال: إنّ العرب عندما يواجهون حادثه صعبه وموحشه وحاصه فى الحروب يكررون هذه الكلمه ويقولون: مناص، مناص، يعنى أين الملجأ، أين الملجأ؟ وبما أنّ هذه المفهوم يقترن مع الهرب والفرار، فإنّه يستخدم أحياناً محلّ الفرار والمهرب، ومن هذه الجبهه فإنّ جمله «وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ» تعنى: لا يوجد طريق للفرار والنجاه.

٥- (٥) سورة ص، الآيه ٣.

لا- شك أنّ ابن عباس معروفاً في الأئمة الإسلاميّة ولدى المذاهب المختلفة من الشيعة وأهل السنّة، معروفاً في العلم والمعرفة والفضل حتى أنّه لُقّب ألقاب مثل «حبر الأئمة» و «ترجمان القرآن» وقد أورد المؤرخون في سيرته أنّه كان قد حضر عند رسول الله صلى الله عليه وآله وهو في ريعان شبابه وقد سمع من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الكثير من الأحاديث الهامه والمذكوره في الكتب المعتمده، وكان ابن عباس مشهوراً بتفسير القرآن ومن أصحاب الرأي والنظر وكان التلميذ المخلص للإمام علي عليه السلام والمحب له.

ومن هذه الجبهه عندما يصل العلماء وشراح نهج البلاغه إلى هذه الرساله يترددون في كون المخاطب لها هو ابن عباس، فهذه الرساله تتضمن أشد أنواع التوبيخ والذم من الإمام علي عليه السلام لمخاطبه وأنّه يتهمه بالخيانة في بيت المال والاستيلاء على مبالغ كبيره من هذا المال ونقله من البصره إلى الحجاز.

وبخاصّه إذا أخذنا بنظر الحسبان الجواب الحاد والجرىء الذي كتبه ابن عباس في جوابه عن هذه الرساله وقد ورد في كتب التاريخ، فإنّ المسأله ستتعدد أكثر.

ومن هذه الجبهه انقسم المؤرخون الذين أوردوا هذه الرساله في كتبهم إلى ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى تقول: إنّ ابن عباس وإن كان يتمتع بمقام جليل ويعتبر من أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله المرموقين وقد أدرك النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في شبابه وصباه، إلّا أنّ ذلك لا يعنى أنّه معصوم من الخطأ وأنّه من البعيد صدور مثل هذا الزيف في حقّه، وطبقاً للمثل المشهور: «الجواد قد يكبو» فإنّ غير المعصوم ربّما يزل مثل هذه الزلّه مهما كان يملك من مقام ووجاهه.

وطائفة أخرى يعتقدون أنّ المخاطب لهذه الرساله هو أخو ابن عباس، أي عبيدالله بن عباس أو شخص آخر، ويستشهدون لذلك بعدّه شواهد وقرائن تاريخيه تؤكّد أنّ ابن عباس لم يقم بهذا العمل أبداً.

وهناك طائفة ثالثة لم تستطع أن تتخذ لها موقفاً في هذه المسأله مثل ابن أبي الحديد، الذي مرّ عليها مرور الكرام وتركها في إبهامها ولم يكشف اللثام عن

غموضها، حيث قال: «قد أشكل عليّ أمر هذا الكتاب، فإنّ أنا كذّبت النقل وقلتُ:

هذا الكلام موضوع على أمير المؤمنين عليه السلام، خالفت الرواه، فإنّهم قد أطبقوا على روايه هذا الكلام عنه، وقد ذكر في أكثر كتب السيره: إنّ صرفته إلى عبدالله بن عباس صدني عنه ما أعلمه من ملازمته إطاعه أمير المؤمنين عليه السلام في حياته وبعد وفاته، وإن صرفته إلى غيره لم أعلم إلى من أصرّفه من أهل أمير المؤمنين عليه السلام، والكلام يشعر بأنّ الرجل المخاطب من أهله وبنى عمّه، فأنا في هذا الموضع من المتوقفين»^(١).

ولكن الطائفة الأولى لم تقبل بهذا الكلام وذهبوا إلى أنّ المخاطب لهذه الرسالة للإمام عليه السلام هو ابن عباس مع حفظ جلاله قدره ومقامه.

ومن جملة هؤلاء «ابن ميثم» يقول في شرحه لنهج البلاغه: «وإعلم أنّ هذين القولين لا مستند لهما، أمّا الأوّل: فهو مجرّد استبعاد أن يفعل ابن عباس ما نسب إليه، ومعلوم أنّ ابن عباس لم يكن معصوماً وعلى عليه السلام لم يكن يراقب في الحقّ أحداً ولو كان أعزّ أولاده كما تمثّل بالحسن والحسين عليهما السلام في ذلك، فكيف بابن عمّه، بل يجب أن تكون الغلظه في الأقرباء في هذا الأمر أشدّ.

ثمّ إنّ غلظته عليه وعتابه له لا يوجب مفارقتة إياه، لأنّه عليه السلام كان إذا فعل أحد من أصحابه ما يستحق به المؤاخذه أخذه به سواء كان عزيزاً أو ذليلاً قريباً منه أو بعيداً، فإذا استوفى حقّ الله منه أو تاب إليه ممّا فعل عاد في حقّه إلى ما كان عليه كما قال: «القوى عندي ذليل حتى آخذ الحقّ منه والذليل عندي عزيز حتى آخذ الحقّ له»، فلا يلزم إذن غلظته على ابن عباس ومقابلته إياه بما يكره مفارقه له وشقاقه على ما بينهما من المحبّه الوكيده والقرايه.

وأما الثاني: فإنّ عبيدالله كان عاملاً له عليه السلام في اليمن ولم ينقل عنه مثل ذلك»^(٢).

أمّا من ذهب إلى القول الثاني فإنّه يرى أنّ عظمه مقام ابن عباس لا ينسجم أبداً

ص: ١٠١

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٧٢.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه، لابن ميثم، ج ٥، ص ٩٠.

مع مضمون هذه الرسالة لأنه «حبر الأمة» وبحر عميق من العلم والفضل وكان من أتباع وأنصار الإمام على عليه السلام ومتفانياً في خدمته والدفاع عنه في أيام المحنة التي لم يكن للإمام عليه السلام من أنصار إلا بعدد أصابع اليد، وحتى في معركة صفين عندما طرحت مسألة التحكيم نرى أنّ الإمام عليه السلام اختاره لأمر التحكيم في مقابل رجل داهيه وشيطان وهو عمرو بن العاص (رغم أنّ جماعه من الجهله والسفهاء اعترضوا على هذا الاقتراح ورشحوا إلى ذلك المنصب رجل سفيه مثلهم وهو أبو موسى الأشعري وأصرّوا على الإمام عليه السلام في قبوله) أجل فإنّ دلالة قدر ابن عباس ومقام الشامخ لا تتناسب ولا تنسجم مع إرتكابه لمثل هذه الأعمال.

ولكن هؤلاء لم يبينوا على وجه التحديد من هو المخاطب لهذه الرسالة، أضف إلى ذلك فهناك قرائن وشواهد أخرى تنفي أن يكون المخاطب لهذه الرسالة هو ابن عباس، ومن ذلك أنّهم ذكروا:

١. جاء في الأمالي للسيد المرتضى أنّ عمرو بن عبيد جاء إلى سليمان العباسي فسأله سليمان: هل سمعت بشعر الإمام على عليه السلام قال في ابن عباس: إنّه يفتنا في كلّ أمر ولكنّه يأخذ أموالنا في ليله واحده؟

فأجابه عمرو: لا يمكن أن يقول الإمام على عليه السلام مثل هذا الكلام عن ابن عباس وأنّ ابن عباس لم يترك الإمام على عليه السلام أبداً وكان حاضراً معه وإلى جواره إلى ساعه استشهاده، بل كان حاضراً أيضاً في واقعه صلح الإمام الحسن عليه السلام.

٢. وأضاف عمرو بن عبيد: كيف يعقل أن تجتمع كلّ تلك الأموال الكثيره في بيت مال البصره مع أنّ الإمام على عليه السلام كان بحاجة ماسه إلى المال وكان يوزع ما يتجمع في بيت المال على المحتاجين والفقراء في كلّ اسبوع حتى يفرغ كلّه ويأمر بكنس بيت المال كلّ يوم سبت، فمع هذه الحاله كيف يمكن لابن عباس أن يجمع كلّ هذه الأموال في بيت مال البصره؟ فمع الأخذ بنظر الاعتبار حاجه الناس إلى المال فإنّ ابن عباس كان قد نقل هذا المال إلى الكوفه.

٣. يروى الطبري في تاريخه في حوادث سنه أربعين عن أبي عبيده أن ابن عباس كان والياً على البصره إلى زمان استشهاد الإمام علي عليه السلام ثم جاء إلى الكوفه واشترك في مراسم صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاويه ثم عاد إلى الكوفه وجمع متعلقاته وأخذ معه قليلاً مبلغاً زهيداً من بيت المال وقال: أخذته هذا المبلغ من بيت المال بوصفه حقاً لي وكراتب أخذه من بيت المال (ثم توجه إلى الحجاز).

٤. يروى المرحوم المحقق التستري في شرحه لنهج البلاغه أن ابن عباس كان في البصره عند استشهاد الإمام علي عليه السلام جاء إلى الكوفه من فورهِ عندما سمع الخبر والتحق بالإمام الحسن عليه السلام، ولما قام الإمام الحسن بالقاء خطبه في صبيحه اليوم الذي استشهد فيه أبوه، قام ابن عباس بأخذ البيعه من أهل الكوفه للإمام الحسن عليه السلام واستجاب الناس له (١).

٥. على فرض أن هذه القصة تتعلق بابن عباس، ولكن ورد في بعض الروايات أولاً، أن الأموال المختلسه كانت قليلة، وثانياً: أن الإمام عليه السلام عندما أرسل له هذه الرساله قام ابن عباس بإعادة المال فوراً وإعتذر من الإمام علي ما صدر منه وقبل الإمام إعتذاره، كما يظهر يروى المرحوم التستري عن اليعقوبي أن ابن عباس تصرف بمقدار من بيت المال، فكتب أمير المؤمنين عليه السلام برده فردّه، ثم ينقل مثل هذا المعنى عن سبط ابن الحوزي الذي يقوله في نهايته: ثم ندم واعتذر إلى علي عليه السلام وقبل الإمام عليه السلام عذره (٢).

النتيجه: مع وجود اختلاف في الروايات في شأن هذه القصة وأحياناً تكون الروايات متناقضه، فكيف يمكن التصديق بأن رجلاً مهماً وشخصيته مرموقه كابن عباس وهو حبر الأمة والعالم والفقيه والمعروف يرتكب مثل هذا العمل بهذه

ص: ١٠٣

١- (١) انظر: شرح نهج البلاغه للعلامة التستري، ج ٨، ص ٨٩.

٢- (٢). المصدر السابق، ص ٩٢، نقلاً عن تذكره الخواص، ص ١٥٠..

الضخامة التي ينسبها إليه المخالفون.

ألا يحتمل أنّ عمّال بنى امّيه وأزلام معاويه الذين وضعوا الأحاديث الكثيره فى مقابل حفنه من المال لتأييد حكومه بنى امّيه أو لدم مخالفينهم، حتى أنّهم نسبوا إلى النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله أحاديث موضوعه على لسان ابن عباس وبخاصّه ما ورد فى الروايات أنّ معاويه كان يلعن بعد الصلاه كلّ من: الإمام على والحسن والحسين عليهم السلام وابن عباس ومالك الأشتر وقيس بن عباد (رحمهم الله تعالى)(١).

يقول مؤلف كتاب معجم رجال الحديث بعد نقله لهذه الأقوال: ومن مجموع ما قيل عن ابن عباس يستفاد أنّه كان رجلاً جليل القدر ومدافعاً عن أمير المؤمنين والإمام الحسن والحسين عليهم السلام كما ذكر العلامة الحلبي وابن داود فى كتبهما الرجاليه، وينقل المحدث القمي عن الشهيد الثانى بعد ذكر بعض الأحاديث الوارده فى ذم ابن عباس قوله: إنّ جميع هذه الأحاديث ضعيفه.

وذكر المرحوم صاحب المعالم فى كتابه «تحقيق طاووسى» - بعد ذكره لمحبه وإخلاص ابن عباس لأمر المؤمنين عليه السلام ونصرته له ودفاعه عنه، الذى لا يقبل الشك أو التردد فيه: ليس من المستبعد أن يقوم بعض الأشخاص بحسد ابن عباس وينسبوا له هذه الأقاويل الباطله.

ومن هنا فإنّ أغلب علماء الرجال من الشيعة وأهل السنّه يذهبون إلى صحه واعتبار الأحاديث التى يروها ابن عباس ولا يعتنون بمثل هذه الشبهات عنه، وعلى ضوء ذلك لابدّ من القول إنّ المخاطب لهذه الرساله شخص آخر غير ابن عباس، رغم أننا لا نكاد نعرفه بشكل دقيق، أمّا التعبير الوارد فى هذه الرساله عن المخاطب ابن عمّه فحاله حال ما يقال فى الكلام للمخاطب بأنّه أخ وأمثال ذلك فهو كناية عن شدّه العلاقه والرفقه، ومن هذه الجبهه لم يورد السيّد الرضى اسم ابن عباس، مع أنّ فى الكثير من الموارد الأخرى يذكر المخاطبين لكتب الإمام عليه السلام، واكتفى فى هذا

ص: ١٠٤

١- (١) انظر: معجم رجال الحديث، ج ١٠، ص ٢٣٨، به نقل عن الطبرى.

المورد بعبارة: إلى بعض عمّاله.

ونختم الكلام هنا بحديث ينقله المرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار في تاريخ أمير المؤمنين عليه السلام وجاء في هذه الرواية عن رجل من أهل الطائف قال: أتينا ابن عباس رحمه الله عليهما نعوده في مرضه الذي مات فيه، قال: فأغمى عليه في البيت، فأخرج إلى صحن الدار، قال، فأفاق فقال: إنّ خليلي رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إني سأهجر هجرتين، وإني سأخرج من هجرتي، فهجرت هجره مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهجره مع علي عليه السلام، وإني سأعمى فعميت، وإني سأغرق فأصابني حكّه فطرحتني أهلي في البحر فغفلوا عني فغرقت، ثم استخرجوني بعد، وأمرني أن أبرأ من خمسه: من الناكثين وهم أصحاب الجمل، ومن القاسطين وهم أصحاب الشام، ومن الخوارج هم أهل النهروان، ومن القدرية وهم الذين ضاهوا النصاري في دينهم، فقالوا: لا قدر، ومن المرجئه الذين ضاهو اليهود في دينهم فقالوا: الله أعلم، قال: ثم قال:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْيَيْ عَلَى مَا حَيَّ عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَمُوتُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ» قال: ثم مات (١).

والجدير بالذكر أنّ قبر ابن عباس موجود في الطائف وإلى جانبه مسجد فخم اطلق عليه اسمه.

ص: ١٠٥

١- (١) بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ١٥٢، ح ٢٠.

إلى عمر بن أبي سلمه المخزومي وكان عامله على البحرين فعزله واستعمل نعيمان بن عجلان الرقي مكانه (١).

نظرة عامه للرساله

يخطاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الرساله عامله على البحرين عمر بن أبي سلمه (ابن ام سلمه زوجة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله)، وفيها يثنى الإمام عليه السلام على خدماته وحسن سيرته ويدعوه للمشاركة في قاتل المناوئين في صفين، وقد عين الإمام بدله النعمان بن عجلان وهو من زعماء قبيله بني عجلان.

ومن أجل أن لا يتكدر خاطر ابن أبي سلمه أو يستاء من هذا التبديل، فقد كتب له الإمام عليه السلام في هذه الرساله عبارات الشكر والمديح وخاطبه بلغه مفعمه بالمحبه من قبيل:

«وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِيَ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى جِهَادِ الْعُدُوِّ، وَإِقَامِهِ عَمُودِ الدِّينِ».

ص: ١٠٧

١- (١) سند الرساله: جاء في كتاب مصادر نهج البلاغه: من الأشخاص الذين نقلوا هذه الرساله قبل السيد الرضي: ابن واضح اليعقوبي (المتوفى ٢٨٤) في تاريخه المعروف، والبلاذري (المتوفى ٢٧٩) في كتابه أنساب الأشراف است. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٤٤).

ونستوحى من كلمات الإمام عليه السلام فى هذه الرساله النمط الأفضل فى كیفیة التعامل مع هذه المسائل وعزل بعض المسؤولين ونصب آخريں مكانهم.

ص: ١٠٨

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ النُّعْمَانَ بْنَ عَجْلَانَ الزُّرْقِيَّ عَلَى الْبُحْرَيْنِ، وَنَزَعْتُ يَدَكَ بِلَمَّا ذَمَّ لَكَ، وَلَا تَثْرِيْبٍ عَلَيْكَ؛ فَلَقَدْ أَحْسِنْتَ الْوِلَايَةَ، وَأَدَّيْتَ الْأَمَانَةَ، فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ، وَلَا مَلُومٍ، وَلَا مُتَّهَمٍ، وَلَا مَأْثُومٍ، فَلَقَدْ أَرَدْتُ الْمَسِيرَ إِلَى ظَلَمِهِ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِيَ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الشرح والتفسير: أحسنت! لقد أدت الأمانة

إشاره

ينطلق الإمام عليه السلام في مستهل هذه الرساله بقوله:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ النُّعْمَانَ بْنَ عَجْلَانَ، الزُّرْقِيَّ عَلَى الْبُحْرَيْنِ، وَنَزَعْتُ يَدَكَ».

ولكن بما أن عمر بن أبي سلمه رجلاً طيباً ومخلصاً ومديراً ومدبراً وربما يتأثر سلبياً بهذا التغيير في المنصب يخاطبه الإمام عليه السلام في ثمان جمل قصيره وعميقه المعنى ويؤكد له أن مثل هذا التبديل في الوظيفة لا يعنى إطلاقاً صدور خطأ من جانبه وبذلك يرفع ما قد يخالجه من قلق في هذا الشأن.

يقول الإمام عليه السلام:

«بِلَمَّا ذَمَّ لَكَ، وَلَا تَثْرِيْبٍ عَلَيْكَ، فَلَقَدْ أَحْسِنْتَ الْوِلَايَةَ، وَأَدَّيْتَ الْأَمَانَةَ فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ (٢)، وَلَا مَلُومٍ، وَلَا مُتَّهَمٍ، وَلَا مَأْثُومٍ (٣)».

ص: ١٠٩

١- (١). «تَثْرِيْبٍ» من ماده «ثَرَب» على وزن «سرو» فى الأصل تعنى الجلد الذى يغطى المعده والأمعاء، وعندما تأتى هذه المفرده من باب تفعيل (تثريب) تعنى إزاحه هذه الجلده، ثم استخدمت بمعنى اللوم والتوبيخ والتقريع، وكأنّ الإنسان بهذا العمل يكشف غطاء الذنب عن وجه الطرف المقابل.

٢- (٢) «ظَنِينٍ» تعنى المتهم، من ماده «ظنه» أى التهمه، والفرق بينها وبين المتهم فى العبارة المذكوره ربّما يكون بأنّ سوء الظن بالمتهم أكثر وأشد من الظنين، وتستخدم فى موارد توجد فيها قرائن على إتهام الشخص.

٣- (٣) «مَأْثُومٍ» تعنى الشخص الذى ذكرت له ذنوب، ولكن «آثم» تعنى الشخص المذنب وكليهما من ماده «إثم» على وزن «اسم» ويعنى الذنب.

ونرى أنّ الإمام عليه السلام في هذه التعبيرات يؤكد له بشكل كامل أنّ هذا التغيير في المسؤوليّة ليس بسبب تقصيره في أدائه لوظيفته بل لأنّه يريد إلقاء مسؤوليّة أهم على عاتقه.

ثمّ يتعرض الإمام عليه السلام لمضمون هذه المسؤوليّة الجديده ويقول:

«فَلَقَدْ أَرَدْتُ الْمَسِيرَ إِلَى ظَلَمِهِ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِيَ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ (١) بِهِ عَلَى جِهَادِ الْعِدُوِّ، وَإِقَامِهِ عَمُودِ الدِّينِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

إنّ سيره عمر بن أبي سلمه وسوابقه الجليله ووفائه للإمام أمير المؤمنين عليه السلام في جميع حالات بيان ذلك في شرح حاله، وكلّها شاهد على هذا المعنى.

وجمله

«أَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِيَ...» لا تعنى الاستشهاد في سبيل الله مع الإمام عليه السلام، بل بمعنى حضوره مع الإمام في ميادين القتال والجهاد.

وجمله

«مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ...»، تبين أنّ عمر بن أبي سلمه رجلاً شجاعاً ومدبراً وحازماً ووفياً للإمام عليه السلام، وعبارته:

«جِهَادِ الْعِدُوِّ، وَإِقَامِهِ عَمُودِ الدِّينِ» تشير إلى أنّ عمر بن أبي سلمه يتمتع بمقام كبير ومكانه جليله إلى درجة أنّ الإمام عليه السلام يستعين به لإقامه عمود الدين والتصدي لقوى الظلم والانحراف.

تأمل

التعرّف على عمر بن أبي سلمة المخزومي والنعمان بن عجلان؟

كما ورد في نص الرسالة أنّ عمر بن أبي سلمه كان والياً على البحرين من قبل أمير المؤمنين عليه السلام قبل النعمان بن عجلان الذي جعله الإمام والياً على البحرين بعده، ومن اللازم التعرف على هذين الرجلين بشيء من الاختصار.

ص: ١١٠

١- (١). «استظهر» من ماده «استظهار» ويعنى طلب المعونه من الشخص الآخر والإطمئنان لمساعدته.

أمّا عمر بن أبي سلمه فأُمّه أمّ سلمه زوجة النَّبِيِّ الأكرم صلى الله عليه و آله المعروفه، وقد ولدت من زوجها السابق هذا الابن، وأبوه أبو سلمه، وقد ولد هذا الابن فى السنه الثانيه من الهجره إلى الحبشه، لأنّ أباه كان من المهاجرين إلى الحبشه وقد توفى بعد عمر طويل نسبياً فى عام ٨٣ هـ للهجره فى عهد خلافة عبد الملك بن مروان، وقد روى بعض الأحاديث عن النَّبِيِّ الأكرم صلى الله عليه و آله (١).

وقد كان عمر بن أبي سلمه مع الإمام على عليه السلام فى معركة جمل وكانت أمّه تحثه على نصره الإمام على، وقد كتبت للإمام رساله ودفعتها إلى ابنها يوصلها إلى الإمام عليه السلام: وجاء فى مضمونها لو أنّ الجهاد كتب على النساء لجنّت لأقاتل معك الأعداء، ولكننى أرسلت ابنى هذا بدلاً منى.

ثمّ إنّ أمير المؤمنين على عليه السلام عيّنه والياً على البحرين وبلاد فارس فى أيام خلافته، ويكفيه فخراً أنّه قد تربى فى أحضان النَّبِيِّ الأكرم صلى الله عليه و آله وسار فى خط الولايه وفى نصره الإمام على عليه السلام (٢).

وجاء فى بعض الروايات أنّ عمر بن أبي سلمه كان من الأشخاص الذين نقلوا الحديث الشريف عن النَّبِيِّ الأكرم صلى الله عليه و آله فيما يتصل بإمامه الاثنى عشر (٣).

أمّا النعمان بن عجلان فكان من صحابه النَّبِيِّ الأكرم صلى الله عليه و آله ومن كبار الأنصار وكان شاعراً وخطيباً بارعاً، ومن جملة ما أنشده فى يوم السقيفه بعد أن أثنى على مواقف الأنصار فى مواطن مختلفه ونصرتهم للإسلام والنَّبِيِّ الأكرم صلى الله عليه و آله ذكر فى قصيدته بيتين من الشعر فى الدفاع عن الإمام على ونصرته:

وَكَانَ هَوَانًا فِي عَلِيٍّ وَإِنَّهُ

لَأَهْلٌ لَهَا مِنْ حَيْثُ تَدْرِي وَلَا تَدْرِي

وَصَبِي النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى وَابْنُ عَمِّهِ

وَقَاتِلُ فُرْسَانَ الضَّلَالَةِ وَالْكَفْرِ

ص: ١١١

١- (١) الإستيعاب، ح ١٨٨٢، فى شرح حال عمر بن أبي سلمه.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٧٣.

٣- (٣) عيون الأخبار، ج ١، ص ٣٨، ح ٨.

وبسبب هذه السوابق الجليلة عيّنه الإمام على عليه السلام على حكمه البحرين بعد عمر بن أبي سلمه ووضع بيده بيت المال، ولكن للأسف أنّ الأموال الكثيره تدفع بالإنسان نحو منزلقات الخطيئه والمفسده، قام هذا الوالي باعطاء مبلغ كبير من بيت المال لكل فرد من أفراد قومه وقبيلته يأتية إلى البحرين فلما وصل خبر ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام، كتب له كتاباً تويخياً وطلب منه أن يرفع إليه حساب بيت المال، ولكن بما أنّ النعمان لم يتمكن من حساب الأموال بشكل صحيح ودقيق، فقد أخذ ما تبقى من بيت المال وهرب إلى الشام والتحق بمعاويه(١).

ص: ١١٢

١- (١) انظر: مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٤٥ و ٣٤٦.

إلى مصقله بن هبيرة الشيباني وهو عامله

على أردشير خزره (١)

نظرة عامه للرساله

هذه الرساله تشبه ما ورد في الكتاب ٤١، وخلاصتها أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كتب إلى والٍ آخر يدعى مصقله بن هبيرة الشيباني رساله توبيخيه وشديده اللهجه، لأنّ الخبر وصل إلى الإمام عن أنّ مصقله يتلاعب في بيت المال ويهب منه إلى أفراد قبيلته بدون حساب وكتاب، فالإمام عليه السلام يلومه بشده على هذا العمل، وينصحه أن لا يبيع آخرته بدنياه، ولا دينه بالدينار، ولكن الإمام لا يتهمه بشكل قطعي في هذه الرساله، بل يقول: إذا كان ما بلغني عنك صحيحاً فأنت قد ارتكبت خطأ كبيراً واسخطت إلهك.

ص: ١١٣

١- (١). سند الرساله: ذكر هذه الرساله قبل السيد الرضى، البلاذرى في كتابه أنساب الأشراف، وكذلك وردت في تاريخ اليعقوبى (ابن واضح) مع تفاوت يسير، وجاء في الخطبه ٤٤ الجزء الأول من هذا الكتاب موارد أخرى من سيره مصقله وحياته.

بَلَّغْنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسَى خَطْتَ إِلَهِيكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامِيكَ: أَنْكَ تَقْسِمُ فِيءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي حَاذَتْهُ رِمَا حُهُمْ
وَحُيُولُهُمْ، وَأُرِيقتَ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ، فِيمَنْ اعْتَمَاكَ مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ، فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا لَتَجِدَنَّ
لَكَ عَلَيَّ هَوَانًا، وَلَتَخَفَنَّ عِنْدِي مِيزَانًا، فَلَا تَسْتَيْتِهِنَّ بِحَقِّ رَبِّكَ، وَلَا تُصَلِّحْ دُنْيَاكَ بِمَحَقِّ دِينِكَ، فَتُكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. أَلَا
وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قَبْلَكَ وَقَبْلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمِهِ هَذَا الْفَيْءِ سَوَاءٌ: يَرُدُّونَ عِنْدِي عَلَيْهِ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ.

الشرح والتفسير: جميع المسلمين سوايه في بيت المال

إشارة

يستفاد من عنوان هذه الرسالة وكذلك ما ورد في الخطبة ٤٤ من هذا الكتاب، أنّ مصقله بن هبيرة الشيباني كان أحد عمال الإمام عليه السلام وكان والياً على قسم مهم بلاد فارس يسمى «اردشير خره» ويشمل عدّه مدن وقرى، وكما يقول ابن أبي الحديد كان مصقله من أحفاد نزار بن معد بن عدنان(١).

وكانت لمصقله بن هبيرة قصه فيما يتصل بأسرى بنى ناجيه وقد وردت تفاصيلها في الخطبة ٤٤ إذ أنّ بنى ناجيه كانوا من النصارى الذين أسلموا بعد الفتح وبقية جماعه منهم على نصرانيتهم أو أنّهم ارتدوا على الإسلام، وبعد هزيمه أصحاب الجمل في البصره بايع الناس في تلك المنطقه لأمير المؤمنين عليه السلام سوى بنى

ص: ١١٥

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٣، ص ١٢٧.

ناجيه الذين جهّزوا جيشاً لمقاتله الإمام، فأرسل لهم أمير المؤمنين، معقل بن قيس وهزمهم وأسر جماعه منهم، وعندما حملوا الأسرى إلى الكوفة وصلوا في طريقهم إلى منطقه «اردشير خره» وكان فيها مصقله والياً عليها من قبل الإمام على عليه السلام، فاشتراهم مصقله من معقل وكان عددهم خمسمائه نفر ودفع في مقابل ذلك غرامه تساوى خمسمائه ألف درهم وأطلق سراحهم ثم دفع هذا المبلغ من أموال بيت المال على أساس أنه قرض يقترضه من بيت المال ويسدده بعد ذلك ولكن مصقله أخذ يسوف في تسديد الدين، ثم إنه جاء بعد مدّه إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في الكوفة ودفع له مبلغاً من المال وهو يتوقع أن يعفو الإمام عن الباقي ولكن الإمام لم يقبل بذلك، لأنه ربّما تكون موافقته وتنازله عن الحقّ المذكور بدعه بحيث يتداع إلى الأذهان ما كان يفعله عثمان بصرفه في بيت المال، وبما أنّ مصقله كان يخشى من عداله الإمام ومطالبته ببقية المال رجح الهرب إلى الشام والالتحاق بمعاويه.

ومهما يكن من أمر فإنّ الرسالة مورد البحث تشير أيضاً أنّ مصقله كان من أتباع مدرسه عثمان بن عفان وكان يوزع أموال بيت المال على أقربائه وأرحامه قبل حادثه أسرى بنى ناجيه، وعندما وصل خبره إلى الإمام عليه السلام كتب له الإمام الرسالة مورد البحث.

وتشير هذه الرسالة إلى ثلاثه نقاط في غايه الأهميه الأولى أنه يقول:

«بَلَّغْنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَشْخَطْتَ إِلَيْهِكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ».

وهذه العبارة التي ذكرها الإمام عليه السلام بشكل مقتضب تشير إلى أنّ الإمام كان قد سمع خبراً عن مصقله لم يجزم بصحته وأنه اتخذ جانب الاحتياط لثلاثتهم شخصاً بريئاً.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يبيّن بشكل واضح ومفصل الخبر المذكور ويقول:

«أَنْتَ تَقْسِمُ فِيَّ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ، وَخُيُولُهُمْ وَأَرِيْقَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ، فَيَمِّنُ اعْتَامَكَ (١)»

ص: ١١٦

١- (١). «أعتم» من ماده «إعتيام» ومن ماده «عيم» على وزن «عيب» في الأصل تعنى العطش والرغبة بتناول اللبن، وبما أنّ الإنسان عندما يشعر بميل شديد نحو شيء فإنه يسعى إلى اختيار أفضل أنواعه، وكلمه «عيمه» (بكسر الميم) تعنى كلّ شيء جيد ومختار من الشيء، وعليه فإنّ جملة «اعتامك» تعنى أنّهم اختاروك.

مِنْ أَعْرَابٍ قَوْمِكَ».

ومعلوم أنّ مصقله إذا كان قد ارتكب مثل هذا العمل فإنه يكون قد اقترف عملاً شنيعاً، لأنه أنفق المال الذي يعتبر حصيلة دماء المجاهدين والشهداء من أجل تقوية مكانته الاجتماعيه في قومه.

ويتابع الإمام عليه السلام خطاب لمصقله في القسم الثاني من هذه الرساله ويقول:

«فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ (١)، لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلَيَّ هَوَانًا، وَلَتَخِفَّنَّ عِنْدِي مِيزَانًا».

وهكذا نرى أنّ الإمام عليه السلام في هذه العبارات يتخذ مرّه أخرى جانب الاحتياط في الحكم على المتهم فربما وقع بعض الخطأ والاشتباه في نقل المخبرين وبالتالي ستعرض سمعه رجل مؤمن إلى الاهتزاز والهتك، ويقول الإمام: إنه إذا كان هذا الخبر صحيحاً فستسقط من عيني ويخف ميزانك عندي.

ونلاحظ أنّ الإمام عليه السلام في هذا المورد لا يهدده بعقوبه قاسيه ولكنه يخاطبه بآليه التوبيخ المعنوي التي تعدّ أقسى وأشد من العقوبه الظاهريه.

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه لمصقله ويتحدّث معه بلغه النصيحة الصريحه والعميقه المغزى ويقول:

«فَلَا تَسْتَهِنَنَّ بِحَقِّ رَبِّكَ، وَلَا تُصْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَعْقٍ (٢) دِينِكَ، فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا».

ويديهي أنّ أى إنسان عاقل ومؤمن لا ينبغي أن يرجح حقّ أقربائه على حقّ الله تعالى، ويهتم لمصالحهم على حساب طاعه الله، فلا ينبغي لأى إنسان عاقل أن يستبدل رأس مال دينه الذي يقوده إلى الجنه ويعتبر سبب نجاته فى الآخرة، بمتاع

ص: ١١٧

١- (١). «النَّسَمَةُ» فى الأصل بمعنى التنفس ويقال لهبوب الريح الملائمه «نسيم» وأحياناً تطلق على نفس الإنسان أو روحه.

٢- (٢). «مَعْقٍ» تعنى المحو والهلاك.

الدنيا والزائل والرخيص، وعبارته: »

«الْأَخْسَرِينَ» إشارته إلى أنّ الإنسان يبيع أثمان ما لديه من بضاعه ومتاع بأزهد وأرخص ثمن.

وبما أنّ مصقله ربّما كان يظن أنّ عطاءه لأقربائه من بيت المال يدخل تحت عنوان صله الرحم وأنّه بعمله هذا يتحرك في خط الفضيله والإحسان، نرى أنّ الإمام عليه السلام تحدّث عن ذلك بعبارته:

«الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا»، ولعلّه إشارته إلى مورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» (١).

ثمّ يشير الإمام عليه السلام في ختام هذه الرساله إلى نقطه مهمه من تعاليم الإسلام وأحكامه فيما يتصل بحقوق المسلمين في بيت المال ويقول:

«أَلَا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قَبْلَكَ وَقَبْلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمِهِ هَذَا الْفَيْءِ سَوَاءٌ: يَرِدُونَ عِنْدِي عَلَيْهِ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ».

وجمله »

يَرِدُونَ عِنْدِي عَلَيْهِ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ» نظر إلى أنّ كلمه «ورود» و «صدور» ترتبط في الأصل بورود العطشى إلى شريعه المال ثمّ حملهم الماء ثمّ عودتهم إلى مكانهم، فالإمام عليه السلام يشير هنا إلى هذه النقطه، وهى أنّ بيت المال كالنهر كبير الذى أجراه الله تعالى للمسلمين وهم فيه سواء، وكل شخص يرد هذا النهر من هذا الطريق يروى ظمأه وينتفع منه ثمّ يخرج منه.

وعبارته »

عِنْدِي» لا تعنى أنّه ينبغي حمل جميع أموال بيت المال إلى الإمام عليه السلام أنّ الواجب على المسلمين أن يتوجهوا من المناطق القريبه والبعيده إلى مركز الحكومه وإلى الإمام لدفع ما عليهم من حقوق الشرعيه ثمّ العوده إلى مناطقهم، المراد أنّ هذا العمل يجب أن يكون طبق البرنامج الذى احده لك وتحت إشراف، لا- أن يقوم عمّالى ووكلائى بتقسيم بيت المال وفق ما يروونه وبوحى ميولهم ورغباتهم.

ص: ١١٨

وعلى أيّ حال فهذه الجملة تشير إلى أنّ بيت المال يجب أن يقسّم بين المسلمين بصورة متساوية كما كان الحال في عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ولا يكون مثلما كان في عهد الخليفة الثاني الذي كان يرجح العرب على العجم، الأشراف والصحابه على الآخرين، أو مثل عصر عثمان الذي كان يقسّم بيت المال بين أقربائه وأرحامه من بني أمّيه بتميز سافر بين المسلمين والإشكال الذي وقع فيه مصقله هو أنّه كان متأثراً بثقافه عصر عثمان حيث كان يرى امتيازاً خاصاً على سائر المسلمين.

وممّا يجدر ذكره أنّ أموال بيت المال في هذا المورد لا تختص بالزكاه وأمّالها التي ترتبط بالأصناف الثمانية من المستحقين كما ورد في الفقه، بل يقصد بها أموال الخراج على الأراضي المفتوحة في ذلك اليوم، حيث كان الولاة يضعون الضرائب والخراج على جميع الأراضي المذكوره بنسبه عادله وكان جميع المسلمين في ذلك سواء، لأنّ هذه الأراضي قد فتحت عنوه بأيد المجاهدين ولا فرق في هذا الأمر بين الغنى والفقير والعرب والعجم، خلافاً لأموال الزكاه التي تختص بالفقراء والمساكين وباقي الطوائف المستحقين لها، وبما أنّ غالبية الأموال التي تجتمع في بيت المال من أموال الخراج، ولذلك يطلق عليها عبارته أموال بيت المال.

ومعلوم أنّ المناطق والأراضي في البلاد الإسلاميّه تختلف في ميزان الخراج والضرائب المترتبة عليها، ففي بعض لمناطق حيث تكون الأراضي زراعيّه وبساتين كثيره المحصول، فالخراج عليها يكون كثيراً، وفي بعض المناطق أقلّ من ذلك حيث يصرف خراج مثل هذه المناطق على أهلها ولا يستحق نقلها مركز الخلافه.

ومن هذه الجبهه يقول الإمام عليه السلام: على فرض أنّك وزعت خراج تلك المنطقه على جميع الناس، فمع ذلك كان عمالك هذا مجاناً للصواب، لأنّ هذا الخراج يتعلق بجميع المسلمين، سواء من كان في منطقتك أم في منطقتنا، فجميع المسلمين ينبغي أن ينتفعوا ويستفيدوا من هذا المال بصورة عادله ومتساويه.

جواب مصقله للإمام عليه السلام

ورد في بعض الروايات أنّ مصقله بعد أن استلم رساله الإمام عليه السلام إليه كتب له رساله جوابيه يبرىء فيها نفسه، يقول في رسالته للإمام:

«أمّيا بعد، فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين فليسأل إن كان حقاً فليعمل على عزلي بعد نكالي، فكلّ مملوك لي حرّ، وعلى أيام ربيعه ومضر، إن كنت رزئت من عملي ديناراً، ولا درهماً، ولا غيرها، منذ وُلّيته إلى أن ورد عليّ كتاب أمير المؤمنين، ولتعلمن أنّ العزل أهون عليّ من التهمه، فلما قرأ - الإمام عليه السلام - كتابه قال: ما أظنّ أباالفضل إلّاصادقاً» (١)، (يعنى أنّ المخبرين قد أخطأوا في إخبارهم).

ولكن يستفاد من بعض الروايات أنّ معاويه بعد استشهاد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام اختار مصقله أن يكون والياً على طبرستان (مازندران في هذا العصر) ولكن مصقله قتل قبل أن يصل إلى تلك المنطقه ولم يعد من سفره هذا أبداً، بحيث صار ذلك مضرب مثل بين الناس، فعندما لا يريد المرء القيام بعمل معين يقول: انتظر حتى يعود مصقله من طبرستان (٢).

وقد كتابنا بحوث مفصله عن مصقله ذيل الخطبه ٤٤.

ص: ١٢٠

١- (١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٠١.

٢- (٢) فتوح البلدان البلاذري، ج ٢، ص ٤١١.

إلى زياد ابن أبيه وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْهِ

يُرِيدُ خَدِيعَتَهُ بِاسْتِحْقَاقِهِ (١)

نظرة عامه للرساله

إنَّ قِصَّةَ هَذِهِ الرِّسَالَةِ تَبْدَأُ مِنْ وَصُولِ خَبَرٍ إِلَى الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ أَرْسَلَ إِلَى زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ رِسَالَةً يَدْعِي فِيهَا أَنَّهُ أَخُوهُ الْحَقِيقِيُّ، وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ أَلْحَقَ مُعَاوِيَةَ زِيَادَ بْنَ أَبِيهِ الْوَلَدَ غَيْرَ الْمَشْرُوعَ بِأَبِي سَفِيَانَ، وَأَرَادَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَنْ يَخْدَعَ زِيَادَ وَيَتِمَكَّنَ مِنْ جَذْبِهِ إِلَيْهِ لِتَحْقِيقِ أَهْدَافِهِ وَغَايَاتِهِ.

الْإِمَامُ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ يَحْذَرُ زِيَادَ بْنَ أَبِيهِ الَّذِي كَانَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ وَالْيَا عَلَى بِلَادِ فَارَسَ مِنْ قِبَلِ الْإِمَامِ، بِأَنَّ هَذِهِ الْخَطَّةَ هِيَ خَطَّةُ شَيْطَانِيَّةِ مَدْرُوسِهِ مِنْ قِبَلِ مُعَاوِيَةَ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَقَعَ فِي حِبَالِهِ وَتَخْدَعَ بِرِسَالَتِهِ، فَكُلُّ ابْنٍ يَرْتَبِطُ بِعَلَاقِهِ

ص: ١٢١

١- (١) سند الرسالة: أورد هذه الرسالة قبل السيد الرضى، المدثني (في كتاب فتوح الإسلام)، والجدير بالذكر أنَّ الرواية التي ينقلها المدثني تختلف الرواية التي نقلها السيد الرضى نهج البلاغه، ويشير إلى أنَّ السيد الرضى لم يأخذ هذه الرواية بل من مصدر آخر، ونقلها بعد السيد الرضى، ابن الأثير في كتابه الكامل في حوادث سنة ٤٤، وفي أسد الغابه، وابن عبد البر في الاستيعاب في شرح حال زياد. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٥٢).

البنوه بأبيه وأمه في البيت الذي ولد فيه، وحتى النسبه غير المشروعه التي تقوم على أساس ادعاء شخص مثل أبى سفيان بأن زياد من نطفته لا تثبت حقيقه، وعندما وصلت الرساله إلى زياد قبل كلام الإمام وهدأت نفسه، رغم أن زياد بعد استشهاد الإمام التحق بمعاويه بسبب هذه الخديعه مع إضافه بعض التهديد لزياد.

ولكن المستفاد من كتب التاريخ أن ام زياد كانت جاريه لطبيب معروف عند العرب يدعى «حارث بن كلده» والتي تزوجت من عبد يدعى «عبيد» وحسب الظاهر كان زياد نتيجة ذلك الزواج، ولذلك يقال له: زياد بن عبيد، ولكن بما أن والده كان عبداً وغلاماً غير معروف فرجح بعضهم أن يقال عن زياد «زياد بن أبيه» والظاهر أن زياد نفسه لم يكن يأبى هذا الاسم، ولكنه بعد إحقه معاويه بأبى سفيان ادعى أنه أخوه كان يقال له: زياد بن أبى سفيان، والحقيقه أن كل الإنسان يستولى عليه العجب والحيره من هذه الوقاحه بأن شخصاً يدعى لنفسه خلافه رسول الله صلى الله عليه وآله ومع ذلك يصرح بأنه أخ لابن الزنا، والأمر الآخر المثير للعجب أن المحيط الاجتماعى فى ذلك الوقت إلى درجه من التلوث والتشوه بحيث قبل زياد بن أبيه هذا الادعاء.

وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَرْزِلُ لُبَّكَ، وَيَسْتَفِلُّ غَرْبَكَ، فَاحْذَرُهُ، فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ: يَأْتِي الْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، لِيَقْتَحِمَ غَفْلَتَهُ، وَيَسْتَلْبِغَ غَرَّتَهُ. وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلْتَهُ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَنَزَعَهُ مِنْ نَزَعَاتِ الشَّيْطَانِ: لَأَيُّبُتُ بِهَا نَسْبٌ، وَلَا يُسْتَحَقُّ بِهَا إِرْثٌ، وَالْمُتَعَلِّقُ بِهَا كَالْوَاغِلِ الْمُدْفَعِ، وَالنَّوْطِ الْمُدْبَذِبِ.

فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادُ الْكِتَابِ قَالَ: شَهِدَ بِهَا وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، وَلَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِهِ حَتَّى ادَّعَاهُ مُعَاوِيَةُ.

قال الرضى، قوله عليه السلام: «الواغل» هو الذى يهجم على الشرب ليشرب معهم، وليس منهم، فلا يزال مدفعا محاجزا. و«النوط المدبذب»: هو ما يئاط برخل الزايب من قعب أو قدح أو ما أشبه ذلك، فهو أبدا يتقلقل إذا حث ظهره واستعجل سيره.

الشرح والتفسير: احذر من أغوائهم!

إشاره

طبقاً لما ورد فى كتاب تمام نهج البلاغه، أن الإمام عليه السلام فى مستهل هذه الرساله يخاطب زياد بن أبيه ويشوقه على الصبر والاستقامه فى مقابل الوسوس الشيطانيه التى تنبعث هنا وهناك، ثم يقول:

«وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَرْزِلُ (١) لُبَّكَ (٢)،

ص: ١٢٣

١- (١). «يَسْتَرْزِلُ» من ماده «زَلَل» على وزن «قمر» بمعنى الخطأ، و«يَسْتَرْزِلُ» يعنى أنه يريد أن يوقع الآخر فى الخطأ.

٢- (٢) «لُبُّ» فى الأصل بمعنى المخ فى كل شىء، ويقال للعقل «لُبٌّ».

وَيَسْتَفِئِلُ (١) غَرْبَكَ (٢) ، فَاحْذَرُهُ ، فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ».

ويستفاد من هذه العبارات وعبارات أخرى وردت في الرسائل السابقة، أنّ جواسيس الإمام عليه السلام كانوا ينتشرون في جميع البلاد الإسلاميّة، حتى أنّهم كانوا يصلون إليه الرسائل الخاصّة التي تصل إلى ولاته من قبل الأعداء، ليستطيع الإمام التصدي للخطر في الوقت المناسب، ونرى أنّ الإمام عليه السلام في مطلع هذه الرسالة يحذّر زياد بن أبيه من شيطنة معاويه وأن يتخذ جانب الحيطه والحذر من مكره ودسائسه.

ثمّ يضيف في توضيح ذلك:

«يَأْتِي الْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، لِيَقْتَحِمَ (٣) غَفْلَتَهُ، وَيَسْتَلْبَ (٤) عَزَّتَهُ (٥)».

وهذا الكلام للإمام عليه السلام مقتبس من الآية الشريفه ١٧ من سوره الأعراف حيث تتحدّث عن قول الشيطان: «تُمْ لَأَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ».

والمقصود أنّ الشيطان يستخدم كلّ وسيله لخداع الناس وإغوائهم، فأحياناً يستخدم آليه التطميع أو أخرى التهديد وثالثه الشهوات والأهواء والنوازع النفسانيه، ورابعه عن طريق الآمال والتمنيات والمناصب والمقامات الموهومه والعناوين البراقه، والغايه من كلّ ذلك تنحصر بأمر واحد، ألا وهو إغواء الإنسان وسوقه في متهات الضلاله والهلكه.

وقد استخدم شيطان الشام هذا الأسلوب أيضاً وسعى إلى خداع الناس كلّ بحسب طريقته الخاصّه لجذبهم إليه والاستفاده منه في مسار تحقيق مطالبه وشهواته.

وينقل عن أحد العرفاء أنّه قال: ما من صباح إلّا قعد لى الشيطان على أربعه

ص: ١٢٤

١- (١) «يَسْتَفِئِلُ» من ماده «فَلَل» على وزن «قمر» بمعنى كسر الشىء أو التقليل من حدّه السكين.

٢- (٢) «غَرْبَ» بمعنى النشاط، وكذلك التصميم.

٣- (٣) «لِيَقْتَحِمَ» من ماده «اقتحام» بمعنى إدخال الشىء بالقوه فى شىء آخر.

٤- (٤) «يَسْتَلْبَ» من ماده «استلابه» بمعنى النهب والغاره والسرقة، وأصلها من «سلب».

٥- (٥) «عَزَّتَهُ» بمعنى الغفله والتساهل.

مرصد من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي، أما بين يدي فيقول لا تخف فإن الله غفور رحيم، فأقرأ: «وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى» (١) وأما خلفي فيخوفني الضيقه على مخلفي فأقرأ: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا» (٢)، وأما عن قبل يميني فيأتيني من جهه الثناء، فأقرأ: «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» (٣)، وأما من قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ: «وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ» (٤)، (٥).

ووقد ورد في الروايات فيما يتصل بهذه الجهات الأربع للشيطان ما خلاصته: «ما روى عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ثُمَّ لَأَيِّنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ»

،معناه، اهْوَنُ عَلَيْهِمْ أَمْرَ الْآخِرَةِ ، «وَمِنْ خَلْفِهِمْ»

،أَمْرُهُمْ بِجَمْعِ الْأَمْوَالِ، وَالْبُخْلَ بِهَا عَنِ الْحُقُوقِ لَتَبْقَى لَوْرَثِيهِمْ ، «وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ»

أَفْسُدُ عَلَيْهِمْ أَمْرَ دِينِهِمْ بِتَرْيِينِ الضَّلَالَةِ، وَتَحْسِينِ الشُّبْهِهِ، «وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ»

بِتَحْيِيبِ اللَّذَاتِ إِلَيْهِمْ، وَتَغْلِيبِ الشَّهَوَاتِ عَلَى قُلُوبِهِمْ...» (٦).

أجل، فإن وساوس شياطين الجن والانس تهجم على الإنسان من كل باب لإغواءه وإضلاله.

وهنا ربما يطرح هذا السؤال وهو: لماذا لم تذكر النصوص جهه الفوق والتحت في مسأله إتيان الشيطان؟ ذهب بعضهم إلى أن ذلك بسبب أن جهه العلو هي جهه الرحم، لأن الرحمه الإلهية تنزل دائماً من هذه الجهه على الإنسان، وأما جهه التحت سبب الخوف والوحشه، فلو أن شخصاً خرج من باطن الأرض ودعا الإنسان إلى عمل معين وذلك من شأنه إخافه هذا الإنسان والاستيحاش منه.

ص: ١٢٥

١- (١) . سورة طه، الآية ٨٢.

٢- (٢) . سورة هود، الآية ٦.

٣- (٣) . سورة الأعراف، الآية ١٢٨.

٤- (٤) سورة سبأ، الآية ٥٤.

٥- (٥) بهج الصباغه، ج ١٤، ص ٣٧٢.

٦- (٦) مجمع البيان، ذيل الآية ١٧ من سورة الأعراف.

ويحتمل أنّ الشياطين يأتون إلى الناس بشكل طبيعي، ونعلم أنّه لا أحد يأتي إلى شخص آخر من جهة الفوق والتحت، بل يأتيه من إحدى جوانبه الأربعة.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام تعرض في سياق كلامه لادعاء معاوية في الحاق زياد بن أبيه به (بوصفه أخاه) واستدل على بطلان هذا الادعاء بدليل منطقي وقال:

«وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلْتَهُ (١) مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَنَزَعَهُ (٢) مِنْ نَزَعَاتِ الشَّيْطَانِ: لَا يَثْبُتُ بِهَا نَسَبٌ، وَلَا يُسْتَحَقُّ بِهَا إِرْثٌ».

وقول الإمام عليه السلام «فلته» من قبل أبي سفيان إشاره إلى ما ذكره ابن أبي الحديد في شرحه نقلاً عن كتاب «الاستيعاب» لابن عبد البر قال: إنّ عمر بعث زياد في إصلاح فساد واقع في اليمن، ولما رجع من جهته خطب عند عمر خطبه لم يُسمع مثلها، وأبوسفيان حاضر، وعلى عليه السلام وعمرو بن العاص، فقال عمرو بن العاص: لله أبو هذا الغلام، لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه، فقال أبو سفيان: إنّ لقرشي، وإني لأعرف الذي وضعه في رحم أمه، فقال علي عليه السلام: ومن هو؟ قال: أنا. فقال: مهلاً يا أباسفيان (أى اسكت)! وجاء في روايه أخرى أنّه عليه السلام قال: اسكت يا أباسفيان فإذا سمعك عمر فإنه سيسارع في عقابك.

وجاء في روايه ثالثة أنّ عمرو بن العاص قال له: إذا كنت تعلم أنّ زياد ابنك، فهلا تستلحقه، قال: أخاف هذا العير الجالس أن يخرق عليّ إهابي (٣).

ومن المعلوم أنّ أباسفيان لا يستطيع إثبات أنّ نطفه زياد من عنده بسبب إرتكابه لعمل منكر مع ام زياد، بل اعتمد على الظن والتخمين، ولكنّه تحدّث بلسان بكل صلافة ووقاحة عن ذلك في حضور الإمام علي عليه السلام وآخرين، ولهذا السبب

ص: ١٢٦

١- (١). «فلته» من ماده «فلت» على وزن «ثبت» في الأصل بمعنى فقدان الشيء، ولذلك تطلق هذه الكلمه على الكلام الذي يصدر من الإنسان بدون دقه ويفلت من فمه وتقال: «فلته»، وكذلك تطلق على الحوادث الفجائيه وبدون تأمل.

٢- (٢) «نزعته» من ماده «نزع» على وزن «نظم» بمعنى الدخول في عمل بقصد الإفساد وإيجاد النزاع بين الناس، و«نزعات شيطان» تقال للوساوس الشيطانيه التي توقع النزاع بين الأفراد.

٣- (٣) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٨٠.

يذكر الإمام على في رسالته مورد البحث زياد بن أبيه بأن مثل هذه الادعاءات الشيطانية لا تعتبر معياراً لإثبات النسب في الإسلام، ومن هذه الجهة لا- يمكنك أن ترث أبا سفيان أبداً، لأن ابن الزنا لا يرث من أبيه وأمه شيئاً (وأنت بدورك لم تدع ميراثاً لنفسك منه) وعلى ضوء ذلك لا ينبغي أن تسلم نفسك لوساوس معاوية الشيطانية.

وفي ختام رساله يقول الإمام عليه السلام:

«وَالْمُتَعَلِّقُ بِهَا كَالْوَاغِلِ الْمُدْفَعِ (١)، وَالنَّوْطِ الْمُدْبَذِبِ».

وبعبارة أخرى إن معاوية إذا أراد أن يدعى إخوتك له من هذا الطريق ووافقته على ذلك، فسوف لن تكون ابناً لأبي سفيان ولا أخاً لمعاوية بل تكون وسمه عار لك أيضاً بأنك ابن زنا، حتى أنك لا تنال ميراثاً من تلك العائلة الغريبة عنك ولا تحسب ابن مشروعاً لها، رغم أن إخوه معاوية الذي إرتكب الكثير من أعمالاً قبيحة والشيعة لا تعدّ افتخاراً لك.

والجدير بالذكر أن هذه الرسالة وطبقاً لما أورده المرحوم السيد الرضى في ذيلها كانت مؤثره في قلب زياد إلى درجة أنه قال:

«فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادُ الْكِتَابِ قَالَ: شَهِدَ بِهَا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَلَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِهِ حَتَّى ادَّعَاهُ مُعَاوِيَةُ».

ثم إن معاوية أبقى زياد بن أبيه في موقعه والياً على بعض بلاد فارس، ثم نقله والياً على العراق ووضع تحت تصرفه منطقه مهمه من العراق، وكانت هذه الوصمه باقيه في زياد ابن أبيه بسبب حبه لجاه والمقام بحيث إن هذا الهاجس قاده آخر المطاف إلى وادى الشر والشيطنه.

ويحتمل أيضاً في تفسير هذه العبارة من كلام زياد بن أبيه أن مقصود زياد هو أن أبا سفيان شهد بهذا الأمر قطعاً بأننى من نطفته، وهذا المعنى بقى في نفسه إلى زمان الحاق معاوية لزياد به.

ص: ١٢٧

١- (١). «مُدْفَع» من ماده «دفع»، تعنى الشخص الذى يمنع من عمل معين.

يتحدّث السيّد الرضى فى هذا المورد عن تفسير بعض اللغات الغامضة:

«قال الرضى، قوله عليه السلام: «الواغِل» هو الذى يَهْجُمُ عَلَى الشُّرْبِ لِيَشْرِبَ مَعَهُمْ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ، فَلَا يَزَالُ مُدْفِعاً مُحَاجِزاً. وَ النَّوْطُ الْمُدْبَذِبُ: هُوَ مَا يُنَاطُ بِرِخْلِ الرَّاِكِبِ مِنْ قُعبٍ أَوْ قَدَحٍ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهُوَ أَبَدًا يَتَّقَلُّ إِذَا حَثَّ ظَهْرَهُ وَاسْتَعْجَلَ سَيْرُهُ».

تأمل

قصة نسب زياد المعقده

فى هذا المورد كلام كثير، إلى درجه أنّ بعض شراح نهج البلاغه كتب فى هذا الموضوع عشرات الصفحات، ونشير فى هذا المورد إلى عدّه مسائل:

١. هل أنّ زياد ابن زنا؟

ما يستفاد من الرساله أعلاه هو أنّ الإمام عليه السلام نفى ادعاء أبى سفيان وكذلك معاويه بأنّ زياد الابن غير المشروع لأبى سفيان، وقال إنّ هذا ادعاء شيطانى، وفى ظاهر الشرع بأنّ كلّ ولد يلحق بأبيه وأمه اللذين تربطهما رابطة الزواج ويولد الولد فى ذلك البيت.

مضافاً إلى أننا نعلم أنّ الإمام عليه السلام نصب زياد والياً من قبله على فارس، وهذا المنصب يستلزم بمفهومه إجازته لإمامه الجمعه والجماعه، فكيف يمكن أن يختار الإمام عليه السلام شخصاً لهذا المقام وهو ابن زنا، فى حين أننا نعلم أنّ مشروط إمامه الجمعه والجماعه طهاره المولد.

ومن جهه أخرى، فقد ورد فى التواريخ فيما يتصل بواقعه كربلاء وعاشوراء أنّ الإمام سيّد الشهداء عليه السلام قال:

«أَلَا وَإِنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِيِّ قَدْ تَرَكَنِي بَيْنَ السَّلَّةِ وَالذَّلَّةِ ... هَيْهَاتَ مَنِي الدَّلَّةِ» (١).

ص: ١٢٨

أما ما هو المقصود بكلمه «الدعى» فى نظر اللغه، بذهب بعض إلى أنّ المراد هو ابن الزنا، ولكن عندما نراجع كتب اللغه نجد أنّ لهذه الكلمه مفهوماً عاماً وتعنى من يدعى البنوه، وكذلك تطلق على الشخص المتهم بنسبه، وجاء فى لسان العرب:

الدعى يعنى من يدعى له البنوه، وكذلك الابن الذى ينسب لغير أبيه.

يقول القرآن الكريم: «وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ» (١) وعلى هذا الأساس فرّبما أراد الإمام عليه السلام أنّ القول بأنّ زياد قد ولد فى اسره حقيقه لا شأن لها كما يولد العبيد، وقد نسب إلى غير أبيه لغرض كسب المكانه والموقع فى المجتمع.

ويحتمل أيضاً أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بيّن الحكم الظاهرى للمسأله، وهو «الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ» ولكن الإمام الحسين عليه السلام ذكر حقيقه الأمر وأنّ زياد ابن غير مشروع.

وأما لابن زياد المسأله أوضح وأجلى فى أنّه ابن غير مشروع وأنّ امّه مرجانه المشهوره بالفجور، ومن هذه الجبهه وطبقاً لما ورد فى تواريخ كربلاء، خاطبت الحوراء زينب عليها السلام ابن زياد عندما رام توييخها وذمّها بقولها له: «يا ابن مرجانه».

ويحتمل أيضاً فى المقام من «الدعى بن الدعى» يزيد وأبيّه معاويه وأنّه إشاره إلى نسبهما المتلوث.

٢. والد زياد ووالدته

المعروف أنّ والد زياد كان عبداً يدعى عبيد وقد تزوج من جاريه «حارث بن كلده» من أطباء العرب المعروفين واسمها سميّه، وقد ولد زياد فى بيتها، رغم أنّ أبا سفيان ومن بعده معاويه سعيّا إلى تبني زياد واعتباره ابناً لأبي سفيان، وأما ما يقال من أنّ سميّه كانت من ذوات الأعلام (أى النسوه المعروفات بالفحشاء والزنا) فهو

ص: ١٢٩

١- (١). سوره الأحزاب، الآيه ٤.

بعيد، لأنّ جاريه طيب معروف كحارث بن كلده لا يمكن أن تكون من ذوات الأعلام كما هو المعروف.

ولكن ورد في كتب التاريخ أنّ أباسفيان توجه في سفر إلى الطائف وطلب من شخص يدعى أبو مريم، وهو من الأشخاص السيء الصيت امرأه فاحشه ليمارس معها الجنس، فقدم له أبو مريم سميه امّ زياد، وقالت له: دع زوج عبيد يعود من الصحراء وينام في البيت وسوف أتى إليك، ثمّ إنّها جاءت إلى أبي سفيان ومارست الجنس معه، ولعلّ أباً سفيان عندما قال أنّه زياد ابني كان ناظر إلى هذه الواقعة.

٣. قصّه استلحاق معاويه لزياد

إنّ قصّه الحاق معاويه لزياد بآل أبي سفيان واتخاذه أخاً له تعدّ من عجائب تاريخ الإسلام، يقول الشيخ المصري المعروف محمّد عبده في شرحه لنهج البلاغه:

إنّ قصّه زياد بن أبيه قصّه غريبه تدعو الإنسان إلى التأمل، لأنّ معاويه نسبه إلى لأبي سفيان ليكون أخاه مدعيّاً أنّ أباً سفيان عاش أمّه سميه وهي زوجته رجل آخر، فأنجبت زياداً منها.

ثمّ يضيف: وأغرب ما في القصّه أنّ ادعاء هذه الأخوه (غير المشروعه) وقعت في مجلس علني ورسمي وبتحقيق الادعاء على رؤوس الأشهاد فلم يخجل منه زياد، موازناً بين مغانم هذه الإخوه وبين إزدراء الناس له، ففضل إخوه الخليفه على سلامه العرض، وهكذا في سبيل السلطه لم يكن الرجل ذوالنخوه يخجل من أن يثلم عرضه إذا كان في هذه منفعه (ولو بشكل غير مشروع على سلامه وصحه نسبه، أجل، فمثل هذه الأمور مهدت الطريق السلطه والمقام هذا الرجل المتكبر، فلم يخجل من تعرض شرفه ونسبه إلى الاهتزاز في مقابل المنافع التي يجنيها من ذلك)^(١).

ونضيف نحن، أنّ الأعجب من ذلك أنّ المحيط الإسلامي الذي أوجده النبي

ص: ١٣٠

١- (١) شرح نهج البلاغه عبده، ذيل الرساله ٤٤، ص ٤٥٨.

الأكرم صلى الله عليه وآله ولم يمض عليه أكثر من نصف قرن تعرض للتلوث والتشويه بسبب تصرفات بنى أميّه إلى درجه أنّ الخليفه يتجرأ بتثيت مثل هذا المنكر في الملاء العام، فالويل للمسلمين إذا سقطوا في أسر مثل هذه الحكومات الجاهله والملوثه.

وعلى أيه حال فالقصه كما يلي: روى المدائني في كتاب فتوح الإسلام: إنّ معاويه لما أراد استلحاق زياد وقد قدم عليه الشام جمع الناس وصعد المنبر، وأصعد زياد معه وأجلسه بين يديه على المرقاه التي تحت مرقاته، وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إني قد عرفت نسبنا أهل البيت في زياد، فمن كان عنده شهاده فليقم بها، فقام ناس فشهدوا أنّه ابن أبي سفيان، وأنهم سمعوا ما أقرّ به قبل موته، وقام أبو مريم السلولي، وكان خماراً في الجاهليّه، فقال: أشهد يا أمير المؤمنين أنّ أباسفيان قدم علينا بالطائف، فأتاني فاشترت له لحماً وخمراً وطعاماً فلما أكل قال: يا أبا مريم، أصب لي بغيّاً، فخرجت فأتيت بسميّه، قلت لها: إنّ أبا سفيان ممن عرفت شرفه وجوده، وقد أمرني أن أصيب له بغيّاً، فهل لك؟ فقالت: نعم، يجيىء الآن عبيد بغمه وكان راعياً فإذا تعشى، ووضع رأسه أتيته، فرجعت إلى أبي سفيان فأعلمته، فلم نلبث أن جاءت تجرّ ذيلها فدخلت معه، فلم تزل عنده حتى أصبحت، فقلت له لما انصرفت: كيف رأيت صاحبكك، قال خير صاحبه ولولا ذفر في أبطيها، فقال زياد من فوق المنبر: يا أبا مريم لا تشتم امهات الرجال فتشتم امك، فلما انقضى كلام معاويه ومناشدته، قام زياد، وأنصت الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إنّ معاويه والشهود قد قالوا ما سمعتم، ولست أدري حقّ هذا من باطله وهو والشهود أعلم بما قالوا، إنّما عبيد أب مبرور ووالٍ مشكور، ثم نزل (الظاهر أنّ المراده من الوالى هو المعاويه)(1).

ص: ١٣١

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٨٧.

كما تمت الإشارة إليه آنفاً فقد كان زياد في الأصل يدعى زياد بن عبيد، وكان أبوه عبداً وراعياً وكانت أمه جاريه أبي حارث بن كلده الطيب العربي المعروف، وأحياناً يقال له: زياد بن أبيه، وأخرى زياد بن أمه، لأن أباه عبد وليس له مكانه اجتماعيه في الناس، وبعد أن ألحقه معاوية بنفسه صار يقال له زياد بن أبي سفيان وكان منذ صباه ذكياً وخطيباً مفوهاً وبلغاً، ولد في الطائفه في عام فتح مكه، وقيل إنه ولد في عام الهجره وقال آخرون أنه ولد يوم بدر، ولكنه لم يشاهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وكان مع أمير المؤمنين عليه السلام في جميع حروبه، وبقي مع الإمام الحسن عليه السلام إلى زمان صلحه مع معاوية، وبعد ذلك خدعه معاوية وطلب منه المجيء إليه وتوفي زياد في الكوفه في شهر رمضان عام ٥٣ في سن ٥٦ (وذهب بعضهم إلى أن عمره أكثر من ذلك أو أقل).

أمياً سيره حياته فتشكّل من مرحلتين متفاوتتين تماماً، المرحله الأولى كان يتحرك في خط الحق، وكان رجلاً موثقاً ومدبراً مدبراً، ولهذا السبب عينه الإمام على عليه السلام والياً له على فارس، وقد أدار المنطقه بشكل جيد وكا يجمع الخراج بأفضل صوره ويرسله إلى أمير المؤمنين عليه السلام فبلغ ذلك إلى معاوية واشتد عليه هذا الأمر، فكتب له رساله وذكر له في مضمونها: أمياً بعد فيأته غزتك قلاع تأوى إليها ليلاً، كما تأوى الطير إلى وكرها، وأيما الله لولا انتظار بك والله أعلم به لكان لك منى ما قاله العبد الصالح: «فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قَبِيلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنَخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ» (١) وكتب في أسفل الكتاب شعر من جملته:

تَنسَى أَبَاكَ وَقَدْ شَالَتْ نُعُومَتُهُ

إِذَا يَخْطُبُ النَّاسَ وَالْوَالِي لَهُمْ عُمُرُ

فلما ورد الكتاب على زياد قام فخطب الناس وقال: العجب من ابن آكله الأكباد

ص: ١٣٢

ورأس النفاق، يهددني ويبنى وبينه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وزوج سيده نساء العالمين وأبى السبطين، وصاحب الولاية والمنزلة والإخاء في مئة ألف من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم باحسان، أما والله لو تخط هؤلاء أجمعين إليّ لوجدني أحمر مخشن ضرباً بالسيف.

ثم كتب زياد رساله إلى أمير المؤمنين على عليه السلام وبعث بكتاب معاويه معها: فكتب إليه الإمام على عليه السلام يقول: «أما بعد، فإني قد وليتك وأنا أراك لذلك أهلاً، فإنه قد كانت من أبي سفيان فلتة في أيام عمر من أمانى التيه وكذب النفس، لم تستوجب بها ميراثاً ولم يستحق بها نسباً، وأن معاويه كالشيطان الرجيم يأتي المرء من بين يديه من خلفه وعن يمينه وعن شماله، فاحذره ثم احذره ثم احذره والسلام».

أمياً المرحلة الثانية من حياته اختلفت تماماً عن المرحلة السابقة، وبتعبير معاصر أنه انقلب ١٨٠ درجة على ما كان سابقاً، وهذه المرحلة تبتدىء منذ أن خدعه معاويه بواسطة المغيرة بن شعبه، وقد استغل معاويه نقطه الضعف في زياد هو حبه للجاه والمقام، فدعاه إليه بعد قضيه صلح الإمام الحسن عليه السلام وادّعا إخوته (أنه ابن غير مشروع لأبى سفيان) وولاه حكومه فارس، ثم وسع دائره نفوذه وألحق بولايته الولاية على الكوفه والعراق، فما كان من زياد من أجل تثبيت حكومته والتصدي للثورات الشعبيه ضد معاويه وأزلامه، إلما أن بدأ بقمع الأصوات المناوئه لحكومته بنى امية، وبخاصه الشيعة الموالين لأهل البيت عليهم السلام فكان يستخدم فيهم القتل والقمع والشده بأقصى صورها، وقد ارتكب معهم جرائم لا تعد ولا تحصى بحيث إنه شوّه تاريخ الإسلام بأفعاله، ومن ذلك أنه قبض على «حجر بن عدى» كان رجلاً شجاعاً ومؤمناً ومن شيعة الإمام على عليه السلام المخلصين ومشهوراً بالصالح والنقاء ومن صحابه النبي المعروفين، ومعه جماعه من أصحابه وأرسلهم إلى الشام، وقد أمر معاويه بقتل هذا الرجل الصالح في منطقه «مرج عذراء» وذلك أضاف صفحه سوداء أخرى إلى صفحات حياته السوداء، وقد وصل به الأمر رجه أن الحسن البصرى الذى لم تكن له علاقه جيداً مع الإمام على عليه السلام قال فى حقه: إن معاويه قد ارتكب ثلاثه أمور، كل

واحد منها تكفى لهلاكه، الأول، أنه سلط السفهاء والجهلاء على المسلمين ووضع بيدهم مقاليد الحكم والسلطه، والثانى الحاقه لزياد بنفسه خلافاً لقول النبى الأكرم صلى الله عليه وآله حيث قال: «الولد للفراس وللعاهر الحجر» والثالث: قتله لحجر بن عدى، فالويل له من حجر وأصحاب حجر(١).

ونحن نقول أيضاً: نعوذ بالله من سوء العاقبه وتورط الإنسان فى فخاخ الشياطين من الجن والإنس أن يفارق الحياه فى حال الكفر والضلاله والجريمه.

ص: ١٣٤

١- (١) ما ورد أعلاه مقتبس من كتاب الاستيعاب، وشرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، وتنقيح المقال، للعلامة المامقانى وشرح نهج البلاغه، للعلامة التستري، فراجع.

إلى عثمان بن حنيف الأنصاري - وكان عاملاً على البصره وقد بلغه أنه دعى إلى وليمة قوم من أهلها،

فمضى إليها - قوله (١)

نظرة عامة للرساله

تعتبر هذه الرساله من الرسائل المهمه جداً في نهج البلاغه والتي تتضمن دروساً ومعطيات كثيره للسالكين في طريق الحق والإيمان وبخاصه أولياء الأمور والمسؤولين في البلدان الإسلاميه وتضمن جهات عدّه:

ص: ١٣٥

١- (١) سند الرساله: صرح صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه بأنّ الصدوق ذكر قسماً من هذه الرساله في كتاب الأمالي قبل السيد الرضى، والجدير بالذكر أنّ السيد الرضى في شرحه لهذه الرساله يقول في عدّه موارد وفي روايه أخرى ورد كذا وكذا، وهذا يشير إلى وجود مصدر آخر عنده نقل منه هذه العبارة المتفاوته، بل إنه في أحد الموارد يقول: إنّ جماعه نقلوا هذه العبارة بكذا وكذا، والتعبير بالجماعه جدير بالتأمل، مضافاً إلى ذلك فإنّ مقاطع من هذه الرساله وردت في كتب متعدده بعد السيد الرضى كخراج للقطب الراوندى، وروضه الواعظين للفتال النيسابورى، والمناقب لابن شهر آشوب، وربيع الأبرار للزمخشري مع اختلاف يسير، هذا الاختلاف يشير إلى مصادر أخرى لديهم (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٧٣). وقد أورد هذه الرساله «البرى» (المتوفى قرن ٧) في كتاب الجوهره في نسب الإمام على، ص ٨١، مع بعض الإضافات.

١. بدايه يخاطب الإمام عليه السلام واليه على البصره عثمان بن حنيف ويخبره بخبر مشاركته فى ضيافه أحد أشراف البصره، وفى تلك الضيافه التى لم يشترك فيها سوى الأثرياء والمتولين، جلبت إلى المائده شتى أصناف الطعام والمأكولات المتنوعه، والإمام هنا يوبّخه على مشاركته فى مثل هذه المائده.

٢. وفى القسم الثانى من الرساله يذكر الإمام عليه السلام أنّ كلّ إنسان ينبغى أن يقتدى فى حياته بإمامه وقائده، ثمّ يبيّن له سيره حياته وسلوكه بوصفه إماماً للمسلمين وكيف أنّه اكتفى من الدنيا بردائين قديمين وبقرصين من الخبر ولم يدخّر لنفسه ثروه ومالاً من زخارف الدنيا، ولكنّه يؤكّد له بأننى لا أتوقع أن تعيش كما أنا أعيش فى واقع الحياه، ولكن أتوقع منك البساطه والزهد فى الحياه وأن لا تنسى حالات التقوى والنزاهه.

٣. وفى قسم آخر من هذه الرساله يشير الإمام عليه السلام إلى قصّه فذك ويقول: الشىء الوحيد الذى كان فى أيدينا من مال الدنيا هو «فذك» وقد استولى عليها الحساد وأعداء أهل بيت النبى صلى الله عليه وآله، ورغم أننى لا احتاج لفذك ولغير فذك، فنهايه حياتنا جميعاً الموت، وسيكون بيتنا هو القبر الضيق والمظلم.

٤. وفى مقطع آخر من هذه الرساله يشير الإمام عليه السلام إلى نقطه مهمّه وهى أنّ بساطتى فى المعيشه ليست بسبب أننى لا أتمكن من التوصل إلى الدنيا وتحصيل المواهب والنعم الماديه فيها، بل بسبب ما أتولاه من وظيفه خطيره ومسؤوليه كبيره فى عهدتى، والتى تتمثل فى منصب الإمامه وزعامه المسلمين، وهذا المقام يستوجب أن اشارك الناس الضعفاء فى صعوبات الحياه ومشاكلها، فلا أبيت شعباناً فى حين يوجد من ينام جائعاً فى أطراف البلد الإسلامى.

٥. وفى مقطع أخرى يجيب الإمام عليه السلام عن هذا السؤال، وهو أنّه ربّما يقول البعض: إذا كان على بن أبى طالب يأكل من هذا الطعام البسيط فهذا من شأنه أن يكون الإمام ضعيفاً فى قوّته البدنيه بحيث لا يستطيع مقارعه الشجعان فى ميادين

القتال، ولكن حالى كالشجره البريه التى تواجه صعوبه ومشقّه فى الماء والغذاء ولكنها قويّه وصلبه أمام التحديات.

٦. وفى آخر مقطع من هذه الرساله (والتي حذف السيد الرضى بعضاً من مقاطعها وفقراتها) يخاطب الإمام عليه السلام الدنيا بلغه المعرض عنها ويعلن بصوت عالٍ أنه برىء من زخارفها وجواذبها، وبعد أن يثنى الإمام على الأشخاص الذين يتحركون من موقع المسئوليه والالتزام بالتكاليف والقيم الإنسانيه أمام الله تعالى ويحيوا الليل بالعباده، يخاطب مرّه أخرى عثمان بن حنيف ويوصيه بتقوى الله ويدعوه إلى سلوكك مسلك الزهد والبساطه فى الحياه يضمن له النجاه فى الآخره من النار.

ص: ١٣٧

أَمَّا بَعْدُ، يَا ابْنَ حُنَيْفٍ: فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَا دُبِّيهِ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ! وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ، عَائِلُهُمْ مَجْفُوفٌ، وَعَيْبُهُمْ مَدْعُوفٌ. فَانظُرْ إِلَى مَا تَقْضِمُهُ مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظَةُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلِّ مِنْهُ.

الشرح والتفسير: دعوه الوالى إلى مأدبه فاخره!

فى المقطع الأول من هذه الرساله يخاطب الإمام عليه السلام عثمان بن حنيف الأنصارى، الذى يعدّ من أصحاب النبى الأكرم صلى الله عليه وآله الأجلاء وقد اختاره أمير المؤمنين ليكون والياً على البصره ويتحدّث معه بلغه التوبيخ ويقول:

«أَمَّا بَعْدُ، يَا ابْنَ حُنَيْفٍ: فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَا دُبِّيهِ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ (١) الْأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ!».

«فتيه» جمع «فتى» فى الأصل تعنى الشاب اليافع، وأحياناً تطلق على المسن الذى يملك النشاط والبهجه فى حياته، وفى هذه العبارة تعنى رجل من الأشراف.

«مادبه» من ماده «أدب» وتعنى الدعوه الرسميه المعبره التى تراعى فيها الآداب.

و «جفان» جمع «جفنه» (على وزن وزنه) وتعنى الآنيه الكبيره المخصصه

١- (١). جمله «تستطاب لك» بمعنى أنه يطلق لك جلب الأنواع الجيده واللذيذه من الأطمعه، وهى من ماده «طيب» بمعنى الطاهر واللذيذ والجيد.

للطعام، وهذا التعبير يشير إلى أنّ المجلس المذكور كان مجلساً ضخماً وقد دعيت إليه جماعه من الأشراف وجيىء إلى المائدة بأنواع الأطعمه اللذيذه.

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام:

«وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَيَّ طَعَامِ قَوْمٍ، عَائِلُهُمْ (١) مَجْفُوعٌ (٢)، وَغَيْبُهُمْ مَدْعُوعٌ».

هنا نرى أنّ الإمام عليه السلام يؤكد أنّ العيب الكبير في هذه المأدبه أنّها منحصره بالأغنياء فقط، فلو أنّ تلك الأَطعمه المتنوعه واللذيذه كانت تشمل الجياع والمحرومين ليأكلوا منها فليست في ذلك مشكله كبيره، ومن هذه الجبهه فإنّ هذه المائدة كانت مليئه بشتى أنواع الأَطعمه اللذيذه والمأكولات المتنوعه، ومن جبهه أخرى أنّ الأثرياء فقط هم المدعون لهذه المائدة دون المحرومين، ولو أضفنا إلى ذلك دعوه عثمان بن حنيف إلى هذه المائدة فسيضعف الإشكال.

ونستوحى من سياق هذه الرساله أنّ الإمام عليه السلام يطرح إشكالاً رابعاً في دعوه واليه إليها ويتمثل في وجود أموال مشتبهه في هذه المأدبه، لأنّ الإمام عليه السلام يضيف إلى ذلك قوله:

«فَانظُرْ إِلَيَّ مَا تَقَضَّمُهُ (٣) مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ (٤)، وَمَا أُيَقِنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ».

والنقطه الملفته للنظر، أنّ الإمام عليه السلام كان يهتم بمراقبه عمّاله وولاته بشكل دقيق وينظر إلى حركاتهم وسلوكياتهم، لئلا ينحرف الوالى أدنى انحراف وأن لا- توجد فيه أيه نقطه ضعف حتى المشاركه في ضيافه غير مناسبه له، بحيث إنّ الإمام عليه السلام يرسل له رساله مطوله وزاخره بالنصائح المختلفه ويحذّره من مغبه مثل هذه السلوكيات الخاطئه، وربّما لانجد في العالم أجمع مثل هذا التوجيه الدقيق والضبط في إداره الأمور.

ص: ١٤٠

١- (١). «عائل» بمعنى من له عيال محتاجين إليه.

٢- (٢) «مجفوع» بمعنى المحروم والشخص الذى لم يعطى حقّه.

٣- (٣). «تقضّمه» من ماده «قضم» على وزن «فهم» بمعنى مفض الطعام فى الفم، وأحياناً تأتي بمعنى الأكل، و «مقضم» يطلق على الطعام فى الفم.

٤- (٤) «الفظه» من ماده «لفظ» بمعنى اخراج الطعام من الفم، ويقال للألفاظ لأنها تخرج من الفم.

ومن بين كتب الإمام عليه السلام ورسائله إلى عمّاله ربّما نجد الكثير من مثل هذه الرسائل، وكلّها تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام كان في غاية التدبير ومنتهى الدقّه في أمر إداره الحكومه.

والملاحظه الأخرى، أنّ الإمام عليه السلام يرى في هذه الرسالة أنّ الولاة والمسؤولين في الحكومه الإسلاميه ينبغي أن يقفوا إلى جانب الناس وجمهور المستضعفين والمحرومين وأن لا- يعتنوا أبداً بالطبقه المترفه الذين تزداد توقعاتهم وتقل معونتهم، والتجارب تؤكد على أنّ المحرومين المستضعفين هم أوّل المدافعين عن الدين والبلاد الإسلاميه في مواقع الخطر والظروف الصعبه.

تأمل

من هو عثمان بن حنيف؟

جاء في كتاب «الأعلام للزركلي»: «عثمان بن حنيف بن وهب الأنصاري الأوسى، أبو عمرو! من أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله شهد احداً، وما بعدها، وبسبب ورعه ونزاهته وولاه الخليفه الثاني على السواد مسؤولاً- على الأراضى الخراجيه في العراق، ثم ولاة على البصره، ولما نشبت فتنه الجمل (بين عائشه وعلي) دعاه أنصار عائشه إلى الخروج معهم على علي، فامتنع، فنتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه، واستأذنوا به على عائشه فأمرتهم بإطلاقه، فلحق بعلي وحضر معه الواقعه ومعركه الجمل، ثم سكن الكوفه وتوفى في خلافه معاويه» (١)، وقال البعض الآخر: توفى في زمن خلافه معاويه في المدينه.

واللافت أنّ ابن عبدالبر ذكر في كتابه «الاستيعاب» أنّه عندما فتح المسلمون العراق، تشاور الخليفه الثاني مع أصحابه فيمن يرسله إلى العراق ليكون والياً عليه، فاتفق الجميع على اختيار عثمان بن حنيف وقالوا: إنّه يستطيع إداره ما هو أكبر من

ص: ١٤١

ذلك، لأنه يملك من البصيره والعقل والمعرفه والتجربه الكثير(١).

وجاء فى كتاب «مستدركات علم رجال الحديث» أنّ عثمان بن حنيف وأخاه سهل بن حنيف كانا من جمله اثنى عشر نفر الذين اعترضوا على أبى بكر وانتقدوا أعماله، ثم يضيف: إنّ عثمان وأخاه سهل كانا من شرطه الخميس فى عهد الإمام على عليه السلام وهم الذين ضمن الإمام على لهم الجنة(٢).

وجاء فى اسد الغابه: أنّ عثمان بن حنيف قال: إنّ رجلاً ضرير البصر أتى النبى صلى الله عليه وآله، فقال: ادع الله أن يعافينى، فقال صلى الله عليه وآله: إن شئت دعوه وإن شئت صبرت فهو خير لك، قال: ادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويدعو بهذا الدعاء:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّكَ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ لِتَقْضِيَ لِي اللَّهُمَّ فَشَفِّعْ فِيَّ»(٣).

ونختم هذا المقطع بكلام للإمام على بن موسى الرضا عليهما السلام (طبقاً لما ورد فى رجال المامقانى): «وعده مولانا الإمام الرضا عليه السلام من الباقين على منهج نبيهم صلى الله عليه وآله من غير تغيير ولا تبديل»(٤).

ص: ١٤٢

- ١- (١) الاستيعاب، ج ٣، ص ٨٩.
- ٢- (٢) مستدركات علم رجال الحديث، ج ٥، ص ٢١٣.
- ٣- (٣) اسد الغابه، ج ٣، شرح حال عثمان بن حنيف، رقم ٣٥٧١. وقد ورد ما يشبه هذا المعنى فى مسند أحمد، ج ٤، ص ١٣٨؛ ومستدرك الحاكم، ج ١، ص ٥١٩. ويقول الحاكم بعد نقل هذا الحديث: إنّ هذا الحديث صحيح السند رغم أنّ البخارى ومسلم لم ينقلاه، (ليت المخالفين الجاهلين يتمسكون لا أقل بمبانيهم الروائيه ليعلموا مدى وقوعهم فى الاشتباه).
- ٤- (٤) رجال المامقانى، شرح حال عثمان بن حنيف.

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَامًا، يَفْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ؛ أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطَمْرِيهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصِيهِ، أَلَا وَإِنَّكُمْ لَاتَقْدِرُونَ عَلَيَّ ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعِفْفٍ وَسِدَادٍ. فَوَاللَّهِ مَا كَنْزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تَبْرًا، وَلَمَا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفَرًّا، وَلَا أَعَدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طَمْرًا، وَلَا حَزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شَبْرًا، وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبْرَهُ، وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى وَأَوْهَنُ مِنْ عَفْصِهِ مَقْرَهُ.

الشرح والتفسير: لم أَدخِر من الدنيا شيئاً لنفسي

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه لعثمان بن حنيف وأمثاله في هذا المقطع من الرسالة ويشير إلى عدّه نقاط مهمّة لإيقاظ عناصر الخير والإيمان في وجدان عامله، يقول بدايه:

«أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَامًا، يَفْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ».

وهذه إشاره إلى أنّ الإنسان في مسيره حياته المعقده وسلوكه المادى والمعنوى لا يستطيع أن يتحرك لوحده ومن دون إرشاد وإقتداء بقوده صالحه، فالإنسان إما أن يكون في ذاته يملك جميع الملاكات واللياقات اللازمه ليكون إماماً للناس أو أن يقتدى بمن تتوفر فيه هذه الملكات والقابليات اللائقه، وإلّا فإنه سيسير في متاهات الضلاله والحيره.

ثم يضيف الإمام عليه السلام:

«أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطَمْرِيهِ (١)، وَمِنْ طُعْمِهِ

ص: ١٤٣

١- (١). «طمر» تعنى الثواب الخلق والقديم، وفي الأصل من ماده «طمر» على وزن «أمر» ويعنى تغطيه الشىء، وأما استخدام الإمام عليه السلام لهذه الكلمه بصيغه التثنيه فمن أجل أنّ أحدهما يشير إلى الثوب والآخر إلى اللباس الداخلى.

المشهور أنّ هذين الثوبين كانا من الكرباس والقرصين من خبز الشعير، وهما يشكلان طعام الإمام عليه السلام اليومي، وقرص واحد لوجه الظهر والآخر للعشاء، وهذا في الحقيقة اقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله الذي يقتدى به الإمام على عليه السلام، كما في ورد في الحديث الشريف:

«إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ مَا اتَّخَذَ فَمِيصِينَ وَلَا إِزَارَيْنِ وَلَا زَوْجِينَ مِنَ النَّعَالِ» (٢).

خلافاً لأهل الدنيا والمترفين من الناس، الذين يملكون أحياناً عشرات الأنواع من الألبسة والأحذية، بل إنّ بعضهم لا يلبسون لباساً فاخراً لأكثر من مرّة أو بعض المرات ثم يتركوه جانباً، وأحياناً نراهم ينقلون من صناديق والحقائب المليئة بالملابس من مكان لآخر عند انتقالهم من منازلهم، وأما موائدهم الملوّنة فحدّث عنها ولا حرج.

وبما أنّ الإمام عليه السلام كان يعلم أنّ من النادر أن يستطيع أى إنسان أن يعيش مثل هذه الحياه الصعبة ويرضى بشظف العيش وخاصّه فيما لو كان من كبار المسؤولين وأصحاب المناصب الذين يملكون الإمكانيات الكثيره فإنّه يتعرض لهذه النقطة بالذات ويقول:

«أَلَا وَإِنَّكُمْ لَاتَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعْيُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعَفْفٍ وَسَدَادٍ».

وهذه إشاره إلى أنّه لا يتوجب عليكم أن تعيشوا مثل هذه الحياه الصعبة وحالات الزهد الشديد، ولكن لا ينبغي أن تغفلوا عن أربع نقاط، وبذلك تعينونى فى أمر الحكومه وإداره هذه البلاد الإسلاميه الواسعه.

ص: ١٤٤

١- (١) «قُرْص» فى الأصل بمعنى الشئ المدور، ولذلك يطلق على الشمس والقمر والخبز المدور فيقال قرص الخبز أو قرص الشمس، والتثنيه فى عباره الإمام عليه السلام إشاره إلى طعام يوم واحد، لأنّ كثير من الناس فى ذلك الزمان يتناولون الطعام فى اليوم والليله مرّتين.

٢- (٢) فى ظلال نهج البلاغه، ج ٤، ص ١٦.

الأولى: التوصية بالورع، وتعنى فى الحقيقه حاله التقوى فى حدودها العالیه، ثم التوصیه ب «الاجتهاد» يعنى بذل الجهد والسعى فى طريق حفظ العدل وحمایه المحرومين، والثالثه: «العفه» بمعنى حفظ النفس فى مقابل الشهوات والنوازع المختلفه، والرابعه: «السداد» يعنى انتخاب الطريق الصحیح والمستقیم فى اجتناب فى الطرق المختلفه التى تقود الإنسان إلى المتاهه والضلاله.

ومعلوم أنّ المسؤولين فى البلاد الإسلامیه لو التزموا بهذه الأمور الأربعة وتحركوا فى سلوكهم الفردى والاجتماعى بمستويات الطبقة الوسطى من الناس لا أكثر، فإنّ كلّ شىء سيكون فى محله وستنحل الكثير من العقد المستعصیه فى أمر الحكومه ويعيش عامّه الناس حالات الرضا عن هؤلاء المسؤولين.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى نقطه ثالثه لتكون عبره لجميع الولاه والعمّال فى حكومته، ويقول:

«فَوَاللّٰهِ مَا كُنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تَبْرًا (١) ، وَلَمَّا دَخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفَرًّا (٢) ، وَلَا أَعْدَدْتُ لِإِبَالِي تَوْبِي طَمْرًا، وَلَا حَزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شَبْرًا، وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقَوْتِ أَتَانٍ دَبْرِهِ».

وهذه إشاره إلى أنّى لست كبعض أهل الدنيا الذين يدّخرون من زخارف الدنيا ومتاعها ويتظاهرون بالزهد والتقوى فإنّ ظاهرى وباطنى واحد، فأنا لا أملك من المال والثروه لظاهرًا ولا باطنًا، ولست من المرائين والمتظاهرين بالزهد وترك الدنيا.

والملفت أنّ الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الرساله يحدد الإمكانيات الماديه للدنيا فى أربعه أشياء: أحدها، الذهب والفضه حيث يجمع الناس الدينار والدرهم ويدّخرونها ويفرحون لكميه ما يدّخرون، والآخر، الأموال المتنوعه التى تعدّ رأس المال لهم من قبيل الخيول والإبل ووسائل المعيشه والدور والفرش والأثاث وما إلى ذلك، الثالث: الملابس الفاخره والمتنوعه، والرابع: الأراضى الزراعيه والبيوت

ص: ١٤٥

١- (١) . «تبر» قطعات الذهب والفضه قبل أن تصنع منها الزينه أو تكون مسكوكه.

٢- (٢) «وفر» يقول أرباب اللغه أنّها تعنى المال الكثير من ماده «وفور» بمعنى الزياده والكثره، وأحيانًا تطلق على كلّ شىء الكثير.

والقصور، يقول الإمام عليه السلام: إنني لم أتوجه في حياتي إلى أي من هذه الأمور الأربعة (في حين أن بإمكانى ذلك).

والعبارة الأخيرة في هذه الرسالة تعكس غاية التواضع والزهد لدى الإمام عليه السلام، بأن يلفت نظر مخاطبه أو مخاطبيه لهذه المسألة المهمّة، وهي أن لا يتلوثوا بالحياه المترفة لطبقه الأشراف بل يعيشون حاله المواساه للمحرومين والمعوزين وينخرطون في معيشتهم وحياتهم مع هذه الطبقة المحرومه من المجتمع.

«أَتَانِ دَبْرَهُ»، تطلق على الدواب التي جرح ظهرها من كثرة الأحمال والعمل الشاق، ولهذا السبب لا تأكل كما ينبغي وتفتقد شهيتها للطعام (والجدير بالذكر أن بعض نسخ نهج البلاغه لم ترد فيها هذه الجملة والجملة التي بعدها ولم يذكرها الشراح في شروحهم لنهج البلاغه).

وفي ختام هذا المقطع من الرسالة يتحدّث الإمام عليه السلام عن عدم اهتمامه بالدنيا وأنها في نظره ليست ذات قيمة إطلاقاً ويقول بمضمون عميق:

«وَلَيْهِ فِي عَيْنِي أَوْهَى وَأَوْهَنُ مِنْ عَفْصِهِ (١) مَقْرِهِ (٢)».

وتوضيح ذلك أن لشجرة البلوط أنواع وأقسام، إحداها أنها تثمر ثمره مُرّه ومضافاً إلى مرورتها فإنها قاسيه وصلبه، وبسبب قساوتها يستخدمها الدباغون في دباغه الجلود.

وبديهى أن تناول مثل هذه الثمره المرّه والقاسيه غير مستساغ أبداً ومن يضعها في فمه يضطر للفظها فوراً، وهذا التشبيه يعدّ من أقوى وأبلغ تشبيهات نهج البلاغه عن حال الدنيا، حيث إنّ الإمام عليه السلام جسد باطن وحقيقه الدنيا في قالب هذا المثال، وتأتى لاحقاً مثل هذه العبارات في نهج البلاغه.

ص: ١٤٦

١- (١) «عفصه» تارة تطلق على شجرة البلوط، وأخرى عل ثمرتها، وهذه المادة يترشح منها سائل أبيض ومضافاً إلى مرارته فإنه قابض.

٢- (٢) «مقر» تارة تأتي بمعنى المر، وأخرى بمعنى الحامض، وفي هذا المورد جاءت بمعنى الأوّل، وهي تأكيد على مفهوم «عفصه».

بلى! كانت في أيدينا فدك من كل ما أظننه السماء، فشحت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس قوم آخرين، ونعم الحكم الله. وما أضنع بفدك وغير فدك. والنفس مظانها في غد جدت تنقطع في ظلمته آثارها، وتغيب أخبارها، وحفرة لو زيد في فسحتها، وأوسعت نيدا حافرها، لأضغظها الحجر والمدر، وسد فرجها التراب المتراكم؛ وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنه يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق. ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصيقي هذا العسل ولباب هذا القمح، ونسأج هذا القز. ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جسدي إلى تحبير الأطمع - ولعل بالحجاز أو اليمامة من لطمع له في القرض، ولا عهد له بالشبع - أو أبيت مبطاناً وحولي بطون عرثي، وأكباد حرّي، أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داء أن تبيت ببطنه وحولك أكباد تحن إلى القد

أفنع من نفسي بأن يقال: هذا أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبه العيش!

الشرح والتفسير: كيف أكون أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر؟

ومع الالتفات إلى ما تقدم بيانه من قول الإمام آنفاً:

«ولأحزت من أرضها شبراً» يستعرض الإمام في هذا المقطع مسأله «فدك» المؤلمه بوصفها استثناء لما ذكره قبل

قليل، وكذلك لغرض التأكيد على عدم اعتنائه للدنيا من جهه، ومن جهه أخرى إشاره إلى أشكال الظلم والجور التي تعرض لها الإمام من قبل مناوئيه:

«بَلَى! كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكُّ مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ، فَشَحَّتْ (١) عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَيَّخَتْ (٢) عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخِرِينَ، وَنِعْمَ الْحَكْمُ لِلَّهِ».

ونعلم أنّ «فدك» تقع على مقربة من قلاع خيبر، حيث جاء أهالي المنطقه بعد فتح خيبر وصالحوا النبي الأكرم صلى الله عليه و آله على نصف قريه فدك بدون أن قتال، فأعطى النبي الأكرم صلى الله عليه و آله بساتين فدك في حياته إلى ابنته فاطمه الزهراء عليها السلام، وبما أنّ محصول فدك ربّما يساعد أميرالمؤمنين عليه السلام في أمر الخلافه، قام المنافسون بعد رحله النبي الأكرم صلى الله عليه و آله بأخذها بسرعه من يد فاطمه الزهراء عليها السلام وطرودوا عمّالها على تلك البساتين ولم يعيدوها لها أبداً، وهو ما سيأتي شرحه في ختام هذه الرساله إن شاء الله.

والمراد من جمله جمله

«كَانَتْ فِي أَيْدِينَا...» هي مدّه أربع سنوات منذ فتح خيبر إلى رحله النبي الأكرم صلى الله عليه و آله.

وجمله

«فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ...» إشاره إلى الغاصبين لمقام الحكومه والخلافه حيث دخلوا بفدك وتمسكوا بها خوفاً من وقوعها بيد بنى هاشم، ممّا يعرّض حكومتهم للاهتزاز والضعف.

وجمله

«وَسَيَّخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخِرِينَ...» إشاره إلى بنى هاشم فعندما رأوا مناوئيهم مصرين على غضب فدك لم يستمروا بمطالبتهم لفدك وتركوها لهم، وبذلك أظهروا عدم اهتمام واعتنائهم بهذا الأمر.

وجمله

«نِعْمَ الْحَكْمُ لِلَّهِ»، جمله عميقه المعنى وإشاره إلى الحوادث المؤلمه التي وقعت بعد تداعيات فدك، فهنا يفوض الإمام عليه السلام أمر الحكم في هذه المسأله إلى الله

ص: ١٤٨

١- (١). «شحت» من ماده «شح» على وزن «نه» بمعنى البخل المصاحب للحرص.

٢- (٢) «سخت» الجود والسخاء.

يوم القيامة، واللافت أنه لم ينقل عن الإمام عليه السلام أنه استعاد فدك في أيام حكومته وخلافته حيث كان بإمكانه ذلك.

ومن أجل أن لا يتصور أحد أن الإمام عليه السلام يرغب في تملك فدك في نفسه، يتابع الإمام القول:

«وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكٍ وَغَيْرِ فَدَكٍ. وَالنَّفْسُ مَطَانِنُهَا (١) فِي غَدِّ جَدَثٍ (٢) تَنْقَطِعُ فِي ظِلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَتَغِيْبُ أَخْبَارُهَا».

ثم يواصل الإمام عليه السلام في هذا الحديث بتوضيح أكثر ويتحدث عن القبر ونهايه حياه الإنسان ويقول:

«وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا، لِأَضْغَطِهَا (٣) الْحَجَرُ وَالْمَدْرُ (٤)، وَسَدَّ فُرْجَهَا التُّرَابُ الْمُتْرَاكِمُ».

وهذه إشاره إلى أن القبر عادة يكون حفره صغيره لا تتسع لأكثر من جسد الإنسان، بل أحياناً يتم إدخال الميت إلى هذه الحفره بصعوبه بالغه، وعلى فرض أن الحافر للقبر عمل على توسيع حفره القبر بنفسه أو بطلب من الورثه، فمع ذلك لا ينفع الميت شيئاً، لأنه لا بد من ملء ثغرات الحفره بالحجر والطين وتغطيه جميع نوافذه وثغراته بشكل كامل، فالإنسان الذى يعيش مثل هذا المصير كيف يرتبط قلبه بمال الدنيا وبساتينها وزينتها وقصورها؟

وما ورد فى الروايات أن المرء إذا شعر بالحزن والغم فعليه بزياره أهل القبور للتخفيف عن غمه وحزنه، فربما يكون ناظراً إلى هذه الحقيقه، وهى أن الغم عادة ما يكون بسبب المال والمقام والدينوى، وعندما يصل الإنسان إلى آخر منزل فى حياته ويرى مصيره فى نهايه هذه الحياه وأنه سيودع يوماً جميع ما يملكه من أموال ومقام وجاه، ويكتفى بعدّه قطع من الكفن يأخذها معه إلى القبر فذلك من شأنه أن

ص: ١٤٩

١- (١). «مظان» جمع «مظنه» بمعنى المكان الذى يضم أو يطمئن الإنسان بوجود الشىء يطلبه فيه.

٢- (٢) «جدث» بمعنى القبر.

٣- (٣). «اضغط» من ماده «اضغات» بمعنى العصر من ماده «ضغت» على وزن «وقت» بمعنى استخدام القوه فى الشىء والضغط عليه.

٤- (٤) «المدر» يقال للطين الصلب الملتصق ببعضه مثل قطعه الآجر.

يزيح من قلبه هذا الغم والغصه.

وينقل المرحوم المحقق التستري قصه في هذا المجال عن المرحوم السيد نعمه الله الجزائري، وربما كان لهذه القصة جانب التمثيل يقول: «أن رجلين تنازعا في دار فانطق الله لبنه من جدار تلك الدار، فقالت: إني كنت ملكاً من ملوك الأرض ملكت الدنيا ألف سنه، فلما صرت تراباً أخذني خزاف بعد ألف سنه فصيرني خزفه فبقيت ألف سنه، ثم أخذني فصيرني لبنه، وأنا في هذا الجدار منذ كذا وكذا، فلم تنازعا في هذه الدار؟»^(١).

ثم إن الإمام عليه السلام يبين درساً نافعا لكل سالك إلى الله تعالى ويتحرك في طريق الصلاح والنجاه يوم المعاد ويقول:

«وَأِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرَوْضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِي آمَنَهُ يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ، وَتَثْبَتَ عَلَيَّ جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ (٢)».

الرياضه في حقيقتها تطويع النفس وتدجينها وأحياناً تستخدم هذه الكلمه في مورد الحيوانات الجموحه، وأخرى في مورد النفس المعانده وغير السلسله القياده، واليوم تستعمل هذه الكلمه بمعنى الرياضه البدنيه، واللافت أن الإمام عليه السلام مع مقامه السامى والعظيم في أمر تصفيه النفس وتنقيه الروح والسلوك في مدارج الكمال المعنوى والسير إلى الله تعالى والوصول إلى مقام لا يرى فيه سوى الله تعالى ومع ذلك يقول:

«هِيَ نَفْسِي أَرَوْضُهَا...»، ويشير في ذلك إلى نقطتين: الأولى: أن الإنسان مهما سعى لرياضه نفسه والحركه في عمليته بناء الذات، فإنه لا ينبغي أن يطمئن إلى هذه الحياه الرقطاء النائمه وعليه أن يعيش الحذر الدائم من خطرها ويقظتها.

والأخرى: أن الإمام عليه السلام عندما يتحدث بمثل هذا الكلام مع كونه قد حاز تلك المقامات والمراتب الجليله في الكمال المعنوى، فينبغي على الآخرين أن يحسبوا حسابهم ولا يغفلوا من أخطار النفس الشريره والأماره.

ص: ١٥٠

١- (١) شرح نهج البلاغه، للعلامة التستري، ج ٥، ص ٣٤٠.

٢- (٢) «المزلق» بمعنى زحلق من ماده «زلق» على وزن «شفق» بمعنى الترحلق.

ومن اللازم الإشاره إلى هذه النقطة أيضاً، وهى أن الإمام عليه السلام يؤكد أن الغايه من رياضه النفس بآليه التقوى هى تحصيل الأمن يوم القيامه ويوم الخوف الأ-كبر والنجاه من المنزلقات التى تقود الإنسان إلى وادى جهنم، وهذا يعنى أن تحصيل حاله الأمن هذه لا تتيسر إلا من خلال رياضه النفس وتطويعها على أمور الخير والطاعه والعبوديه، وقد ورد فى الروايات الإسلاميه أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر، أى أنه أشد وأعظم من جهاد الأعداء فى ساحات القتال والحرب.

وهذا الكلام فى الحقيقه مقتبس من القرآن الكريم حيث يقول: «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ»^(١).

وعبارته «مزلق» يمكن أن تكون إشاره إلى جسر الصراط، لأنّ المستفاد من الآيات والروايات الشريفه أن الصراط عبارته عن جسر ممتد على نار جهنم أن عبوره بسلام صعب جداً حيث ينزلق منه المنحرفون وأهل الضلاله ويسقطون فى جهنم.

يقول القرآن الكريم: «وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا»^(٢).

وبما أن رياضه النفس على نحوين: فتاره، يروض الإنسان نفسه لعدم وجود أدوات تحصيل الحياه الدنيويّه وافتقاده لوسائل المعيشه المرفهه، وأحياناً أخرى يروض الإنسان نفسه بدفاع من الإيمان والإرادته والعزم على تهذيب النفس فى عين قدرته على نيل جميع المواهب الماديه والدنيويّه، ولذلك يتابع الإمام عليه السلام قوله فى هذا الشأن لثلاث تصور أحد أن الإمام يروض نفسه على الشاكله الأولى يقول:

«وَلَوْ شِئْتَ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَىٰ مُصَفَىٰ هَذَا الْعَسَلِ وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ»^(٣)، وَنَسَائِحِ^(٤) هَذَا

ص: ١٥١

١- (١) سورة الأنعام، الآية ٨٢.

٢- (٢) سورة مريم، الآيتان ٧١ و ٧٢.

٣- (٣) . «القَمْحِ» بمعنى الحنطه.

٤- (٤) «نَسَائِحِ» جمع النسيج بمعنى المنسوج.

الْقُرْصِ (١). وَلَكِنْ هَيَّيَاتٍ أَنْ يَغْلِبَنِي هَيَوَايَ، وَيُقَوِّدَنِي جَشَعِي (٢) إِلَى تَخْيِيرِ الْمَأْطَعِمِهِ - وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ الْيَمَامَةِ مَنْ لَمَاطَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشَّبَعِ -».

وكما أشرنا آنفاً، فالإمام عليه السلام في هذا المقطع يشير إلى الوظيفة الثقيلة للولاه والمسؤولين في البلاد الإسلاميه وأنهم لا ينبغي أن يطمعوا في الأطمعه اللذيذه والملابس الفاخره ويتحركوا على مستوى التكالب على حطام الدنيا في حين أنهم يحتملون أو يعلمون بوجود أشخاص جياع وعرات في شتى أصقاع البلاد الإسلاميه.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى الأبعاد العاطفيه، وهذا في الحقيقه يمثل بُعداً ثالثاً لهذه الموضوع، ويقول:

«أَوْ أَيْتَ مِبْطَانًا (٣) وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْتِي (٤)، وَأَكْبَادٌ حَرَى (٥)، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَيْتَ بِبُطْنِهِ (٦)

وَحَوْلِكَ أَكْبَادٌ تَحْنُ (٧) إِلَى الْقِدِّ! (٨)»

جمله

«وَحَوْلِكَ أَكْبَادٌ تَحْنُ إِلَى الْقِدِّ!» فسرها غاليه شراح نهج البلاغه كما أوردناها آنفاً، وقالوا: إنَّ الناس في سنوات القحط والمجاعة يصل بهم لأمر من الجوع أحياناً أن يأكلوا الجلود غير المدبوغه للحيوانات، وهذه الجملة إشاره إلى هذا المعنى، وذهب بعضهم إلى أن المراد من

«تَحْنُ إِلَى الْقِدِّ!» إشاره إلى المثل

ص: ١٥٢

١- (١). «القرص» بمعنى الحرير.

٢- (٢) «جشع» بمعنى الحرص والطمع، وتأتي أحياناً بمعنى الحرص الشديد.

٣- (٣). «مبطان» هو الشخص الذي إمتلأت بطنه من الطعام، من ماده «بطن» وهذه المفرده صيغه مبالغه.

٤- (٤) «غرثي» تعني الجوعان (وصيغه المفرد المؤنثه وجاء صفة للبطون).

٥- (٥) «حرى» بمعنى العطشان من ماده «حراره».

٦- (٦) «بطنه» كثره الأكل (من ماده «بطن»).

٧- (٧) «تحن» من ماده «حنين» بمعنى التمايل والاستعطاف لإلفات النظر.

٨- (٨) «قيد» تعني الجلد أو ما يشبه القربه التي التوضع فيها السوائل، وتطلق أحياناً على قطع اللحم الجاف التي توضع في القربه، ويقال عنها «قيد»، وهذا الشعر لحاتم الطائي صاحب الكرم المعروف لدى العرب (شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج

١٦، ص ٢٨٨).

المعروف حيث يقال: إنَّ الشخص الفلاني التصق جلد بطنه بظهره من الجوع، («القد» يعنى الجلد، و «تحن» الميل والانحناء)، وذهب آخرون إلى أن كلمه «القد» يعنى القطع من اللحم التى يضعها العرب سابقاً أمام الشمس لتجف ويدخرونها إلى أيام القحط والحاجه، ويبدوا أن التفسير الأول أنسب.

وعلى أية حال، فربما تكون جميع هذه المعانى والتفاسير واقعيه أو تكون للمبالغه.

يقول الشاعر:

نَظَرْتُ إِلَى الدُّنْيَا بَعَيْنِ مَرِيضَةٍ

وَفِكْرُهُ مَغْرُورٍ وَتَدْبِيرٌ جَاهِلٍ

فَقُلْتُ هِيَ الدُّنْيَا الَّتِي لَيْسَ مِثْلُهَا

وَنَافَسَتْ مِنْهَا فِي غُرُورٍ بَاطِلٍ

وَضَيَعْتُ أَحْقَابًا أَمَامِي طَوِيلَةً

بَلَدَاتِ أَيَّامٍ قِصَارِ قَلَائِلٍ (١)

ثم يتابع الإمام عليه السلام كلامه عن ترويضه لنفسه وزهده ويبيّن ذلك بتوضيح أكثر ويقول:

«أَفْتَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أَسْوَأَ لَهُمْ فِي جُشُوبِهِ (٢) الْعَيْشِ!».

هنا يذكر الإمام عليه السلام للمعيشه البسيطة ثلاث حكم ويشير إليها بشكل إجمالى:

الأولى: أن المؤمن ينبغى أن يضع يوم القيامة والحساب والكتاب والحشر نصب عينه وبالتالي يعيش الزهد فى هذه الحياه.

والأخرى: أن مسؤوليته قياده الأئمة واستلام مقاليد الأمور وخاصه فى حالات العسر والشده التى يعيشها الناس من الناحيه الماديه، توجب على الإمام عليه السلام أن يختار التقشف فى الحياه لمواساه الناس وذلك لغرض تقويه الجانب المعنوى والروحى لهؤلاء المحرومين الذين يقولون: إذا كان لباسنا مثلاً من كرباس يشبه لباس مولانا وإمامنا، وإذا كان طعامنا بسيط جداً ويتكون من ماء وخبز الشعير فإن هذا الطعام يشبه طعام مولانا وإمامنا، فذلك يتسبب فى تسكين خاطرهم ويدفعهم إلى الاطمئنان بأن قائدهم وإمامهم يعيش همومهم ويفكر فى حل مشكلاتهم.

ص: ١٥٣

الثالثة: مع غض النظر عن المسائل المتعلقة بيوم القيامة والمسؤولية الإلهية الملقاه على الأئمة والزعماء في الأئمة الإسلاميه فإنّ المسائل العاطفيه والقيم الأخلاقيه لا تبيح للإنسان أن يجلس على مائده زاخره بألوان الطعام والشراب في حين أنّ جيرانه يعيشون الجوع والحرمان وأحياناً يبيتون وليس عندهم خبز للعشاء.

وهنا ربّما يثار هذا السؤال، لماذا لا نرى مثل هذا المنهج للإمام أمير المؤمنين عليه السلام لدى بعض الأئمة الآخرين في العصور اللاحقه، وما هو السر في هذا الاختلاف؟ وسيأتي بعد قليل جواب هذا السؤال إن شاء الله تعالى.

تأمل

قصه فدك المعززه

«فدك» اسم لقرية تقع شرق خيبر تقريباً وتفصلها عن خيبر أقل من ثمانية فراسخ، ومع المدينة أكثر من عشرين فرسخاً، وكانت فدك في زمن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عامره وتتضمّن عيوناً زاخره بالمياه وبساتين النخل ومزارع وقلعه، وتعدّ فدك أحد المنازل التي ينزل فيها المسافرون القادمون من الشام إلى المدينة، وهذا الأمر أدى إلى إزدهارها من الناحية الاقتصادية.

يقول الطبري في تاريخه: خرج على بن أبي طالب عليه السلام في مائه رجل إلى فدك إلى حي من بني سعد بن بكر، وذلك أنّه بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ لهم جمعاً يريدون أن يمدّوا يهود خيبر فسارهم إلى الليل وكمن النهار وأصاب عيناً، فأقرّ لهم أنّه يبعث إليهم خيبر يعرض عليهم نصرهم على أن يجعلوا ثمر خيبر.

فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا - شعروا بتقصيرهم في هذه الواقعة وخافوا من عاقبه أمرهم - بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يسألونه أن يسيرهم بحقن دمائهم لهم ويبدلوا الأموال، ففعل وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك مُحيّصه بن سعود

أخو بني حارثه، فلمّا نزل أهل خبير على ذلك سألوا رسول الله أن يعاملهم بالأموال على النصف، وقالوا نحن أعلم بها منكم وأعمر لها فصالحهم رسول الله صلى الله عليه و آله على النصف وأنا إذا شئنا أن نخرجكم اخرجناكم فصالحه أهل فدك على مثل ذلك فكانت خبير فيئاً للمسلمين وكانت فدك خالصه لرسول الله صلى الله عليه و آله لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب(١).

وجاء في شواهد التنزيل للحسكاني عن ابن عباس أنه قال: عندما نزلت الآية «وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهٗ»(٢) أعطى رسول الله صلى الله عليه و آله فدكاً لفاطمه عليها السلام(٣).

وينقل الشوكاني في تفسيره ما يقارب هذا المعنى(٤).

وبعد هذه الحادثة صارت فدك بيد عمّال الزهراء عليها السلام، ومن هذا المنطلق ومن جهة أنّ فدكاً هبّه من النبي لفاطمه، كانت فاطمه عليها السلام قد استلمت فدكاً، ومن هنا يقول الإمام عليه السلام:

«بَلَىٰ كَأَنَّهُ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ»، وهو شاهد على ما أسلفنا، كما أنّ جملة «إِنَّ أَبَا بَكْرٍ انْتَرَعَ مِنْ فَاطِمَةَ فَدَكًا» المذكوره في «تاريخ المدينة المنوره(٥)» شاهد آخر على هذا المدعى.

والعجيب أنّ الخليفة الأول بعد رحله النبي الأكرم صلى الله عليه و آله استولى على فدك بدون أيّه مقدمات وأخرجها من يد فاطمه عليها السلام، وقد اعترض عليه أمير المؤمنين و فاطمه الزهراء عليهما السلام بشدّه على هذا العمل، ولكن أبابكر أجاب: مَنْ يشهد لكما أنّ فدك لفاطمه؟

فأجاب الإمام على عليه السلام: يا أبا بكر تحكم فينا بخلاف حكم الله في المسلمين؟ قال: لا، قال عليه السلام: فإن كان في يد المسلمين شيء يملكونه، ثمّ ادّعت أنا فيه، من

ص: ١٥٥

١- (١) تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ١٥٤.

٢- (٢) أوردت هذه الآية في سورة الأسراء الآية ٢٦، وهي مدنيه كما صرح بذلك علماء أهل السنّه، رغم أنّ الآية «فَاتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهٗ» (سورة الروم، الآية ٣٨) مكيه كما ذهب إليه البعض، وذهب الآخرون بدون الالتفات إلى التفاوت بين الآيتين إلى مكيه الآية الثانيه ليتخذوها ذريعه في نفى حادثه فدك.

٣- (٣) شواهد التنزيل، ص ١٦٨.

٤- (٤) تفسير فتح القدير، ج ٣، ص ٢٢٤.

٥- (٥) . تاريخ المدينة المنوره، ج ١، ص ١٩٩.

تسأل البيه، قال: إياك كنت أسأل البيه، قال: فما بال فاطمه سألتها البيه على ما في يدها وقد ملكته في حياه رسول الله صلى الله عليه وآله وبعده، ولم تسأل المسلمين البيه على ما ادعوها شهوداً كما سألتني في ما ادعيت عليهم، فسكت أبو بكر (١).

وكان عمر بن الخطاب حاضراً في المجلس ورأى سكوت أبي بكر وأن سكوته ربما ينتهي بضررهما، فقال:

«يَا عَلِيُّ دَعْنَا مِنْ كَلَامِكَ، فَإِنَّا لَنَقْوَى عَلَى حُجَّتِكَ، فَإِنِ أَتَيْتَ بِشُهُودٍ عُذُولٍ، وَإِلَّا فَهُوَ فَنَاءٌ لِلْمُسْلِمِينَ، لَأَحَقَّ لَكَ وَلَا لِفَاطِمَةَ فِيهِ» (٢).

وهذه الحادثة التاريخيه فيها الكثير من التعقيدات والتفاصيل وجميع الشواهد تشير إلى أن الخليفه في ذلك الوقت كان قد عزم على الاستيلاء على هذا المنبع الاقتصادي وغضبها من أهل البيت عليهم السلام لثلا يكون سبباً لتقويه موقفهم واقتدارهم، وقد ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«لَمَّا وُلِّيَ أَبُو بَكْرٍ بَنُ أَبِي قُحَافَةَ قَالَ لَهُ عُمَرُ إِنَّ النَّاسَ عَبِيدُ هَذِهِ الدُّنْيَا لَا يُرِيدُونَ غَيْرَهَا، فَاْمَنْعَ عَن عَلِيٍّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ الْخُمْسَ، وَالْفَيْءَ، وَفَدَكَ، فَإِنَّ شَيْعَتَهُ إِذَا عَلِمُوا ذَلِكَ تَرَكُوا عَلِيًّا وَأَقْبَلُوا إِلَيْكَ» (٣).

وعلى أيه حال فإن مركز الخلافه في ذلك الوقت أخذ فدكاً من فاطمه الزهراء عليها السلام لمجرد عدم الدليل على مالكيه الزهراء لفدك، ولو كان هناك دليل فينحصر في ميراثها من النبي صلى الله عليه وآله في حين أن النبي قال:

«نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ وَمَا تَرَكَنَاهُ صَدَقَةٌ» وهكذا تم انتزاع فدك من فاطمه عليها السلام.

في حين أن هذا الحديث وبهذه الصوره موضوع بلا شك والصحيح هو ما ورد في أحاديث أهل السنه وأهل البيت عليهم السلام:

«أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطَّةٍ» (٤) وهو كناية عن أن الأموال التي تركها الأنبياء لذويهم لا تعتبر ذات قيمه بالنسبه لميراثهم العلمي.

ص: ١٥٦

١- (١) بحار الأنوار، ج ٢٩، ص ١٢٩.

٢- (٢) الاحتجاج، للطبرسي، ج ١، ص ٩٢.

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٢٩، ص ١٩٤.

٤- (٤) سنن الدارمي، ج ١، ص ٩٨؛ سنن ابن ماجه، ج ١، ص ٨١ ح ٢٢٣؛ الكافي، ج ١، ص ٣٢، ح ٢.

ومهما يكن من أمر فإنّ المخالفين ومن أجل الحيلولة دون حصول أهل البيت عليهم السلام على الإمكانات المائيه، صادروا فدكاً، تاره بذريعه حديث موضع، وأخرى أنّ فاطمه عليها السلام لا تملك البيئه الكافيه لإثبات ملكيتها على فدك، هذا فى حين أنّهم لم يمنعوا نساء النبى صلى الله عليه وآله من نصيبهنّ من الميراث ممّا تركه النبى، وقد ورد فى حديث معروف فى صحيح البخارى وغيره: «إنّ فاطمه ابنه رسول الله صلى الله عليه وآله سألت أبا بكر بعد وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله أن تقسم لها ميراثها ما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله فى فدك، فقال أبو بكر: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لا نورث ما تركناه صدقه، فغضبت فاطمه بنت رسول الله صلى الله عليه وآله و آلّه فهجرت أبا بكر فلم تزل مهاجرته حتى توفيت» (١)، رغم أنّهم كانوا قد سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله قوله:

«فَاطْمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي فَمَنْ أَغْضَبَهَا أَغْضَبَنِي» (٢).

وفى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«إِنَّ اللَّهَ يَغْضَبُ لِعْضَبِكَ وَيَرْضَى لِرِضَاكَ» (٣).

وأما مصير فدك فى زمان حكومه الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام فكما ورد فى نص هذه الرساله مورد البحث أنّ الإمام على عليه السلام فى أيام خلافته قد أغمض عينه عن فدك ولم يتحرك بصدد استعادتها من غاصبها، وبديهي أنّ هذا العمل لم يكن عن رضا قلبى بل بسبب زهد الإمام عليه السلام فى الدنيا وإعراضه عمّا كان الأعداء يصرون عليه من امتلاكهم لفدك، وجمله

«نِعْمَ الْحَكْمُ لِلَّهِ» الوارده فى نصر الرساله تدل بوضوح على هذا المعنى.

وقد جاء فى التواريخ أنّ عثمان بن عفان فى زمن خلافته أعطى فدكاً لمروان بن الحكم، وذهب بعضهم إلى أنّها بقيت بيد أبناء مروان إلى زمان عمر بن عبدالعزيز الأموى الذى كان ينهج منهجاً ملائماً نسبياً مع أهل بيت النبوه عليهم السلام، وقد أمر واليه

ص: ١٥٧

١- (١). صحيح البخارى، ج ٣، ص ٣٥ باب غزوه خير.

٢- (٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢١٠؛ بحار الأنوار، ج ٢٩، ص ٣٣٦.

٣- (٣) مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٥٣؛ المعجم الكبير، للطبرانى، ج ٢٢، ص ٤٠١.

على المدينة «عمر بن حزم» أن يعيد فدكاً لأبناء فاطمه عليها السلام فكتب إليه والى المدينة فى جوابه، إن أبناء فاطمه كثر وقد تزوجوا مع طوائف كثيره فأياً منهم اعطى فدكاً؟ فغضب عمر بن عبدالعزيز وكتب إليه كتاباً شديداً بهذه المضمون: عندما أمرت بك بأمر، مثلاً أن تذبح شاه، فتقول فى جوابى، هل هذه الشاه قرناء أم غير قرناء، وإن أمرت بك أن تذبح بقرة فستسأل منى ما لونها؟ (أى أنك تتذرع بحجج بنى اسرائيل) وعندما يصل إليك كتابى هذا فادفع فدكاً لأولاد فاطمه من على (١).

ولكن لم تمض مدّة حتى جاء يزيد بن عبد الملك الأموى للخلافه وغضب فدكاً مرّه أخرى، وعندما انقرض بنو اميّه استولى بنو العباس على سدّه الحكم، أمر الخليفه العباسى أبو العباس السفاح، إعادته فدك إلى عبد الله بن الحسن بن على بوصفه وكيلاً عن بنى فاطمه، ولكنّ أباجعفر المنصور الذى جاء بعده أخذ فدكاً من بنى الحسن، وقام المهدي العباسى باعادتها إليهم، ولكن موسى الهادى الخليفه العباسى قام بغصبها مرّه أخرى، واستمر الأمر على هذا المنوال إلى زمن هارون الرشيد (٢).

يقول الحائرى القزوينى صاحب كتاب «فدك»: إنّ المأمون العباسى واستناداً لروايه أبى سعيد الخدرى بأنّ النّبى قد وهب فدكاً لفاطمه عليها السلام، أمر بإعادته فدك لأبناء فاطمه ولكن المتوكل العباسى الذى جاء بعده وبسبب ما يحمله من حقد شديد على أهل البيت عليهم السلام عاد وأخذ فدكاً منهم (٣).

وعلى ضوء ذلك تبدلت مسأله فدك إلى قضيه سياسيه وكل من جاء على سدّه الحكم كان يتخذ موقفاً منها وفق خلفياته السياسيه (٤).

ص: ١٥٨

-
- ١- (١) فتوح البلدان البلاذرى، ص ٣٨.
 - ٢- (٢) زهرا برترين بانوى جهان (الزهراء سيده نساء العالمين).
 - ٣- (٣) فدك، ص ٦٠.
 - ٤- (٤) ولمزيد من الإطلاع انظر حول فدك: صحيح البخارى؛ مستدرک الحاكم، تاريخ الطبرى، سنن ابن ماجه وكتاب فدك، تأليف باقر المقدسى؛ وكتاب فدك فى التاريخ تأليف آيه الله الشهيد السيّد باقر الصدر؛ وكتاب بحار الأنوار، ج ٢٩.

فَمَا خُلِقْتُ لِشِغْلِنِي أَكْلِ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبِهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ، هَمُّهَا عَلْفُهَا؛ أَوْ الْمُرْسَلَةِ شُغْلُهَا تَقْمُمُهَا، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا، أَوْ أُتْرِكَ سُدَى أَوْ أَهْمَلْ عَابِثًا، أَوْ أُجْرَّ حَبْلَ الضَّلَالَةِ، أَوْ أَعْتَسَفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ! وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ هَذَا قُوتُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَدْ قَعِدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ، وَمَنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ». أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَضْلَبَ عُودًا، وَالرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ أَرْقُ جُلُودًا، وَالنَّابِتَاتِ الْعِذِيَّةَ أَقْوَى وَقُودًا وَأَبْطَأُ خُمُودًا.

وَأَنَا مِنْ رَسِيُولِ اللَّهِ كَمَا الضَّوْءُ مِنَ الضَّوْءِ، وَالذَّرَاعُ مِنَ الْعُضْدِ. وَاللَّهُ لَوْ تَطَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمِا وَلَيْتُ عَنْهَا، وَلَوْ أَمَكْنَتِ الْفَرَسُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعَتْ إِلَيْهَا. وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أَطَهَّرَ الْمَأْرُضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدْرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ.

الشرح والتفسير: لست كالبهيمة المربوطة!

يشير الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة إلى أربع نقاط مهمّة، الأولى: أنه يشير إلى هدفه من الزهد الشديد والتقصّف الشامل ويقول:

«فَمَا خُلِقْتُ لِشِغْلِنِي أَكْلِ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبِهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ (١)، هَمُّهَا عَلْفُهَا، أَوْ الْمُرْسَلَةِ شُغْلُهَا تَقْمُمُهَا (٢)، تَكْتَرِشُ (٣)»

ص: ١٥٩

١- (١). «المربوطة» تعني في هذا المورد الحيوان الذي يربط لغرض زياده سمنه ولحمه.

٢- (٢) «تقّمم» بمعنى أخذ جميع ما يحتاج للسفر من طعام ومتاع، وفي الأصل من ماده «قمم» على وزن «غمم» وتعني تنظيف الدار وتعديلها، وكذلك تطلق على قطف الرياحين والنباتات بشكل كامل بواسطة شفاه الحيوان.

٣- (٣) «تكترش» من ماده «كرش» على وزن «كرج» وتعني معده الحيوانات، وعليه فإن «إكتراش» تعني امتلاء المعده.

مِنْ أَعْلَافِهَا، وَتَلَهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا».

والحقّ أنّ بعض الناس في هذا العالم يعيشون كما تعيش الدواب والحيوانات، فجماعه تعيش الترف والثراء ولا- تشعر بحياه الفضيله فأقصى همهم في الحياه هو الطعام الكثير واللذيد، وبعضهم من الطبقة الفقيره ولكنهم يتحركون في طلب الدنيا ويبحثون عن الملذات الرخيصه فهم كالحيوانات المرسله في المرتع تبحث عن العلف، ومن المعلوم أنّ كلا- هاتين الطائفتين مذمومتين رغم أنّ أحدهما أشنع من الأخرى، والعجب أنّ كلا هاتين الطائفتين من الحيوانات لا تعلم بمصيرها وأنها سوف ترسل غداً إلى المذبح ويستفاد من لحومها أو يستفاد من ظهورها للحمل والركوب، أو تصطاد من قبل الحيوانات المفترسه.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى النقطه الثانيه:

«أَوْ أُتْرِكَ سُدىً (١) أَوْ أُهْمَلَ عَابِثًا، أَوْ أُجْرَّ حَبْلَ الضَّلَالَةِ، أَوْ أُعْتَسِفَ (٢) طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ (٣)».

في هذا المقطع من الرساله يتحدث الإمام عليه السلام عمّا يتصل بالعرض من خلق الإنسان وينفى عنه خمس امور: الأول: أن يكون حال الإنسان حال سائر الحيوانات السائبه أو المعلوفه التي همها علفها.

والآخر: أن لا يكون هناك أى غرض من خلقه ويترك لحاله.

والثالث: أن يكون الغرض من خلقه اللعب واللهو.

والرابع: أن يكون سبباً لإضلال الآخرين وإغوائهم.

والخامس: أن يتحرك الإنسان نفسه في وداى الحيره والضلاله، وعندما تنتفى جميع هذه الأمور الخمسه، نستنتج أنّ الإنسان خلق لغايه ساميه وهدف مهم وليس

ص: ١٦٠

١- (١) . «سدى» بمعنى الباطل وعدم الفائده.

٢- (٢) «اعتسف» من ماده «اعتساف» بمعنى أداء العمل بدون فكر وهدايه وإرادته، وتعنى الانحراف عن الجاده أيضاً.

٣- (٣) «المتاهه» اسم مكان من ماده «تبه» بمعنى الحيره والضلاله.

ذلك سوى القرب من الله تعالى وتحصل الكمال الإنساني والفضائل النفسانيه، ومن المعلوم أن خلق هذا العالم وكل ما فيه من النعم والمواهب الإلهيه لو لم تكن له غايه سوى ذلك فإنّ هذا الخلق سيكون عبثياً ومخالفاً للحكمه، ولكن الله حكيم ولا تنسجم هذه الأغراض الباطله والأمور التافهه مع حكمته سبحانه.

إنّ كلام الإمام عليه السلام هذا مقتبس في الحقيقه من آيات القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى» (١).

ويدهي أن الله تعالى الذي خلق الخلق على مراحل عدّه وبكل هذه العجائب التي سخرها للإنسان في مظاهر الطبيعه كانت له غايه ساميه وهدف كبير.

ويقول تعالى في مورد آخر: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ» (٢).

ثمّ يبين الإمام عليه السلام النقطه الثالثه فيما يتصل بكلامه السابق وكأنّه في مقابل الجواب عن إشكال مقدّر، حيث يقول:

«وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ هَذَا قُوتُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ، وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ».

هذا المعنى الحاكم على الذهنيه العامه والذي يقرر وجود رباطه بين القوه الجسمانيه والأغذيه الدسمه واللذيذه، يبعث على تصور أن الإنسان إذا اكتفى في طعامه بخبز الشعير وأمثاله فإنه سيكون ضعيفاً ولا يقوى على شيء ولا يستطيع الصمود طويلاً في ميادين القتال والحرب.

هنا يتحرك الإمام عليه السلام من موقع الجواب عن هذا الإشكال ويضرب لذلك مثالين جميلين ويقول:

«أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَضْلَبُ عُودًا، وَالرَّوَاتِعَ (٤) الْخَضِرَةَ أَرْقُ»

ص: ١٤١

١- (١) سورة القيامة، الآيات ٣٦-٣٩.

٢- (٢) سورة المؤمنون، الآيه ١١٥.

٣- (٣) «منازله» بمعنى المقاتله والحرب، من ماده «نزول» فالشخص المقاتل ينزل إلى الميدان في مقابل خصمه ويقاتله.

٤- (٤). «الرواتع» جمع «راتع» وهنا جاءت معنى الشجره المزدهره، من ماده «رتع» على وزن «نفع» بمعنى الأكل من المرتع.

جُلُوداً، وَالنَّائِبَاتِ الْعِذِيَّةِ (١) أَقْوَى وَقُوداً (٢) وَأَبْطَأَ خُمُوداً (٣)».

فالأشجار «التي تقوم على ساق» والنباتات «من قبيل الحشائش والأزهار» لو كانت في الصحارى والبرارى الجافه فإنها ستزداد قوه وصموداً، فى حين أنّ الأشجار والنباتات التى تنمو على شواطىء الأنهار وتستقى من الماء بشكل دائم فإنما ستكون ضعيفه ولا تقوى على الصمود، ومن هذه الجبهه فالأشخاص الذين يعيشون الترف والنعم الوفيره فإنهم سيعيشون حالات الضعف وعدم القدره على الصمود بوجه التحديات الصعبه، أمّا الأشخاص الذين يكبرون فى خضم المشكلات والأزمات فإنهم يملكون من القوه والاستقامه الشىء الكثير.

ومن هذه الجبهه نرى أنّ الجيوش المعاصره تفرض تمارين شاقه على أفرادها وجنودها لرفع مقدرتهم القتاليه ومستوى صمودهم فى الأجواء الصعبه، وإحدى الحكم من صيام شهر رمضان المبارك أنّ روح الإنسان وجسمه يزدادن قوه وقدره على تحمل مشاكل الحياه وصعوباتها.

وطبعاً هذا لا يعنى أنّ الإنسان لا يتناول الطعام والغذاء بشكل كافٍ ويعيش معيشه المتراضين الذين يكتفون من طعامهم بحبه واحده، بل المراد أنّ الإنسان لا ينبغى أن يعيش معيشه الترف ويهتم باللذيد المتنوع من الأطمعه.

ثم إنّ الإمام عليه السلام وتأييداً لكلامه السابق:

«وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ كَالضُّوءِ مِنَ الضُّوءِ، وَالذَّرَاعِ مِنَ الْعُضْدِ».

فقد كان النبى الأكرم صلى الله عليه وآله يعيش عيش الزهد والبساطه، ولكنه مع ذلك كان فى غايه الشجاعه ولم يكن من هو أقرب إلى العدو من النبى فى ساحات الوغى، وفى معركة أحد التى فرّ فيها الآخرون صمد النبى صلى الله عليه وآله، وأنا بدورى كنت تلميذاً لهذه المدرسه الإلهيه وتابعاً لهذا النبى العظيم صلى الله عليه وآله وذراعه اليمنى.

ص: ١٦٢

١- (١) «العذيه» تطلق على الأرض البعيده عن الماء، ولا يرويه إلماء المطر.

٢- (٢) «وقود» بمعنى الحطب.

٣- (٣) «خمود» أى انطفاء النار ثم اطلقت على كل شىء يهدأ ويسكن من نشاطه وفعاليته.

كما ورد هذا المعنى فى الكلمات القصار فى نهج البلاغه حيث يقول عليه السلام:

«كُنَّا إِذَا أَحْمَرَ النَّبَأُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ» (١).

والشاهد الناطق على هذا الكلام ما ورد فى آيه المباهله حيث جعلت من الإمام على عليه السلام نفس النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، وكذلك الأحاديث الشريفه الوارده عن رسول الله صلى الله عليه وآله طبقاً لما نقله «الكنجى الشافعى»: أن أحد الصحابه سأل من النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: فأَيُّهم (من الأصحاب) أحب إليك؟ فقال: على بن أبى طالب، فقال: لِمَ؟ فقال:

«لَأَنَّهُ خُلِقْتُ أَنَا وَعَلِيٌّ مِنْ نُورٍ وَاحِدٍ»، وينقل فى هذا الكتاب عن المعجم عن الطبرانى أن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قال:

«إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ أَشْجَارٍ شَتَّى وَخَلَقَنِي وَعَلِيًّا مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ» (٢).

أمّا قصه إبلاغ سوره براءه عندما أرسل النبى أبابكر لإبلاغها للمشرىين فى مكه فى موسم الحج، ثم استدعى النبى أبابكر وأخذها منه وأعطاه للإمام على عليه السلام، فإنها معروفه فى كتب التاريخ، فعندما عاد أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قال: بأبى أنت وأمى: هل نزل فى شىء؟ (فما سبب أخذك سوره براءه منى) فقال النبى صلى الله عليه وآله: لا:

«وَلَكِنْ لَا يُبَلِّغُ عَنِّي غَيْرِي أَوْ رَجُلٌ مِنِّي» (٣).

وقد ورد هذا الحديث الشريف فى مسند أحمد بن حنبل بصوره أبلغ وأوضح فقد قال النبى صلى الله عليه وآله لأبى بكر: إن جبرائيل جاءنى وقال:

«لَنْ يُؤَدِّيَ عَنْكَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ» (٤).

عباره

«كَالضُّوْءِ مِنَ الضُّوْءِ...» (إشاره إلى أن نور إيمانى وقوتى وقدرتى كلها مستمده ومقتبسه من نور إيمان النبى وقوته وقدرته، والتعبير ب

«وَالذَّرَاعِ مِنَ الْعَضْدِ» إشاره إلى أن العضد كلما كان قوياً ومحكماً فإن الذراع أيضاً ستكون قويه بدورها.

ص: ١٦٣

١- (١) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٩ من الكلمات الغريبه للإمام عليه السلام.

٢- (٢) كفايه الطالب، ص ٣١٥ وما بعده طبقاً لنقل شرح نهج البلاغه، للعلامة التسترى، ج ٧، ص ٤٦٨ و ٤٦٩.

٣- (٣) تذكره الخواص، ص ٣٧.

٤- (٤) مسند أحمد، ج ١، ص ١٥١.

ثم يتابع الإمام عليه السلام كلامه من موقع التأكيد على شجاعته:

«وَاللَّهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَيَّ قِتَالِي لَمَّا وُلِّيتُ عَنْهَا».

ولم يسمع بمثل هذا الكلام من أى شخص قبل ذلك، ومعلوم أنّ الإمام على عليه السلام لا يتحدث بذلك من موقع المبالغة بل إنّ ما يقوله هو عين الواقع، وقد أثبت هذه الحقيقة فى ميادين الجهاد والقتال ضد قوى الشرك والباطل، فمن معركة بدر إلى احد والخندق والغزوات الأخرى كان على بن أبى طالب عليه السلام هو الشخص الذى لم يدر ظهره للأعداء ولم يتردد أو يرتعب من كثرة الأعداء وتظافرهم عليه، إلى درجة أنه لُقّب بكونه

«كزار غير فزار». وقد ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله هذا التعبير فى قصه فتح خيبر بعد أن توجه الآخرون لفتح قلاع خيبر ولم يفلحوا فى ذلك، فقال النبى الأكرم صلى الله عليه وآله:

«لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَزَارٍ غَيْرِ فَزَارٍ لَأَيْرَجُعَ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيَّ يَدَيْهِ»^(١).

ثم إنّ الإمام عليه السلام وفى النقطه الرابعه والأخيره من هذا المقطع من الرساله يقول:

«وَلَوْ أَمْكَنْتِ الْفُرْصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعَتْ إِلَيْهَا. وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ»^(٢)،
حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدْرَةُ^(٣) مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ^(٤)».

وجمله

«أُطَهِّرَ الْأَرْضَ» إشاره جليه إلى هذه الحقيقه، وهى أنّ وجود أمثال معاويه على سطح الأرض من شأنه تلويثها، وما لم يتم إزاله هذا التلوث عن الأرض والحياه فإنها لا تتطهر.

والتعبير ب

«الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ» إشاره إلى أنّ أفكار معاويه مقلوبه، فهو يرى

ص: ١٦٤

١- (١) بحار الأنوار، ج ٣١، ص ٢٥٩؛ تاريخ يعقوبى، ج ٢، ص ٥٦.

٢- (٢). «المركوس» أى المنقلب، من ماده «ركس» على وزن «عكس» أى انقلاب الشئ ظهر على عقب، أو وضع الشئ برأسه على الأرض.

٣- (٣) «المدره» قطعه الطين الجاف.

٤- (٤) «الحصيد» بمعنى النبات المحصود من ماده الحصاد.

الحق في نظره باطل والباطل في نظره حق.

وعبارة

«الْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ» إشارة إلى أنّ معاويه ليس فقط أفكاره مقلوبه بل إنّ سلوكياته وظاهره البشرى يعيش الانتكاسه في سلوكياته وأعماله.

وأما عبارة

«حَتَّى تَخْرُجَ الْمَيْدَرَةُ» فهي إشارة إلى أنّ الزراع عندما يحصدون زرعهم، فغالباً ما يختلط المحصول من الحبوب الجيده مع بعض الأتربه والأحجار صغيره، حيث يقوم الزراع بإخراج هذه الشوائب من بين الحبوب ليتففع بها الإنسان، وأنا بدوري ينبغي أن اطهر المسلمين وفضاء المجتمع الإسلامى من هذه الشخصيات التافهه والزائده لتخليص الإسلام والمسلمين منهم.

وربما يطرح البعض هذا السؤال: هل أنّ هذا الكلام للإمام عليه السلام ينسجم ويتناسب مع اقتدائه بالنبي الأكرم صلى الله عليه و آله الذى بعث رحمه للعالمين؟

وفى مقام الجواب نقول: نعم، فإنّ رحمه تكون لازمه فى مواقعها والشده أو الغضب فى موقعه، فمن الخطأ استخدام رحمه إذا كان المورد يستدعى الشده والحزم، ومن الخطأ أيضاً التعامل بآليات العنف والشده إذا كان الموقع يستدعى الرحمه والشفقه، وسيره النبي الأكرم صلى الله عليه و آله أيضاً شاهده على هذا المعنى، ففى معركة أحد كان النبي صلى الله عليه و آله يدعو لهؤلاء المخالفين ويقول:

«اللَّهُمَّ إهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»، ولكنّه فى قصّه نقض يهود بنى قريظه لعهودهم ومواثيقهم استخدم اسلوب الشده والعنف.

وفى الحقيقة أنّ الإمام على عليه السلام قد تعلم هذه الحقيقة الواضحه من القرآن الكريم حيث يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ»^(١)، ويقول فى مكان آخر: «فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ»^(٢).

ص: ١٦٥

١- (١). سورة التوبه، الآيه ٧٣.

٢- (٢) سورة آل عمران، الآيه ١٥٩. ويقول الفخر الرازى فى تفسيره لسوره الحمد، ج ١، ص ٢٣٥: «لقد اشتهر أنّ النبي صلى الله عليه و آله لما كسرت رباعيته قال: «اللَّهُمَّ إهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

وَمِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَهُوَ آخِرُهُ:

إِلَيْكَ عَنِّي يَا دُنْيَا فَجَبَلِكَ عَلَى غَارِبِكَ، قَدِ انْسَلَمْتُ مِنْ مَخَالِبِكَ، وَأَفَلْتُ مِنْ حَبَائِلِكَ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مِدَاحِضِكَ. أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَزْتَهُمْ بِمِدَاعِيبِكَ! أَيْنَ الْأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتَهُمْ بِزَخَارِفِكَ، فَهِيَ هُمْ رَهَائِنُ الْقُبُورِ، وَمَصَامِينُ اللُّجُودِ! وَاللَّهِ لَمَوْ كُنْتُ شَخْصًا مَرْتَبًا، وَقَالَباً حَسِيًّا، لَأَقْمُتُ عَلَيْكَ حُدُودَ اللَّهِ فِي عِبَادِ غَرَزْتَهُمْ بِالْأَمَانِيِّ، وَأُمَمِ أَلْقَيْتَهُمْ فِي الْمَهَاوِي، وَمُلُوكِ أَسْلَمْتَهُمْ إِلَى التَّلْفِ، وَأُورِدْتَهُمْ مَوَارِدَ الْبَلَاءِ، إِذْ لَمَاوَرَدَ وَلَمَّا صَدَرَ! هَيْهَاتَ! مَنْ وَطِئَ دَحْضَكَ زَلَقًا، وَمَنْ رَكَبَ لُجَجَكَ غَرِقًا، وَمَنْ أُرْوَرَ عَنْ حَبَائِلِكَ وَفُقِّقَ، وَالسَّالِمُ مِنْكَ لَا يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاخُهُ، وَالدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمِ حَانَ انْسِلَاخُهُ.

اغزبي عني! فوالله لا أذل لك فتستدليني، ولا أسلس لك فتقوديني.

الشرح والتفسير: أيتها الدنيا ابتعدى عني!

القسم الأخير من هذه الرسالة (حيث قسمناها إلى ثلاثة أقسام) هو ما يستهله السيد الرضى رحمه الله بالقول:

«وَمِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَهُوَ آخِرُهُ».

فالإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الرسالة، ومن أجل أن لا يسقط مخاطبه عثمان بن حنيف وجميع مخاطبيه على إمتداد التاريخ البشرى، فى مصائد النوازع النفسانية والمقامات الدنيوية أو يتورط فى اتباع الملذات الرخيصة، يقول له الإمام عليه السلام

بتعبير

فى غايه الروعه والبلاغه والجمال الأدبى:

«إِلَيْكَ عَنِّي (١) يَا دُنْيَا فَحَبْلُكَ عَلَى غَارِبِكَ (٢) قَدْ أَنْسَلْتُ (٣) مِنْ مَخَالِبِكَ (٤) ، وَأَفَلْتُ (٥) مِنْ حَبَائِلِكَ (٦) ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِضِكَ (٧)».

ونرى أنّ الإمام عليه السلام فى هذه العبارات القصيره يشبّه الدنيا بأربعة أشياء، الأول: أنّ الدنيا تشبه الناقه التى ربّما تكون جذابه وحلوبه، ولكنّ صاحبها عندما يريد تركها لترعى فى المرتع فإنّه يضع لجامها على ظهرها أو رقبتها، فترى هذه الناقه نفسها أنّها صارت حرّه من صاحبها فتبتعد عنه وتنشغل بالرعى فى المرتع.

وفى التشبيه الثانى، يشبّه الإمام عليه السلام الدنيا بالسبع الذى يروم صيد الفريسه بمخالبه القويه والخطيره ويمزقها، ويقول الإمام عليه السلام: وأنا قد أفلتت نفسى من مخالف هذا الحيوان المفترس فلا يصل إلّى بعد ذلك.

وفى التشبيه الثالث، يشبّه الإمام عليه السلام الدنيا بالصيد الذى نشر حباله وشراكه لصيد الحيوانات أو الطيور، فيقول الإمام: لقد عرفت جيداً هذه المصائد والشراك وتخلصت منها فلا أقع فيها أبداً.

وفى التشبيه الرابع، يشبّه الإمام عليه السلام الدنيا بالمنزلق الخطير والوادي السحيق الذى يحتوى على مزلق كثيره، منها: الشهوات، المال والمقام، الزوجه والأبناء، والعناوين البراقه والماديات المغريه، فيقول الإمام عليه السلام: لقد ابتعدت عن هذه المزالق جميعاً، ومن هذه الجبهه فإننى لا أسقط فى حبالها ولا فى مخالباها ولا فى منزلقاتها.

ثمّ يتابع الإمام عليه السلام خطابه للدنيا ويقول:

«أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ عَزَّزْتَهُمْ

ص: ١٦٨

- ١- (١) . «إليك عنّي» جملة تشكّل كلّ واحد منهما ظاهراً من جار ومجرور، فى حين أنّ «إليك» اسم فعل بمعنى «أبعد».
- ٢- (٢) «غارب» بمعنى المحل الذى يقع على ظهر ورقبه الناقه، ويأتى بمعنى الرقبه وآخر نقطه من الظهر.
- ٣- (٣) «أنسلت» من ماده «سلّ» على وزن «حلّ» بمعنى سحب واخراجه بهدوء.
- ٤- (٤) «مخالب» جمع «مخلب» على وزن «منبر» تطلق على أظافر الطيور والوحوش.
- ٥- (٥) «أفلتت» من ماده «فلت» على وزن «برف» بمعنى الخلاص والتحرر.
- ٦- (٦) «حبال» جمع «حباله» بمعنى المصيده والشراك.
- ٧- (٧) «مداحض» جمع «مدحض» على وزن «مركز» بمعنى منزلق.

بِمَدَاعِيكَ (١)! أَيْنَ الْأَمَمِ الَّذِينَ فَتَنْتَهُمْ بِزَخَارِفِكَ! فَهَذَا هُمْ رَهَائِنُ (٢) الْقُبُورِ، وَمَضَامِينُ (٣) اللَّحُودِ (٤)!». .

وهذا الكلام مقتبس من العديد من الآيات القرآنية التي تتحدث عن الأقوام السابقه، الذين كانوا يملكون القدره والجاه والثروه والإمكانات الماديه الوفيره، ولكنهم جميعاً تورطوا فى العذاب الإلهى بسبب عصيانهم وتمردهم على الحق والرساله، وباتوا مدفونين تحت التراب بحيث لا يسمع لهم أذننى صوت ولا يملكون أذننى حركه، ونقرأ فى الآيه ٩٦ من سوره مريم: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَوْمٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا».

ونقرأ فى الآيه ١٢٨ من سوره طه: «أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى».

بَاتُوا عَلَى قُلُوبِ الْأَجْبَالِ تَحْرُسُهُمْ

عَلِبَ الرِّجَالِ فَمَا أَغْنَتْهُمْ الْقُلُوبُ

وَاسْتَنْزَلُوا بَعْدَ عِزٍّ عَن مَّعَاقِلِهِمْ

فَاوَدَعُوا حُفْرًا يَا بئْسَ مَا نَزَّلُوا

نَادَاهُمْ ضَارِخٌ مِّن بَعْدِ مَا قُبِرُوا

أَيْنَ الْأَسْرَةُ وَالتَّيْجَانُ وَالحُلُّ

أَيْنَ الوجوه التي كانت مُنعمَةً

مِن دُونهَا تُضْرَبُ الْأَسْتَارُ وَالكُلل

فَأفصح القبر عنهم حين ساء لهم

تلك الوجوه عليها الدود يقتتل

قد طال ما أكلوا دهرًا وما شربوا

وأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

وطالما عمروا دوراً لتحصنهم

ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا

وَطَالَمَا كَنَزُوا الْأَمْوَالَ وَاذْخَرُوا

فَخَلَّفُوهَا عَلَى الْأَعْدَاءِ وَاِرْتَحَلُوا

أَضْحَتْ مَنَازِلُهُمْ قَفْرًا مَعْطَلَةً

وَسَاكِنُوهَا إِلَى الْأَجْدَاثِ قَدْ رَحَلُوا(٥)

ص: ١٦٩

١- (١). «مداعب» جمع «مدعبه» على وزن «مكتبه» بمعنى المزاح والمداعبه.

٢- (٢) «رهائن» جمع «رهينه».

٣- (٣) «مضامين» جمع «مضمون» فى الأصل تعنى الجنين فى باطن امه، ثم اطلقت على كل شىء فى مطاوى شىء آخر.

٤- (٤) «اللحود» جمع «لحد» على وزن «مهد» ويعنى الشق الذى يقع فى أسفل القبر ويوضع الميت فيه.

٥- (٥). الأنوار البهيه، ص ٢٤٤.

وينقل المرحوم العلامة التستري قصه تتضمن دروساً وعبره عن الأمل للشيخ الصدوق وخلاصتها: «انطلق ذو القرنين يسير في البلاد حتى مرّ بشيخ يقبّل جماجم الموتى، فوقف عليه بجنوده، فقال له: أخبرني أيها الشيخ لأى شيء تقلّب هذه الجماجم، قال: لأعرف الشريف من الوضيع، والغنى من الفقير فما عرفت، وإني لأقلبها منذ عشرين سنة، فانطلق ذو القرنين وتركه، وقال: ما عنيت بهذا أحداً غيري»^(١).

ثم يخاطب الإمام عليه السلام الدنيا بعبارات حكيمة ومثيرة ويقول:

«وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ شَخْصًا مَزِيئًا، وَقَالَ بًا حَسِيًّا، لَأَقَمْتُ عَلَيْكَ حُدُودَ اللَّهِ فِي عِبَادٍ غَرَزْتَهُمْ بِالْأَمَانِيِّ، وَأَمَمِ أَلْقَيْتَهُمْ فِي الْمَهَاوِي (٢) ، وَمُلُوكِ أَسَلَمْتَهُمْ إِلَى التَّلْفِ، وَأَوْرَدْتَهُمْ مَوَارِدَ الْبَلَاءِ، إِذْ لَأ وَرِدَ (٣) وَلَا صَدَرَ (٤)».

وبديهى أنّ الدنيا، بمعنى المواهب المادية والظواهر الطبيعية لا تملك قلباً ولا فكراً ولا إرادة واختياراً، بل مجرد وسائل وآليات يستخدمها الإنسان لنيل السعادة فى حركة الحياة، أو يغرق فى مستنقع الشقاء والعناء فيما لو سار فى خط الرذيله وقصر اهتمامه ونظره بها، أضف إلى ذلك أنّ الدنيا بهذا المعنى ليست شيئاً يمكن إجراء الحدّ الإلهى عليها، ولكن الغايه التى يتوخاها الإمام عليه السلام من هذا الكلام هى الكنايه اللطيفه والتشبيهه الظريف لإيقاظ عقول المغرورين بها وتنبيه الغافلين عن الحقائق الغيبية ليتحركوا على مستوى تصحيح مسيرتهم والعوده إلى عقولهم وفطرتهم والاعتبار من تاريخ الأمم السابقه وإصلاح مستقبلهم بالاقْتباس من دروس التاريخ.

وهذا الكلام فى الحقيقة مقتبس من القرآن الكريم الذى يذكر هذا المعنى بشكل آخر، فالآيات القرآنيه تخاطب جميع أفراد البشر وتدعوهم لدراسه تاريخ الأقسام

ص: ١٧٠

١- (١) شرح نهج البلاغه للعلامة التستري، ج ٦، ص ٣٩٠؛ بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٧٥.

٢- (٢). «المهاوى» جمع «مهى» و «مهواه» يعنى الوادى ويطلق على كل مكان خطر يتعرض فيه الإنسان للهلكه.

٣- (٣) «ورد» تعنى فى الأصل الوصول إلى حافه النهر، ثم اطلقت على كل وصول أو دخول.

٤- (٤) «صدر» ضد «ورد» يعنى الخروج من الشاطىء ثم اطلقت على كل أنواع من الخروج.

السالفه الذين تورطوا في دوامه البلياء والعذاب بسبب غفلتهم وغرورهم وكان مصيرهم الهلاك وقد دفنوا هم وثرواتهم تحت الأنقاض، فنقرأ في الآيات القرآنية قوله تعالى: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ» (١).

ويقول تعالى في مورد آخر: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَهُ كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ» (٢).

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه بطرح تشبيهات أخرى لحال الأشخاص الذين خدعوا بالدنيا والأشخاص الذين تخلصوا من شراكها وأفلتوا من حبالها، ويقول:

«هَيْهَاتَ! مَنْ وَطِئَ دَخْضَكَ (٣) زَلَقَ (٤)، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكَ (٥) غَرِقَ، وَمَنْ ازْوَرَ (٦) عَنْ حَبَائِلِكَ وَفُقَّ، وَالسَّالِمُ مِنْكَ لِأَيِّبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مَنَاخُهُ (٧)، وَالدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمِ حَانَ انْسِلَاخُهُ».

في هذا المقطع الكلام النوراني للإمام عليه السلام يشبه المواهب المادية في الدنيا بثلاثة أمور، بدايه يتحدث عن المزلق التي تواجه الإنسان في كل زمان واحتمال سقوطه في هذه المزلق، وهي المقامات الدنيوية والثروات المادية والشهوات النفسانية، فلو أن الإنسان غفل قليلاً عن هذه الأمور فإنه سيتلوث بالحرام ويقع أسيراً في شراك الأهواء والنوازع النفسانية.

والآخر، أن الإمام عليه السلام يشبه الدنيا بالبحر المواج الذي يصعب جداً عبوره بسلام، والكثير من الأحيين تكون أمواج الأهواء والشهوات إلى درجة من الشده والتلاطم بحيث إنها تبتلع الإنسان وتغرقه في دوامتها.

ص: ١٧١

١- (١) سورة يوسف، الآية ١١١.

٢- (٢) سورة الدخان، الآيات ٢٥-٢٩.

٣- (٣). «دخض» بمعنى منزلق.

٤- (٤) «زلق» من ماده «زلق» على وزن «دلق» بمعنى الترحلق.

٥- (٥) «لجج» جمع «لجه» على وزن «حجه» بمعنى القسم العظيم المتلاطم من البحر.

٦- (٦) «ازور» من ماده «ازورار» بمعنى الجنوح والانحراف من شيء، وهو من ماده «الزياره».

٧- (٧). «مناخ» في الأصل بمعنى المحل الذي يبرك فيه الإبل، ثم اطلقت على كل محل للإستقرار.

والتشبيه الثالث يشبه الإمام عليه السلام زخارف الدنيا وبريقها الخداع بالمصائد والفخاخ، بحيث إنَّ الإنسان إذا استطاع اجتناب هذا البريق الخداع فإنه سيوفق لنيل السعادة ومرتبته القرب الإلهي، وخلاصه منها بذاته يشكل له أكبر افتخار وانتصار في حركه الحياه مهما واجه في ذلك من صعوبات وتحديات.

ثم يشبه الإمام عليه السلام الدنيا باليوم الذي يوشك على الانتهاء وأنَّ الشمس توشك على الغروب لسرعه انتهائها وزوالها، كما يقول الشاعر:

حُكْمُ المَيِّتِ فِي البَرِيَّةِ جَارِي

ما هذه الدُّنيا بِدارِ قَرارِ

بينا يرى الإنسانُ فيها مُخبراً

حَتَّى يُرى خَبِراً مِنَ الأَخْبَارِ

طَبَعَتْ عَلَى كَدْرِ وَأَنْتَ تُرِيدُها

صَفْواً مِنَ الأَقْدارِ والأَكْدارِ

وَمُكَلِّفُ الأَيَّامِ صِدَّ طِباعِها

مَتَطَلَّبٌ فِي المائِ جَدْوَه نَارِ

وَإِذا رَجوتِ المُسْتَحِيلَ فَإِنَّمَا

تَبْنِي الرِّجاءَ عَلَى شَفيرِ هاوِ

فَالعِيشُ نَوْمٌ وَالْمَيِّتُ يَقْطَعُهُ

وَالمرءُ بَيْنَها خيالِ سارِ

فَاقضوا ما رَبَّكُم عَجالاً إِنَّمَا

أَعْمارُكُم سَفْراً مِنَ الأَسفارِ

ونقرأ في حديث رواه المرحوم الكليني في كتاب «الكافي» عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«اصْبِرُوا عَلَى طاعَةِ اللَّهِ وَتَصَبَّرُوا عَنِ مَعْصِيَةِ يَهِ اللَّهِ فَإِنَّمَا الدُّنيا ساعَةٌ فَمَا مَضَى فَلَيْسَ تَجِدُ لَهُ سُروراً وَلَا حُزناً وَمَا لَمْ يَأْتِ فَلَيْسَ نَعْرِفُهُ»

فَاصْبِرْ عَلَى تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا فَكَأَنَّكَ قَدْ اغْتَبَطْتَ» (١).

وفى ختام هذا المقطع من الرسالة يخاطب الإمام عليه السلام الدنيا ويقول:

«اغْزُبِي (٢) عَنِّي! فَوَاللَّهِ لَا أُذِلُّ لَكَ فَتَشْتَدِّ لِي نِي، وَلَا أُسَلِّسُ (٣) لَكَ فَتَقْوِدِي نِي».

ولحدّ الآن لم يرد في الكتب والمدونات والخطب أنّ شخصاً خاطب الدنيا بمثل

ص: ١٧٢

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ٤٥٩، ح ٢١.

٢- (٢). «اغْزُبِي» أى ابتعدى عَنِّي من ماده «غزوب» على وزن «غروب» بمعنى الابتعاد عن الشيء، ويطلق على من لم يتزوج أعزب لأنّه بعيد عن الحياه العائليه.

٣- (٣) «أسلس» من ماده «سلاسه» بمعنى المطيع وتأتى أحياناً بمعنى السهل والميسور.

هذا الخطاب واستدعاها إلى محاكمتها بهذه القوّة والحزم وبالتالي أثبت إدانتها وزيفها وتخلص من شراكها ومصاندها.

أجل، فالشخص الوحيد الذى بإمكانه أن يحاكم الدنيا بهذه الطريقة ويخاطبها بهذا الخطاب الشديد القاطع هو الذى استطاع إنقاذ نفسه من برائتها، وضرب على صدرها بيد الإعراض والطرده مع انفتاح جميع الطرق أمامه لتحصيل المآرب الدنيويّة، ولكنّه لم يستسلم لها ولجواذبها بأية صوره.

وهذا لكلام يتضمّن جواباً حاسماً على من يقول إنّ الدنيا قد أجبرتنا على التصرف على سلوكك طريق الشر والرزيله، فالإمام عليه السلام يقول: مادام الإنسان ملتزماً بمقتضيات الإيمان والقيم ولم يستسلم للدنيا من موقع الإذعان والخضوع فإنّها لا تستطيع إذلاله وإجباره على ارتكاب الخطيئه، فصحيح أنّ الدنيا بكلّ ما فيها من الجواذب والزخارف تستهوى الإنسان وتدعوه لمواقعتها، ولكنّها لا تجبر أحداً أبداً على اتباعها والتسليم لمطالبها، كما يتحدث القرآن الكريم عن الشيطان ويقول:

«وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَوَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ» (١).

تأمل

طلاق الدنيا

ما بيّنه الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الرسالة فى صدد محاكمته للدنيا وأنها لو كانت شخصاً مريئاً وقالباً حسياً لأجرى حدود الله تعالى عليها بسبب خداعها وإغوائها للكثير من الناس، يدعوننا لتذكر حديث شريف آخر للإمام على عليه السلام يشير فيها إلى أنه فى عالم المكاشفه رأى الدنيا وقال: «إنى كنت بفدك فى بعض حيطانها، وقد صارت لفاطمه عليها السلام قال: فإذا أنا بامراه قد قحمت علىّ بجمالها فشبهتها ببينه

ص: ١٧٣

١- (١) سورة إبراهيم، الآية ٢٢.

بنت عامر الجحى وكانت من أجمل نساء قريش، فقالت: يا ابن أبى طالب هل لك أن تتزوج بي فأغنيك عن هذه المسحاه، وأدلك على خزائن الأرض، فيكون لك الملك ما بقيت ولعقبك من بعدك؟ فقلت لها: من أنت حتى أخطبك من أهلك؟ فقالت: أنا الدنيا، قال فقلت لها، فارجعي وأطلبى زوجاً غيرى وأقبلت على مسحاتى وأنشأت:

«لَقَدْ حَابَ مَنْ عَزَّهٗ دُنْيَا دَيْئَهُ

وَمَا هِيَ إِنْ عَزَّتْ قُرُونًا بِنَائِلِ

أَتَتْنَا عَلَى زِيِّ الْعَزِيزِ بَيْتِنَهُ

وَزَيْتُنَّهَا فِي مِثْلِ تِلْكَ الشَّمَائِلِ

فَقُلْتُ لَهَا غُرَى سِوَايَ فَإِنِّي

عَزُوفٌ عَنِ الدُّنْيَا وَلَسْتُ بِجَاهِلِ

وَمَا أَنَا وَالدُّنْيَا فَإِنَّ مُحَمَّدًا

أَحَلَّ صَرِيحًا بَيْنَ تِلْكَ الْجَنَادِلِ

وَهَبَهَا أَتَتْنِي بِالْكُنُوزِ وَدَرَّهَا

وَأَمْوَالِ قَارُونَ وَمُلْكِ الْقَبَائِلِ

أَلَيْسَ جَمِيعًا لِلْفَنَاءِ مَصِيرُهَا

وَيَطْلُبُ مِنْ خُزَانِهَا بِالطَّوَائِلِ

فَغُرَى سِوَايَ إِنِّي غَيْرُ رَاغِبِ

بِمَا فِيكَ مِنْ مُلْكِ وَعِزٍّ وَنَائِلِ

فَقَدْ فَنَعَتْ نَفْسِي بِمَا قَدْ رُزِقْتَهُ

فَشَأْنُكَ يَا دُنْيَا وَأَهْلَ الْغَوَائِلِ

فَأِنِّي أَخَافُ اللَّهَ يَوْمَ لِقَائِهِ

وَأَخْشَى عَذَابًا دَائِمًا غَيْرَ زَائِلِ (١)

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٦٣.

وَإِيْمُ اللّٰهِ - يَمِيْنًا اُسْتِيْنِيْ فِيْهَا بِمَشِيْتِهِ اللّٰهِ - لَأَرْوِضَنَّ نَفْسِيْ رِيَاضَهٗ تَهَشُّ مَعَهَا اِلَى الْقُرْصِ اِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُوْمًا وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَاذُوْمًا، وَلَمَّا دَعَنْ مَقْلَتِيْ كَعَيْنِ مَاءٍ، نَضَبَ مَعِيْنَهَا، مُسِيْتَفْرِغَهٗ دُمُوْعَهَا. اَتَمَلُّوْا السَّائِمَهٗ مِنْ رَغِيْبَهَا فَتَبْرُكُ؟ وَتَشْبِعُ الرَّيِيْضَهٗ مِنْ عُسْبِيْهَا فَتَرِيْضَ؟ وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعُ! قَرَّتْ اِذَا عَيْنُهُ اِذَا اِفْتَدَى بَعْدَ السِّنِيْنَ الْمُتَطَاوِلَهٗ بِالْبِهِيْمَهٗ الْهَامِلَهٗ، وَالسَّائِمَهٗ الْمَرْعِيَهٗ!

الشرح والتفسير: هل الغرض الأكل والنوم فقط؟

يوصل الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رسالته المباركه، كلامه فيما تقدّم عن عدم اهتمامه بالدنيا وزخارفها ويقول:

«وَإِيْمُ اللّٰهِ (١) - يَمِيْنًا اُسْتِيْنِيْ فِيْهَا بِمَشِيْتِهِ اللّٰهِ - لَأَرْوِضَنَّ نَفْسِيْ رِيَاضَهٗ (٢) تَهَشُّ (٣) مَعَهَا اِلَى الْقُرْصِ اِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُوْمًا، وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَاذُوْمًا (٤)، وَلَمَّا دَعَنْ

١- (١). «أيم الله» بمعنى «أقسم بالله»، وقيل إنَّها في الأصل من «أيمن» جمع يمين بمعنى القسم، وألفه ألف وصل، وتقرأ أحياناً بالفتح وأخرى الكسر، ثم حذفت النون منها وصارت «أيم الله»، وأحياناً تحذف الياء أيضاً ويقال: «أُمُّ الله» وعلى أيه حال نظراً لأن هذه العبارة جمع، فإنَّها تدلُّ على القسم المؤكّد.

٢- (٢) «رياضه» في الأصل بمعنى ترويض وتطويع النفس أو البدن وتربيته، ومن هذه الجبهه يقال للرياضات الجسمائيه والنفسائيه بأشكالها المختلفه «رياضه» ويقال للبهستان روضه من جهه أنّ الإنسان يهتم بتنظيمها وترتيبها وفق برنامج مدروس لتكون مزدهره وخضراء.

٣- (٣) «تهش» من ماده «هشاشه» على وزن «حواله» بمعنى الفرح التبسم.

٤- (٤). «مأدوماً» من ماده «إدام» بمعنى المرق (الشيء الذي يأكل مع الخبز) وعليه فإنَّ «مأدوم» الشيء الذي يؤكل على شكل مغمس بالمرق.

مُقَلَّتِي (١) كَعَيْنِ مَاءٍ، نَضَبَ (٢) مَعِينَهَا (٣)، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا».

فى المرحلة الأولى يقسم الإمام عليه السلام لبيّن جديّه هذا الأمر وللتأكيد على أهميته وفى المرحلة الثانية، يقول إن شاء مراعاة للأدب مع الله تعالى كما أمر القرآن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بهذا الأمر، تقول الآية الشريفه: «وَلَا تَقُولَنَّ لِسَيِّئِ إِيَّيْ فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» (٤).

وفى المرحلة الثالثة: يتحدّث الإمام عليه السلام عن عزمه الراسخ على ترويض نفسه رياضه شديده وقاسيه، وهذا يحكى عن قوه إرادته الإمام وسلطته العجيبه على نفسه، فما أشق الرياضه التى يفرضها الإنسان على نفسه بحيث تتحمل الجوع الشديد، وبالتالى تفرح فرحاً شديداً إذا قدّم لها يوماً قرصاً من الخبز وقليلاً من الملح.

وفى المرحلة الرابعه: يخبرنا الإمام عليه السلام عما يعيشه من عشق لله تعالى وخوف عميق من الذات المقدسه بحيث إنه يتواصل فى البكاء إلى أن لا تنضب عينه من الدموع

«وَلَا دَعَنَّ مُقَلَّتِي كَعَيْنِ مَاءٍ، نَضَبَ مَعِينَهَا مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا»، ومعلوم أنّ مثل هذه الحاله لا تتوفر عند أى شخص إلّا النوادير، والإمام عليه السلام نفسه يشير إلى هذه الحقيقه فى مقطع آخر من هذه الرساله، بأنكم لا تستطيعون أن تفرضوا على أنفسكم مثل هذه الرياضات الشاقه ولكن أعينونى بالورع والتقوى والصلاح فى حركه الحياه.

وهنا ربّما يثار هذا السؤال: لماذا كلّ هذا البكاء الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى كلامه؟ قطعاً إنّ هذا البكاء هو بكاء الشوق من جهه، وبكاء الخوف من جهه أخرى، الشوق إلى العالم الأعلى والملكوت والقرب من الله تعالى والعشق لصفات الكمال والجمال الإلهى، والخوف من حرمان هذه نعم والمواهب الإلهيه.

ص: ١٧٦

١- (١) «مقله» يطلق على كره العين بأجمعها، وأحياناً يراد منها سواد العين فقط.

٢- (٢) «نضب» من ماده «نضوب» فى الأصل بمعنى ذهاب الماء فى الأرض وجفاف البئر أو الغدير، وهذه المفرده تستعمل أحياناً فى مورد العين أيضاً عندما يجف دمعها.

٣- (٣) «معين» من ماده «معن» على وزن «طعن» بمعنى جريات الماء و «ماء معين» يراد منها الماء الجارى، ثم استخدمت فى جريان الدموع من العيون.

٤- (٤) سورة الكهف، الآيتان ٢٣ و ٢٤.

إن رجال الله يعيشون دوماً بين حالات الخوف والرجاء، وبالتالي يدفعهم ذلك إلى البكاء شوقاً وخوفاً، فكيف بالإمام على عليه السلام وهو إمام العارفين ومقتدى السالكين في طريق الحق والمعنويّ؟

ثم إن الإمام عليه السلام يستعرض في العبارات التالية جملة من التشبيهات الأخرى ويقول:

«أَتَمْتَلِي السَّائِمَةَ (١) مِنْ رِغِيهَا (٢) فَتَبْرُك (٣)؟ وَتَشْبَعُ الرَّيْضَةَ (٤) مِنْ عُشْبِهَا (٥) فَتَرِبُضَ؟ وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَع (٦)! قَرَّتْ إِذَا عَيْنُهُ إِذَا أَقْتَدَى بَعْدَ السُّنَيْنِ الْمُتَطَاوَلِ بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ (٧)، وَالسَّائِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ (٨)».

وبالرغم من أن الإمام عليه السلام في هذه العبارات يتحدث عنه نفسه، ولكن كلامه في الواقع درس لأبناء الدنيا الذين لا هم لهم في الحياة سوى التمتع بالملذات الرخيصة، فهم يشبهون الأغنام والدواب التي لا تهتم إلا للأكل والعلف والنوم والراحة، فما أقبح بالإنسان أن يهبط من أوج عظمه الإنسانيه ويدرج نفسه مع الحيوانات وينزل بمستواه إلى مصاف الدواب السائمة في المراتع، وكما يقول الشاعر:

أَتَعْمَى عَنِ الدُّنْيَا وَأَنْتَ بَصِيرٌ

وَتَجْهَلُ مَا فِيهَا وَأَنْتَ خَبِيرٌ

وَتُصْبِحُ تَبْنِيهَا كَأَنَّكَ خَالِدٌ

وَأَنْتَ غَدًا عَمَّا بَنَيْتَ تَسِيرٌ

وَتَرْفَعُ فِي الدُّنْيَا بِنَاءَ مُفَاخِرٍ

وَمَثْوَاكَ بَيْتٌ فِي القُبُورِ صَغِيرٌ

وَدُونَكَ فَاصِنَعُ كُلَّمَا أَنْتَ صَانِعٌ

فَإِنَّ بُيُوتَ المَيِّتِينَ قُبُورٌ (٩)

تأمل

الرياضة المشروعة وغير المشروعة

إن مسألة رياضة النفس ومنذ القديم تقسم إلى قسمين: رياضة البدن، ورياضة النفس، أما رياضة البدن فتتمثل في أنواع الألعاب الرياضية التي تمتد في التاريخ البشري ولها سابقه تاريخيه طويله، وحتى المسابقات العالميه الحاليه مقبسه من عصر اليونان القديم ومناطق اخرى من العالم، وأما رياضة النفس والتي تتحقق عن طريق ترك المشتهيات النفسانيه وتؤدي إلى تقويه روح

الإنسان وإرادته وتمتد كذلك في التاريخ، فهي المعروفة عن المتراضين الهنود، وحقيقه هذه الرياضيه هي أنّ الإنسان بتركه وإعراضه عن رغباته النفسائيه وعدم استسلامه لجواذب الشهوه بإمكانه أن يحصل على قوه عظيمه بحيث أحياناً يستطيع انجاز أعمال خارقه للعادة.

وطبعاً الرياضيات النفسائيه بدورها تنشعب في هدفها والغرض منها إلى: أهداف ماديه، وأخرى معنويه، أما الأهداف الماديه فتمثّل بالقدره على الإتيان بأعمال خارقه للعادة والتوصل من خلالها إلى بعض المنافع الدنيويه وتحصيل الجاه والمقام، وأما الهدف المعنوى فهو القرب من الله تعالى وتطهير الروح من الرذائل الأخلاقيه وتحكيم إرادته الإنسان على شهواته وضبط رغباته وترك ما تدعوه إليه نفسه من الرذائل والمنكرات.

وما ورد من كلام الإمام عليه السلام في هذه الرساله ناظر إلى القسم الثاني من الرياضيه المعنويه في قوله:

«إِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَهُ يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ»، وقوله:

«لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهْشُ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ».

وقد ذكر ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغه في ذيل الخطبه ٢٢٠ (الخطبه ٢١٤ في شرح ابن أبي الحديد) بحثاً مفصلاً في موضوع رياضه النفس وأقسامها وتحديث في تأثير الجوع في صفاء النفس ونقاؤها، ثم نقل كلمات الفلاسفه والحكماء في المكاشفات التي تحصل للإنسان من رياضه النفس، وضمن كلامه

ص: ١٧٧

- ١- (١) . «السائم» الحيوان الذي يترك ليرعى في الصحراء، من ماده «سوم» على وزن «قوم».
- ٢- (٢) «رعيها» تعني العلف الذي يأكله الحيوان أثنا الرعى، من ماده «رعى» على وزن «وحى».
- ٣- (٣) «تبرك» من ماده «بروك» بمعنى الاستقرار والهدوء على الأرض.
- ٤- (٤) «الريضة» قطع الغنم وأمثال ذلك عندما يعود مع الراعى إلى محل استقراره أى الحضيره. من ماده «ربض» و «ربوض» على وزن «قبض» و «قبوض» أى جمع الحيوان ليده ورجله للجلوس على الأرض.
- ٥- (٥) «عشب» النباتات الرطبه في مقابل الحشيش وهو النباتات الجافه.
- ٦- (٦) . «يهجع» من ماده «هجع» على وزن «ركوع» بمعنى النوم الخفيف.
- ٧- (٧) «الهامله» الحيوان المتروك من ماده «همل» على وزن «حمل» بمعنى ترك الحيوان بدون راعى.
- ٨- (٨) «المرعيه» اسم مفعول من ماده «رعى» على وزن «سعى» وهو الحيوان الذي يساق للمرعى.
- ٩- (٩) . مجانى الأدب، ج ٢، ص ٣٧.

بالاستشهاد بأبيات من أشعار الشعراء فى هذه المجال.

ونقرأ فى الأحاديث الشريفه عن أميرالمؤمنين على عليه السلام الإشاره إلى هذه المسأله ومن ذلك ما ورد فى «غرر الحكم» عن الإمام على عليه السلام:

«مَنْ اسْتَدَامَ رِيَاضَةَ نَفْسِهِ إِنْتَفَعَ» (١).

وفى حديث آخر فى هذا الكتاب قوله:

«الشَّرِيعَةُ رِيَاضَةُ النَّفْسِ» (٢).

وجاء فى حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله فى خبر عن وصايا الخضر النبى لموسى عليهما السلام أنه قال:

«رِضْ نَفْسِكَ عَلَى الصَّبْرِ تَخْلُصَ مِنَ الْإِثْمِ» (٣).

ونقرأ فى حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله

:«جَوْعُوا بُطُونَكُمْ وَأَظْمِئُوا أَكْبَادَكُمْ وَأَعْرُوا أَجْسَادَكُمْ وَطَهَّرُوا قُلُوبَكُمْ عَسَاكُمْ أَنْ تُجَاوِزُوا الْمَلَأَ الْأَعْلَى» (٤).

ولكن أحياناً يسلك بعض الناس فى رياضه النفس طريق الإفراط والانحراف، فيقومون برياضات شاقه جداً وأحياناً خطيره وغير مشروعه، وقد ذكر الغزالي فى «إحياء العلوم» نماذج منها ويوجد الكثير منها مذكور فى الكتب الصوفيه.

ومن ذلك أن «الشبلى» كان له سرداب ينزل إليه ومعه مجموعه من العصى وكلما غفل قلبه عن الذكر يضرب نفسه بهذه العصى حتى تتكسر، وأحياناً عندما تنكسر جميع العصى يربط يديه ورجليه بالجدار ويلقها بالمسامير (٥).

وذكروا فى حالات «الشيخ أبو سعيد» الصوفى المعروف، أنه لما كان شاباً كان ينهض من فراشه بهدوء بعد ما ينام أهل بيته ويتوجه إلى المسجد، وكانت هناك بئر فى زاويه المسجد، فيشد عصاً بحبل من وسطها ويشد قدمه بالطرف الآخر من الحبل، ثم يضع العصا على حافه البئر وينزل إلى البئر ويبقى إلى الصباح معلقاً من

ص: ١٧٩

١- (١) غرر الحكم، ح ٤٨٠٩.

٢- (٢) المصدر السابق، ح ٤٧٩١.

٣- (٣) كثر العمال، ح ٤٤١٧٦.

٤- (٤) ميزان الحكمه، ح ٧٥٤١.

٥- (٥) تذكره الأولياء، ج ١، ص ٢٣٥.

وحكى عن حالات «أبى بكر الشبلى»: كان فى بدايه أمره مشغولاً بالرياضه فى سنوات مديده وكان يضع الملح فى عينه لثلاثينام(٢)، وهناك الكثير من هذا القبيل من الأعمال لدى المتصوفه.

ومثل هذه الرياضات الخطيره تعتبر من النقاط السلبيه والسلوكيات غير المشروعه فى نظر الإسلام ويجب الاجتناب عنها تماماً، ويشاهد فى حالات المرتاضين الهنود وبعض الصوفيه مثل هذه الرياضات غير المشروعه التى لا تتفق مع تعاليم الإسلام، ولكن أفضل رياضه تتمثل فى اجتناب أى شكل من الأشكال المعاصى والذنوب ومن ثم ترك بعض المشتبهات النفسانيه من المباحات، وقد ورد هذا المعنى فى سيره النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمه الهدى عليهم السلام وأصحابهم، فكانوا أحياناً يلبسون الخشن من الثياب ويقنعون بالأطعمه البسيطه جداً، وينهضون للصلاه والعباده فى ساعات الليل، ومثل هذه الرياضيات تزيد من نورانيتهم وتعمق من معنويتهم.

وقد ورد فى الخطبه ٢٠٩ فى نهج البلاغه (الجزء الثامن من هذا الكتاب) قصه إفراط وتفريط أخوين هما (علاء بن زياد وعاصم بن زياد) حيث كان أحدهما يعيش حياه مرفهه وناعمه والآخر قد ترك العمل والكسب تماماً وانشغل بالعباده فى زاويه البيت، وقد نهاهما الإمام عليه السلام عن كلا هذين المسلكين، ولمزيد من التوضيح انظر الجزء الثامن، من هذا الكتاب ذيل الخطبه ٢٠٩.

وخلاصه الكلام أنّ مسأله الرياضه الشرعيه وردت فى نهج البلاغه وكذلك وردت فى الكثير من الروايات الشريفه عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام، ولا شك فى ترتب الآثار الإيجابيه من هذه الرياضه المشروعه على روح الإنسان فيما يتصل بزياده نورانيته معنويته، ولكن ذلك لا يعنى أنّ مثل هذه الرياضيات محبذه

ص: ١٨٠

١- (١) «تاريخ تصوف» للدكتور الغنى، ص ٣٦١، بالفارسيه.

٢- (٢). تذكره الأولياء، ج ٢، ص ١٦٤.

للجميع، ومن هذه الجبهه ورد فى العديده من الآيات الكريمه والأحاديث الشريفه الاذن فى تناول الطيبات والانتفاع من النعم الحلال وشكر الله تعالى على ما وهبه للإنسان من هذه النعم والملذات: «يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» (١).

ص: ١٨١

١- (١) سورة المؤمنون، الآية ٥١.

طُوبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرَضَهَا، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا، وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمُضَهَا، حَيْثَى إِذَا غَلَبَ الْكُرَى عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا، وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا، فِي مَعْشَرِ أَشْهَرِ عُيُونِهِمْ خَوْفٌ مَعَادِهِمْ، وَتَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ، وَهَمَّهَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شَفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ، «أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». فَاتَّقِ اللَّهَ يَا ابْنَ حَنِئِيفٍ، وَتَتَكَفَّفْ أَفْرَاصُكَ، لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلَاصُكَ.

الشرح والتفسير: أيها الوالى! إحذر المشاركة فى مثل هذه الضيافه!

فى المقطع السابع والأخير من هذه الرساله يتحدث الإمام عليه السلام فى توصيف بليغ عن حياه الإنسان الكامل، وبتعبير آخر: أفراد حزب الله، ويذكر لهم ثلاثه أعمال وأربع صفات، يقول:

«طُوبَى (١) لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرَضَهَا، وَعَرَكَتْ (٢) بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا (٣) وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمُضَهَا (٤)، حَيْثَى إِذَا غَلَبَ الْكُرَى (٥) عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا

ص: ١٨٣

١- (١). «طوبى» مؤنث «أطيب» ولها معنى واسع وتشمل أظهر وأفضل الخيرات والطيبات، وفى مثل هذه الموارد تشبه الدعاء للآخرين.

٢- (٢) «عركت» من ماده «عرك» على وزن «أرك» فى الأصل تعنى التمرغ ثم اطلقت على كل ما يؤثر على كل شىء وينتهى لفنائته وزواله.

٣- (٣). «بؤس» يعنى كل أشكال الانزعاج والمساءه وهى فى مقابل النعمه والراحه.

٤- (٤) «غمض» من ماده «غموض» بمعنى غض النظر عن الشىء وعدم رؤيته، ثم اطلقت على حاله النوم، لأن الإنسان يغمض عينه فيه، وفى الجمله أعلاه قصد بها هذا المعنى.

٥- (٥) «كرى» يعنى النوم.

وَتَوَسَّدَتْ (١) كَفَّهَا».

وهذه إشاره إلى أنّ الأشخاص المحبوبين عند الله تعالى هم الذين يتحركون في سلوكهم اليومي من موقع أداء الفرائض الدينيه والتكاليف الفرديه والاجتماعيه، وفي ساعات الليل يخلون مع ربهم ويطلقون باب رحمته ويتهلون إليه بالدعاء والمناجاة، وعندما يغلبهم النوم يقنعون باستراحه مختصره، لا على الفرش الوفيره والغاليه والوسادات الناعمه بل يضطجعون على الأرض ويضعون يدهم تحت رؤوسهم كوساده.

وهذه إشاره إلى أنّ العابد ليس هو الشخص الذى يقضى ليله ونهاره بالعباده وهو قابع فى زاويه البيت، بل العابد هو الشخص الذى يؤدى فرائضه الفرديه والاجتماعيه فى النهار، ويتجه فى الليل إلى الله تعالى ويقوم بفروض الصلاه والعباده، وقد ورد فى حديث عن الإمام زين العابدين عليه السلام وأنه قال:

«مَنْ عَمِلَ بِمَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَهُوَ مِنْ أَعْبِدِ النَّاسِ» (٢).

وبهذا المضمون وبشكل أشمل ورد فى الحديث الشريفه عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«يَا عَلِيُّ ثَلَاثٌ مَنْ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِهِنَّ فَهُوَ مِنْ أَفْضَلِ النَّاسِ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ فَهُوَ مِنْ أَعْيَدِ النَّاسِ وَمَنْ وَرَعَ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ مِنْ أَوْرَعِ النَّاسِ وَمَنْ قَبَعَ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ فَهُوَ مِنْ أَعْنَى النَّاسِ» (٣).

وجمله

«افْتَرَشْتُ أَرْضَهَا وَتَوَسَّدْتُ كَفَّهَا» إشاره إلى غايه القناعه لدى هؤلاء بحيث إنهم لا يطمعون فى فرش مريحه ونوم هنىء، أضف إلى ذلك أنّ مثل هذه الفرش ربما تعيق الإنسان عن النهوض فى أوقات السحر للعباده والابتهاال لله تعالى.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه فى وصف حالات هؤلاء الأخيار ويقول: إنّ هؤلاء

ص: ١٨٤

١- (١) «توسّد» من ماده «وساده» بمعنى المتكأ والمخده.

٢- (٢) الكافى، ج ٢، ص ٨٤، ح ٧.

٣- (٣) من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٥٨، ح ٥٧٦٢.

الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع يعيشون خوف المعاد:

«فِي مَعَشَرَ أَسْهَرٍ (١) عُيُونُهُمْ خَوْفٌ مَعَادِهِمْ، وَتَجَافَتْ (٢) عَيْنُ مَضْاجِعِهِمْ (٣) جُنُوبُهُمْ، وَهَمَمَتْ (٤) بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شَفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ (٥) بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ».

فمثل هذا الخوف من الحساب والقيامه أسهر عيونهم ومنع أبدانهم من الإخلاد إلى النوم وجعل شفاههم تتمم بذكر ربهم وأنهم لكثرة استغفارهم تقشعت وتساقت ذنوبهم:

«وَهَمَمَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شَفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ»، وهذه العبارات في الحقيقة مقتبسة من القرآن الكريم كما ورد في صفات المؤمنين الحقيقيين قوله تعالى: «تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» (٤).

وفي مورد آخر يقول تعالى: «كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَعْفِفُونَ» (٧).

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه مستفيداً من الآيه الشريفه من القرآن الكريم في وصف هؤلاء المتقين بصفه «حزب الله»: «أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (٨).

وأخيراً يختم الإمام عليه السلام رسالته المنيره والمثمره بهذه الجمل يخاطب بها عثمان بن حنيف وجميع السائرين في خط الفضيله والطالبن للسعاده ويقول:

«فَاتَّقِ اللَّهَ يَا ابْنَ حَنِيفٍ، وَتَلْتَكِفْ (٩) أَقْرَاصُكَ، لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلَاصُكَ».

ص: ١٨٥

١- (١). «أسهر» من ماده «سهر» على وزن «سفر» بمعنى اليقظه.

٢- (٢). «تجافت» من ماده «تجافى» بمعنى التنحي والابتعاد ومادته الأصلية «جفاء» بمعنى أبعاد الشيء.

٣- (٣) «مضاجع» جمع «مضجع» بمعنى محل النوم.

٤- (٤) «هممت» من ماده «هممه» بمعنى الكلام بصوره همس.

٥- (٥) «تقشعت» من ماده «تقشع» على وزن «توقع» ويعنى التلف والتفرق من ماده «قشع» على وزن «مشق» بمعنى الرفع والدفع.

٦- (٦) سورة السجده، الآيه ١٦.

٧- (٧) سورة الذاريات، الآيتان ١٧ و ١٨.

٨- (٨) سورة المجادله، الآيه ٢٢.

٩- (٩) «ولتكفف» من ماده «كف» بمعنى المنع، ولكن في الكثير من نسخ نهج البلاغه وشروحها وردت «ولتكفك» من ماده «كفايه» يعنى أن أقراص الخبز كافيه لك فلا تقصد الموائد الفاخره والأطعمه الملونه.

لأنّ التلوث بمثل هذه الضيافات الثقيله والموائد المجلله، التى لا طريق للجائعين إليها، والتى يدعى إليها الأشراف والأثرياء فقط وهم غالباً من الملوّثين بالأموال الحرام، ويعدك عن ذكر الله والمعاد والالتفات إلى المحرومين وتزيد من ثقل ذنوبك وتسبب لك المشاكل يوم القيامة.

وجاء فى تاريخ «مروج الذهب»: ذكر الفضل بن الربيع (وزير المهدي): دخل شريك (بن عبد الله) القاضى على المهدي (العباسي) يوماً، فقال له: لا بدّ أن تجيبني إلى خصله من ثلاث خصال، قال: وما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: إمّا أن تلى القضاء، أو تحدّث ولدي وتعلمهم، أو تأكل عندي أكله، ففكر ثمّ قال: الأكله أخفهنّ على نفسي، فاحتبسه وقدم إلى الطباخ أن يطبخ له ألواناً من المخ المعقود بالسكر والطبرزد والعسل، فلما فرغ من غذائه قال له القيم على المطبخ، يا أمير المؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد هذه الأكله أبداً، قال الفضل بن الربيع: فحدّثهم شريك بعد ذلك، وعلم أولادهم، وولى القضاء لهم، وقد كتب بارزاقه إلى الجهبند فضايقه فى النقص، فقال له الجهبند: إنك لم تبع بزاً، قال له شريك: بلى والله لقد بعّت أكبر من البز، لقد بعّت ديني (١).

أجل، ربّما تكون للقمه من طعام حرام هذه الآثار السلبيه العجيبه فى الإنسان، فلو أنّ شريك تعامل مع هذه المسأله بآليات العقل واكتفى بتعليم أبناء الخليفه ربّما استطاع تعليمهم معارف الإسلام وحقيقه الرساله الإلهيه ليدفع ظلمهم وجورهم فى المستقبل.

تأملان

١. الزهد والانتفاع من المواهب الإلهيه

بعد المطالعه الدقيقه لهذه الرساله ربّما يثار هذا السؤال: هل أنّ الإسلام يحرم

ص: ١٨٦

١- (١) مروج الذهب، ج ٣، ٣١٠.

التلذذ بالأطعمه والمأكولات اللذيذه والحضور فى هذه الموائد الفخمه، أو أنّ هذا العمل حلال فى نفسه؟ وهل هناك تقاطع بين الزهد الإسلامى والاستفاده من النعم الإلهيه الدنيويه؟ الكلام فى هذا المجال متشعب ومفصل، ولكن يمكن تقديم عصاره لمثل هذا الموضوع فنقول:

وردت روايات كثيره فى تشويق المسلم للزهد فى الدنيا منها:

«الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ وَلَا- إِزَالَةِ الْمَالِ وَلَكِنَّ الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَا تَكُونَ بِمَا فِي يَدَيْكَ أَوْ تَقُومَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ»(١).

وجاء فى حديث آخر عن أمير المؤمنين على عليه السلام يقول:

«الزَّهَادَةُ قِصْرُ الْأَمَلِ وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ»(٢).

وجاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«ثَلَاثَةٌ أَشْيَاءٌ لَا يَحْسِبُ اللَّهُ عَلَيْهَا الْمُؤْمِنَ طَعَامًا يَأْكُلُهُ وَتَوْبًا يَلْبَسُهُ وَرَوْحًا صَالِحَةً تُعَاوَنُهُ وَتُحْصِنُ فَرْجَهُ»(٣).

ويتبين من هذه الروايه الشريفه أنّ الانتفاع من هذه المواهب لا يتنافى مع الزهد أبداً، وكذلك ما ورد من الآيات الروايات فى هذا الباب ممّا يستدعى استعراضها وبيانها لتأليف كتاب مستقل عنها.

ولكن فى مقابل هذه النصوص هناك روايات أخرى تدعو الإنسان إلى ترك لذات الدنيا وتمدح ترك التلذذ والتنعيم بالمواهب الإلهيه الكثيره، منها:

ما ورد فى حديث معروف عن الإمام على عليه السلام قاله ليله استشهاده بعد أن تناول فطوره المكوّن من خبز وملح وترك ما سواهما، قال مخاطباً إبتته:

«يَا بُتَيْتِي مَا مِنْ رَجُلٍ طَابَ مَطْعَمُهُ وَمَشْرَبُهُ وَمَلْبَسُهُ إِلَّا طَالَ وَقُوفُهُ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٤).

ص: ١٨٧

١- (١) ورد هذا الكلام عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فى سنن الترمذى، ص ٢٤٤٣. وكذلك ورد هذا الحديث فى

وسائل الشيعه ج ١١، ص ٣١٥، ح ١٣ باب استحباب الزهد فى الدنيا وحث الزهد عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً.

٢- (٢) نهج البلاغه، الخطبه ٨١.

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ٢٩٩.

٤- (٤) المصدر السابق، ج ٤٢، ص ٢٧٦.

وجاء في حديث آخر في كتاب «كنز العمال» عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال:

«فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ، فَدَعِ الْحَلَالَ لِيُطَوَّلَ الْحِسَابُ وَدَعِ الْحَرَامَ لِيُطَوَّلَ الْعَذَابُ» (١).

ويبدو أن الجمع بين هذه الآيات والروايات ممكن بإحدى هذه الطرق التاليه:

١. إن الاستفادة من المواهب الإلهية حكم لعامة الناس، والتوجه نحو الزهد والترغيب فيه هو حكم للخواص.

٢. إن روايات الزهد تهدف إلى التخفيف من استغلال الآيات والروايات من الطائفة الأولى، وتمنع الإنسان من الإفراط في تناول الأطعمة والإكثار من الملذات الحلال، لئلا يغرق الإنسان في هذه الملذات فتعيقه بالتالي عن سلوك طريق الهداية والمعنوية.

٣. إن أولياء الدين يمثلون الأسوه والقدوة للناس في سيرتهم وحياتهم، فينبغي أن يعيشوا معيشه ضعفاء الأمة ولمواساه المحرومين والتخفيف عن صعوبه معيشتهم.

٤. إن سلوك طريق الزهد يمنح جميع الأفراد حتى غير الأولياء مزيداً من الهدوء الروحي والصفاء النفسي، لأن الغرق في النعمه والرفاهيه تثقل الروح وبخاصه فيما لو كان الآخرون يعيشون في شغف العيش، فهذه الحاله متنافيه مع القيم ومذمومه من جهه عاطفيه.

٥. نظراً لما يترتب على الحلال من حساب يوم القيامه، فقد رجحت جماعه من المؤمنين الحياه البسيظه على المعيشه المرفهه لئلا يطول وقوفهم يوم القيامه للحساب.

وبالنسبه لحقيقه الزهد والجمع بين هذه التعاليم الإسلاميه من جهه، والانتفاع من المواهب الإلهيه الوارده في الآيات والروايات الشريفه المذكوره آنفاً من جهه أخرى راجع ما ورد في ذيل الخطبه ٨١ في الجزء الثالث من هذا الكتاب وكذلك يمكنك مراجعه كتاب دائره المعارف للفقه المقارن، الجزء الثاني (بحث الزهد والتنميه الاقتصاديه).

ص: ١٨٨

٦. مضافاً إلى ما تقدّم فإنّ التحرك في خط الزهد والإعراض عن الدنيا وملذاتها يعتبر أحد العوامل الرئيسيّة في تربيته الروح وتزكيه النفس كما ورد شرحه في بحث رياضته النفس من هذه الرسالة.

٢. من هم حزب الله؟

ما ذكر الإمام عليه السلام في نهايه هذه الرسالة عن حزب الله، مقتبس من آيات القرآن الكريم:

وقد وردت هذه العبارة في آيتين من القرآن الكريم، الأولى في آيه ٥٦ من سورة المائدة، يقول تعالى: «وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا (١) فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ».

ونرى في هذه الآية الشريفه أنّ قبول الولاية الإلهية والأولياء الإلهيين تعدّ من صفات حزب الله.

وجاء في الآية ٢٢ من سورة المجادلة: «الَّذِينَ آمَنُوا يَتَجَدَّدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

في الآية الأولى ورد وصف أفراد حزب الله، كما أشرنا إلى أنّها بوصف قبولهم لولاية الله ورسوله والأولياء الإلهيين، وفي الآية الثانية ورد وصفهم بأنهم «يبغضون في الله»، أو يعادون أعداء الحقّ، ويستفاد من مجموع هاتين الآيتين أنّ مسأله «الحبّ في الله» و«البغض في الله» على أساس أنّهما من أركان من يتصف بكونه من حزب الله، وما ذكره الإمام عليه السلام في هذه الرسالة بأنّ حزب الله هم القائمون في

ص: ١٨٩

١- (١) المؤمنون هنا، بقرينه الآية السابقة إشاره إلى أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام وهي آيه الولاية واعطاء الإمام خاتمه في حال الركوع، وعلى فهذه الآية نازله في شأنه عليه السلام.

الأسحار والعايدون والزاهدون في الحقيقه متقبس من القرآن وكون هذه الصفات من قبيل اللازم والملزوم.

ص: ١٩٠

تمثل هذه الرساله فى الواقع دستوراً عملياً لأحد عمال الإمام على عليه السلام وولاته فى حكومته، وتتضمن جمل قصيره وزاخره بالمعاني العميقه حيث يدعو الإمام مخاطبه بأداء وظيفته والقيام بمسؤوليته، وتتكون هذه الرساله من ثلاثه مقاطع:

فى المقطع الأول يشيد الإمام عليه السلام بشخصيه هذا الوالى ويشيد بمكانته المرموقه ليثير فى نفسه الاستعداد لقبول هذه المسؤوليه المهمه.

ص: ١٩١

١- (١). سند الرساله: أجمل الكثير من شراح فى من هو المخاطب فى هذه الرساله، ولكن صاحب كتاب (مصادر نهج البلاغه) يرى أن المخاطب لها هو مالك الأشتر، وكذلك ذكره صاحب كتاب (تمام نهج البلاغه) ويضيف صاحب المصادر: عندما عاد الإمام على عليه السلام من صفين أرسل مالك الأشتر إلى منطقته حكومته وإدارته «منطقه الجزيره» (وفقاً لما ورد فى معجم البلدان أن الجزيره منطقته فى العراق تقع بين نهري دجله والفرات) وعندما انتهت قضيه التحكيم وتغيرت أوضاع مصر أرسل الإمام على عليه السلام مالك الأشتر إلى مصر بدلاً من محمد بن أبى بكر وأرسل معه هذه الرساله وقال: إن هذه المهمه لا يقوم بها إلا أنت، وأعطاه رساله العهد التى ستأتى فى الرقم ٥٣. ومن الأشخاص الذين نقلوا هذه الرساله قبل السيد الرضى، إبراهيم بن هلال الثقفى فى كتاب الغارات، وكذلك البلاذرى فى أنساب الأشراف، والطبرى فى تاريخه فى حوادث سنه ٣٨، ومن الأشخاص الذين ذكروا هذه الرساله بعد السيد الرضى، ابن الأثير فى كتابه «الكامل». (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٧٦).

وفى المقطع الثانى يوصيه الإمام عليه السلام بالتواضع فى مقابل الرعيه والتعامل معهم بأسلوب اللطف والملائمه وسعه الصدر.

وفى المقطع الثالث يشير الإمام عليه السلام لزوم رعايه العداله والمساواه بين الناس حتى فى الإشاره والنظره والتحيه لئلا يطمع أصحاب الشروه والقوه فى عمليه التمييز، ويأس الضعفاء من إجراء العداله.

وذكروا أنّ من جمله الأشخاص المخاطبين لهذه الرساله هو مالك الأشر رحمة الله وقد أوردها الشيخ المفيد فى الأمالى، صفحه ٧٩، والمؤرخ المعروف الطبرى فى تاريخه الجزء الرابع، صفحه ٧١ فى حوادث سنه ٣٨.

ص: ١٩٢

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ، وَأَقْمَعُ بِهِ نَخْوَةَ الأَثِيمِ، وَأَسُدُّ بِهِ لَهَاةَ الشَّغْرِ المَخُوفِ. فَاسْتَعِنِ بِاللَّهِ عَلَى مَا أَهَمَّكَ، وَأَخْلِطِ الشَّدَّةَ بِضَعْفِ غُثِّ مِنَ اللَّيْنِ، وَارْفُقْ مَا كَانَ الرُّفْقُ أَرْفَقَ، وَاعْتَرِّمْ بِالشَّدَّةِ حِينَ لَاتُعْنِي عَنْكَ إِلَّا الشَّدَّةُ، وَأَخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ، وَابْسِطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَيْكَ، وَأَسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظَرَةِ وَالإِشَارَةِ وَالتَّجِيَّةِ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ العُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ، وَلَا يَتَأَسَّ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: عامل الناس بالرفق!

أشرنا آنفاً في ذكر سند هذه الرسالة أنّ المخاطب لها حسب الظاهر مالك الأشر، والعبارات الواردة فيها والثناء والتجليل في هذه الرسالة يتناسب مع شخصيته مرموقه مثل مالك الأشر، رغم أنّ الكثير من شراح نهج البلاغه لم يذكروا المخاطب فيها واكتفوا بالإجمال.

يستعرض الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الرسالة لهذا الوالى عدّه صفات حسنه ويثنى عليه ثناءً جميلاً ممّا يعمق فيه الاعتماد على النفس ويكرس فيه القدره والإراده على حلّ المشكلات ومواجهه التحديات يقول الإمام عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ (١) بِهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ، وَأَقْمَعُ (٢) بِهِ نَخْوَةَ (٣) الأَثِيمِ، وَأَسُدُّ بِهِ

ص: ١٩٣

١- (١). «استظهر» من ماده «استظهار» بمعنى طلب المعونه والمساعده.

٢- (٢) «أقمع» من ماده «قمع» على وزن «قرض» بمعنى انصراف الشخص من إنجاز هدفه، وبمعنى القهر والضغط على الشخص للاستسلام، و «مقمعه» تعنى العمود الحديدى الذى يضرب به الشخص أو الحيوان المتمرّد على رأسه لمنع من التمرد.

٣- (٣) «نخوه» التكبر والغرور.

وهذه التعبيرات تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام اختار لتولى الأمور جماعه من الشجعان وأصحاب المعرفة والدرايه والتدبير ليساعدوه فى هذه الأمور الثلاثه، أى إقامه أركان الدين، وقمع المتمردين والفاستدين، وحفظ الثغور والمواقع الخطيره على حدود البلاد الإسلاميه، وكان مخاطب هذه الرساله، أى مالك الأشتر، أحد هؤلاء الولاه والأمراء الموثوقين لدى الإمام.

وكان الإمام عليه السلام يريد أن يقول: إذا أوكلتك لهذا الأمر وفوّضت إليك مسؤوليه تدبير مصر وإقامه الأحكام الدينيه فيها ولمنع تعدييات قوى الظلام والانحراف وحفظ الثغور فى مقابل التهديد الخطير الذى يتمثل بجيش الشام وأتباع معاويه فإن ذلك بسبب لياقتك وجدارتك فى هذه الأمور، والحقيقه أنّ مالك الأشتر كان كذلك كما بينه الإمام عليه السلام فى هذه الجمل الموجهه والعميقه المغزى.

إنّ الحوادث التى وقعت لمالك الأشتر وذكرها المؤرخون فى كتبهم شاهد على هذه الحقيقه.

ومن ذلك عندما أراد الإمام على عليه السلام قتال المتمردين فى واقعه الجمل، أرسل عمّار بن ياسر إلى الكوفه لتحشيد الناس للالتحاق والانضمام إلى جيش الإمام على عليه السلام يقول الراوى: «والله إنى لفى المسجد يومئذٍ وعمّار يخاطب أبا موسى ويقول له ذلك القول (ويعبىء الناس للمشاركة فى جيش الإمام ولكن أبا موسى الأشعري كان واقفاً على المنبر ويشبط الناس) إذ خرج علينا غلمان لأبى موسى وقالوا: يا أبا موسى هذا الأشتر قد دخل القصر وضربنا وأخرجنا، فنزل أبو موسى

١- (١) «لها» بمعنى اللسان الصغير، ثم اطلقت على المخنق والخنجره كما ورد فى الجمله أعلاه.

٢- (٢) «الثغر» يعنى حدود البلد وفى الأصل بمعنى كلّ شقّ.

فدخل القصر، فصاح به الأشتر اخرج من قصرنا لا ام لك أخرج الله نفسك، فوالله أنك لمن المنافقين قديماً، قال: أجلنى هذه العشيّه. قال: هي لك ولا- تبتنّ في القصر الليله، ودخل الناس ينتهبون متاع أبي موسى، فمنعهم الأشتر وأخرجهم من القصر، وقال: إني قد أخرجته فكف الناس عنه»(١).

وكذلك ورد في كتب التاريخ: عندما وصل الإمام على عليه السلام في مسيره إلى صفين، إلى أرض الرقه، فكان لابدّ لهم من عبور النهر، ولكن الناس لم ينصبوا الجسر للإمام عليه السلام وجيشه، (وكأنهم كانوا يرتبطون بعلاقه خاصّه بمعاويه) فعزم الإمام أن يعبر النهر من جسر منبج (٢) (هو بعيد عن هذا المكان) فقال الأشتر لأهالي تلك المنطقه: اقسم بالله إذا لم يعبر أمير المؤمنين هذا الجسر ولم تحضروا له جسراً ليمر عليه فأعاقبكم بسيفى هذا وأقتل رجالكم وأخرب دياركم وآخذ أموالكم، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: هذا الأشتر فهو يفي بقسمه قوموا واحضروا الجسر، فلما أحضروا الجسر وهيثوه عبر جيش الإمام أجمعه عليه، وكان الأشتر آخر نفر عبر عليه.

على أيه حال فالإمام عليه السلام بعد هذه العبارات الهادفه والدقيقه يطرح على مالِك الأشتر دساتير وتوصيات مهمّه في مجال التعامل مع الناس، بدايه يقول:

«فَاسْتَعِنُ بِاللَّهِ عَلَيَّ مَا أَهَمَّكَ».

وهذه إشاره إلى أنّ الأصل والأساس في كسب النجاح والتوفيق في إداره البلاد وتديير أمورّه هو الإستعانه بالذات المقدّسه وطلب المعونه والتسديد منه.

وفي التوصيه الثانيه يقول:

«وَإِخْلِطِ الشَّدَّةَ بِضِعْثٍ (٣) مِنَ اللَّيْنِ».

وهو إشاره إلى أنّ أمر الحكومه وتديير الولايه وإجراء البرامج الاجتماعيه لا

ص: ١٩٥

١- (١) تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ٥٠١، حوادث سنه ٣٦.

٢- (٢) . «منبج» على وزن «مجلس» اسم مدينه من مدن الشام.

٣- (٣) «ضغث» على وزن «حرص» تعنى قبضه من الأعواد الرفيعه مثل سيقان الحنطه والشعير أو محمل التمر في النخله، ويأتى بمعنى حزمه من حطب أو نبات الجاف أيضاً، وأحياناً تطلق على المنامات المضطربه، وهنا وردت بمعنى مجموعه من عوامل اللين.

تتحقق من خلال الاعتماد على آليات الشدّة والعنف فقط، بل ينبغي على الوالى أن يخلط بين بالشدّة، لأنّ اسلوب الشدّة والقهر يتسبب فى نفور الناس وعداوتهم وربّما لا يصل إلى نتيجته، ولو استخدم الوالى آليات اللطف والملائمة والليونة دوماً فإنّ الكثير من الأفراد لا يأخذون عمله على محمل الجد وربّما يؤدّى ذلك إلى تكاسلهم وتواكلهم وبالتالي فشل المشروع، وهذا هو ما ورد فى منهج الأنبياء الإلهيين من كون كلّ نبي (مبشراً ونذيراً) والقرآن الكريم يؤكّد من جهه أنّ الله تعالى فى موضوع العفو الرحمة أرحم الرحمين وفى موضوع الجزاء والنقمة أشدّ المعاقبين.

والتوصيه الثالثه تبين ما هو الأصل بين الرفق والشدّة وما هى موارد هما، يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَرْفُقْ مَا كَانَ الرَّفْقُ أَرْفَقَ، وَاعْتَزِمِ بِالشَّدَةِ حِينَ لَا تُغْنِي عَنْكَ إِلَّا الشَّدَةُ».

وعلى هذا الأساس فالأصل فى المناسبات بين الوالى والرعيه، بل يأتى هذا الأصل فى جميع أشكال الإداره، هو الرفق والمداراه، ولكن إذا كان البعض يستغلون هذا اللين والرفق وسيئون الاستفاده من مداراه المدير والوالى لهم، فهنا لابدّ من استخدام الشدّه.

وقد ورد فى الحديث الشريف المعتبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«إِنَّ الرَّفْقَ لَمْ يَوْضِعْ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ» (١).

إِنَّ الْمَكَارِمَ أَخْلَاقٌ مُطَهَّرَةٌ

فَالدِّينُ أَوْلُهَا وَالْعِقْلُ تَانِيهَا

وَالْعِلْمُ ثَالِثُهَا وَالْحِلْمُ رَابِعُهَا

وَالجُودُ خَامِسُهَا وَالْعُرْفُ سَادِسُهَا

وَالْبِرُّ سَابِعُهَا وَالصَّبْرُ ثَامِنُهَا

وَالشُّكْرُ تَاسِعُهَا وَاللِّينُ عَاشِرُهَا (٢)

يُخَاطِبُنِي السَّفِيهُ بِكُلِّ قُبْحٍ

وَأَكْرَهُهُ أَنْ أَكُونَ لَهُ مُجِيباً

ص: ١٩٦

يَزِيدُ سَفَاهَةً وَأَزِيدُ حِلْمًا

كَعُودٍ زَادَهُ الْإِحْرَاقُ طَيْبًا (١)

وحالياً نشاهد أنّ أفضل الطرق لمواجهة المفاسد الاجتماعيه والتصدي لأشكال الجنوح والانحراف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر استخدام آليات المحبّه والخطاب المنطقي المقترن بالأدب والمداراه، فإنّ غالبيه الناس يتحركون بالاتجاه الصحيح بهذا الأسلوب، ولكن هناك قله من الناس لا ينفع معها سوى الشده ولا ينتهون عن سلوكياتهم الخاطئه إلاّ بالآليات القهر والقوه.

في التوصيه الرابعه والخامسه والسادسه يقول الإمام عليه السلام:

«وَإِخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ».

وهذه التوصيات في الحقيقه مقتبسه من الآيات القرآنيه الشريفه، فالقرآن يخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويقول: «وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ» (٢).

ويقول في آيه أخرى: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ» (٣).

وفي التوصيه السابعه والأخيره يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَسِ (٤) بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظَرِ وَالْإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ، حَيْثُ لَمَّا يَطْمَعُ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ (٥)، وَلَمَّا يَبْأَسُ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَيْدِكَ، وَالسَّلَامُ».

وهذه التوصيه تشمل المدراء والولاه في المجتمع الإسلامى، وكذلك تشمل القضاء أيضاً حيث ورد في كتاب القضاء أنّ هذه الأمور من وظائف القضاء، ولعل ذلك ينحصر بتعاليم الإسلام، بأن ينظر القاضى أو الوالى بنظره واحده للجميع، فلو قام احتراماً لواحد من المتخاصمين أو المراجعين يجب عليه القيام للجميع، وإذا سلّم على بعضهم ينبغى أن يسلم على الجميع بصوره واحده، بل لا ينبغى له أن ينظر

ص: ١٩٧

١- (١). مجانى الأدب، ج ٢، ص ١٠١.

٢- (٢) سورة الحجر، الآيه ٨٨.

٣- (٣) سورة آل عمران، الآيه ١٥٩.

٤- (٤). «أس» من ماده «مواساه» تعنى وقوع الأشياء فى صف واحد والتساوى فى المرتبه.

٥- (٥). «حيف» الانحراف عن الحق والعداله.

إلى بعضهم بجميع بصره وينظر إلى الآخر بطرف عينه، فمثل هذه التوصية تعنى أن يحسب الآخرين حسابهم ويعلموا أن هذا المكان هو مكان يراعى فيه موازين العدل والانصاف ولا ينبغي أن يتوقع أحدهم التمييز فى الأمور المهمه.

ص: ١٩٨

الرساله ٤٧: لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَام لَمَّا ضَرَبَهُ ابْنُ مُلْجَمٍ لَعَنَهُ اللَّهُ

إشاره

لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَام لَمَّا ضَرَبَهُ ابْنُ مُلْجَمٍ لَعَنَهُ اللَّهُ (١)

نظرة عامه للرساله

هذه الوصيه في الواقع تعتبر أحد الوصايا الشامله والمهمه للإمام على عليه السلام عندما كان في سرير الشهاده، ومخاطب هذه الوصيه ولداه الحسن والحسين عليهما السلام، بل جميع الشيعة وأتباع آل البيت عليهم السلام وتتضمن عدّه فصول مهمه:

الفصل الأول، يوصى الإمام عليه السلام إبنه بتقوى الله وعدم اهتمام بزخارف الدنيا، والدفاع المظلومين وحمايه حقوقهم في مقابل الظالمين.

وفي الفصل الثاني، يصرح الإمام عليه السلام بأن مخاطبه هو جميع أبنائه وأهله وكل من تصل إليه هذه الوصيه إلى يوم القيامه، ومره أخرى يؤكد الإمام في وصيته على التقوى ونظم الأمور والإصلاح بين الناس.

ص: ١٩٩

١- (١) سند الرساله: نقل هذه الوصيه جماعه كثيره قبل السيد الرضى، ومنهم أبو مخنف (لوط بن يحيى طبقاً لنقل مقاتل الطالبين) وأبو حاتم السجستاني في كتاب المعمرون، والطبرى في تاريخه المعروف في حوادث سنه ٤٠، والكليني في كتاب الكافي، والمسعودى في مروج الذهب، والشيخ الصدوق في من لا يحضره الفقيه، وجماعه آخرون. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٧٩-٣٨١).

وفى الفصل الثالث، يشير الإمام عليه السلام إلى عدّة مسائل مهمّة، منها الدعوه لكفاله الأيتام وحفظ حقوق الجيران، والعمل بالقرآن والاهتمام بإقامه الصلاة والحج والجهاد بالنفس والمال واللسان وتوثيق العلاقة بين الأفراد واجتناب الكراهيه والفرقه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفى الفصل الأخير يخاطب عليه السلام أبناء عبدالمطلب مؤكّداً لهم أنّهم بعد استشهاده ينبغي أن يمتنعوا من سفك دماء المسلمين بذريعه مقتله والانتقام له، ويحمل المسؤوليه فقط على قاتله الذى يجب القصاص فى حقّه، ثم يوصيهم باجتنب المثلّه بعد القصاص من القاتل ولزوم دفنه.

ص: ٢٠٠

أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَلَّا تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغْتُمْهَا، وَلَا تَأْسَيْفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُورِي عَنْكُمْ، وَقُولَا بِالْحَقِّ وَأَعْمَلَا لِلْأَجْرِ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْمًا وَلِلْمَظْلُومِ عَوْنًا.

الشرح والتفسير: كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً!

هذه هي الوصية الثانية للإمام علي عليه السلام في فراش الوفاه (وقد سبق ذكر وصية أخرى للإمام في الكتاب رقم ٢٣).

وكما أشرنا آنفاً، أنّ الإمام علي عليه السلام تحدّث بهذا الكلام في فراش الوفاه وكتب هذه الوصية، ونعلم أنّ الإنسان في مثل هذه الحالة يهتم ببيان الأمور المهمّة لديه بعبارات موجزة، ولم تكن وصية الإمام هذه تتعرض لكيفية تقسيم أمواله وثرواته، لأنّه لم يترك مالاً- وثروه لورثته، وإن كان يملك مبلغاً من المال فقد جعله وفقاً للمسلمين، وتتركز هذه الوصية حول القيم الأخلاقية والمثل الإنسانية والتكاليف المديتية في واقع الحياه الفرديّة والاجتماعيّة، وبالرغم من أنّ المخاطب في هذا المقطع من الوصية، الحسن والحسين عليهما السلام، ولكن بقرينه المقطع الثاني من الوصية فإنّ الآخرين أيضاً مخاطبون بهذا الخطاب المهم.

وعلى أيّ حال فإنّ الإمام علي عليه السلام في المقطع الأوّل لهذه الوصية يوصي ولديه بسبعه أمور مهمّة:

الأوّل يقول عليه السلام:

«أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ».

أجل، كما قلنا مراراً أنّ التقوى تعنى الاحساس بالمسؤولية الباطنية فى مقابل الأوامر الإلهية، فهى تمثل عصاره تعاليم جميع الأنبياء والأولياء وبدونها لا- يستطيع أى شخص الخلاص من الوسوس الشيطانية والأهواء النفسانية، فمفتاح الجنه هو التقوى، والمركب الذى يركبه السائل فى مراتب السلوك المعنوى والقرب الإلهى هو الورع.

ثم إنّ الإمام عليه السلام فى الوصيه الثانيه والثالثه يقول:

«وَأَلَّا تَبْغِيَا (١) الدُّنْيَا وَإِنْ بَغْتُكُمَا، وَلَا تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُورِي (٢) عَنْكُمَا».

ومعلوم أنّ الدنيا ذات أبعاد وأقسام مختلفه: قسم منها ضرورى لحياه الإنسان وبقائه، والقسم الآخر يتمثل فى وسائل الترفيه بالشكل المعقول، ولكن القسم الذى يتضمّن أكثر من ذلك والإنسان يتجه نحوه بدافع الأهواء والتفاخر وأمثال ذلك، وبديهي أنّ الإمام عليه السلام لا ينهى عن القسم الأوّل والثانى، بل هو ناظر إلى القسم الثالث، كما ورد هذه المعنى فى القرآن الكريم: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» (٣) وقطعاً إذا تحرك الإنسان بهذا الاتجاه من طلب الدنيا فإنّ ذلك يبعده عن الله والآخرة ويدفعه للتلوّث بأنواع الذنوب والمعاصى.

وعندما يقول الإمام عليه السلام:

«وَلَا تَأْسِفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُورِي عَنْكُمَا»، فالعلّه فى ذلك جليه لأنّ التأسف على شىء فقدّه الإنسان فى الماضى لا يعيده إليه، هذا أوّلاً وثانياً، إنّ هذه الحاله السليه فى النفس من شأنها إعاقه الفعاليات الإيجابيه وعدم تركيز الاهتمام لحفظ ما يملكه الإنسان حالياً.

وهذا الكلام فى الحقيقه مقتبس من القرآن الكريم ويقول: «لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ» (٤).

ص: ٢٠٢

١- (١) . «تبغيا» و «بغت» كلاهما من ماده «بغاء» على وزن «سنا» بمعنى طلب الشىء.

٢- (٢) «زوى» من ماده «زى» على وزن «حى» وتعنى الإبعاد والنهى، وفى الجمله أعلاه «زوى» بمعنى اخذ.

٣- (٣) . سورة الحديد، الآيه ٢٠.

٤- (٤) سورة الحديد، الآيه ٢٣.

بالحق: «وَتَوَاصُوا بِالْحَقِّ».

والجدير بالذكر أنّ الحقّ له معنى واسع جداً ويشمل كلّ حقيقته عقائديه وأخلاقه وحكميه والتعاليم والأحكام الإلهية وحقوق الناس فيما بينهم، والحقّ المتقابل بين الحاكم والرعيه، أو بين السلطه والشعب، وحقّ الإنسان على نفسه وما إلى ذلك.

وأما للعمل والأجر والثواب الإلهي فهذا يعني إخلاص التيه وأن لا ينظر الإنسان إلى ما في أيدي الناس بعين الطمع، وأن يحصر فكره ونظره بالثواب الإلهي ويؤدى كلّ عمل بتيه خالصه لله تعالى.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام في التوصيه السادسة والسابعه إلى مسأله في غايه الأهميه، ويقول:

«وَكُونَا لِلظَّالِمِ حَضَمًا وَلِلْمَظْلُومِ عَوْنًا».

وهذه التوصيه في الحقيقه تأكيد على لزوم نصره الحقّ والدفاع عنه كما ورد في العبارات السابقه، وما حقّ أعظم من أن يعين الإنسان المظلوم في مقابل الظالم، ليصل المظلوم إلى حقه ويجتنب الظالم ظلمه، واللافت للنظر أنّ الظالم والمظلوم في هاتين الجملتين مطلقان فلا يختصان بالمسلمين، ومن هذه الجبهه فإنّ كلّ مظلوم في العالم يجب على المسلمين الدفاع عنه ونصرته، ويجب عليهم التصدي لكلّ ظالم وجائر في هذا العالم، ولو أنّ منظمات حقوق الإنسان اهتمت بتطبيق هذين الأمرين فقط، فإنّ الدنيا ستتحول إلى جنّه، ولكننا نرى أنّ هؤلاء الذين يدعون الدفاع عن حقوق الإنسان يقفون مع الظالم عندما تتعرض منافعهم غير المشروعه للخطر، ويقفون ضد المظلوم، رغم أنّهم يرفعون لواء حمايه المظلومين والتصدي للظالمين في الظاهر.

ونقرأ في حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«مَنْ أَصْبَحَ لِيَهُمْ بِظُلْمٍ أَحَدٍ غَفَرَ اللَّهُ مَا اجْتَرَمَ»^(١).

وفي الحقيقه أنّ أكثر الذنوب تعدّد نوعاً من أنواع الظلم والشخص الذي يجتنب

ص: ٢٠٤

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ٣٣٢، ح ٨.

الظلم بجميع أشكاله هو الذى يتخلص من الذنوب كآفه.

ونقرأ فى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«وَمَنْ أَخَذَ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ كَانَ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ مُصَاحِبًا» (١).

ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فى «غررالحكم» يقول:

«أَحْسَنُ العَدْلِ نُصْرَةُ المَظْلُومِ» (٢).

وكذلك نقرأ عن الإمام زين العابدين عليه السلام فى دعاء ٣٨ من الصحيفة السجادية (بوصفه قدوه لعامة الناس):

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنْ مَظْلُومٍ ظَلَمَ بِحَضْرَتِي فَلَمْ أَنْصُرْهُ».

ص: ٢٠٥

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٥٩.

٢- (٢) غررالحكم، ص ٤٤٦، ح ١٠٢١٠.

أَوْصِيَكُمْ، وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي (١)، بِتَقْوَى اللَّهِ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ، وَصِيْلِمَاحِ ذَاتِ (٢) بَيْنِكُمْ، فَإِنِّي سَجِعتُ جَدُّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ: «صَلَّاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ».

الشرح والتفسير: أفضل الأعمال صلاح ذات البين!

فى هذا المقطع من الوصية يوسع الإمام عليه السلام دائره مخاطبيه لتمتد إلى أبعد من ولديه الحسن والحسين عليهما السلام، وهم أهله وجميع أرحامه ومن تصل إلى أيديهم هذه الوصية إلى يوم القيامة ليقعوا جميعاً فى دائره هذا الخطاب الإيماني، فيقول:

«أَوْصِيَكُمْ، وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي، بِتَقْوَى اللَّهِ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ، وَصِيْلِمَاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ، فَإِنِّي سَجِعتُ جَدُّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ: (صَلَّاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ)».

وهكذا نرى أنّ الإمام عليه السلام يؤكّد فى هذا المقطع من الوصية على أمور ثلاثة:

الأول: التأكيد مرّة على الالتزام والواعى بمقتضيات التقوى والورع، فطريق النجاه لا

ص: ٢٠٧

١- (١). جاء فى روايه وفقاً لما ذكر صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه: عندما عاين الطبيب المعروف فى الكوفه الإمام عليه السلام قال: أنا آيس من بقاءك وحياتك، فأمر الإمام عليه السلام بأن يأتوا له بدواه وقلم. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٧٩).

٢- (٢). «ذات» فى الأصل بمعنى الخلقه والبنيه وأساس الشىء، وإن جاء فى اصطلاح الفلاسفه بمعنى عين الشىء وحققيقته، ومن هذه الجهه فإنّ إصلاح ذات البين أو صلاح ذات البين إشاره إلى إزاله الكدورات والأحقاد من الأصل والأساس.

يتيسر للإنسان إلماماً خلال التقوى، التي تعتبر زاد الإنسان ومتاعه في سفره إلى الآخرة وكذلك تعتبر معيار شخصيته الإنسان وكرامته أمام الله تعالى بمقتضى قوله:

«إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...»(١).

والأمر الثانى: يوصى الإمام عليه السلام ولديه بنظم أمورهم فى حركة الحياه الفرديه والاجتماعيه، وهذا يشمل النظم فى الأبعاد الأمتيه والاجتماعيه والاقتصاديه والسياسيه وفى العباده، وكذلك ما يرتبط بالأسره والتعليم والتربيه للأبناء ونعلم أن بقاء عالم الوجود مرتبط بشكل وثيق بما فيه من نظام محكم فى ظل التدبير الإلهى، فلولا وجود النظم فى الأفلاك والمجرات السماويه لما بقى عالم الكون والطبيعه ولسارع إلى الانحلال والاندثار، ولو أن بدن الإنسان وما فيه من أجهزه وأعضاء تتحرك فى إطار من النظم الدقيق لسارعت الأمراض إليه وإرتبك عمل هذه الأجهزه المختلفه ولمات الإنسان فى وقت قصير، وكل مجتمع يفتقد النظم اللازم فإنه يتعرض للفناء والانقراض، وكل إنسان يسلك فى خط العشوائيه والعبيثه بعيداً عن النظام فى حركة الحياه فلا يصل إلى نتيجته مهما كان يملك من قابليات وإمكانات كثيره.

وعلى سبيل المثال يوجد فى دم الإنسان أكثر من عشرين نوعاً من العناصر المعدنيه وشبه المعدنيه ترتبط فيما بينها برابطه خاصه ولكل واحد منها مهمه خاصه يؤديها فى البدن، فلو أن هذه التركيبات والعناصر تغيرت قليلاً من الناحيه الكميّه والكيفيه فستظهر علائم الأمراض على الإنسان، ولهذا السبب فإن جميع الأطباء ومن أجل تشخيص جذور المرض الأصليه يعملون على تحليل دم المريض فى المختبر ليروا فى أى قسم يوجد الخلل والنقص.

وفى المسائل الفلكيه نرى أحياناً أن المنجمين وعلماء الفلك يتنبؤن بشكل دقيق بالخشوف وأنه سيقع فى الساعه الفلانيه والدقيقه الفلانيه فى المكان الفلانى من الكره الأرضيه وذلك قبل عدّه أشهر من وقوع الخسوف أو الكسوف، ويجتمع فى

ص: ٢٠٨

تلك المنطقه جماعات كثيره فى لحظه وقوع الكسوف لرصد الشمس فى ذلك الوقت، فلولا وجود نظم دقيق حاكم على عالم الوجود لما أمكن لعلماء الفلك أن يتنبأوا بمثل هذه الأمور، بل إنهم يتنبئون بالظواهر الكويته قبل آلاف السنين من وقوعها.

والآن لو أن الإنسان أراد فى علاقاته الاجتماعيه أن يسلك طريقاً اللانظم واللامبالاه فسيكون قطعه غير متجانسه مع عالم الوجود، ومثل هذا الشىء الاستثنائى وغير المنسجم من مظاهر الطبيعه محكوم بالفناء والزوال.

أما صلاح ذات البين والحديث الذى نقله الإمام عليه السلام عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بأن إصلاح ذات البين أفضل من الصلاه والصوم، فالعله فى ذلك جليه، لأنه لولا- مسأله إصلاح ذات البين والعمل على رفع الكدورات وإزاله العداوات وتبديل حالات الكراهيه إلى حالات المحبه والموده بين أفراد المجتمع الواحد، لسادت حالات التشتت والفرقه والتزلزل بينهم، وهذا بدوره يقود المجتمع كما يقول القرآن إلى الفشل والتناحر.

ولهذا السبب كان إصلاح ذات البين من أفضل العبادات بل ورد فى الروايات الشريفه أن المصلح بمنزله المجاهد فى سبيل الله:

«جَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَجْرَ الْمُصْلِحِ بَيْنَ النَّاسِ كَأَجْرِ الْمُجَاهِدِ عِنْدَ النَّاسِ»^(١).

ولا- شك ولا- ريب فى أن الجهاد يوجب عزه الإسلام، والشخص الذى يتحرك فى واقعه الاجتماعى من أجل إيجاد حالات التفاهم والتواصل بين الناس ويسوق المجتمع الإسلامى نحو التوحد والاتحاد فإن عمله هذا يتسبب فى عزه الإسلام والمسلمين.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«صَدَقَهُ يُحِبُّهَا اللَّهُ إِصْلَاحُ بَيْنِ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا وَتَقَارَبُ بَيْنَهُمْ إِذَا تَبَاعَدُوا»^(٢).

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حديثاً معروفاً، عندما قال مخاطباً المفضّل (وهو أحد أصحاب الإمام):

«إِذَا رَأَيْتَ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنْ شِيعَتِنَا مُنَازَعَةً فَافْتَدِهَا مِنْ مَالِي»

ص: ٢٠٩

١- (١). تفسير الثعلبى، ج ٩، ص ٨٠.

٢- (٢) الكافى، ج ٢، ص ٢٠٩، ح ١.

أى أصلح بينهما وارفح النزاع ولو كان بدفع مبلغ من المال لهما، ولذلك نقر أ فى الروايه عن أبى حنيفه سابق الحاج قال: مررنا بالمفضل وأنا وختنى (١) نتشاجر فى ميراث، فوقف علينا ساعه ثم قال لنا: تعالوا إلى المنزل فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائه درهم، فدفعتها إلينا من عنده حتى إذا استوفى كل واحد منا من صاحبه، قال: أمّا إنَّها ليست من مالى، ولكن أبو عبد الله عليه السلام أمرنى إذا تنازع رجلان من أصحابنا فى شىء أن أصلح بينهما وأفتديها من ماله، فهذا من مال أبى عبد الله عليه السلام (٢).

ونختم هذا البحث بحديث آخر من جملة الأحاديث الكثيره الوارده فى هذا المجال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصَّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ» (٣).

وبعد أن ينقل العلّامة المجلسى الحديث النبوى الشريف الوارد فى كلام الإمام عليه السلام مورد البحث، ينقل عن أمالى الشيخ الطوسى بعد ذكره لهذه الروايه:

«المراد صلاح التطوع والصوم» (٤) وكأن توضيح الشيخ الطوسى فى هذا الكلام يعتمد على روايه معتبره عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إصلاح ذات البين أفضل من عامه الصلاه والصوم» (٥).

ص: ٢١٠

١- (١) . الختن، زوج بنت الرجل وزوج اخته.

٢- (٢) الكافى، ج ٢، ص ٢٠٩، ح ٣ و ٤.

٣- (٣) كنز العمال، ح ٥٤٨٠؛ مجموعه ورام، ج ١، ص ٣٩.

٤- (٤) . بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٤٤.

٥- (٥) المصدر السابق، ص ٤٣.

اللَّهُ اللَّهُ فِي الْإِيْتَامِ، فَلَا تُعْبُوا أَفْوَاهَهُمْ، وَلَا يَضِيْعُوا بِحَضْرَتِكُمْ. وَاللَّهُ اللَّهُ فِي جِيْرَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ. مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيُورَثُهُمْ وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، لَا يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ. وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الصَّلَاةِ، فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ. وَاللَّهُ اللَّهُ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ، لَمَّا تَخْلُوهُ مَيَّا بَقِيْتُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تَرِكَ لَمْ تُنَاطِرُوا، وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَادُلِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ. لَا تَتْرُكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَوْلَى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ.

الشرح والتفسير: وصايا هامه على فراش الشهاده!

يقدم الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصية عشر توصيات مهمه فيما يتصل بالمسائل الاجتماعيه والعباديه والأخلاقية، وفي سته موارد منها يستهلها الإمام عليه السلام بكلمه «اللَّهُ اللَّهُ» وذلك للدلاله على غايه الاهتمام والتأكيد، وبدايه يشرع الإمام من الأيتام ويقول:

«اللَّهُ اللَّهُ فِي الْإِيْتَامِ، فَلَا تُعْبُوا (١) أَفْوَاهَهُمْ، وَلَا يَضِيْعُوا بِحَضْرَتِكُمْ».

وفيما يتصل بالاهتمام في أمر اليتامى فقد ورد في القرآن الكريم والروايات

١- (١) «تعبوا» من ماده «عَبَّ» على وزن «حد» بمعنى العاقبه، وهذه المفرده تأتي أحياناً في مورد الأعمال والأمر التي يؤتى بها بشكل غير متوالى، من قبيل ما ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال لبعض أصحابه: «زُرْ غَيْبًا تَزِدُّ حُبًّا» (مستدرک الوسائل، ج ١٠، ص ٣٧٤، ح ١٢٢١٠).

الشريفه تأكيدات كثيره بهذا المضمون، ممّا يعكس الروح الإنسانيّه وحالات التكافل الاجتماعي وحمايه الضعفاء فى التعاليم والأحكام الإسلاميه.

فنفرد فى الآيه ٩ من سوره النساء قوله تعالى: «وَلِيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّهُمْ ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا».

ويقول فى الآيه بعدها: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا».

وورد فى حديث معروف عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مَنْ مَسَحَ عَلَى رَأْسِ يَتِيمٍ كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ تَمَرٌّ عَلَى يَدِهِ نُورٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١).

أجل، فإن روح اليتامى عطشى للمحبّه، فتأثير المحبّه والمداراه لهؤلاء الأطفال اليتامى لا يفوقه أى إكرام واحترام لهم.

وفى حديث مشهور آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إِنَّ الْيَتِيمَ إِذَا بَكَى اهْتَرَّ لِئِكَانِهِ عَرْشُ الرَّحْمَنِ» (٢).

وجاء فى ذيل هذا الحديث أنّ الله تعالى يخاطب ملائكته ويقول:

«إِنَّ الْيَتِيمَ إِذَا بَكَى اهْتَرَّ لِئِكَانِهِ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: يَا مَلَائِكَتِي! مَنْ أَبَكَى هَذَا الْيَتِيمَ الْعَلْدَى غُيْبَ أَبُوهُ فِي التُّرَابِ؟ فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ، أَنْتَ أَعْلَمُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تعالى:

يَا مَلَائِكَتِي! فَإِنِّى اشْهَدُكُمْ أَنَّ لِمَنْ أَسْكَنَتْهُ وَأَرْضَاهُ أَنْ أَرْضِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وجاء فى كتاب الكافى، جىء إلى أمير المؤمنين عليه السلام عسل وتين من همدان وحلوان (٣) فأمر العرفاء أن يأتوا باليتامى، فأمكنهم من رؤوس الأزقاق يلحقونها وهو يقسمها قدها قدها، فقيل له: يا أمير المؤمنين ما لهم يلحقونها، فقال الإمام عليه السلام:

«إِنَّ الْإِمَامَ أَبُو الْيَتَامَى وَإِنَّمَا أَلْعَقْتُهُمْ هَذَا بِرِعَايَةِ الْأَبَاءِ» (٤).

ص: ٢١٢

١- (١) مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٠٦.

٢- (٢) المصدر السابق.

٣- (٣) . من بلاد كردستان قريه من بغداد.

٤- (٤) الكافى، ج ١، ص ٤٠٦، ح ٥.

والملفت أنّ أبا الطفيل (الصحابي المعروف ومن الأتباع المخلصين للإمام علي عليه السلام) يقول: «رأيت علياً عليه السلام يدعو اليتامى فيطعمهم العسل، حتى قال بعض أصحابه: لوددت أني كنت يتيماً» (١).

ثم إنّ الإمام عليه السلام في وصيته الثانية يؤكد على ضروره الاهتمام بحق الجيران ويقول:

«اللَّهُ اللَّهُ فِي جِيرَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّتُهُ نَبِيِّكُمْ. مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيُورُّهُمْ (٢)».

وجمله

«فإنّها وصيته نبيكم»، إمّا من باب حذف المضاف، وهي في الأصل:

«فإنّها محل وصيه نبيكم»، أو من باب التأكيد بأنهم عين وصيته، من قبيل أن يقال:

زيد عدل، أو نقول مثلاً: الشخص الفلاني عين العدالة.

والتعبير بـ «ظن» في جملة در جملة

«حتّى ظننا أنّه سيورّوهم»، بأن يكونوا شركاء في الميراث إمّا على مستوى التأكيد ومن خلال ما سمعوه من تكرار توصيه النبي بالجيران، أو يراد بها المعنى الحقيقي، وأنهم حسبوا واقعاً أنّ مقام الجيران إلى درجه يمكن أن يلحقوا بالأرحام والأقرباء ويكونون شركاء في الميراث.

وعلى أيّ حال فالجار في الإسلام يتمتع باحترام خاص خلافاً لما نراه في عالم اليوم والحياه الماديه في المجتمعات المعاصره، فربّما عاش رجلان عشرين سنه جيراناً ولكن أحدهما لا يعرف الآخر بتاتاً.

إنّ فلسفه احترام الجار في الإسلام جليه وواضح، لأنّ الإسلام دين اجتماعي بامتياز، فتعاليمه ناظره إلى تجمع الأسره، تجمع الأقرباء والأرحام، تجمع الجيران، تجمع أهالي المدينه، تجمع المواطنين في البلد الواحد، فكل واحد من أفراد هذه التجمعات له مكانه خاصه في الإسلام، فلو أنّ الجيران كانوا يهتمون واقعاً ببعضهم

ص: ٢١٣

١- (١) بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٢٩.

٢- (٢) «سيورّوهم» «ورث» (صيفه الثلاثي المجرد) تعني أخذ الميراث، ولكن «ورث» من باب التفعيل تعني اعطاء الميراث أو ترك الميراث.

البعض ويتشاركون الأفراح والأحزان فيما بينهم فإنّ الحياه ستكون حلوه وهنيئه وسيمنح هذا التواصل والتكاتف أفراد الجيران القوّه والروحيه بحيث تمكنهم من التغلب بسهولة على المشاكل والتحديات الصعبه التي يفرضها الواقع، فاليوم يواجه هذا الجار مشكله معينه فينهض سائر الجيران لمساندته وتقديم المعونه إليه لحل هذه المشكله، وغداً تكون نوبه الجار الآخر ويتداعى له الجيران بالمعونه وهكذا.

ونقرأ في حديث عميق المغزى عن رسول الله صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«هَلْ تَدْرُونَ مَا حَقُّ الْجَارِ مَا تَدْرُونَ مِنْ حَقِّ الْجَارِ إِلَّا قَلِيلاً أَلَا لَأَيُّومٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَنْ لَأْيَأَمْنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ فَإِذَا اسْتَقْرَضَهُ أَنْ يُقْرِضَهُ وَإِذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ هَنَأَهُ وَإِذَا أَصَابَهُ شَرٌّ عَزَّاهُ لَا يَشْتَطِطُ عَلَيْهِ فِي الْبِنَاءِ يَحْجُبُ عَنْهُ الرِّيحَ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَإِذَا اشْتَرَى فَكَهَّهَ فَلْيَهْدِ لَهُ فَإِنْ لَمْ يَهْدِ لَهُ فَلْيُدْخِلْهَا سِرّاً وَلَا يُعْطَى صَبِيئَانَهُ مِنْهَا شَيْئاً يُغَايِطُونَ صَبِيئَانَهُ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْجِيرَانُ ثَلَاثَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ثَلَاثَةٌ حُصُوقٍ حَقِّ الْإِسْلَامِ وَحَقِّ الْجَوَارِ وَحَقِّ الْقُرَابَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ حَقَّانِ حَقِّ الْإِسْلَامِ وَحَقِّ الْجَوَارِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ الْكَافِرُ لَهُ حَقُّ الْجَوَارِ»(١).

ونقرأ في الآيه ٣٦ من سوره النساء أنّ القرآن الكريم بعد التأكيد على الإحسان الوالدين والأقرباء واليتامى والمساكين، يؤكّد على الإحسان للجيران القربين والبعيدين، يقول: «وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ».

واللافت ما ورد في حديث شريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله وأمير المؤمنين عليه السلام والإمام الباقر عليه السلام أنّ حدّ الجار يتمثل في أربعين منزلاً من الجهات الأربع(٢).

ومما يجدر ذكره أنّ هذا الحديث الشريف لا يعنى أن نحسب أربعين داراً من كلّ جهه في خط مستقيم بحيث يكون المجموع ١٦٠ منزلاً، وأن لا تحسب المنازل الواقعه بين هذه الخطوط المستقيمه حتى لو كانت على مقربه من دار الشخص، بل

ص: ٢١٤

١- (١) مستدرک الوسائل، ج ٨، ص ٤٢٤، ح ١٤.

٢- (٢) انظر: وسائل الشيعه، ج ٨، ص ٤٩١، آداب العشره، باب ٩٠.

المراد أنّ دائره الجيران تمتد لشعاع أربعين منزلاً- من كلّ جهه، ونعلم أنّ مساحه الدائره تساوى ضرب نصف القطر فى عدد ٣/١٤، ويتبين فى حساب بسيط أنّ المجموع يبلغ قرابه خمسه آلاف بيتاً، فجميع هذه البيوت والدور، وفق ما ورد فى الحديث الشريف، تعتبر من الجيران، أى أنّها مدينه مكونه من عشرين ألف نفر.

ونختم هذا الكلام بذكر قصه تاريخيه، ينقل ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغه أنّ رجلاً يدعى أبو الجهم باع داره وكان فى جواره سعيد بن العاص بمائه ألف درهم، فلما أحضرها المشتري قال (أبو الجهم) له: هذا ثمن الدار، فأعطني ثمن الجوار، فقال المشتري: أى جوار قال: جوار سعيد بن العاص، قال: وهل اشترى أحد جواراً قط، قال: ردّ علىّ دارى، وخذ مالك، لا أدع جوار رجل إن قعدت سألت عني وإن رآني رحب بي، وإن غبت عنه حفظني، وإن شهدت عنده قرّبتني، وإن سألته قضى حاجتي، وإن لم أسأله بدأني، وإن نابتنى نائبه فرج عني، فبلغ ذلك سعيداً فبعث إليه مائه ألف درهم، وقال: هذا ثمن دارك، ودارك لك (١).

ونقرأ فى التوصيه الثالثه أنّ الإمام عليه السلام يؤكّد على العمل بالقرآن والالتزام بتعاليمه وأحكامه ويقول:

«وَاللّٰهُ فِي الْقُرْآنِ، لَيَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ».

وهذا الكلام إشاره إلى أنّكم لا- ينبغي أن تقنعوا بتلاوه القرآن وتجويده وتغفلوا عن مضامينه وتعاليمه، فى حين أنّ الأجنب يتحركون فى حياتهم من موقع العمل بمضامين القرآن وتعاليم الإسلام، مثلاً، عندما يعرضون بضاعتهم فى السوق يراعون الصدق والأمانه فى معاملاتهم ولكنكم لستم كذلك، أو أنّهم يلتزمون بعهودهم ومواثيقهم وأنتم تنقضون العهود ولا تلتزمون بالمواثيق فيما بينكم، وأولئك يسعون بجديّه لتحصيل وكسب العلوم المختلفه وإيجاد حاله النظم والانضباط فى علاقاتهم ولكنكم لا تهتمون لذلك فتبقون فى ركب التخلف والتبعيه، كما نشاهد هذا الحال - وللأسف - فى بعض المجتمعات البشريه والإسلاميه وأنهم يعملون على وضع

ص: ٢١٥

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٧، ص ٩.

شاره وعلامه الشركات الأجنبية على منتجاتهم ومصنوعاتهم ويبيعونها في السوق، وهذا يعني أن الناس تعتمد وتثق بالبضاعة الأجنبية ولكنهم لا يعتمدون على منتجاتهم، والأجانب يسعون دائماً في خط التطور العلمي ويبدلون الجهود الكبيرة في سبيل التقدم والإزدهار، في حين أن الكثير من الشعوب الإسلامية يعيشون الغفلة وحالة الاسترخاء والتكاسل وكأنهم نيام، وهذا الأمر مؤلم جداً ومؤسف.

وقد ورد في الحديث الشريف أن زياد بن ليبيد جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «أمرأ ثم أضاف شيئاً وقال:

«ذَلِكَ عِنْدَ أَوَانِ ذِهَابِ الْعِلْمِ»، فقلنا:

وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا وأبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال:

«تَكَلَّفَكَ أَمَّكَ يَا زِيَادُ! إِنَّ كُنْتُ لِأَرَاكَ أَفْضَلَ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ، أَوْلَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَأُونَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَلَا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهَا» (١). يعني اخشوا يوماً تكونوا مثلهم.

وقد وردت تعبيرات في غايه الأهميه فيما يتصل بأهميه القرآن الكريم في النصوص القرآنيه والروايات الإسلاميه، فنقرأ في خطب نهج البلاغه كلاماً مطولاً وعميقاً في هذا الشأن وقد سبق أن ذكرناه في البحوث السابقه، ولكننا نكتفي هنا بذكر مقطع من الخطبه ١٨٢ التي أوردناها في الجزء السابع من هذا الكتاب، وأن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يتأسف ويتأوه على فراق إخوته وأحبته ويذكرهم بهذه العبارات:

«أَوْهَ عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَّوْا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ وَتَدَبَّرُوهُ الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ أَحْيَاؤَ السُّنَّةِ وَأَمَّا تُوَا الْبِدْعَةَ دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ» (٢).

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه في هذه الوصيه ويتحدّث في التوصيه الرابعه عن الصلاه ويبيّن أهميتها ويقول:

«وَاللَّهِ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ».

وقد ورد هذا التعبير بعمود الدين بشكل واسع في روايات المعصومين عليهم السلام ومن

ص: ٢١٦

١- (١). بهج الصباغه، ج ١١، ص ٨٠.

٢- (٢). نهج البلاغه، الخطبه ١٨٢.

ذلك ما ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إِنَّ عَمُودَ الدِّينِ الصَّلَاةُ وَهِيَ أَوْلُ مَا يُنْظَرُ فِيهِ مِنْ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ فَإِنْ صَحَّتْ نُظِرَ فِي عَمَلِهِ وَإِنْ لَمْ تَصِحَّ لَمْ يُنْظَرُ فِي بَقِيَّةِ عَمَلِهِ» (١).

ويبين الإمام الباقر عليه السلام هذا المعنى بشكل واسع ويقول:

«الصَّلَاةُ عَمُودُ الدِّينِ مِثْلُهَا كَمِثْلِ عَمُودِ الفُسْطَاطِ إِذَا ثَبَتَ العَمُودُ ثَبَتَتِ الأُوتَادُ والأَطْنَابُ وَإِذَا مَالَ العَمُودُ وَانْكَسَرَ لَمْ يَثْبُتْ وَتَدُّ وَلا طُنْبُ» (٢).

والدليل على ذلك أن الصلاة تربط الإنسان بالبارئ تعالى وتقوى فيه العلاقة بينه وبين ربه وتحبب فيه روح التقوى والإيمان، ومن هنا فإنها تردع الإنسان من اقتراف الفحشاء والمنكرات وتمنحه القدرة والقوة على الإتيان بسائر الطاعات والعبادات الأخرى، ومن هذه الجهة تبقى خيمه الدين منصوبه في حياة الإنسان المعنوي، وأما ترك الصلاة فإنه يقود الإنسان إلى نسيان الله، والغفلة عنه ومن يغفل عن الله تعالى فإنه يتلوث بكل عمل قبيح.

ثم يبين الإمام عليه السلام في التوصية الخامسة أهميته الحج إلى بيت الله، ويقول:

«وَاللَّهِ اللَّهُ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ، لَأَتَخَلُّوهُ مَا بَقِيْتُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تَرَكَّ لَمْ تُنَاطَرُوا».

وذكر بعض شراح نهج البلاغه أن جملة

«لَمْ تُنَاطَرُوا» إشاره إلى ابتعادكم عن نظر اللطف الإلهي بسبب عدم اهتمامكم ببيته، أو ابتعادكم عن نظره تعظيم الناس لكم، بسبب تفرق المسلمين وضعفهم فيما لو تركوا البيت الحرام، ولكن الظاهر أن المراد من التناظر في هذه العبارة هو الإمهال، وذلك إشاره إلى أن المهلة الإلهية ستنتفضى وسيحل عليكم العذاب (٣).

ص: ٢١٧

١- (١) التهذيب، ج ٢، ص ٢٣٧، ح ٥.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ٢١٨، ح ٣٦.

٣- (٣) ذكر المرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ٢٥١، وجماعه من شراح نهج البلاغه معنى الجملة كما ذكرناه في المتن، وبهذا المعنى ورد في مجمع البحرين، ولكن جماعه من الأكابر كالفيض الكاشاني في الوافي، والمحقق السبزواري في ذخيره المعاد، والسيد أحمد العاملي في مناهج الأخيار في شرح الاستبصار فسروا جملة: «لم تناظروا» بمعنى «لم تمهلوا».

ونقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«لَا يَزَالُ الدِّينُ قَائِمًا مَا قَامَتِ الكَعْبَةُ» (١).

والروايات الشريفه التي تتحدّث عن أهميه الحج وزياره بيت الحرام إلى درجه من الكثره والاستفاضه أنها خارجه عن إطار هذا المختصر، فنكتفي هنا بذكر جملة واحده من هذه الروايات كخاتمه لهذا البحث:

يقول أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام: قلت لأبي عبدالله: إن رجلاً استشارني في الحج وكان ضعيف الحال (من الجهه المائيه أو البدنيه) فأشرت إليه أن لا تحج، فقال عليه السلام:

«مَا أَخْلَقَكَ (٢) أَنْ تَمْرُضَ سَنَّهُ»، قَالَ: فَمَرَضْتُ سَنَّهُ (٣).

حكى عن رجل السياسه في بريطانيا ويدعى (غلاستون) أنه قال: مادام المسلمون يقرأون القرآن ويطوفون بالكعبه ويذكروا اسم محمّد كلّ صباح ومساء على المآذن، فإن النصرانيه في خطر محقق، فعليكم أن تحرقوا القرآن وتهدموا الكعبه وتمحو اسم محمّد من الآذان.

وفي التوصيه السادسه يقول الإمام عليه السلام:

«وَاللّٰهُ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ».

والمراد من الجهاد بالأنفس، الحضور في ميادين القتال والتصدي لأعداء الإسلام والمسلمين للحفاظ على الإسلام والبلدان الإسلاميه في مقابل تحديات الأعداء وعدوانهم، وأمّا الجهاد بالأموال فيتمثل بالمساعدات الماديه والمائيه لتعبئه الجيوش الإسلاميه في الأزمنه القديمه ومدّها بالمؤن والعتاد اللازم، وفي هذا العصر يشمل الجهاد بالأموال جميع أشكال المساعدات فيما يتصل بالأمور الثقافيه والاجتماعيه

ص: ٢١٨

١- (١). الكافي، ج ٤، ص ٢٧١.

٢- (٢) ورد في بعض نسخ الوسائل «ما أخلفك».

٣- (٣) الكافي، ج ٤، ص ٢٧١، ح ١.

والاقتصاديّ لتقويه دعائم الإسلام في واقع المجتمعات الإسلاميّه، وأمّا الجهاد باللسان فيتمثل بالدفاع المنطقي والخطاب العقلاني والتبليغ المستمر لنشر تعاليم الإسلام وأحكامه، واليوم يستفاد في هذا السبيل من جميع وسائل الارتباط الجمعي في العالم والأجهزه الحديثه في هذا الشأن.

ويعتبر الجهاد قانوناً عاماً في عالم الطبيعه، لأنّ جميع الموجودات الحيّه، سواءً من النباتات أو الحيوانات والأحياء الأخرى تتحرك في مواجهتها للموانع والمعيقات بأليه الجهاد لتستمر في حياتها وتزيح المعيقات من أمامها.

وفي طبيعه الخلقه في هذا العالم، فإنّ كلّ موجود يستبطن في ذاته آفه ونقصاً، ولو لم يناضل ويكافح من أجل التغلب على تلك الآفه فإنّه سرعان من يصيبه العطب ولا يمكنه الاستمرار في حركه التكامل وإدامه الحياه.

إنّ جذور الأشجار، ولغرض الحصول على الماء والغذاء، تتجه دائماً إلى أعماق الأرض، وعند وصولها إلى مانع كالحجر فإنّها تحاول النفوذ فيه وتحطيمه أو الالتفاف عليه والاستمرار في حركتها، وأحياناً نرى أنّ الجذور الرقيقه للنباتات تنفذ إلى الموانع الصلبه وحتى الفولاذيه وتثقبها.

ولا- نبتعد كثيراً فإنّ أبداننا تعيش حاله الجهاد في الليل والنهار، لأنّ الميكروبات تنفذ إلى البدن من أربع طرق: الماء، الهواء، والغذاء، والجلد (في حال وجود جرح أو خدش)، فلولا وجود القوى الدفاعيه للبدن المتمثله في خلايا الدم البيضاء وتصديها لهذه الميكروبات فربّما يصاب الإنسان في يوم واحد بأنواع الأمراض والأسقام، ولكنّ هذا الجهاد الصامت والعميق هو الذي يحفظ لنا سلامتنا وصحتنا.

والمجتمعات التي لا تتحرك في خط الجهاد والتصدي للأعداء فإنّها ستواجه في مدّه قصيره الهلاك والفناء، أو تنحدر نحو الضعف والذله والمهانه.

ونقرأ في حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مَنْ تَرَكَ الْجِهَادَ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ذُلًّا وَفَقْرًا فِي مَعِيشَتِهِ وَمَحَقًّا فِي دِينِهِ» ثم قال:

«إِنَّ اللَّهَ أَعَزُّ أُمَّتِي بِسَنَابِكِ خَيْلِهَا وَمَرَائِرِ

ونقرأ في حديث آخر عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال:

«وَاللَّهِ مَا صَلَّحْتُ دُنْيَا وَلَا دِينَ إِلَّا بِهِ (بالجهاد)»(٢).

وبالنسبة لأهميته الجهاد فقد تحدّثنا في البحوث السابقة عن هذا الموضوع، ومن ذلك ما ورد في ذيل الخطبه ٢٧ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

ثم يواصل الإمام عليه السلام توصياته لبنينه وشيعته ويأمرهم بأربعة أمور مهمّة، ويقول في البيان الأوّل والثاني:

«وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَادُلِ».

ثم يطرح البيان الثالث والرابع ويقول:

«وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابِيرَ وَالتَّقَاطُعَ».

«تواصل» من ماده «وصل»، ويشمل كلّ أشكال الإرتباط المعنوي والمادى والعقلانى والعاطفى، أمّا «تبادل» فهو من ماده «بذل» وهو من قبيل ذكر الخاص بعد العام، لأنّ إحدى طرق تمتين العلاقة بين أفراد المجتمع الواحد، البذل والمعونات الماديه للمحتاجين والإنفاق على الآخرين بما يحقق لأفراد المجتمع التكاتف وتوثيق العلاقة فيما بينهم.

«تدابير» من ماده «دبر» (على وزن عبد) يعنى الإعراض عن الآخر إظهاراً للكراهيه والعداوه، لأنّ المعرض عن الآخر يعطيه ظهره، و«تقاطع» يراد به كلّ أشكال قطع العلاقة مع الآخرين، وهاتان المفردتان تقعان على الضد من المفردتين الأوليتين وهما من قبيل ذكر الخاص بعد العام، لأنّ التدابير يعنى الانفصال الكامل، والتقاطع يشمل كلّ نوع من قطع الرابطة.

إنّ مسأله توثيق علائق المودّه والمحبه بين الأفراد تاره تكون باللسان وأخرى عن طريق اللقاءات والزيارات المتبادله، وهى مسأله فى غاية الأهميه فى التعاليم الإسلاميه، كما أنّ الكراهيه والتنافر وقطع العلاقات مذموم فى نظر الإسلام، وقد

١- (١) تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ١٢٣، ح ٨.

٢- (٢) الكافى، ج ٥، ص ٨، ح ١١.

وردت أحاديث كثيرة في ذم الهجران والتنافر في المنابع الروائية المعتبرة، وأحياناً يشعر القارىء لها بقشعريره لشده مضامينها.

وقد أورد المرحوم الكليني في كتاب «الكافي» حديثاً شريفاً عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أَيُّمَا مُسْلِمِينَ تَهَاجَرَا فَمَكَثَا ثَلَاثًا لَا يَصِيحُ طَلِحَانِ إِلَّا كَانَا خَارِجِينَ مِنَ الْإِسْلَامِ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا وَلَايَةٌ فَأَيُّهُمَا سَبَقَ إِلَيَّ كَلَامِ أَخِيهِ كَانَ السَّابِقَ إِلَيَّ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْحِسَابِ» (١).

ونقرأ في هذا الكتاب أيضاً روايه عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«لَا يَزَالُ إِبْلِيسُ فَرِحًا مَا اهْتَجَرَ الْمُسْلِمَانِ فَإِذَا التَّقِيَا اضْطَكَّتْ رُكْبَتَاهُ وَتَخَلَّعَتْ أَوْصَالُهُ وَنَادَى يَا وَيْلَهُ مَا لَقِيَ مِنَ الثُّبُورِ» (٢).

بل يمتد الأمر إلى أبعد من ذلك، فالشخص الذي يرى نفسه مظلوماً وأن الطرف الآخر ظالم له يجب عليه أيضاً السعى لتطوير الرابطة معه والسعى للتصالح وإزالة غبار وافرازات الظلم، كما نقرأ هذا في حديث آخر في كتاب «الكافي» عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«لَا يَفْتَرِقُ رَجُلَانِ عَلَى الْهَجْرَانِ إِلَّا اسْتَوْجَبَ أَحَدُهُمَا الْبُرَاءَةَ وَاللَّعْنَةَ وَرُبَّمَا اسْتَحَقَّ ذَلِكَ كِلَاهُمَا فَقَالَ لَهُ مُعْتَبٌ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ هَذَا الظَّالِمُ فَمَا بَالُ الْمَظْلُومِ قَالَ لِأَنَّهُ لَا يَدْعُو أَخَاهُ إِلَى صِلَتِهِ» (٣).

وهذه إشاره إلى لزوم التحرك على مستوى حل المشكله بصوره سلميه ومنطقيه فيما بينهما.

ثم إن الإمام عليه السلام يشير إلى التوصيه التاسعه والعاشره في كلامه يقول:

«لَا تَتْرُكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُؤَلَّى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ».

ص: ٢٢١

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ٣٤٥، ح ٥.

٢- (٢) المصدر السابق، ص ٣٤٦، ح ٧.

٣- (٣) المصدر السابق، ص ٣٤٤، ح ١.

هنا ربّما يطرح هذا السؤال نفسه: هل هناك رابطه معنويّه وغيبّيّه بين حكمومه الأشرار وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أم توجد رابطه ظاهرّيّه وملموسه بينهما؟

الظاهر أنّه من الممكن إثبات العلاقة بينهما بصوره منطقيّته، لأنّ أحد المصاديق المهمّه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تتمثّل في التصدي لقوى السلطه والحكومه فيما لو إرتكبوا مخالفات شرعيه ودستوريه، فيجب على عامّه الناس تذكيرهم بواجباتهم ومطالبتهم للحكّام العمل وفق مقتضيات العدل والشرع، فلو أنّ الناس تركوا هذين الأمرين ووجد الحكّام أنفسهم أحراراً في ما يتصرفون وفيما يسلكون دون أي اعتراض من أحد عليهم، فذلك من شأنه أن يزيدهم جرأه وجساره على التوغّل في خط الانحراف والظلم، وبالتالي يتسلط الأشرار على المجتمع الإسلامي.

ولكن لماذا لا يستجاب الدعاء لرفع شرّ حكّام الجور والشرّ؟ فذلك لما ورد في الروايات الإسلاميّه أنّ المصيبه والبلاء إذا كان بسوء اختيار الإنسان نفسه وتقصيره، فالدعاء لرفعه لا يكون مستجاباً ويقال له: هذه نتيجه أعمالك، لماذا تصرفت مثل هذا التصرف وارتكبت العمل الفلاني الذي تسبب لك بهذه العاقبه السيئه؟

والملفت للنظر ما ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليهما السلام أنّ الأختيار أيضاً في مثل هذه الظروف إذا دعوا لا يستجاب لهم:

«فَيَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ» (١).

تأمل

أهميه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وردت بحوث كثيره وموسعه في النصوص القرآنيّه والروايات الشريفه بالنسبه لأهميه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونكتفي هنا بذكر روايتين في هذا الشأن:

جاء في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال:

«إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ

ص: ٢٢٢

الْمُنْكَرِ سَبِيلُ الْأَنْبِيَاءِ وَمِنْهَا جُ الصُّلَحَاءِ فَرِيضَةُ عَظِيمَةٌ بِهَا تُقَامُ الْفَرَائِضُ وَتَأْمَنُ الْمِذَاهِبُ وَتَحِلُّ الْمَكَاسِبُ وَتُرَدُّ الْمَظَالِمُ وَتُعْمَرُ الْأَرْضُ وَيُنْتَصَفُ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَيُسْتَقِيمُ الْأَمْرُ» (١).

وجاء في ذيل هذا الحديث أنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى شعيب النّبي عليه السلام أنّي معذب من قومك مائه ألف نفر، أربعين ألفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم، فقال شعيب عليه السلام: ياربّ هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: «دَاهَنُوا أَهْلَ الْمَعَاصِي وَلَمْ يَعْصُوا لِعَظْمِي» (٢).

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ خَلْقَانِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ فَمَنْ نَصَرَهُمَا أَعَزَّهُ اللَّهُ وَمَنْ خَذَلَهُمَا خَذَلَهُ اللَّهُ» (٣).

والتعبير بـ «خلقان» في الواقع نوع من التشبيه، ويحتمل أيضاً أن يكون المراد منه الخلق (بضم الخاء) ويعنى الخصلة في ذات الإنسان، ولكنّ هذا الاحتمال بعيد ظاهراً بقريته ما ورد في ذيل الحديث.

وعلى أيّ حال فإنّ مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأمور التي أكّدت عليها التعاليم السماوية وعمل بهذه الوظيفة الأنبياء والأولياء الإلهيين وقد أمروا جميع الناس بأداء هذه الوظيفة الشرعية.

وفي ختام هذا المقطع من هذه الوصية، لأبدّ من الإعتراف بصراحته أنّ هذه التوصيات العشر المذكورة أعلاه لو تجسدت في حياة المسلمين على مستوى التطبيق والممارسة فإنّها تضمن لهم العزّة والقدرة والرفعة في الدنيا، والسعادة الأبدية في الآخرة ولا يتوقع من شخصيته نموذجيه كأمير المؤمنين عليه السلام في وصيته وهو على فراش الشهادة غير هذه التوصيات التي تتضمن سعادته الدنيا والآخرة للمسلمين.

ص: ٢٢٣

١- (١) الكافي، ج ٥، ص ٥٥، ح ١.

٢- (٢) المصدر السابق.

٣- (٣) المصدر السابق، ص ٥٩، ح ١١.

ثُمَّ قَالَ:

يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَأُفِينَنَّكُمْ تَخَوُّضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضًا، تَقُولُونَ: «قَتَلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ». أَلَا لَاتَقْتُلَنَّ بِي إِذَا قَاتَلِي. انظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ، فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَهُ بِضَرْبِهِ، وَلَا تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالْمُثَلَّةَ وَلَوْ بِالْكَلبِ الْعَقُورِ».

الشرح والتفسير: توصيه الإمام عليه السلام المؤكده حول قاتله!

في هذا المقطع الأخير من هذه الوصية يتوجه الإمام عليه السلام بكلامه نحو أقربائه وأرحامه من أبناء عبدالمطلب ويوصيهم بثلاثه أمور مهمه فيما يتصل بقاتله، وهذا يعكس عظمه الإمام عليه السلام وسعه صدره تجاه أعدائه ومناوئيه.

بدايه يقول:

«ثُمَّ قَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَأُفِينَنَّكُمْ (١) تَخَوُّضُونَ (٢) دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضًا، تَقُولُونَ: «قَتَلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ». أَلَا لَاتَقْتُلَنَّ بِي إِذَا قَاتَلِي».

ومثل هذه المسأله تحدث كثيراً على إمتداد التاريخ، عندما يقتل زعيم كبير أو ملك من الملوك فإن جماعه من أتباعه يسلكون سبيل التعصب والانتقام ويقومون بمجزره كبيره، وجماعه أخرى تغتنم الفرصه لتسويه حسابتهم الشخصيه من

ص: ٢٢٥

١- (١). «ألفينكم» من ماده «لفو» على وزن «لهو» فى الأصل بمعنى فصل الشىء عن غيره، مثل فصل اللحم عن العظم، والفاء هنا بمعنى العثور على الشىء فجأه.

٢- (٢) «تخوضون» من ماده «خوض» فى الأصل بمعنى الغمس فى الماء، ثم اطلقت على الدخول العميق والتوغل فى كل شىء حتى فى البحوث العلميه.

مخالفيهم فيكثروا فيهم القتل وسفك الدماء بهذه الذريعة، كما ورد في التاريخ الإسلامي عندما قام أتباع الخليفة الثاني بعد مقتله على يد أبي لؤلؤة بالانتقام له من ذويه وأقربائه وقتلوا عدداً منهم، وكذلك عندما قتل مصعب بن الزبير أخا عبيدالله بن زياد، فنذر عبيدالله أن يقتل مائه نفر من قريش، فقتل منهم ثمانين نفر، ثم أخبروه بأن مصعب قد قتل ثم بعث برأسه إلى عبدالمملك، فهدأت نفسه حينذاك (١)، ولكن الإمام عليه السلام برؤيته الحكيمه وأفقه الواسع وقف أمام هذا العمل، ولذلك لم تحدث بعد استشهاده تسويه حسابات شخصيته باسمه ولم يتعرض المجتمع في ذلك الوقت لمثل هذه الحوادث الداميه والفوضى المدمره.

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه مع أقربائه ويصدر الأمر الثاني لهم ويقول:

«انظروا إذا أنا متُّ من صرْبتي هذه، فأضربوه صرْبته بصرْبته».

والملفت للنظر أن الإمام عليه السلام يوصى بإقامه العدل بالنسبه لقاتله حتى في كيفية القصاص، لئلا يتحرك شيعته بدافع التأثر الشديد على مقتله ويعاملون قاتله بالقتل الفجيع والمثله ولا يكتفوا بالقصاص العادل.

وقد سبق وأن قرأنا في الكتاب رقم ٢٣ أن الإمام عليه السلام يقول:

«إِنْ أَبَقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي وَإِنْ أَفَنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي وَإِنْ أَعَفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ فَاعْفُوا أَلَّا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ».

ونستوحى من هذه العبارات أن الإمام عليه السلام كان راغباً في العفو عن قاتله ولكن الظروف والمستجدات في ذلك المحيط الاجتماعي لا تسمح قطعاً بالعفو عن القاتل، ولذلك يوصى الإمام عليه السلام هنا بالحد الأدنى من القصاص.

والجدير بالذكر ما ورد في «تاريخ الطبري» وكذلك في «الكامل» لابن الأثير، أن قاتل الإمام على عليه السلام، عبد الرحمن بن ملجم قال قبل استشهاد الإمام عليه السلام: شحذته - سيفي هذا - أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه، فقال الإمام عليه السلام له:

ص: ٢٢٤

١- (١). انظر: شرح نهج البلاغه، للعلامة التستري، ج ١١، ص ٨٧.

«أَنْتَ أَشَقَى خَلَقِ اللَّهِ وَقَدْ قَتَلْتَ نَفْسَكَ بِسَيْفِكَ» (١).

ثم يوصى الإمام عليه السلام بوصيته الثالثة والأخيرة ويقول:

«وَلَا تَمَثَّلُوا (٢) بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالْمُثَلَّةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ» (٣).

إن المثلثة بوصفها حاله إنتقاميه وغير إنسانيه كانت متداوله في عصر الجاهليته، ولذلك قام العرب المشركون في معركة احد بقتل حمزه سيد الشهداء وعم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث لم يكتف العدو بقتله بل شق صدره بوحشيته وقساوه فظيعة وأخرج كبده أو قلبه وقطع اذنه وأنفه، وعندما شاهد رسول الله صلى الله عليه وآله شهادة عمه حمزه بن عبدالمطلب، تألم لذلك كثيراً وقال:

«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ وَإِلَيْكَ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا أَرَى» ثم قال:

«لَيْنَ ظَفَرْتُ لِأُمْتَلِنَ وَلَا مِثْلَنَ وَلَا مِثْلَنَ» وعلى روايه أخرى أنه قال:

«لَأُمْتَلِنَنَّ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ» فنزلت الآية: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ» (٤)، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أصبرُ أصبرُ» (٥) (يعنى ولا أنتقم).

ونعلم جيداً أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بعد فتح مکه كان يملك القدره الكامله على الانتقام من أعدائه والمجرمين بأشد أنواع الانتقام ولكنه أثر العفو والصفح عنهم، أضف إلى ذلك ما ورد في حديث عن أحد الصحابه أنه قال:

«مَا حَطَبْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حُطْبَةً أَبَدًا إِلَّا أَمَرْنَا فِيهَا بِالصَّدَقَةِ وَنَهَانَا عَنِ الْمُثَلَّةِ» (٦).

ص: ٢٢٧

١- (١) تاريخ الطبرى، ج ٤، ص ١١١؛ الكامل، لابن الأثير، ج ٣، ص ٣٩٠.

٢- (٢) . «تمثلوا» من ماده «مثل» على وزن «أصل» بمعنى قطع وفصل أعضاء البدن فى العقوبه.

٣- (٣) «عقور» بمعنى المتوحش والهارى، وهى صيغه مبالغه من ماده «عقر» على وزن «عقد» بمعنى إصابته بجرح، وهذه المفرده تستخدم غالباً فى الكلاب، ولكن أحياناً تطلق على حيوانات أخرى.

٤- (٤) . سورة النحل، الآية ١٢٦.

٥- (٥) التفسير الأمثل، ذيل الآية ١٢٦ من سورة النحل، نقلاً عن تفسير العياشى والدر المنثور والميزان.

٦- (٦) بحار الأنوار، ج ١٠١، ص ٢١٦، ح ٤.

بدايه لا يبد من الإشاره فى شأن صدور هذه الرساله كما ذكر ذلك صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه وأن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فى أحد أيام معركة صفين حيث اشتد فيه القتال، وضع عمامه رسول الله صلى الله عليه وآله على رأسه وقال: أيها الناس من أراد أن يتعامل مع الله فى هذا اليوم فليستعد، فقام معه عشره آلاف نفر أو أكثر فاستعدوا للقتال مع الإمام، ثم إن الإمام عليه السلام قرأ أبياتاً من الشعر الحماسى وهجم على جيش الشام، وكذلك حمل من معه حمله رجل واحد وشقوا صفوف جيش الشام، فعندما رأى معاويه هذا الحال ركب جواده واستعد للفرار، ولكن عمرو بن العاص أوصاه بأن يرفع المصاحف على الرماح ويدعو جيش الإمام عليه السلام بالخضوع لحكم القرآن،

١- (١). سند الرساله: ذكر هذه الرساله نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، وكذلك نقلها نصر بن مزاحم فى كتابه عن ابن ديزيل وكلاهما كان يعيشان قبل السيد الرضى، وكذلك ذكر أحمد بن أعثم الكوفى فى كتاب الفتوح وكان أيضاً قبل السيد الرضى وأوردها بشكل أكثر تفصيلاً مما أورده السيد الرضى، وهذا يشير إلى وجود مصدر آخر لهذه الرساله. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٨٣ و ٣٨٤).

وهذا الأمر أدى إلى وقوع الاختلاف في صفوف جيش العراق، وفي ذلك الوقت كتب معاوية كتاباً للإمام علي عليه السلام وخلاصته: لقد طالت بنا الحرب وكل واحد منا يرى الحق بجانبه، وقد قتل جماعه كثيره من الناس وإني أخاف أن يكون المستقبل أسوء من ذلك وسنكون غداً مسؤولين أمام الله عن هذا الأمر، فإننا أدعوك لما فيه صلاح الأمة وحفظ دمائها ودفع الفتنة والعداوة، وذلك أن نختار رجلين ممن نرضاها لأمر التحكيم أحدهما من أنصاري والآخر من أنصارك ليحكموا طبقاً لحكم الله فاتق الله وارض بحكم القرآن والسلام.

فكتب إليه الإمام عليه السلام في مقام الجواب هذه الرساله، التي تشتمل على نصائح لمعاوية وتحذيره من عاقبه أعماله التي ستقوده للندم والخسران، وهذه هي عاقبه كل من سار في خط الشيطان وأذعن لدعوته وسلم زمام أموره بيده.

وفي القسم الآخر من هذه الرساله، يعلن الإمام عليه السلام قبوله بمسأله حكميه القرآن، لا من أجل دعوه معاويه، بل بسبب عظمه القرآن وحرمة.

ص: ٢٣٠

وَإِنَّ الْبُغْيَ وَالزُّورَ يُوتِغَانِ الْمَرْءَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيُبْدِيَانِ خَلْلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعِيبُهُ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ، وَقَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْرًا بِغَيْرِ الْحَقِّ فَتَأَلَّوْا عَلَى اللَّهِ فَأَكْذَبَهُمْ، فَاحْذَرُوا يَوْمًا يَغْتَبِطُ فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ عَاقِبَةَ عَمَلِهِ، وَيَنْدَمُ مَنْ أَمَّكَ الشَّيْطَانُ مِنْ قِيَادِهِ فَلَمْ يُجَادِبْهُ. وَقَدْ دَعَوْتَنَا إِلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَسْنَا إِيَّاكَ أَجْبِنًا، وَلَكِنَّا أَجْبِنَا الْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: نصيحة جامعه معاويه

يشير الإمام عليه السلام في هذه الرسالة الموجزه والعميقه المعنى إلى عدّه نقاط مهمّه ذكر بها معاويه بأنّه إذا استمع لنصيحه الإمام عليه السلام من كلّ قلبه وتحرك على مستوى العمل لتطبيقها فإنّه لم يكن ليحدث كلّ هذا الفساد في العالم الإسلامى وسوف لا يتسنى لشجره بنى اميه المشؤومه فى النمو والرشد فى البلاد الإسلاميه المقدسه.

بدايه يتحدّث الإمام عليه السلام فى نصيحته بشكل عام ويقول:

«وَإِنَّ الْبُغْيَ وَالزُّورَ (١) يُوتِغَانِ (٢) الْمَرْءَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيُبْدِيَانِ خَلْلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعِيبُهُ».

أجل، لا شىء أشنع وأسوء من الظلم والكلام الباطل، لأنّه يخدع الإنسان ويوقعه

ص: ٢٣١

١- (١). «الزور» على وزن «كور» فى الأصل من ماده «زور» على وزن «غور» وتعنى القسم العلوى من الصدر، ثم اطلقت على كل شىء ينحرف عن الحد الوسط، وبما أنّ الكلام الباطل منحرف عن الحق يقال له «زور»، وشهادته الزور تعنى شهادته الكذب والباطل.

٢- (٢) «يوتغان» من ماده «وتغ» على وزن «وجب» بمعنى هالك وفساد، وعندما تأتى من باب الأفعال تعنى إهلاك وإفساد.

فى وداى الهلكه والمتاهه بحيث لا طريق له للعوده للإيمان والصلاح وبالتالي سيخسر دينه ودنياه، وسيفتضح لى عامه الناس ويعرفونه بالفساد والإفساد.

وفى النقطه الثانيه يقول الإمام عليه السلام:

«وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ».

يعتقد الكثير من شراح نهج البلاغه أنّ هذه الجملة إشاره إلى مطالبه معاويه بدم عثمان، لأنّ الأشخاص الذين رجحوا السكوت وتركوا نصره عثمان فهم شركاء فى قتله، ولكنهم ومن أجل التشويش على العوام وتحميقهم والتوصل إلى مآربهم الدينيه رفعوا لواء الثأر لدم عثمان وطلبوا من الإمام عليه السلام أن يسلمهم قتله عثمان ليقتصوا منهم، ولكن الإمام عليه السلام يقول: إنك بهذا العمل لن تصل إلى مقصودك وأنت وأعوانك شركاء فى قتل عثمان ولا يمكنكم المطالبه بدمه والقصاص من قتلته.

ويحتمل أيضاً فى معنى هذه العبارة أنّ المراد من جمله

«مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ»، هو حكمه الشام التى يطالب بها معاويه من الإمام عليه السلام، فالإمام عليه السلام يقول: إننى لا أسمح لك أبداً بتولى حكمه الشام، والشاهد على هذا الاحتمال ما ورد سابقاً فى رساله رقم ١٧.

وهناك احتمال آخر أيضاً طرحه بعض الشراح فى هذا المورد، وهو أنّ الإمام عليه السلام يقول: أنت لن تصل إلى مرادك من الدنيا وأنّ حكومتك مع ما فيها من الحوادث والمشكلات ستمر بسرعه وتقودك إلى الهلكه، والشاهد على هذا المعنى ما أورد بعض المؤرخين فى نقلهم لهذه الرساله من جمله قبل هذه الجملة حيث يقول الإمام عليه السلام فيها:

«فَاخَذَرِ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ لَأَفْرَحَ فِي شَيْءٍ وَصَلَّتْ إِلَيْهِ مِنْهَا وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ...»(١).

ثمّ يشير الإمام عليه السلام فى النقطه الثالثه من رسالته محدراً معاويه لينتبه من غفلته ويقول:

«وَقَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْرًا بَغَيْرِ الْحَقِّ فَتَأَلَّوْا(٢) عَلَى اللَّهِ فَأَكْذَبَهُمْ».

ص: ٢٣٢

١- (١) انظر: بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٥٣٧.

٢- (٢) «تألوا» من ماده «ألى» على وزن «عطيه» بمعنى القسم واليمين، وعندما تأتى من باب تفعل (كما فى مورد البحث) تعنى صدور القسم من الطرفين، وفى بعض نسخ نهج البلاغه ورد كلمه «تألوا» بدلاً من هذه المفرده، وهنا تعنى التفسير بالرأى، يعنى أنّ جماعه ولغرض التوصل إلى غاياتهم يأولون آيات القرآن وفقاً لميولهم وأهوائهم النفسانيه.

ويرى أغلب شرّاح نهج البلاغه أنّ هذه الجملة إشارة إلى طلحه والزبير وأنصارهما الذين أشعلوا نار حرب الجمل للتوصل إلى مقام الخلافه وسده الحكم، فهؤلاء تعاهدوا فيما بينهم بأنهم لا يتركوا هذا الأمر حتى يحصلوا على حكمه البصره وإن استطاعوا أكثر من ذلك فإنهم يوسعون سلطانهم على المناطق الأخرى، ولكنهم بأجمعهم أخفقوا فى تحقيق مبتغاهم وقد قتل زعمائهم وانهزم الباقون، أمّا عائشه التى كانت من قادة هذه الفتنة والحرب، فقد عفى عنها الإمام عليه السلام وعادت إلى المدينه فى حاله الخجل والندم، وعلى ضوء ذلك فإنّ جملة »

فَأَكْذَبُھُمْ»، تعنى أنّ الله تعالى فضحهم وأكذب احدوئتهم وأبرز خديعتهم.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام فى النقطه الرابعه يحدّر معاويه ويذكّره بقيام الساعه وأنّه سيرى عاقبه أمره وأعماله فى ذلك اليوم، يقول:

«فَأَحْذَرُ يَوْمًا يَغْتَبِطُ (١) فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ (٢) عَاقِبَةَ عَمَلِهِ، وَيَنْدَمُ مَنْ أَمَكَنَ (٣) الشَّيْطَانَ مِنْ قِيَادِهِ (٤) فَلَمْ يُجَازِبْهُ».

أجل، فى ذلك اليوم يفرح الصالحون ويغتبط المؤمنون، ولكنهم فى الوقت نفسه يتأسفون على ما فاتهم من أيام وساعات لم يعملوا فيها عملاً صالحاً ولم يزدادوا من الصالحات والخيرات، أمّا الأشرار فإنهم سيعيشون الندم الشديد بسبب إرتكابهم للسيئات ولما يروونه أمام أعينهم من عذاب أليم على ما إجترحوه فى الدنيا.

ويطلق القرآن الكريم على يوم القيامه بأنّه «يوم الحسره» ويقول: «وَأَنْذِرْھُمْ يَوْمَ

ص: ٢٣٣

١- (١) . «يغتبط» من ماده «غبطه» وتعنى الفرح والسرور، وأحياناً تأتي بمعنى الحسد، (ولكن ليس الحسد بمعنى السلبي يعنى تمنى سلب النعمه من الآخر، بل بمعنى الحصول على النعمه التى حصل عليها الآخرون).

٢- (٢) «أحمد» من ماده «حمد» بمعنى من يليق للمدح والثناء.

٣- (٣) «أمكن» من ماده «إمكان» وهنا جاءت بمعنى التسهل وتوفير وسائل العمل، وبالتالي السيطرة على الشىء أو الشخص.

٤- (٤) «قياد» تعنى اللجام، من ماده «قياده» أى الرئاسه والزعامه.

الْحَسْرَةَ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ»(١).

ويقول في الآية ٥٤ من سورة يونس: «وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ».

وقد ورد في بعض نسخ نهج البلاغه كلمه «يغتبط» بصوره مبنى للمجهول وتعنى أن الصالحين سيقعون مورد غبطه الآخرين، وهذا التعبير أنسب مع مفهوم الغبطه.

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه بعد النصائح المثيره ويبيّن الهدف الأصلي من هذه الرساله ويقول:

«وَقَدْ دَعَوْتَنَا إِلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَسْنَا إِيَّاكَ أَجَبْنَا، وَلَكِنَّا أَجَبْنَا الْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ، وَالسَّلَامُ».

ومعلوم أن معاويه لم يكن من أهل القرآن، والشواهد التاريخيه تدلّ على أنه لم يكن يؤمن بالقرآن إيماناً سليماً، بل كان يتخذ القرآن وسيله للخلاص من الهزيمه القطعيه والتوصل إلى أهدافه وغاياته المشؤومه.

جاء في كتاب «صفين»: عندما رفع أهل الشام المصاحف على الراح، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي أَحَقُّ مَنْ أَجَابَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَلَكِنَّ مُعَاوِيَةَ وَعَمْرُو بْنَ الْعَاصِ وَإِبْنِ أَبِي مُعَيْطٍ وَحَبِيبَ بْنَ مُسْلِمَةَ وَإِبْنَ أَبِي سَيْرِجٍ لَيْسُوا بِأَصْحَابِ دِينٍ وَلَا قُرْآنٍ إِنِّي أَعْرَفُ بِهِمْ مِنْكُمْ صَحْبَتَهُمْ أَطْفَالاً وَصَحْبَتُهُمْ رِجَالاً فَكَانُوا شَرَّ أَطْفَالٍ وَشَرَّ رِجَالٍ»(٢).

ويتبيّن من هذه العبارة أن الإمام عليه السلام لم يكن راضياً بمثل هذا التحكيم الكاذب للقرآن الكريم، ولكن جماعه من أنصاره وأتباعه الجهله فرضوا على الإمام عليه السلام هذه القضيه، وعندما شاهدوا العاقبه السيئه لهذا التحكيم ندموا على ذلك، والعجيب أنهم اعترضوا على الإمام لقبوله أمر التحكيم!

ص: ٢٣٤

١- (١) سورة مريم، الآية ٣٩.

٢- (٢) . صفين، ص ٤٨٩.

إلى معاوية أيضاً (١)

نظرة عامه للرساله

كما ورد في بحث سند هذه الرساله فالمخاطب لها - كما يعتقد الكثير من المؤرخين والشارحين - هو عمرو بن العاص، وقد صرح بهذا المعنى الدينورى في كتابه «الأخبار الطوال»، ونصر بن مزاحم في كتاب «صفين»، أضف إلى ذلك أنّ قسماً من هذه الرساله قد حذفها السيد الرضى عند انتقائه لبعض المواضيع منها ولكنه يذكر بأنّ الإمام عليه السلام في ذلك المقطع المحذوف حدّر عمرو بن العاص بصراحه من اتّباعه لمعاويه.

وعلى أية حال، فالمخاطب لهذه الرساله أياً كان، يتحدّث الإمام عليه السلام معه بكلامه البليغ ومواعظه المثيره أن لا ينخدع بالدنيا، فالدنيا لا ترضى أصحابها أبداً فيما يطمعون للوصول إليه ويزداد حرصهم للتوصل إلى مبتغاهم، وضمناً يوصيه الإمام بالاعتبار من تاريخ الأقبام السابقه.

ص: ٢٣٥

١- (١). سند الرساله: ذكر هذه الرساله ابن أعثم الكوفى في كتاب الفتوح، والدينورى (المتوفى ٢٨٢) في أخبار الطوال، ونصر بن مزاحم في كتاب صفين وكلّهم عاش قبل السيد الرضى، وقال جماعه من المؤرخين وشراح نهج البلاغه بأنّ المخاطب لهذه الرساله هو عمرو بن العاص (ولمزيد من التوضيح انظر: مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٨٤).

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا، وَلَمْ يُصِبْ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصًا عَلَيْهَا، وَلَهَجًا بِهَا، وَلَنْ يَسْتَعْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا، وَمَنْ وَرَاءَ ذَلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ، وَنَقْضُ مَا أُبْرِمَ! وَلَوْ اِعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَى حَفِظْتَ مَا بَقِيَ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: الحرص على الدنيا لا يوصلك إلى شيء!

فى هذه الرسالة وبعد أن يحمد الإمام عليه السلام البارى تعالى ويثنى عليه يلفت نظر المخاطب «سواءً كان معاويه أو عمرو بن العاص» إلى أمور مهمّة.

بدايه يقول:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا».

لأنّ عمل الدنيا وسلوكها إلى درجه من التعقيد والتنوع والمثير للتشويش بحيث إنّ الإنسان إذا اتّجه نحوها فإنّها ستشغله فى جميع عمره ووقته حتى يغفل عن الاهتمام بسلامته وراحته والقيام بوظائفه تجاه زوجته وأبناءه وأصدقائه وأرحامه، وأكثر من ذلك تشغله عن أداء الفرائض الإلهية والتكاليف الشرعية، حتى يصل الأمر بأصحابها فيما لو كانوا من أهل الصلاة أن يؤدّوا صلاتهم فى آخر وقتها ويفكرون فى أثناء الصلاة فى أمورهم الدنيوية، ويستعجلون باتمامها بعيداً عن حالات التوجه القلبى إلى الله تعالى فى صلاتهم، وأحياناً يخرجون من بيوتهم فى الصباح الباكر فى طلب الدنيا وأبناؤهم يغطون فى نوم عميق، وعندما يعودون فى الليل يرون أطفالهم نيام كذلك، وهذه طبيعه أصحاب الدنيا وحياتهم.

ص: ٢٣٧

وفى المقطع الثانى يتعرض الإمام عليه السلام لمسأله خطيره وهى حاله الحرص لدى أصحاب الدنيا ويقول:

«وَلَمْ يُصَبِّ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئاً إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصاً عَلَيْهَا، وَلَهْجاً (١) بِهَا، وَلَنْ يَسْتَعْنَى صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا».

وقد ورد فى بعض الروايات تشبيه الدنيا بماء البحر المالح، الذى كلما شرب منه العطشان إزداد عطشاً، وهذا ما ورد فى حديث عن الإمام الكاظم عليه السلام يقول:

«مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ مَاءِ الْبَحْرِ كُلَّمَا شَرِبَ مِنْهُ الْعَطْشَانُ أَزْدَادَ عَطْشاً حَتَّى يَقْتُلَهُ» (٢).

ويتحدث القرآن الكريم عن هذه الحاله ضمن قصه بليغه تتلخص فى أخوين متخاصمين جاء إلى النبى داود عليه السلام فقال أحدهما «إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِى نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ» (٣).

فحكم داود عليه السلام بينهما وقال: «قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نَعْجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ...» (٤).

هذه القصة تشير إلى أن أصحاب الدنيا يعيشون الحرص والولع إلى درجه إلى أنهم لا يرضون للآخرين أن يملكوا أدنى شىء حتى لو كانوا إخوانهم. وكما يقول الشاعر:

زيادَةُ المرءِ فى دُنْيَاهُ نُقْصَانُ

وَرِبْحُهُ غيرَ محضِ الخَيْرِ خُسْرَانُ

وَكُلُّ وِجْدَانٍ خَطُّ لَانِبَاتٍ لَهُ

فَإِنَّ مَعْنَاهُ فى التَّحْقِيقِ فَقْدَانُ

يَاعَمْرَأُ لِخِرَابِ الدَّهْرِ مُجْتَهِدًا

بِاللَّهِ هَلْ لِخِرَابِ العُمَرِ عَمْرَانُ

يَاخَادِمَ الجِسْمِ كَمْ تَسْعَى لِخِدْمَتِهِ

فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لَا بِالجِسْمِ إِنْسَانُ

وَذُو القِنَاعِ رَاضٍ فى مَعِيشَتِهِ

وَصَاحِبَ الحَرِصِ إِنْ أَثَرَى فِغْضِبَانُ

هما رضيعا لبانِ حكمهٍ وتُقى

وساكننا وطنٍ مالٍ وطغيانُ

ص: ٢٣٨

١- (١) «لهج» بمعنى العلاقه الشديده والافتتان في مقابل شىء.

٢- (٢) الكافى، ج ٢، ص ١٣٦، ح ٢٤.

٣- (٣) سورہ ص، الآيه ٢٣.

٤- (٤) سورہ ص، الآيه ٢٤.

وجاء في الحديث القدسي المعروف:

«لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لَأَبْتَعِيَ إِلَيْهِمَا ثَالِثًا وَلَا يَمَلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ» (١).

وقال الشاعر:

وَيَحْكُ يَا نَفْسُ دَعَى

مَا عَشْتِ ذَلَّ الطَّمَعِ

وَأَرْضِي بِمَا جَرَى بِهِ

حُكْمَ الْقَضَاءِ وَاقْتَنَعِي

إِيَّاكَ وَالْمِيلَ إِلَى

شَيْطَانِكَ الْمُبْتَدِعِ

وَاقْتَصِدِي وَاقْتَصِرِي

كِي تَرْتَوِي وَتَشْبَعِي

أَيْنَ السَّلَاطِينِ الْأُولَى

مِنْ حَمِيرٍ وَتَبَعِ

شَادُوا الْحُصُونَ فَوَ

قَ كُلِّ شَاهِقٍ مُرْتَفِعِ

لَمْ يَبْقَ مِنْ دِيَارِهِمْ

غَيْرَ رُسُومٍ خُشَعِ

كَفَا بَذَاكَ وَعَظًّا

وَزَاجِرًا لِمَنْ يَعِي

حَسْبُكَ يَا نَفْسُ اقْبَلِي

وحاله الحرص في الحقيقه نوع من الجنون، لأنّ الكثير ممّن يعيشون هذه الحاله يملكون كلّ ما يمنحهم الرفاهيه والراحه في الحياه بحيث إنّهم يستطيعون بما يملكونه من العيش إلى آخر حياتهم بشكل جيد ومريح، ولكنّ جنود الحرص لا- يدعهم يعيشون في راحه وتدعوهم باستمرار إلى بذل مزيد من الجهد والتعب لتحصيل المزيد والمزيد بحيث إنّهم لو اعطوا جميع ما في الدنيا لتمنّوا أن يكون لهم ما في السموات أيضاً.

ولذلك نقرأ في دعاء بعض الأئمه المعصومين عليهم السلام:

«أَعُوذُ بِكَ يَا رَبِّ مِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ» (٣) وفي الحقيقه فالحرص يعتبر المنبع

ص: ٢٣٩

١- (١) . روضه الواعظين، ج ٢، ص ٤٢٩.

٢- (٢) . روضات الجنات، ج ٧، ص ٨٩ و ٩٠.

٣- (٣) . الكافي، ج ٢، ص ٥٨٦، ح ٢٤.

الأصل لجميع المشكلات والمصاعب وما يترتب عليها من نتائج أليمه وعواقب سيئه.

ونختم هذا البحث بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول:

«مَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ بَاباً مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْجِرَاصِ مِثْلَهُ» (١).

وفى المقطع الأخير يقول الإمام عليه السلام:

«وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فِرَاقٌ مَا جَمَعَ، وَنَقْضٌ مَا أُبْرِمَ!» (٢).

أجل، فإنه لا- تمضى مدّه حتى يجد الإنسان نفسه وهو يودع ما تعب في تحصيله من الأموال النفيسه والمملوكات والأشياء الجميله ويتركها جميعاً ويكتفى بحصّته من هذه الثروات وهى الكفن حيث يذهب معه إلى قبره.

ويتحدّث القرآن الكريم عن قصور الفراعنه وما تركوه من بساتين ومزارع وعيون وقرى مزدهره، ويقول: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخِرِينَ» (٣).

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه فى هذه الرساله ويشير إلى النقطه الرابعه:

«وَلَوْ اِغْتَبَرْتَ بِمَا مَضَى حَفِظْتَ مَا بَقِيَ، وَالسَّلَامُ».

إنّ الاعتبار من مصير السابقين يعدّ من المسائل المهمّه التى ورد التأكيد عليها فى القرآن الكريم وأحاديث نبى الإسلام صلى الله عليه وآله وأئمّه الدين عليهم السلام.

يقول القرآن الكريم: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (٤).

وأساساً فإنّ قسماً مهمّاً من الآيات القرآنيه التى تتحدّث عن تاريخ الأقبام السابقه ناظر إلى هذه المسأله، لأنّه لا درس ولا عبره أبلغ من دورس التاريخ

ص: ٢٤٠

١- (١) الكافى، ج ٢، ص ٣١٩، ح ١٢.

٢- (٢) «أبرم» من ماده «إبرام» بمعنى لف الحبل وتقويته، ثمّ امتد هذا المعنى ليشمل كلّ عمل محكم ومتقن، وضده النقض، ويعنى فتح العقده وإضعاف قوّه الشىء.

٣- (٣) سوره الدخان، الآيات ٢٥-٢٨.

٤- (٤) سوره الحج، الآيه ٤٦.

والحوادث الواقعة فى طيات التاريخ البشرى، ولكن الكثير من الناس، كما يقول القرآن الكريم يمرّون على هذه الآيات والآثار دون التدبر فيها وكسب العبره منها، فيمرّون على آثار القدماء وأطلال الأقالم الغابره لغرض النزّه والترويح عن النفس فقط، واليوم نرى أنّ صناعه السياحه تتسع وتزدهر وفى الغالب ينظر السّياح إلى الآثار التاريخيه بوصفها آثار فنيه وتعكس حضاره أو لئك القوم ومقدراتهم الفنيه وإمكاناتهم العمرانيه ويفتخرون بذلك دون أن يطالعوا مستقبلهم وما سيكون مصيرهم من خلال هذه الآثار والأطلال.

ص: ٢٤١

إلى أمرائه على الجيش (١)

نظرة عامه للرساله

تشكل هذه الرساله أساساً من ثلاثه مقاطع:

المقطع الأول: يتحدّث الإمام عليه السلام عن حقّ الله تعالى على أولياء الأمور ومن بيدهم مقاليد الولايه والسلطه، فلا ينبغي أن تكون هذه القدره والسلطه عاملاً لغفلتهم عن حاجات الناس وإبعادهم عنهم، بل ينبغي استثمار هذه القدره للانفتاح على الناس والاقتراب منهم والسعى في قضاء حوائجهم.

وفي المقطع الثاني: يخاطب الإمام عليه السلام قاده جيشه ويقول: إنني أحسبكم بطانتي وإخواني ولا- أكتممكم سرّاً، (سوى الأسرار العسكريه والحرييه) وأستشيركم في المسائل التي ليس فيها حكم إلهي مسلّم وأؤدي حقكم كاملاً، وفي مقابل ذلك يجب

ص: ٢٤٣

١- (١) . سند الرساله: ذكر هذه الرساله قبل السيّد الرضى نصر بن مزاحم في كتاب صفين (مع تفاوت يسير)، وبعد السيّد الرضى ذكرها الشيخ الطوسى في الأمالى مع اختلاف يسير أيضاً. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٨٧) ومن الأشخاص الذين ذكروا هذه الرساله قبل السيّد الرضى أبو جعفر الإسكافى (المتوفى ٢٢٠) في كتاب المعيار والموازنه، ص ١٠٣.

عليكم أن تتحركوا في خط الطاعة لأوامري التي تصبّ في خدمة الأئمة الإسلاميه ولا تتوانوا عن خدمه المسلمين ولا تمتنعوا عن
أى تضحيه وإيثار.

وفي المقطع الثالث: يتحدّث الإمام عليه السلام عن الأشخاص الذين سلكوا طريق المخالفه والعناد وتمردوا على طاعه إمامهم،
ويهددهم بالعقوبه القاسيه.

ص: ٢٤٤

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْمَسَاحِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ حَقًّا عَلَى الْوَالِي أَلَّا يُعَيِّرَهُ عَلَى رِعْيَتِهِ فَضْلُ نَالِهِ، وَلَا طَوْلُ خُصِّ بِهِ، وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنْ نِعْمِهِ دُنُوًّا مِنْ عِبَادِهِ، وَعَظْفًا عَلَى إِخْوَانِهِ.

الشرح والتفسير: لا يبعدنكم المقام عن الناس!

يتحدّث الإمام عليه السلام في المقطع الأول من هذه الرسالة إلى زعماء جيشه بوصفهم «أصحاب المسالِح» أي المحافظين للشعور ويقول:

«مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْمَسَاحِ».

«المسالِح» جمع «مسلحه» وتعنى الحد والثغر، والحدود عادة هي المناطق التي تقع في أطراف البلاد، وربما تتعرض لهجوم من قبل العدو، ولهذا السبب فإن الحكومات تضع قسماً مهماً من قواتها المسلحة في هذه المناطق لتأمين من هجوم الأعداء المباغت على هذا البلد، وهذا التعبير يشير إلى أن الاهتمام بالشعور وتحصين الحدود يعتبر من أهم وظائف القوات المسلحة والجيش في الإسلام.

ثم يشرع الإمام عليه السلام من نفسه ويبيّن حقوق الوالي بشكل عام، وفي المقطع الآخر يشير إلى موارد خاصه بالتحديد كشرح وبيان لهذا المجمل ويذكرها واحداً بعد الآخر.

وعلى أيه حال فالإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة يشير إلى نقطتين مهمتين:

الأولى: قوله:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ حَقًّا عَلَى الْوَالِي أَلَّا يُعَيِّرَهُ عَلَى رِعْيَتِهِ فَضْلَ نَالِهِ، وَلَا طَوْلًا (١) خُصَّ بِهِ».

وهذه إشاره إلى أنّ الوالى أو القائد يجب أن يكون إلى درجه من قوه الشخصيه وبناء الذات لا يغيره المنصب ولا يضيع نفسه فى حال وصوله إلى القدره ويحمله على العجب والغرور والأنانيه، وبالتالي يعيش حالات الاستبداد والتفرعن كما هو الحال فى غالبية زعماء الدنيا وقادتها الماديين، فإنهم قبل وصولهم إلى مسند القدره والسلطه يتحدثون للناس بكلمات لطيفه ويعيشون حاله البساطه والشعبيه، ولكنهم عندما يصلون إلى مسند السلطه ينسون كل شىء وتبدأ حالات الاستبداد تتضح لديهم، ولكن أولياء الله والأشخاص الذين يسيرون فى خطهم مصونون من هذا الخطر.

فى المقطع الثانى يضيف الإمام عليه السلام:

«وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنْ نِعْمِهِ دُنُوًّا مِنْ عِبَادِهِ، وَعَطْفًا عَلَى إِخْوَانِهِ».

وتشير هذه العبارة إلى أنّ الإنسان الجالس فى مسند الرئاسة والقدره ليس فقط لا ينبغى له الاستبداد والابتعاد عن الناس بل بعكس ذلك يجب عليه كلما إزدادت نعمه الله عليه أن يقترب من الناس أكثر فأكثر، ويتواصل معهم من مواقع المحبّه والشفقه وهم الذين يفهم الإمام عليه السلام بأنهم «إخوانه» لأن شكر هذه النعمه لا يتيسر إلّا من هذا الطريق.

وعلى هذا الأساس فالإمام عليه السلام يقرّ لمخاطبيه فى البدايه بحقهم فى مطالبه الإمام بأداء حقوقهم، ثم يبين الإمام فى المقطع اللاحق من هذه الرساله حقه عليهم.

وقد ورد فى كتاب «غررالحكم» عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«إِنَّ حَوَائِجَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فَأَعْتِنُمُوهَا وَلَا تَمَلُّوهَا فَتَتَحَوَّلَ نِعْمًا» (٢).

ص: ٢٤٤

١- (١) «طَوْل» على وزن «قول» بمعنى النعمه ومن ماده «طول» على وزن «نور» ويبين إمتداد الشىء، وبما أنّ النعم الإلهيه تعتبر إمتداداً وجودياً لواهب النعم، فأطلقت هذه المفرده عليها. وهذه الكلمه تطلق أحياناً على المقدره المائيه أو على كل مقدره، و «أولو الطول» تعنى الأثرياء من الناس.

٢- (٢) غرر الحكم، ص ٤٤٨، ح ١٠٣٠١.

أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلَّا أَحْتَجِزَ دُونَكُمْ سِرًّا إِلَّا فِي حَرْبٍ، وَلَمَا أَطَوَى دُونَكُمْ أَمْرًا إِلَّا فِي حُكْمٍ، وَلَمَا أُؤَخِّرَ لَكُمْ حَقًّا عَنْ مَحَلِّهِ، وَلَا أَقْتِفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ، وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سِوَاءَ فَمَاذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ وَجِئْتُمْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ النَّعْمَةَ، وَلِي عَلَيْكُمْ الطَّاعَةَ؛ وَأَلَّا تَنْكُصُوا عَنْ دَعْوِهِ، وَلَمَا تَفَرَّطُوا فِي صِلَاحٍ، وَأَنْ تَخُوضُوا الْعَمْرَاتِ إِلَى الْحَقِّ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِي عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمَّنْ اغْوَجَ مِنْكُمْ، ثُمَّ أَعْظَمَ لَهُ الْعُقُوبَةَ، وَلَا يَجِدُ عِنْدِي فِيهَا رُخْصَةً، فَخُذُوا هَذَا مِنْ أَمْرَائِكُمْ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَكُمْ.

وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: حقوق الإمام وحقوق القادة

في هذا المقطع من الرسالة يفصل الإمام عليه السلام ما أجمله وبينه بشكل عام ومغلق في المقطع السابق.

بدايه يشير إلى حقوق الرعيه عليه ويؤكد على خمس حقوق، وأول هذه الحقوق يقول عليه السلام:

«أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلَّا أَحْتَجِزَ (١) دُونَكُمْ سِرًّا إِلَّا فِي حَرْبٍ».

ومعلوم أن إخفاء الأسرار عن الأصحاب والأعوان يعدّ نوع من عدم الثقة والاعتماد عليهم، وفي الكثير من الموارد يتسبب في إساءة الظن أو خلق رؤى

ص: ٢٤٧

١- (١) «احتجز» من ماده «حجز» على وزن «عجز» ومعناه في الأصل المنع وإيجاد الفاصله، ثم اطلقت على عمليته الإخفاء والتستر الذي يمنع من مشاهدته الشيء أو الإطلاع عليه.

وتفاسير مختلفه لحداته معينه، ولكن إذا كان الإمام عليه السلام أو القائد يتواصل مع أعوانه بشكل مستمر على مستوى إخبارهم بالحوادث الواقعه، فإن ذلك من شأنه توطيد عناصر الثقه وتقويه التعاطف فيما بينهم، فيتراجع سوء الظن والتشويش الذهني إلى الحد الأدنى، وطبعاً هناك موارد لا بد للإمام والوالي من كتمان السر، وذلك في القضايا العسكريه وأمثالها، لأن العدو إذا علم بتفاصيل الخطط العسكريه للطرف المقابل فسيتدبر أموره ويستعد بشكل كامل للمقاومه وسيكون بإمكانه أن يحبط الخطه قبل الموعد المقرر، ومن هذه الجبهه نرى أن القاده العسكريين على إمتداد التاريخ يخفون برنامجهم القتالي إلى آخر لحظه ليتمكنوا من توجيه الضربات القاصمه إلى العدو بالاستفاده من عنصر المباغتة.

وفي تاريخ حروب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وغزواته نرى هذا الأصل بوضوح، وعلى حدّ قول المؤرخ المعروف الطبري: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله، قلّ ما يخرج في غزوه إلّا كنى وأخبر أنّه يريد غير الذي يسعى له... (١). يعني ما كان يخبر أصحابه وأنصاره بمقصده وغايته النهائيه.

وأحياناً كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أراد سفراً إلى الحرب روى بغيره، كما روى أنّه لما نوى غزوه بدر كتب للسريه كتاباً في المدينة، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة إلى صوب مكّه يومين أو ثلاثه ثم ينظروا في الكتاب ويعملوا بما فيه... (٢)، ومعلوم أنّ النبي لو كان يبيّن له في بدايه الأمر مراده ومقصوده فإنّ هذا الخبر بدوره سينتشر ويشيع في كافّه أرجاء المدينة ويسارع الجواسيس في إيصال هذا الخبر إلى العدو فيستعدون للقاء المسلمين وربّما تنقلب موازين المعركه ويتغير مصير الحرب.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام في الحقّ الثاني للناس على الوالي ويقول:

«وَلَا أَطْوَى (٣)»

ص: ٢٤٨

١- (١). تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٦٦ وقائع سنه التاسعه للهجره.

٢- (٢). شرح نهج البلاغه لابن ميثم، ج ٥، ص ١٢٩.

٣- (٣). «أطوى» من ماده «طى» في الأصل تعني إخفاء الشئ، والمعنى الآخر لكلمه «طى» لفّ الشئ ومن هذه الجبهه اطلقت على السير في الطريق «طى طريق» ولا يبعد أنّ كلا المعنيين يعودان لجذر واحد.

دُونَكُمْ أَمْرًا إِلَّا فِي حُكْمٍ».

وهذا هو أصل المشوره الوارد في القرآن الكريم والروايات الإسلاميه بشكل واسع وهو ما يؤكد عليه الخبراء وأصحاب الشأن السياسى فى عالمنا المعاصر وإن كانوا يمارسون شيئاً آخر على مستوى العمل، فالمشوره مع الأصحاب والأنصار والأتباع يمنحهم قوه فى الشخصيه واحساساً فى المسؤوليه وتحكيمياً للروابط العاطفيه، أضف إلى ذلك أن المشوره تسبب (فى غير المعصومين) إلى التقليل من الأخطاء إلى الحد الأدنى.

أما فى مسأله القضاء وعند صدور الحكم، فيجب على القاضى أن يصدر حكمه بحزم وقوه، وفى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إِذَا كَانَ الْحَيَاكِمُ يَقُولُ لِمَنْ عَنْ يَمِينِهِ وَلِمَنْ عَنْ يَسَارِهِ مَا تَرَى مَا تَقُولُ فَعَلَى ذَلِكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ أَلَّا يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ وَتَجْلِسُهُمْ مَكَانَهُ» (١).

مضافاً إلى ذلك إذا كان القاضى يفتشى ما فى ذهنه من الحكم الشرعى فربما تتحرك عناصر مختلفه لتغيير رأيه أو توهينه وممارسه بعض الضغوطات عليه لإجباره على تغيير الحكم.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى الحق الثالث والرابع ويقول:

«وَلَا أُؤَخِّرْ لَكُمْ حَقًّا عَنْ مَحَلِّهِ، وَلَا أَقْفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ».

والفرق بين هذين الحقيين يتبين من خلال مثال بسيط، فلو تقرر أن يؤذن لشخص بالسكن فى دار لمدّه شهر واحد ومعين، فلا ينبغى تأخير إسكانه عن هذا الشهر، والآخر، أنه لا ينبغى تقليص المدّه قبل انتهاء الشهر، ونتيجة كلا الأمرين أن تؤدّى الحقوق كامله دون زياده أو نقيصه.

وفى الحق الخامس والأخير يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً».

ص: ٢٤٩

وطبعاً فمراد الإمام عليه السلام أنّ الوالى أو القائد يتعامل مع جميع الأفراد بشكلٍ مساوٍ دون الأخذ بنظر الاعتبار مواقعهم الاجتماعيه وامتيازاتهم الماديه، وعلى ضوء ذلك فإنّ هذا الكلام لا يعنى أنّه فى حال اختلاف الظروف والمقامات فإنّ الأفراد يقفون على حدّ سواء أمام القائد، من قبيل أن يكون شخص أحد قواد الجيش، والآخر رجل عادى، وثالث والياً على منطقته، وآخر حارساً لبنايه المحافظه، وآخر يتولى حراسه بنايه حكوميه، أو يكون أحدهم طبيباً والآخر مضمداً، أو يشتغل أحدهم بالأعمال الثقيله ولأيام متواليه ويتولى الآخر أعمالاً سهله وفى مدّه قصيره، فمن البديهى أنّ حقوقهم المائيه لا تكون سواسيه، ولكن إذا كان رجلان يعملان عملاً واحداً فيجب أن تكون اجرتهم واحده، رغم أنّ أحدهم من عائله عريقه ومعروفه، والآخر رجلاً عادياً من عائله غير معروفه.

وبعد أن ذكر الإمام عليه السلام هذه الحقوق الخمسه للناس على القائد أو الإمام، تعرض لبيان حقوقه للناس وأشار إلى أربعة حقوق.

الأول يقول:

«فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ وَجَبَتْ لِيَّ عَلَيْكُمْ النُّعْمَةُ، وَلِيَّ عَلَيْكُمْ الطَّاعَةُ».

فعندما اؤدى هذه التكاليف الحقوقيه التى علىّ تجاهكم فإنّ نعمه الله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»^(١)، ستكون كامله عليكم، ولى حقّ الطاعه عليكم، ويجب عليكم إطاعه أوامرى التى تضمن لكم سعادته الدنيا والآخره، وتحفظ مصالحكم الفرديه والاجتماعيه.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام الحقّ الثانى ويقول:

«وَأَلَّا تَتَّكِبُوا»^(٢) عَنْ دَعْوِهِ».

إنّ هذا الأمر الثانى بالنسبه للأمر الأول من قبيل ذكر العام بعد الخاص، لأنّ المخاطب فى هذه الرساله هم قادة الجيش، الذين ينبغى عليهم إطاعه أوامر الإمام وخاصّه فيما يتعلق بالدعوه إلى الجهاد.

ص: ٢٥٠

١- (١) . سورة المائده، الآيه ٣.

٢- (٢) «تتكصوا» من ماده «نكص» على وزن «مكث» تعنى العوده من الشىء أو المكان، وبما أنّ التمرد وعدم الطاعه نوع من العوده عن طريق الطاعه، استخدمت هذه الكلمه بهذا المعنى.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى الحق الثالث ويقول:

«وَلَا تُفَرِّطُوا فِي صَلَاحٍ».

الكثير من الأشخاص الذين يتحركون بحسب الظاهر في مسير الطاعة وتلبية دعوه الإمام والقائد، فإنهم بسبب التكاسل والتواكل لا يحققون النتيجة المطلوبة، بل الإمام عليه السلام يعتبر هذا الأمر كحق مستقل من حقوق الوالي على الرعيه ليعلم الجميع أن إطاعه الأمر شيء، واعتباره أمراً جدياً شيء آخر.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن هذه الجملة إشاره إلى مسأله الجهاد حيث أكد الإمام عليه السلام على أن وظيفه قاده الجيش الاستفادة من كل فرصة لدفع الأعداء وترك حاله التكاسل والتقصير في هذا الشأن.

وأخيراً يبين الإمام عليه السلام الحق الرابع والأخير ويقول:

«وَأَنْ تَخُوضُوا الْعَمْرَاتِ (١) إِلَى الْحَقِّ».

وهذه إشاره إلى أن التضحية في مقام الدفاع عن البلد الإسلامى تعتبر وظيفه لازمه وتكليف واجب، أى التضحية الى درجة بذل النفس فى سبيل الدفاع عن الإسلام والمسلمين، ويعتبر هذا الأمر أحد الحقوق للوالى أو الإمام على قاده الجيش والمسؤولين الأمنيين فرداً فرداً.

تاريخ الإسلام زاخر بمظاهر الإيثار والتضحية وخوض الغمرات للوصول إلى الحق، وكمثال على ذلك:

ما ورد فى «تاريخ الطبرى» فى حوادث سنة ٣٧: أن عمّار بن ياسر خرج إلى الناس فقال: اللهم إنك تعلم أنني لو أعلم أن رضاك فى أن أقذف بنفسى فى هذا البحر لفعلته، اللهم إنك تعلم أنني لو أعلم أن رضاك أن أضع طُبه سيفى فى صدرى ثم أنحنى عليها حتى تخرج من ظهري لفعلت، وإني لا أعلم اليوم عملاً هو أَرْضَى

ص: ٢٥١

١- (١). «غمرات» جمع «غمرة» على وزن «ضربه» فى الأصل من غمر وبمعنى إزاله أثر الشيء، ثم استخدمت فى الماء الكثير الذى يغطى جميع الوجه الشيء وظاهره، ويقال: غمره وغامر، وفى العبارة أعلاه جاءت بمعنى أمواج الشدائد والمشكلات.

لك من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم أنّ عملاً من الأعمال هو أرضى لك منه لفعلته(١).

وجاء في «سيره ابن هشام» أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أتاه الخبر عن قريش بمسيرهم أن يمنعوا غيرهم - واتجهوا نحو «بدر» - فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش (وكان يروم من ذلك اختبار مدى استعداد أنصاره وأصحابه للقتال)... ثمّ قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «إِنَّا لَنَرُدُّخَلَهَا أَبَيداً مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ»(٢). ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا - إِنَّا معكما مقاتلون، فوالدى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله خيراً ودعا له به، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أشيروا عليّ أيها الناس، وإتّما يريد الأنصار، وذلك أنّهم عدد الناس، وأنّهم حين بايعوه بالعقبه قالوا: يا رسول الله إِنَّا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك ممّا يمنع أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتخوّف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلّا ممن دهمه بالمدينه من عدوّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ من بلادهم، فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله، قال له سعد بن معاذ: والله كأنّك تريدنا يا رسول الله، قال: أجل، قال: فقد آمنّا بك وصدّقناك وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحقّ، وأعطيناك على ذلك عهدنا وموآثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذى بعثك بالحقّ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، فإنّا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك ممّا ما تقرّ عينك، فسر بنا على بركة الله، فسّر رسول الله بقول سعد ونشّطه ذلك... (٣).

ص: ٢٥٢

١- (١) تاريخ الطبرى، ج ٤، ص ٢٦.

٢- (٢) . سورة المائدة، الآية ٢٤.

٣- (٣) سيره ابن هشام، ج ٢، ص ٢٦٦ و ٢٦٧؛ الكامل، لابن الأثير، ج ٢، ص ١٢٠.

ثم إن الإمام عليه السلام في المقطع الثالث من كلامه يخاطب المتخلفين بلغه التهديد ليقرن البشاره مع الإنذار ويقول:

«فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِي عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمَّنِ اعْوَجَّ (١) مِنْكُمْ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ الْعُقُوبَةَ، وَلَمَّا يَجِدُ عِنْدِي فِيهَا رُخْصَةً».

وفي الواقع أن الإمام عليه السلام في هذا المورد يقرر عقوبتين للمتخلفين، عقوبه معنويه وعقوبه ظاهريه، أما العقوبه المعنويه فسقوط قدرهم ومقامهم عند الإمام عليه السلام إلى درجه الحضيض، وأما العقوبه الظاهريه فهي التعزير البدني الذي يقرره الإمام بحقهم، ومعلوم أن البشاره والإنذار لو لم يقرنا في أمر الإداره والمسؤوليه وخاصه في إداره الحرب والدفاع، فإنها ستفقد مصداقيتها وفائدتها في ضبط الأمور.

وفي الختام يشير الإمام عليه السلام إشاره مختصره ودقيقه فيما يتصل بما ذكر آنفاً ويقول:

«فَخُذُوا هَذَا مِنْ أَمْرَائِكُمْ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَكُمْ».

وَالسَّلَامُ».

وجمله

«فَخُذُوا هَذَا مِنْ أَمْرَائِكُمْ» إشاره إلى الحقوق الخمسه التي بينها الإمام عليه السلام في مستهل كلامه أنه يعطيهم الحق بأن يطالبوا هذه الحقوق من قادتهم وأمرائهم، وجمله

«أَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ..»، إشاره إلى الحقوق الأربعة التي طالب بها الإمام عليه السلام منهم، وهي الحقوق التي تصب في صالحهم ومن أجل إصلاح أمورهم.

ونرى أن الإمام عليه السلام في هذا المورد يستخدم كلمه «أمراء» بصيغه الجمع، ويشير بذلك إلى نفسه والقاده أو الأئمه الذين سيأتون بعده بالحق، ويستلمون زمان الأمور بالحق، لا أن المراد قاده الجيش، لأنهم هم المخاطبين بهذا الكلام.

ص: ٢٥٣

١- (١) «أعوج» من ماده «عوج» على وزن «حرج» وتعني انحراف الشيء وميلانه و«عوج» بكسر العين، اسم مصدر وتشمل كل أشكال الانحراف والاعوجاج، وتطلق أحياناً بمعنى الانحرافات المعنويه والعملية وجاءت في عباره أعلاه بهذا المعنى.

إلى عماله على الخراج (١)

نظرة عامه للرساله

يشير الإمام عليه السلام في هذه الرساله إلى عدّه نقاط مهمه: ففي المقطع الأول يتحدّث الإمام عن الثواب المترتب على أتعاب وجهود الجامعين للخراج وما يتحملوه في هذا السبيل من مشقّه، ويتحدّث الإمام عليه السلام عن ذلك بوصفه ذخيره يوم المعاد.

وفي المقطع الثاني من هذه الرساله يوصى الإمام عليه السلام بشكل أكيد برعايه العدل والمحبه للناس عند أخذ الخراج منهم وينهى عن أى شكل من الأشكال الإجحاف والتعدى والإضرار بهم، حتى بالنسبه لغير المسلمين الذين لا يعينون العدو على المسلمين يوصى الإمام أيضاً بهذه الوصيه في حقهم.

ص: ٢٥٥

١- (١). سند الرساله: ذكر هذه الرساله قبل السيّد الرضى نصر بن مزاحم في كتاب صفيين، بشكل رسالتين وقد وردتا في مكانين مختلفتين من هذا الكتاب مع تفاوت يسير عمّا أورده السيّد الرضى. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٨٩)، وكذلك ذكرها أبو جعفر الإسكافي الذي كان يعيش قبل السيّد الرضى في كتابه المعيار والموازنه، ص ١٢٢، ولكنه ذكر مقاطع من هذه الرساله تشبه الرساله مورد البحث، ولكن يحتمل كونها رساله أخرى، وفي كتاب تمام نهج البلاغه، ص ٧٧٦ توجد رساله شبيهه لرساله أبي جعفر الإسكافي.

وفى المقطع الأخير يدعوهم إلى تقديم فروض الشكر على النعم الإلهية ولزوم نصره الدين الإلهى بجميع ما لديهم من قوه
وقدره.

ص: ٢٥٦

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْخَرَاجِ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لِمُتَقَدِّمٍ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا. وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا كُفِّتُمْ بِهِ يَسِيرٌ، وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْبُعْيِ وَالْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ لَكَانَ فِي ثَوَابِ اجْتِنَابِهِ مَا لَاعُذَرَ فِي تَرْكِ طَلْبِهِ.

الشرح والتفسير: حذارٍ من ظلم الناس!

المراد بأصحاب الخراج هم المأمورون على جمع خراج الأراضي المفتوحة عنوه، وتوضيح ذلك: عندما ينتصر المسلمون على الأعداء فإن أراضيهم ستكون من الناحية العملية ملكاً للمسلمين، ولكن المسلمين في الغالب يدعون هذه الأراضي بأيدي أصحابها الأصليين، وفي مقابل ذلك عليهم أن يدفعوا مبلغاً من المال أو مقداراً معيناً من محاصيل تلك الأراضي بوصفها ضريبه أو اجره تؤخذ منهم ولا يكون هذا المبلغ ثقیلاً وكثيراً عادة، وهذه المسأله بدأت منذ عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بفتح خيبر، ثم استمرت في الفتوحات الإسلاميه الأخرى، ويشكل الخراج الجزء الأهم من بيت المال في ذلك الوقت، وهو مبلغ له شأن ويتعلق بجميع المسلمين، وطبعاً هناك عمال ومسؤولون آخرون يتولون جمع الزكاه من المسلمين لتصرف على حاجات جيش الإسلام والقضاء والفقراء والمحتاجين.

والإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرساله يؤكد على عدّه أمور:

الأول: يحذر الإمام عليه السلام أصحاب الخراج بأن لا يغفلوا عن العالم الآخر وما

سيسرون إليه بعد الموت، فالغفلة عن هذا الأمر ستفقد الإنسان الاستعداد له، يقول:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا».

ونقرأ في الروايات الشريفه أنّ أَعْقَلِ النَّاسِ هُوَ الشَّخْصُ الَّذِي يَفْكَرُ بِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَكْبَسَكُمْ أَكْثَرَكُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ»^(١)، وهذا يعنى أنّ الإنسان ما لم يفكر فى سفر الآخرة فإنه لا يهيىء لنفسه وسائل هذا السفر الخطير وسيخرج من الدنيا خالى اليدين.

وفى الأمر الثانى يخاطب الإمام عمّاله على الخراج ويقول:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا كُفِّتُمْ بِهِ يَسِيرٌ وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ».

هل أنّ مقصود الإمام عليه السلام من هذه العبارة سعى هؤلاء فى جمع الخراج فقط، أم يشمل جميع التكاليف الواجبه على الإنسان؟ يحتمل كلا الأمرين، ومع الالتفات إلى أنّ الجملة السابقه عامّه وتشمل جميع الأعمال فإنّ الاحتمال الثانى أنسب حسب الظاهر، وهذا فى الواقع إشاره إلى مضمون الآيات الشريفه: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»^(٢)، و«يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ»^(٣).

أجل، فإنّ الله تعالى جواد وكريم وفى مقابل أعمالنا الصغيره يعطينا الثواب العظيم.

وفى الأمر الثالث يشير الإمام عليه السلام إلى موضوع يتعلق بترك الظلم، ويقول:

«وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْبُغْيِ وَالْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ لَكَانَ فِي ثَوَابِ اجْتِنَابِهِ مَا لَا عُذْرَ فِي تَرْكِ طَلَبِهِ».

وهذه إشاره إلى أنّ للظلم والجور عقوبه شديده قطعاً، وفى تركه ثواب جزيل أيضاً، وعلى هذا الأساس ينبغى على الإنسان ترك مثل هذه السلوكيات الظالمه

ص: ٢٥٨

١- (١) . بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٧٨.

٢- (٢) سورة الحج، الآية ٧٨.

٣- (٣) سورة البقره، الآية ١٨٥.

ليس فقط بسبب خوفه من عقوبتها، بل من أجل تحصيل الثواب على تركها أيضاً.

ونقرأ فى الكلمات القصار للإمام عليه السلام فى نهج البلاغه ما يشبه هذا المعنى والمضمون بتعبير أوسع وأبلغ حيث يقول:

«لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدِ اللَّهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ لَكَانَ يَجِبُ أَلَّا يُعْصَى شُكْرًا لِنِعْمِهِ»(١).

تأمل

ماذا يعنى الخراج؟

كلمه «خراج» و «خرج» مأخوذه فى الأصل من «خروج»، وتعنى ما يتحصل من مال شخص أو من أرضه الزراعيه، وذهب بعضهم إلى أنّ كلمه «الخراج» تعنى مال الإجاره للأراضى، يقول الراغب فى كتاب «المفردات»: الخراج يطلق غالباً على الضرائب التى توضع على الأراضى الزراعيه والبساتين، وعلى أيه حال فإنّ هذه الكلمه فى اصطلاح الفقهاء تعنى الضرائب الموضوعه على الأراضى الخراجيه، أى الأراضى التى اخذت من الكفار بالحرب والقتال، وأحياناً تطلق على ما يتحصل من الأراضى المزروعه التى تعتبر قسماً من الأنفال، والقسم الأول يتعلق بجميع المسلمين، والقسم الثانى يختص بالحاكم الإسلامى.

وجاء فى بعض كتب أهل السنّه أنّ الخراج فى اصطلاح الفقهاء له معنيان عام وخاص، فالخراج - بالمعنى العام - هو الأموال التى تتولى الدوله أمر جبايتها وصرفها فى مصاريفها، وأما الخراج - بالمعنى الخاص - فهو الوظيفه أو (الضريبه) التى يفرضها الإمام على الأرض الخراجيه الناميه(٢)، وأحياناً تطلق هذه الكلمه على الجزيه من غير المسلمين أيضاً.

وبالنسبه لمصرف الخراج فقد ذهب فقهاء الشيعة إلى أنّ الخراج يجب صرفه

ص: ٢٥٩

١- (١) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٢٩٠.

٢- (٢). الموسوعه الفقهيه الكويتيه، ج ١٩، ص ٥٢.

لمصالح المسلمين العامه، من قبيل بناء الجسور وحفظ الأمن والطرق ومساعده الفقراء والمساكين ومركبات الجنود والمقاتلين والقضاء وقاده الجيش وسائر ما تحتاج الحكومه فى إدارتها والعمل بمسؤولياتها(١).

وطبعاً يحدث كثيراً أنّ قسماً مهماً من الخراج يقسم بين المسلمين الحاضرين بشكل مساوى فى الحكومات العادله (مثل حكومه أميرالمؤمنين الإمام على عليه السلام) وبصوره غير مساويه (مثل حكومه الخلفاء).

أما دليل التساوى فى القسمة، فهو أنّ الأراضى الخراجيه التى يجمع منها الخراج، ملك لعامة المسلمين وجميعهم يشتركون فى ملكيتها بشكل متساوٍ، والمراد من التساوى، عدم الفرق بين الأفراد بحسب مكانتهم الاجتماعيه، بأنّ فلاناً شيخ قبيله والآخر شخصيه معروفه، وثالث عامل بسيط وما إلى ذلك، بل يتمّ التقسيم حسب المسؤوليات الملقاه على عاتق الأشخاص، من قبيل القضاء وقياده الجيش وولايه المدن والمناطق وأمثال ذلك، فهذا ممّا يدعو للتفاوت قطعاً فى أمر القسمة.

ص: ٢٦٠

١- (١) انظر: جواهر الكلام، ج ٢٢، ص ٢٠٠.

فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ، وَوُكَلَاءُ الْأُمَّةِ، وَسُفَرَاءُ الْأَيْمَةِ وَلَا تُحْشِمُوا أَحَدًا عَنْ حَاجَتِهِ، وَلَا تَحْسِبُوهُ عَنْ طَلَبَتِهِ، وَلَا تَبِعَنَّ لِلنَّاسِ فِي الْخَرَاجِ كَسْوَةَ شَتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ، وَلَا دَابَّةً يَعْتمِلُونَ عَلَيْهَا، وَلَا عَبْدًا، وَلَا تَضْرِبَنَّ أَحَدًا سَوْطًا لِمَكَانٍ دَرَاهِمَ وَلَا تَمَسَّنَّ مِالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، مُصِلاً وَلَا مُعَاهِداً، إِلَّا أَنْ تَجِدُوا فَرَسًا أَوْ سِلَاحًا يُعْطَى بِهِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذَلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ. وَلَا تَدْخُرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً، وَلَا الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرٍ، وَلَا الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً، وَلَا دِينَ اللَّهِ قُوَّةً، وَأَبْلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا اسْتَتَوَجَبَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ شَيْبْحَانُهُ قَدِ اضْطَنَعَ عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

الشرح والتفسير: رعايه إنصاف في أخذ الخراج

يبين الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة بعض جزئيات المسائل والأوامر والنواهي الخاصه بالعاملين على جمع الخراج بعد أن ذكر سلسله من الكليات في كلامه السابق.

بدايه يقول الإمام عليه السلام:

«فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ، وَوُكَلَاءُ الْأُمَّةِ، وَسُفَرَاءُ الْأَيْمَةِ».

والمراد من

«فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» كما ورد الروايات الشريفه، أن يرضا

الإنسان للآخرين ما يرضاه لنفسه ويحبّ لهم ما يحبّ لنفسه ويكره لهم ما يكره لها، وبعبارة أخرى كما أنه يحبّ أن يأخذ حقّه منهم فيجب عليه أن يعطيهم حقوقهم عليه أيضاً.

ونقرأ في روايه جاء رجل أعرابي التّبي صلى الله عليه وآله وهو يريد بعض غزواته، فأخذ بغرز راحلته فقال:

«يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمَنِي عَمَلًا أَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ»، فقال:

«مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يَأْتِيَهُ النَّاسُ إِلَيْكَ فَأْتِيَهِمْ وَمَا كَرِهْتَ أَنْ يَأْتِيَهُ النَّاسُ إِلَيْكَ فَلَا تَأْتِهِ إِلَيْهِمْ»، قال ذلك وأضاف:

«حَلَّ سَبِيلَ الرَّاحِلِ» (أى أنّك حصلت على جميع ما تريد في هاتين الجملتين) (١).

ويشير الإمام عليه السلام في كلامه هذا إلى ثلاثه مناصب لعمّال الخراج ويترتب عليها ثلاث مسؤوليات مهمّة تقع على عاتقهم:

الأول: أنّهم

«حُزْرَانُ الرَّعِيَّةِ» يعنى الحافظون على أموال المسلمين لانفاقها في مصاريفها، والآخر: أنّهم

«وَوَكَلَاءُ الْأُمَّةِ» وهذا يعنى أنّ مسؤوليتهم أخذ حقوق الناس من الأشخاص الذين وجب الحقّ عليهم فى ذمتهم بشكل كامل،

والثالث: أنّهم

«سُفَرَاءُ الْأُمَّةِ» إذ ينبغى لهم أن يتخلّقوا بأخلاق أئمتهم ويسلكوا مع الناس مسلك أئمتهم فى التواصل الإنسانى والتعامل الأخلاقى مع الناس، ومن هذا المنطلق فأخذ المال وكذلك حفظها والالتزام بالأخلاق الحسنه مع الناس تعتبر من مسؤوليات العاملين على الخراج.

ثمّ ينهى الإمام عليه السلام هؤلاء العاملين عن سته أمور، الأمر الأول، يقول عليه السلام:

«وَلَا تُحْشِمُوا (٢) أَحَدًا عَنْ حَاجَتِهِ».

وهذا يعنى أنّ الواجب عليكم أن تتعاملوا مع الناس بحيث لا يخجلون من

ص: ٢٤٢

١- (١) الكافى، ج ٢، ص ١٤٦، ح ١٠.

٢- (٢) «تحشموا» من ماده «احشام» وفى الأصل «حشم» على وزن «كرم» بمعنى إخجال الطرف الآخر، وعندما تأتى من باب الإفعال، تشير إلى هذا المعنى أيضاً، وأحياناً تأتى بمعنى الاغضاب أيضاً، وفى الجملة أعلاه المعنى الأول أنسب، و«حشمت» على وزن «حكمت» تعنى الحياء والخجل، وأحياناً بمعنى اللياقه أيضاً.

عرض حاجتهم عليكم، مثلاً- إذا كانت بعض الشياه محبيه لديهم، أو أنّ بعض المحاصيل الزراعيه مورد اهتمامهم، فعليكم أن تسلكوا معهم بحيث يمكنهم إظهار مقاصدهم أمامكم وعليكم بأخذ الخراج والزكاه من مورد آخر.

أمّا النهى الثانى فيقول عليه السلام:

«وَلَا تَحْبِسُوهُ عَنْ طَلَبَتِهِ».

وهذه إشاره إلى أنّهم لو كانت لديهم مطالب مشروعته فى كيفية تقسيم الأموال وتقسيم الخراج، فينبغى مراعاتها والاستجابته لهم.

وفى النهى الثالث، يمنعهم الإمام عليه السلام من أخذ وسائل الحياه الضروريه (وهى مستثنيات الدين) ويقول:

«وَلَا تَبِعُنَّ لِلنَّاسِ فِي الْخَرَاجِ كِشْوَةَ شِتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ، وَلَا دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا وَلَا عَبْدًا».

ويعتبر هذا الحكم من الأحكام الإنسانيه والأخلاقيه فى التعاليم الإسلاميه، وذلك أنّ الإسلام لا يسمح حتى للمدينين أن يتخلوا عن ضروريات الحياه والمعيشه لهم لأداء الدين، بل لو كان له مال آخر لزم تسديد الدين من ذلك المال، وإن لم يكن لديه مال آخر وجب إمهاله إلى زمان السعه والقدره على أداء الدين.

ويقول الإمام عليه السلام فى النهى الرابع:

«وَلَا تَضْرِبَنَّ أَحَدًا سَوْطًا لِمَكَانِ دِرْهِمٍ».

وبعباره أخرى أنّ أى نوع من أنواع العنف والإكراه ممنوع فى مجال أخذ حقّ بيت المال، والتجربه تشير إلى أنّ أساليب العنف فى أداء الديون تأتى بنتيجته عكسيه، وبعكس ذلك فأسلوب المحبّه واللين يزيد من أموال بيت المال.

والتعبير بـ «درهم» يمكن أن يكون إشاره إلى الأموال الصغيره، يعنى فى المال الصغير وفى جزئيات الأمور لا ينبغى التعامل مع الناس بمنطق الخشونه والقوه، وذهب بعض الشراح إلى احتمال أن يكون المراد من «درهم» فى هذه الجملة، جنس المال، يعنى لا يحقّ لكم أن تضيقوا على الناس من أجل أخذ الأموال منهم.

ويقول الإمام عليه السلام فى النهى الخامس:

«وَلَا تَمَسَّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، مُصَلِّئًا وَلَا

مُعَاهِدٍ (١)، إِلَّا أَنْ تَجِدُوا فَرَسًا أَوْ سِتْلًا حَاقًا يُعَدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ لَا يَتَّبِعِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذَلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ».

وهذه الجملة إشاره إلى المنافقين والانتهازيين الذين يملكون السلاح والمركب ويجعلونها في خدمة أعداء الإسلام، ففي مثل هذه الموارد يحق لهؤلاء العاملين أخذ هذه الوسائل منهم دون دفع ثمنها وقيمتها إليهم، لأنّ دفع ثمنها يمنحهم أيضاً القوّة والقدرة لتنفيذ مخططاتهم وبرامجهم المعادية، وفي الحقيقة إنّ مثل هذا العمل هو نوع من المصادر المشروعة للأموال، الذي أذن فيه الإمام عليه السلام بالنسبة لبعض الأشخاص المستثنون عن القاعدة، ولكن أموال سائر المسلمين وغير المسلمين من أهل الذمّة محفوظة ويجب احترام مالكيّتهم لها.

صحيح أنّ هذا الموضوع لا يرتبط بمسألة الخراج، ولكن في الواقع وظيفه أخرى ربّما يواجهها العاملون بالخراج وبالتالي ينبغي عليهم العمل بها.

وثمة بحث في الفقه الإسلامي في باب المكاسب المحرمة حول حرمة إعانه الظالمين، وكذلك يوجد بحث في عدم جواز بيع الأسلحة لأعداء الإسلام، حيث ورد النهي عن هذا الأمر واستدل عليه بالأدلة العامّة والخاصّة، ومفهوم هذه الآيات والروايات أنّه لو رأينا سلاحاً أو مركباً بيد أحد الأشخاص ونعلم أنّه سيعطيه في المستقبل القريب لأعداء الإسلام ويستخدمونه ضد المسلمين، فيجب منعه من ذلك، وهذا هو الأمر الذي أصدره الإمام عليه السلام في هذه التوصية، وبعبارة أخرى أنّ هذا العمل نوع من النهي عن المنكر بشكله العملي.

وأخيراً يقول الإمام عليه السلام في النهي السادس:

«وَلَا تَدْخِرُوا (٢) أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً، وَلَا

ص: ٢٤٤

١- (١). «معاهد» تستعمل في معنيين، أحدهما أهل الذمّة والأقليات الدينيّة في داخل البلدان الإسلاميّة الذين يعيشون بسلام مع المسلمين، والآخر: الكفّار الذين يعيشون خارج البلدان الإسلاميّة وتربطهم مع المسلمين رابطة العهد والميثاق، وفيما نحن فيه فالمراد المعنى الأوّل.

٢- (٢). «تدخروا» من مادّه «ذخيره» وعندما تأتي من باب إفتعال تتبدل الدال إلى ذال، والتاء في باب افتعال تتبدل أيضاً إلى دال، وعليه فإنّ «لا تدخروا» تعني لا تدخروا ولا تبقوا في أنفسكم نصيحة.

الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرِهِ وَلَا الرَّعِيَّةَ مَعُونَهُ، وَلَا دِينَ اللَّهَ قُوَّةً» (١).

وفى هذه العبارة الواردة بصورة النهى يصدر الإمام عليه السلام أربعة أوامر: النصيحة لبعضهم البعض، وحسن الخلق والسلوك مع جند الإسلام، والسعى فى طريق مدد العون للرعية، والعمل على مستوى تقوية دعائم الدين الإسلامى، ومع الالتفات إلى أن المخاطب فى هذه الجملة هم عمال الخراج، يتبين أن الواجب عليهم فى مسير أداء مسؤوليتهم، الاهتمام بالتكاليف الأخرى الواجبة عليهم أيضاً.

وذهب بعض شراح نهج البلاغة أن الجملة:

«وَلَمَّا تَدَخَرُوا أَنْفُسِيَكُمْ نَصِيحَةً» أن الأنفس هنا تعنى ذات الشخص، وذهب آخرون إلى أنها تعنى نفوس الآخرين، والظاهر أن المعنى الثانى أنسب.

ومعلوم أن عمال الخراج لو عملوا بهذه الوظائف الأربع، أى أنهم تحركوا فى علاقاتهم فيما بينهم من موقع التواصى والتناصح وكذلك تعاملوا مع الرعية وجنود الإسلام بأليه اللطف وحسن الخلق، وعزموا فى تياتهم على تقوية الدين الإسلامى وتوطيد الرسالة الإلهية، فإن المجتمع الإسلامى سيشهد ازدهاراً كبيراً وتطوراً مهماً.

وفى ختام هذه الرسالة يبين الإمام عليه السلام آخر توصيه لعماله على الخراج ويقول:

«وَأَبْلُوا (٢) فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيُبْحَثُ قَدِ اصْطَنَعْتُمْ (٣) عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ».

وهذه إشاره إلى أن الاعتماد على الله ضرورى لتحقيق النجاح وكسب الموفقية

ص: ٢٤٥

١- (١) وردت فى بعض الروايات هذه الجملة وما بعدها فى رساله الإمام عليه السلام إلى قاده جيشه. (من كتاب صفين لنصر بن مزاحم، ص ١٢٥)، والتعبير بالجند يتناسب مع هذا النقل.

٢- (٢). «أبْلُوا» (من باب إفعال) بمعنى السعى وبذل الجهد لأداء الشىء، وأحياناً تأتي بمعنى الامتحان والاختبار أو التحلل والانحلال، وفى هذا المورد جاء بالمعنى الأول.

٣- (٣) «اصطنع» من ماده «اصطناع» بمعنى طلب الشىء، وأحياناً تأتي بمعنى صناعه الشىء وتربيته، وهنا جاءت بالمعنى الأول.

فى تجسيد هذه التوصيات على أرض الواقع ولزوم الاستعانه بالله تعالى فى سلوك خط الإيمان والعمل الصالح والالتزام الواعى بهذه القيم الأخلاقية والمثل الإنسانية.

وعباره

«فَإِنَّ اللَّهَ» (والفاء للتفريع) إشاره إلى أن إتيان هذه الأمور وترجمتها على مستوى التطبيق يمثل نوعاً من شكر الله تعالى على نعمه، ونحن مدينون فى هذا الحال لألطف البارى تعالى الذى وفقنا لإنجاز هذه التكاليف والوظائف.

ص: ٢٦٦

إلى أمراء البلاد في معنى الصلاه (١)

نظرة عامه للرساله

كما هو يتن من عنوان الرساله، فإن المخاطب لها امراء البلاد، لأنهم من جهه يتولون الأمور الدينيه للناس، وكذلك أمورهم الدينويه، مضافاً إلى إمامه الجمعه والجماعه أيضاً، ومحتوى هذه الرساله يبين في الحقيقه أمرين: أحدهما، أوقات الصلوات الخمس بشكل دقيق ومتى يأتي المسلم بكل واحده منها، والآخر أن إمام الجماعه يجب أن يأخذ بنظر الاعتبار أضعف المأمومين ويصلى طبقاً لهذا المعيار.

ص: ٢٤٧

١- (١). سند الرساله: جاء في كتاب مصادر نهج البلاغه أن هذه الرساله ذكرها أبو منصور الثعالبي من المعاصرين للسيد الرضى في الباب الثالث من كتاب «الإعجاز والإيجاز» مع تفاوت ملفت، وقد ذكر صاحب المصادر هذا التفاوت، وفي المجموع يستنتج أن الثعالبي (قطعاً) لم يأخذ هذه الرساله من نهج البلاغه للسيد الرضى. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٩٠).

أَمَّا بَعْدُ، فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّى تَفِيءَ الشَّمْسُ مِنْ مَرْبِضِ الْعَنْزِ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيضاءَ حَيْثُ فِي عُضْوٍ مِنَ النَّهَارِ حِينَ يُسَارُّ فِيهَا فَزَسِيخَانِ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ، وَيَدْفَعُ الْحَاجُّ إِلَى مَنَى، وَصَلُّوا بِهِمُ الْعِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَى الشَّفَقُ إِلَى ثُلثِ اللَّيْلِ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْغَدَاةَ وَالرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صَاحِبِهِ، وَصَلُّوا بِهِمُ صَلَاةَ أَضْعَفِهِمْ وَلَا تَكُونُوا فِتْنَانِينَ.

الشرح والتفسير: آداب الصلاة وأوقاتها!

إشارة

تقدّم آنفاً أنّ الإمام عليه السلام في هذه الرسالة يخاطب امراء البلاد، وهؤلاء الأمراء هم أئمة الجمعة والجماعة أيضاً، ويبيّن لهم أوقات الصلوات اليوميّة.

بدايه يشرع الإمام عليه السلام من صلاة الظهر ويقول:

«أَمَّا بَعْدُ، فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّى تَفِيءَ (١) الشَّمْسُ مِنْ مَرْبِضِ (٢) الْعَنْزِ (٣)».

كلمه «حتّى» إشارة إلى نهايه وقت فضيله الظهر، كما هو ظاهر التعبير بهذه الكلمه، ومفهومها أنّ الإمام عليه السلام بيّن في هذه العبارة نهايه وقت فضيله الظهر فقط،

ص: ٢٤٩

١- (١) «تفِيء» من ماده «فِيء» يعنى العوده والرجوع.

٢- (٢) «مَرْبِض» من ماده «رِبِض» على وزن «نَبِض» بمعنى جلوس الحيوان على صدره على الأرض، وبما أنّ الحيوانات تجلس بهذه الصوره فى الحضيره غالباً فإنّ المربض يأتى بمعنى الحضيره محل استراحه الأغنام والماعز.

٣- (٣) «عَنْز» الأنتى من الماعز، والماعز يطلق على كلّ أشكال هذا الحيوان، وأحياناً يأتى بمعنى الحيوان الذى يملك الشعر من الأنعام لا الصوف، وقصير الذنب.

وقد ورد في بعض الروايات أنه بمقدار ذراع، ومقدار الذراع لا يختلف كثيراً عن مريض العنز عندما تتمدد الشاه على الأرض، فيقترب مقدار المريض من مقدار الذراع، ولو كانت كلمه «حتى» تعني «حين» (١) ويقصد بها تعيين المده والزمان، فالظاهر أن المعنى يكون بدايه وقت الفضيله، ومفهومها أن وقت صلاه الظهر من أول الزوال إلى أن يكون ظلّ الشاخص (أى الظل الذى يظهر من لحظه زوال الشمس عند الظهر) بمقدار ذراع، فيمكن تأخير صلاه الظهر إلى ذلك الوقت، إما لغرض إتيان صلاه النافله أو لغرض اجتماع الناس لصلاه الجماعه.

وطبعاً فإنّ ابتداء وقت صلاه الظهر لا يكون قبل هذه الأمور وهو ما ذكره القرآن الكريم بصراحه وقال: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِتُدْلُوكِ الشَّمْسِ» (٢).

ثمّ بيّن الإمام عليه السلام آخر وقت فضيله صلاه العصر ويقول:

«وَصَلُّوا بِهِمُ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيَضَاءُ حَيْثُ فِي عَضْوٍ مِنَ النَّهَارِ حِينَ يُسَارُ فِيهَا فَوْسَخَانَ».

وهناك خلاف كبير في وقت صلاه العصر بين فقهاء أهل السنّه والوارد في كتبهم الفقهيه، ولكن المعروف بين علماء الشيعة أن وقت صلاه الظهر من ابتداء زوال الشمس من دائره نصف النهار، (وطبعاً بعد مضي مقدار من الوقت اللازم للإتيان بناقله الظهر)، وانتهاء وقتها إلى زمان يكون ظلّ الشاخص (الظلّ الذى يظهر بعد زوال) بمقدار الشاخص نفسه، ثمّ يبدأ وقت فضيله صلاه العصر ويمتد إلى زمان يكون فيه ظلّ الشاخص ضعفى الشاخص (وطبعاً طول وقصر الشاخص في هذه المسأله لا يتفاوت).

وما ذكره الإمام عليه السلام في الجمله أعلاه يشير إلى نهايه وقت فضيله صلاه العصر، ولا يختلف هذا المقدار مع ما هو معروف بين فقهاءنا.

ص: ٢٧٠

١- (١). ورد في بعض نسخ نهج البلاغه بدل كلمه «حتى» حين. مثل كتاب اختيار مصباح السالكين، ص ٥٣٩ وكتاب حدائق

الحقائق، ج ٢، ص ٥١٧.

٢- (٢) سورة الاسراء، الآية ٧٨.

فى المرحله الثالثه أشار الإمام عليه السلام إلى وقت صلاه المغرب وقال:

«وَصَلُّوا بِهِمُ الْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ، وَيَدْفَعُ الْحَاجُّ إِلَى مَنْى».

وبما أنّ وقت إفطار الصائم وحركه الحجاج من عرفات معلوم فى نظر عامّه الناس حيث تبدأ الحركه مع غروب الشمس، فالإمام عليه السلام يجعل هذا الأمر مقياساً للوقت.

وتأخير صلاه المغرب والإفطار إلى زمان زوال الحمرة المشرقيه من وسط السماء يمثّل فى الواقع نوعاً من الاحتياط، والوقت هو غروب الشمس (وذلك طبعاً فى نظرنا ونظر جماعه من فقهاء أهل البيت عليهم السلام).

وهنا يكتفى الإمام عليه السلام فى الواقع بما هو معروف ومشهور بين عامّه المسلمين فى الوقت الذى يفطر فيه الصائم ويتحرك الحجاج من عرفات.

وفى المرحله الرابعه يشير الإمام عليه السلام إلى وقت صلاه العشاء ويقول:

«وَصَلُّوا بِهِمُ الْعِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَى الشَّفَقُ إِلَى ثُلْثِ اللَّيْلِ».

ولابدّ من معرفه المراد من الشفق، وهل هو الحمرة المغربيه (أى الشعاع الأحمر الذى يظهر من جهه المغرب بعد اختفاء قرص الشمس)، أو البياض الشفاف الذى يظهر بعد اختفاء ذلك الشعاع الأحمر ويبقى لمدّه من الوقت؟ كلا الاحتمالين واردان فى تفسير كلام الإمام عليه السلام، لأنّ الشفق يطلق على كلا هذين الأمرين، ولكن المشهور بين علماء الشيعة هو المعنى الأوّل، وفى هذا العصر فأهل السنّه يجعلون المعنى الثانى ملاكاً للعمل غالباً، رغم أنّ الفقهاء الأربعة مختلفون فيما بينهم فى هذه المسأله.

وفى المرحله الأخيره والخامسه يشير الإمام عليه السلام إلى بدايه وقت صلاه الصبح ويقول:

«وَصَلُّوا بِهِمُ الْعَدَاةَ وَالرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صَاحِبِهِ».

ومعلوم أنّ المستفاد من آيات القرآن الكريم والمشهور بين الفقهاء هو أنّ ابتداء صلاه الصبح من زمان طلوع الصبح الصادق، أى البياض الواسع الذى يظهر إلى جانب الأفق، ويتفق العلماء فى هذه المسأله، ولكن بما أنّ النهوض من داخل المدن والتوجه إلى خارجها أو الصعود على سطوح المنازل والنظر إلى الخارج لمعرفة

طلوع الفجر الصادق لا- يعدّ أمراً ميسوراً، فقد بين الإمام عليه السلام معياراً أيسر من ذلك، وهو أن تخف حدّ الظلام قليلاً ويخالط الجو بعض إشراقات الفجر بحيث يرى الشخص صاحبه الواقف إلى جانبه ويعرفه، أضف إلى ذلك فإنّ حضور الناس لصلاه الجماعة يتطلب مقداراً أكثر من الوقت، ولذلك يتطابق هذا المعنى مع ما ذكره الإمام عليه السلام.

وفى الختام يصدر الإمام عليه السلام لهم هذا الأمر فى كيفية صلاه الجماعة ويقول:

«وَصَلُّوا بِهِمْ صَلَاةً أضعفهم وَلَا تَكُونُوا فَتَانِينَ».

إنّ أهميّة هذا الموضوع إلى درجه أنّ أمير المؤمنين على عليه السلام يروى حديثاً عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويقول:

آخر ما فارقت عليه حبيب قلبى صلى الله عليه وآله أن قال:

«يا عَلِيُّ إِذَا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلَاةً أضعف من خَلْفِكَ»^(١).

وعندما أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وآله (لنشر الإسلام) إلى اليمن، سألته: كيف اصلى بالناس فقال:

«صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أضعفهم وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً»^(٢).

وقد ورد هذا المعنى فى عهد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر حيث أوصاه الإمام بهذه الوصية.

«فتان» من ماده «فتنه» وفى الأصل تعنى وضع الذهب فى النار ليخلص من الشوائب، وبهذه المناسبة استخدمت هذه الكلمة فى معانٍ مختلف، منها الابتلاء والامتحان، الخداع، البلاء والعذاب، والأذى والألم، والكلمه فى عباره الإمام عليه السلام تتناسب مع المعنى الأخير، ولا يبعد أن يكون المراد هو الخداع أيضاً، ويمكن الجمع بين هذين المعنيين أيضاً.

وطبعاً فإنّ هذا الكلام لا يعنى أن تصلّى صلاتك بشكل سريع بحيث تضرّ بأركان الصلاه وواجباتها، أو لا يتمكن الضعفاء بسبب هذه السرعة أن يلتحقوا بك فى ركوعهم وسجودهم وقيامهم وقعودهم، وهذا ما أشارت إليه الروايات الشريفه،

ص: ٢٧٢

١- (١) من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٢٨٣، ح ٨٧٠.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ٦٠٧.

منها ما ورد في عهد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر حيث أمره بهذه التوصية:

«فَلَا تَكُونَنَّ مُنْفَرًّا وَلَا مُضَيِّعًا». أجل، لا بدّ من رعايه الاعتدال والتوازن في جميع الأمور.

وينبغي الالتفات إلى هذه النقطة، وهي أنّ التوصية بالرغم من كونها وارده في خصوص الصلاة، ولكن يمكن سرايه هذا المفهوم إلى سائر العبادات بل إلى جميع البرامج الاجتماعية، فيجب أن تكون البرامج الإسلاميّة في الأبعاد العباديّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة، والأخلاقيّة، من حيث التطبيق بحيث لا تثقل على كاهل الناس ولا تتسبب في خروجهم عن الدين، ولا أن تؤدي السرعة والعجلة فيها إلى تفرغها من محتواها ومضمونها.

وكذلك من الجدير بخطباء أئمة الجمعة المحترمين، وكذلك المسؤولين عن مجالس الدعاء والابتهاال ومجالس العزاء مراعاة هذا الأصل، فلا يسرعوا في خطبهم وأدعيتهم ومراسيم العزاء بحيث تسلب روحها ومضمونها، ولا يؤتى بها بشكل متأخر ومطول بحيث تؤدي إلى تعب الحاضرين ومللهم.

تأمل

أداء الصلوات الخمس في ثلاثة أوقات

نعلم أنّ الصلوات اليومية في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وكذلك في عصر الأئمة المعصومين عليهم السلام كان تقام بشكل منفصل وفي الأوقات الخمسة وفي وقت الفضيله، واليوم لو صلينا الصلوات اليومية في خمسة أوقات لكان أفضل، ولكن مع ذلك فإنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله جمع بين صلاتي الظهر والعصر، وكذلك بين المغرب والعشاء في أسفاره بدون أن يكون هناك عذر خاص (من قبيل الحر الشديد والبرد الشديد والمطر)، مضافاً إلى ذلك فقد اتفق مراراً في حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه صلى الله عليه وآله جمع بين الصلاتين بدون أي عذر وقال: احبّ الرخصة على امتي حتى أنّهم إذا رغبوا في الجمع بين الصلاتين أمكنهم ذلك.

ولكن مع الأسف فإنّ جمع غفير من علماء أهل السنّه أصرّوا على الفصل بين الصلوات الخمس والإتيان بها بشكل منفصل، وهذه المسأله أدت إلى حدوث مشاكل كثيره وخاصّه فى وقت العصر، لأنّ حياه الناس قد تغيّرت فى العصر الحاضر، فالكثير من العمّال الذين يعملون فى المعامل والمصانع، وكذلك الموظفين الذين يشتغلون فى الإدارات الرسميه والشركات وبخاصّه طلاب الجامعات وحضورهم فى قاعات الدرس صار بشكل لا يستطيع المسلم الإتيان بالصلوات اليوميّه فى الأوقات الخمسه بسهوله، وهذا الأمر تسبب فى ترك الكثير منهم للصلاه.

ونعلم قطعاً أنّ الإسلام دين الرحمه وبتقضى النبوى المعروف:

«بُعِثْتُ بِالشَّرِيعَةِ السَّمَحَةِ السَّهْلَةِ» فإنّه قد فتح طريقاً للحل أمام هؤلاء الأشخاص حتى لا يتورطوا فى ترك الصلاه من جهه، ولا يبتلوا بالصعوبه والمشقه البالغه.

والعجيب أنّ فى مصادر أهل السنّه المعروفه: ك «صحيح مسلم، صحيح البخارى، سنن الترمذى، موطأ مالك، مسند أحمد، سنن النسائى، مصنّف عبدالرزاق» وكتب أخرى وهى كلّها من المصادر والمنايع المعروفه والمشهور لديهم، هناك ثلاثون روايه فى باب الجمع بين صلاه الظهر والعصر أو صلاه المغرب والعشاء بدون السفر والمطر وخوف الضرر، ولكنّ هؤلاء الإخوه قد تغافلوا عنها جميعاً وشدّدوا أمر الصلاه على الناس وبخاصّه الشباب منهم.

وهذه الروايات وارده من طريق خمسه رواه معروفين:

١. ابن عباس.

٢. جابر بن عبدالله الأنصارى.

٣. أبو أيوب الأنصارى.

٤. عبدالله بن عمر.

٥. أبو هريره.

وسنشير فيما يلى إلى جملة منها:

ص: ٢٧٤

١. نقل سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال:

«صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَمِيعاً بِالْمَدِينَةِ فِي غَيْرِ خَوْفٍ وَلَا سَفَرٍ» يقول أبو زبير: سألت سعيد بن جبير، لِمَ فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال سعيد: سألت (يعنى هذا السؤال) ابن عباس كما سألتني فقال:

«أَرَادَ أَنْ لَا يُحْرِجَ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِهِ» (١).

٢. يقول جابر بن زيد: قال ابن عباس:

«صَلَّى النَّبِيُّ سَبْعاً جَمِيعاً وَثَمَانِيَةً جَمِيعاً» (٢)، وهي إشارة إلى أَنَّ النَّبِيَّ الأَكْرَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ جَمَعَ فِي صَلَاتِهِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ.

٣. جاء في «مصنّف» عبد الرزاق أَنَّ عبد الله بن عمر قال:

«جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ مُقِيمًا غَيْرَ مُسَافِرٍ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ فَقَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ: لِمَ تَرَى النَّبِيَّ فَعَلَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لِأَنَّ لَا يُحْرِجُ أُمَّتَهُ إِنْ جَمَعَ رَجُلٌ» (٣).

٤. ويروى عبدالله بن مسعود:

«جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ بَيْنَ الأُولَى وَالْعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ فَقِيلَ لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَالَ: صَنَعْتُهُ لِأَنَّ لَا تُكُونُ أُمَّتِي فِي حَرْجٍ» (٤).

٥. وروى أبو هريره أيضاً:

«جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ بَيْنَ الصَّلَاتَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ» (٥).

وكما قلنا آنفاً أَنَّ الروايات الواردة في هذا الباب أكثر من هذا المقدار، وخلاصه ما ورد فيها أَنَّ النَّبِيَّ الأَكْرَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قد جمع في بعض المواضع بين صلاة الظهر والعصر أو بين صلاة المغرب والعشاء في حين لم تكن هناك مشكله خاصه كالمطر أو السفر أو الخوف من العدو، ولم يكن الهدف من ذلك سوى التوسعه على الأُمَّه ورفع العسر والحرج، فهل يصح مع هذا الحال أن يستشكل البعض في مسأله الجمع ويقول بأنَّ

ص: ٢٧٥

١- (١) صحيح مسلم، ج ٢، ص ١٥١، باب الجمع بين الصلاتين في الحضر، ح ٤٥ و ٥٠.

٢- (٢) . صحيح البخارى، ج ١، ص ١٤٠، باب وقت المغرب.

٣- (٣) . مصنّف عبد الرزاق، ج ٢، ص ٥٥٦.

٤- (٤) . المعجم الكبير الطبراني، ج ١٠، ص ٢١٩، ح ١٠٥٢٥.

الجمع متعلق بموارد الاضطرار؟ لماذا نغض النظر عن رؤيه الحقائق الشرعيه ونرجح أفهامنا ومسبقاتنا الفكرية على قول رسول الله صلى الله عليه وآله الصريح فى هذا الأمر وبالتالى نثقل هذه العباده على كاهل الأمة؟ وعندما يأذن الله ورسوله بالرخصه فى شىء فلماذا لا يأذن المتعصبون فى هذه الأمة؟ لماذا لا يريدون من الشباب المسلمين أن يؤدوا صلواتهم اليوميه وهى أهم وظيفه الإسلاميه فى كل الأحوال فى جميع الأماكن فى داخل البلاد الإسلاميه وخارجها فى الجامعات والإدارات والمعامل والأسواق؟

نحن نعتقد أن الإسلام يمتد لكل زمان ومكان إلى نهايه الدنيا، ومعلوم أن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله كان يرى بنظره الواسع حال جميع مسلمين فى العالم وفى جميع الأعصار والحقب الزمنيه، وأنهم إذا كانوا مقيدين بالصلوات فى خمس أوقات فإن ذلك من شأنه أن يشق على أمته ويدعو جماعه منهم لترك الصلاه، ولذلك صدر الإمر الإلهى إليه أن يخفف عن أمته ويوسع دائره الرخصه فى هذا الشأن.

والجدير بالذكر أن الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا» (١) يقول بصراحه:

واعلم أنه يتفرع على هذين القولين بحث يكون المذكور فى الآيه ثلاثه أوقات:

وقت الزوال، ووقت أول المغرب، ووقت الفجر، وهذا يقتضى أن يكون الزوال وقتاً للظهر والعصر، فيكون هذا الوقت مشتركاً بين هاتين الصلاتين، وأن يكون أول المغرب وقتاً للمغرب والعشاء، فيكون هذا الوقت مشتركاً أيضاً بين هاتين الصلاتين، فهذا يقتضى جواز الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء مطلقاً.

وقد بين أنه دلّ الدليل على أن الجمع فى الحضر من غير عذر لا يجوز، توجب أن يكون الجمع جائزاً بعذر السفر وعذر المطر وغيره (٢)، وهذا ما يقال من الاجتهاد

ص: ٢٧٦

١- (١) . سورة الاسراء، الآيه ٧٨.

٢- (٢) . التفسير الكبير، للفخر الرازى، ج ٢١، ص ٢٧.

في مقابل النص.

وكما قلنا في بدايه هذا البحث أنّ رعايه وقت الفضيله والإتيان بكل صلاه في هذه الأوقات الخمسه مسنون وأولى، رغم أنّ الجمع بين الصلاتين يعتبر رخصه، ومن هذه الجبهه فالإمام عليه السلام بيّن أوقات الصلاه الخمس بشكل منفصل.

ص: ٢٧٧

كَتَبَهُ لِلأَشْتَرِ النَّخَعِي لَمَّا وَلَّاهُ عَلَى مِصْرَ وَأَعْمَالِهَا
حِينَ اضْطَرَبَ أَمْرُ أَمِيرِهَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ
أَطْوَلُ عَهْدٍ كَتَبَهُ وَأَجْمَعُهُ لِلْمَحَاسِنِ (١)

نظرة عامه للرساله

(المهمه جداً لمالك الأشتر)

خمسون نكته مهمه فى عهد واحد

من أجل إدراك أهميته هذا العهد الشريف، وقبل أن نتوغل فى دراسه محتوياته ومضامينه، ينبغى الالتفات إلى عدّه أمور: (٢)

ص: ٢٧٩

١- (١) سند الرساله العهديه: هذه الرساله المعروفه بعهد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر من أشهر كتب ورسائل أمير المؤمنين عليه السلام والغنيه عن التعريف ولا تحتاج لذكر السند، وهذه الرساله وردت فى كتب كثيره قبل السيد الرضى وكذلك بعده، وفى الحقيقه أنّ شهره هذه الرساله أسمى وأعلى من أن تحتاج إلى شرح مداركها.

٢- (٢) ولكن صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه يصرّح أنّ جماعه من الأكابر قبل السيد الرضى، مثل الحسن بن على بن شعبه (المتوفى ٣٣٢) ذكرها فى كتاب تحف العقول، وذكرها القاضى النعمان المصرى (المتوفى ٣٦٧) فى كتاب دعائم الإسلام، وذكرها بعد السيد الرضى، الرجالى المعروف النجاشى فى كتابه «الفهرست» فى شرح حال الأصغ بن نباته، وكذلك الشيخ الطوسى فى كتابه الفهرست، والنويرى فى نهايه العرب مع اختلاف يسير، وابن عساكر (المتوفى ٥٧١) فى تاريخ مدينه دمشق حيث ذكر مقاطع منها. والجدير بالذكر أنّ العلماء والكتّاب كتبوا شروحاً كثيره جداً على هذه الرساله، منهم: ١. آداب الملوك نظام العلماء، ٢. أساس السياسه للواعظ المعروف الشيخ محمد الكجورى الملقب بسطان المتكلمين. ٣. التحفه السليمانيه للسيد ماجد البحرانى (المتوفى بعد ١٠٩٧). ٤. الراعى والرعيه للكاتب الأستاذ توفيق الفكيكى. ٥. السياسه العلويه تأليف عبدالواحد آل مظفر. ٦. شرح عهد أمير المؤمنين لمحمد باقر بن صالح القزوينى. ٧. شرح عهد أمير المؤمنين للعلامة المجلسى (المتوفى ١١١١). ٨. شرح عهد أمير المؤمنين للميرزا حسن بن السيد على القزوينى (المتوفى ١٣٥٨). ٩. شرح عهد أمير المؤمنين للميرزا محمد بن سليمان التنكابنى. ١٠. شرح عهد أمير المؤمنين الشيخ هادى بن محمد حسين القائنى. ١١. شرح الفاضل. ١٢. فرمان المبارك لجواد. ١٣. نصايح الملوك للمولى أبى الحسن العاملى. ١٤. مقتبس السياسه وسياج الرئاسه. ١٥. القانون الأكبر فى شرح عهد الإمام للأشتر للسيد مهدى السويج. ١٦. مع الإمام على فى عهده لمالك الأشتر للعلامة الشيخ محمد باقر الناصرى (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٤٢٦) وهناك شروح كثيره أخرى كتبت فى عصرنا الحاضر، وقد سمعنا فى الأخبار أنّ هذه

الرساله ترجمت إلى لغات مختلفه ووضعت في مبنى الأمم المتحده بعنوان سند تاريخي ووزعت على نواب دول العالم في الأمم المتحده.

إن هذه الرسالة المطولة والعميقة المضامين تعدّ من أهم ما ورد من كتب ورسائل في نهج البلاغه وناظره لجميع أبعاد وجهات الإدارة والتدبير لأمر الحكومه وتحتوى على أصول ثابتة وقواعد متماسكه لا يطرأ عليها القدم ولا تبلى أبداً وترسم فى مضامينها كافه تفاصيل الحياه السياسيه والإداريه فى الحكومه الإسلاميه.

١. ميا يجدر ذكره أنّ ابن أبى الحديد فى ذيل الخطبه القصيره رقم ٦٨ (وقد ورد شرح هذه الخطبه سابقاً وفى شرح بن أبى الحديد الخطبه تحت رقم ٦٧) ينقل عن إبراهيم الثقفى صاحب كتاب «الغارات» رساله مفصله وطويله نسبياً أنّ الإمام على عليه السلام قد كتب إلى محمّد بن أبى بكر برنامجاً أخلاقياً لتهديب النفوس وتطهير القلوب وتقويه عنصر التقوى فى الإنسان، وفى ذيل هذه الرساله ينقل هذا المؤرخ (صاحب كتاب الغارات) كان محمّد بن أبى بكر ينظر فيه ويتأدّب بأدابه - كان يحمل معه هذه الرساله فى مصر ويطالعها بين الحين والآخر ويتمسك بأدابها ويلتزم بما ورد فيها من التعاليم - فلما ظهر عليه عمرو بن العاص، أخذ كتبه أجمع فبعث بها إلى معاويه، فكان معاويه ينظر فى هذا الكتاب ويتعجب منه.

ثمّ قال: إنّ الوليد بن عقبه (أخا عثمان من أمّه وهو الذى نزلت فى حقّه آيه «إن

جاءكم فاسق..» حيث أطلق عليه القرآن وصف الفاسق) وكان حاضراً عند معاوية وقد رأى اعجابه به، فقال لمعاوية: مر بهذه الأحاديث أن تحرق. فقال معاوية: مه، لا رأى لك! فقال الوليد: أفمن رأى أن يعلم الناس إن أحاديث أبي تراب عندك تتعلم منها! فقال معاوية: ويحك أأمرني أن أحرق علماً مثل هذا! والله ما سمعت بعلم هو أجمع منه ولا أحكم. فقال الوليد: إن كنت تعجب من عمله وقضائه فعلاّم تقاتله؟ فقال: لولا- أن أبا تراب قتل عثمان ثم أفتانا لأخذنا عنه. ثم سكت حينه، ثم نظر إلى جلسائه وقال: إننا لا نقول: إن هذه من كتب على بن أبي طالب، ولكن نقول:

هذه من كتب أبي بكر الصديق كانت عند ابنه محمد، فنحن نظر فيها، ونأخذ منها.

قال: فلم تزل تلك الكتب في خزائن بني أمية حتى ولى عمر بن عبدالعزيز، فهو الذى أظهر أنّها من أحاديث على بن أبي طالب عليه السلام.

والجدير بالذكر أنّ ابن أبي الحديد بعد أن نقل هذا الكلام عن صاحب «الغارات» يقول: «الأليق أن يكون الذى كان معاوية ينظر فيه ويعجب منه، ويفتى به ويقضى بقضايه وأحكامه هو عهد الإمام على عليه السلام إلى الأشر، فإنه نسيج وحده، ومنه تعلم الناس الآداب والقضايا والأحكام والسياسة (والحال أن كتاب الإمام عليه السلام لمحمد بن أبي بكر يتضمّن مجموعه من المسائل الأخلاقية) وهذا العهد صار إلى معاوية لما سمّ الأشر ومات قبل وصوله إلى مصر، فكان ينظر فيه ويعجب منه، وحقيق مثله (يعنى الكتاب العهدي) أن يقتنى في خزائن الملوك»^(١).

وعلى ضوء ذلك فإنّ ابن أبي الحديد يعتقد بأنّ هذه الرسالة التاريخية الفريدة، التى كان معاوية يستفيد منها ولم يظهر ذلك لأحد وبعده انكشف الستار عنها بواسطة عمر بن عبدالعزيز، هى ما نحن بصددده من عهد أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشر.

ونحن بدورنا نؤيد نظر ابن أبي الحديد بصوره كامله، لأنّ القرائن والشواهد المختلفه تشهد على هذا المعنى.

ص: ٢٨١

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٦، ص ٧٢ و ٧٣.

٢. يقول الكاتب المسيحي المعروف «جورج جرداق» في كتابه «الإمام على صوت العدالة الإنسانيّة»: «إلّا أنّه من الصعب على المرء أن يجد الإنسان اختلافاً بين هذا العهد العلويّ والثيقه الدولّيّ لحقوق الإنسان، فليس من أساس بوثيقه حقوق الإنسان إلّا وتجد له مثيلاً في دستور ابن أبي طالب، وهذا إلى إطار من الحنان الإنساني العميق يحيط به الإمام دستوره في المجتمع، ولا يحيط الأمم المتحدّه وثيقتها بمثله»^(١).

وينبغي الالتفات إلى أنّ لائحته حقوق الإنسان العالميّه قد تمّ تدوينها بعد ألف وثلاثمائه عام من تدوين عهد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر، أضف إلى ذلك أنّ اللائحه العالميّه قام بتدوينها جماعه من المفسّرين من شتى بلدان العالم ومع ذلك فإنّها تحتوى على بعض النقائص ونقاط الضعف والقصور، وأهمّها أنّها فارغه من المسائل المعنويّه والقيم الإنسانيّه الساميه.

٣. ومن أجل الإحاطه بأهميّه هذه الرساله والعهد مورد البحث ينبغي الإشارة إلى مكان مسؤوليّه مالك الأشتر، أي أرض مصر.

يتفق المؤرخون تقريباً أنّ منطلق الحضارات البشريّه تمتد بجذورها إلى منطقه الشرق، ومنها أرض مصر التي وجدت فيها الحضاره قبل غيرها من البلدان بآلاف السنين، فقد وطد المصريون دعائم التمدن البشري إلى درجه أنّ «ويل دورانت» يسمي هذه المنطقه بأنّها مهد الحضاره البشريّه، ومن هذه الجبهه نرى أنّ الأنبياء الإلهيين الذين أرسوا دعائم التمدن المادي والمعنوي في الأمم البشريّه جميعهم قد بعثوا من هذه المنطقه، ثمّ إمتدت دعوتهم إلى نقاط أخرى من العالم.

ويقول المؤرخ المذكور في الجزء الأوّل من تاريخه المعروف ب «قصّه الحضاره» بعد أن خصص عشرات الصفحات حول الحضاره المصريّه القديمه: إنّ الآثار المهمه الباقيه منذ ذلك الوقت ولمدّه آلاف السنين وبرغم المتغيرات في هذه العصور

ص: ٢٨٢

١- (١) مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٤٢٥.

والحقب الزمانيه لا زالت باقيه، وهذه علامه أخرى عن عظمه هذه الحضاره القديمه.

لقد كانت مصر تمثل إحدى المراكز العلميه والحضاريه المهمه في العالم، وخاصه مدينه الاسكندريه التي تعد - وفقاً للمدارك والاسناد التاريخيه - أحد أهم هذه المراكز العلميه، ولم يقتبس أهالي مصر علوم اليونان فحسب، بل أضافوا إليها علوماً كثيره أخرى، ففي الحقيقه أنّ مصر لم تكن بمثابة محافظه أو منطقه من الحكومه الإسلاميه، بل دوله كبيره وواسعه يقطن فيها شعب متمدن.

وقد دخلت مصر في عام ١٩ للهجره في زمان الخليفه الثاني تحت لواء الإسلام بواسطه الجيش الإسلامى الذى أرسله الخليفه الثاني لفتحها، ومنذ ذلك الزمان والمصريون يعيشون فى ظلّ الإسلام وقد تقبلوا، كالأيرانيين، هذا الدين الجديد الذى يملك ثقافه قويه وتظهر على تعاليمه معالم الحقايقه، ولكن للأسف فإنّ بعض الحكام الظلمه أمسكوا بمقاليد السلطه فى مصر من قبل الخلفاء ومنهم: عبدالله بن أبى سرح(١) الذى تولى ولايه مصر فى زمان عثمان وتسبب ظلمه وجوره على أهالى مصر فى انتفاضتهم على الوضع السائد، وكما نعلم أنّ هذه الانتفاضه إمتدت إلى المدينه، وقد زادت أخطاء الخليفه الثالث فى الطين بله، وعملت على تعميق الخلل والشعور بالاستياء لدى عامه الناس، ومن ذلك ما أصدره عثمان من عزل عبدالله وكتب فيها كتاباً وسلّمه إلى الثوار ليعودوا إلى مصر، ولكنّه أرسل رساله أخرى إلى عبدالله بن أبى سرح يأمره فيها بقتل هؤلاء الثوار فى حال عودتهم إلى مصر، وقد وقعت هذه الرساله بيدهم فى وسط الطريق، فعادوا من فورهم ووقعت حادثه قتل عثمان.

أمّا الإمام على عليه السلام فإنّه من أجل جبران الأخطاء المذكوره، أرسل فى بدايه الأمر محمّد بن أبى بكر لحكومته مصر، ولما ثبت عملياً أنّه لا يستطيع تحمل هذه

ص: ٢٨٣

١- (١). كتبنا فى شرح حال عبد الله أبى سرح - الأخ الرضاعى لعثمان - فى الإسلام، فى ذيل الرساله ٣٨ من الجزء التاسع من هذا الكتاب.

المسؤولية الثقيله، أمر الإمام عليه السلام شخصاً آخر يملك القدره والحكنه والحزم فى الأمور، وهو مالك الأشر، لهذه المهمه وأرسل معه هذه الرساله والعهد مورد البحث لترتيب وإداره أوضاع هذا البلد الكبير وأرسله إلى مصر، ولكن للأسف فإن جريمه معاويه منعت من تحقق هذا البرنامج الإنسانى العظيم على أرض الواقع وأن يتنفس أهالى مصر السعداء ميا لاقوه من الولاه السابقين.

مهما يكن من أمر فهذا الكتاب الذى كتبه الإمام عليه السلام لمالك الأشر يتشكل فى نظره إجماليه من عدّه أقسام ومقاطع، وربّما أمكن تقسيمه من زاويه معينه إلى خمسين قسماً.

١. القسم الأوّل، يلخص الإمام عليه السلام الهدف الأساس من إرساله مالك الأشر إلى مصر فى أربعة أمور: الاهتمام الكامل بجمع الخراج، والتصدي لأعداء مصر، وإصلاح أهلها، وإعمار هذا البلد.

٢. التأكيد على لزوم رعايه التقوى قبل كلّ شىء، وبيان أهميتها ودورها فى حياه الإنسان.

٣. مجاهده النفس وتهذيبها.

٤. الفات نظر مالك الأشر إلى منطقه عمله ومحل مسؤوليته.

٥. النصيحة له بالتحرك فى خط العمل الصالح واجتناب البخل.

٦. السعى وبذل لجهد لكسب رضا الرعيه وعامه الناس.

٧. النهى عن التمرد على الأوامر الإلهيه.

٨. بيان طريقه مواجهه حالات الكبر والغرور الناشئه من تولى المقام والمنصب.

٩. رعايه العدل والإنصاف فى كلّ الأحوال، واجتناب كلّ شكل من أشكال الظلم والجور التى تسبب فى تغيير النعم والمواهب الإلهيه وتبديلها.

١٠. ينبغى أن يكون أحبّ الأشياء إليه جلب رضا عامه الناس لا الخواص منهم.

١١. الحذر من وساوس الانتهازيين والناممين والسعى فى إسدال الستار على عيوب الناس.
١٢. لزوم المشوره فى الأعمال والنشاطات فيما يتصل بتدبير الأمور، والحذر من مشوره الأشخاص البخلاء والجبناء وأهل الدنيا.
١٣. عزل المتولين السابقين والمسؤولين الظالمين وتوثيق الرابطة مع أصحاب الورع والصدق والإيمان.
١٤. تشويق المحسنين والصالحين وتوبيخ المسيئين وعقابهم.
١٥. كسب حسن ظنّ الناس من خلال الإحسان إليهم، والتخفيف من ثقل الضرائب عليهم.
١٦. احترام الآداب والتقاليد الحسنه للقدماء.
١٧. استمرار مجالسه العلماء وأهل خبره والتشاور معهم.
١٨. تقسيم الرعيه إلى طوائف متعدده وخدمه كلّ طبقه منهم وفق حاجاتهم ومواقعهم الذاتيه والاجتماعيه.
١٩. التأكيد بشده على رعايه الطبقة المحرومه والمعدمه.
٢٠. بيان خصائص القاده العسكريين والمسؤولين فى الجيش الإسلامى.
٢١. الاهتمام الخاص بسوابق الأشخاص والعوائل الصالحه وذات السمعه الحسنه.
٢٢. خصوصيات القاده الكبار.
٢٣. التأكيد على أصل العداله، الذى يتواصل مع روحيه القاده والزعماء وهو قره عين لهم.
٢٤. الثناء على الأعمال الحسنه للصالحين والمحسنين لتقويه عناصر الخير فى المجتمع الإسلامى ولتشويق الجميع على عمل الخير والإحسان.
٢٥. قياس قيمه عمل كلّ شخص بدون الالتفات إلى مكانته الاجتماعيه.

٢٦. الرجوع إلى الكتاب والسنة في حل المشكلات واستنباط الأحكام.

٢٧. ذكر شروط القضاء والصفات اللازمه التي يجب توفرها فيهم.

٢٨. الإشراف على الأحكام القضائيه التي يصدرها القضاء في حق المحكومين وتأمين نفقاتهم ومعيشتهم في الحياه بشكل كامل لمنع التورط في عمليته الرشوه.

٢٩. بيان المعيار في انتخاب الولاة والقاده في البلاد ودفع حقوقهم المائيه بشكل كاف ووضع العيون (الجواسيس) لضبط أعمالهم.

٣٠. وضع خطه لعمليه الخراج والضرائب والاهتمام بعمران المنطقه وإحيائها قبل الاهتمام بجمع الخراج.

٣١. بيان الخصوصيات المتعلقة بالمدرء والمسؤولين عن الاسناد والوثائق وموظفيهم وتقسيم العمل بينهم بشكل دقيق.

٣٢. الاهتمام التام بوضع التجار وأصحاب الصناعات والأشخاص الذين يتحركون في خدمه الناس على مستوى نقل أو إنتاج ما يحتاجونه، والإشراف الدقيق على المعاملات والأسعار والتصدي لظاهرة الاحتكار.

٣٣. التأكيد أكثر على الاهتمام بالطبقه المحرومه والضعيفه ولزوم التواصل معهم والاطلاع على وضعهم.

٣٤. لزوم الاهتمام بوضع الأيتام والعجزه.

٣٥. تعيين وقت خاص للقاء العامه من الناس والإذن لهم بمقابله المسؤولين بشكل مباشر.

٣٦. تعيين وقت خاص آخر للموظفين والمسؤولين من أجل حلّ مشكلاتهم الخاصه.

٣٧. تنظيم برنامج دقيق للأعمال اليوميه المختلفه.

٣٨. الاهتمام بإقامه الفرائض الدينيه وخاصه صلاه الجماعه وكيفيه إقامتها وتعيين وقت خاص للارتباط مع البارى تعالى.

٣٩. عدم الابتعاد عن الناس والاحتجاب عنهم مدّه طويله.

٤٠. كيفيه التعامل مع الأصحاب الخاصين والمطلعين على أسرار الدوله.

٤١. الرعايه الدقيقه لحقوق جميع الأفراد، سواءً كانوا من منطقه قريبه أو بعيده.

٤٢. تقديم عذر موجّه وتبرير معقول في مقابل ما يعيشه الناس من شحه في الموارد وظهور المشكلات ممّا يوّدَى إلى سوء الظن بالولاه.

٤٣. قبول دعوه الأعداء للصلح وفي ذات الوقت رعايه حاله الحذر في مقابلهم مع إحترام العهود والمواثيق التي تعقد معهم.

٤٤. الاجتناب بشدّه عن سفك دماء البرياء.

٤٥. اجتناب كلّ أشكال العجب والأنانيه والغرور.

٤٦. الحذر من إظهار المن على الرعيه.

٤٧. اجتناب التسرع والعجله في الأعمال.

٤٨. اجتناب الرشوه وأخذ حقّ الخاص في المشتركات.

٤٩. الاهتمام بمطالعه سيره النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله والأنبياء الإلهيين في جميع الأمور المتعلقة بالحكومه.

٥٠. وأخيراً الدعاء لنفسه ولمالك الأشر وطلب الرحمه والتوفيق له من الله تعالى.

ويمكن من زاويه معنيه وضع جميع هذه الأمور في عشره محاور:

١. بيان أهمّيه المسؤوليه الملقاه على عاتق مالك الأشر.

٢. التنبيهات الأخلاقيه العامه في مجال الحكومه وتدبير الأمور.

٣. تقسيم الرعيه وشرائح المجتمع المختلفه إلى عدّه فئات وطوائف، من القوى العسكريه إلى عمّال جبايه الضرائب والموظفين لدى الحكومه والقضاة والتجار وأصحاب الصنائع وتعيين الوظائف والخصوصيات المتعلقة بكل فئه منهم.

٤. الاهتمام الكبير فيما يتصل بالطبقات المحرومه.

٥. لزوم تعيين وقت لمواجهه ولقاء عامه الناس، أى الانفتاح على العامه وفتح الباب لهم ولارباب الحاجات.

٦. اختيار مشاورين أقوياء ومن أهل الخبره.

٧. التصدى لكل أشكال الرشوه والامتيازات الذاتيه.

٨. الاهتمام بأمر الصلح مع العدو وفى ذات الوقت أخذ جانب الحذر منه واجتناب كل أشكال سفك الدماء بدون دليل.

٩. الاهتمام بأمر إقامة الفرائض الدينيه لعموم الناس.

١٠. الدعاء لتحقيق النجاح والتوفيق فى أداء المسؤوليات واستمداد من الله تعالى فى هذا الشأن.

ص: ٢٨٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، مَا لَيْسَ بِنَبِيِّهِ، بِنَبِيِّهِ، حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ: جَبَايَةَ خَرَجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا، أَمْرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَإِثَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ: مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ، الَّتِي لَا يَسِيءُ عَدُوٌّ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا، وَلَا يَشْفِي إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسَانِهِ؛ فَإِنَّهُ، جَلَّ اسْمُهُ، قَدْ تَكْفَلَ بِنَصِيرٍ مَنْ نَصَرَهُ، وَإِعْرَازٍ مَنْ أَعْرَاهُ. وَأَمْرُهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَيَزْعَمَهَا عِنْدَ الْجَمْعَاتِ، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَارَةً بِالسُّوءِ، إِلَّا مَا رَحِمَ اللَّهُ.

الشرح والتفسير: التوصيه الأولى: التقوى وجهاد النفس

ينطلق الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الرسالة بذكر اسم الله الرحمن الرحيم والاستمداد منه، ويقول:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، مَا لَيْسَ بِنَبِيِّهِ، بِنَبِيِّهِ، حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ. جَبَايَةَ (١) خَرَجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا».

يبتدئ الإمام عليه السلام في مستهل هذه الرسالة بالاعتراف بالعبودية لله تعالى، ثم كونه أمير المؤمنين، ليتبين أن قياده المؤمنين ودعامتهم إنما تتجسد في أرض الواقع في

١- (١). «جبايه» مثل جمع الزكاه وأموال بيت المال وأمثال ذلك، وفي الأصل من ماده «جباوه» على وزن «عداوه» وتعني الجمع أو التجميع.

ظَلَّ العبوديه لله تعالى لا- في ظلّ الحالات والدوافع الذاتيه والشخصيه، ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام الأهداف الأربعة لهذه المسؤوليه والمهمّه التي ندب إليها مالك الأشر:

الهدف الأول: يشير الإمام عليه السلام إلى الأمور المائيه والاقتصاديّه وهو ما ورد التعبير عنه بالخراج، فصحيح أنّ الخراج يعنى الضرائب الموضوعه على الأراضى المفتوحه عنوه بيد المسلمين، ولكنّها فى هذا المورد تمتد لدائرته واسعه وتشمل جميع الأمور المائيه المتعلقة بالحكومته الإسلاميه، أعم من الخراج والزكاه والجزيه والخمس وأمثال ذلك.

الهدف الثانى: يتحدّث الإمام عن مسأله القوه العسكريه والدفاعيه وقوى الأمن فى البلد الإسلامى ويؤكد على حفظ استعدادهم لدفع هجمات الأعداء، لأنّه ما لم يتم ترتيب أمور هؤلاء فإنّ الأمن لا يتحقق فى فضاء المجتمع ولا يعيش الناس راحه البال فى معيشتهم وأعمالهم.

الهدف الثالث: يشير الإمام عليه السلام إلى إصلاح الأمور الاجتماعيه والثقافيه، ومنها إيجاد الباعث على أعمال الخير وإزاله منابع الفساد الأخلاقى وتثبيت الأمن فى مجال الكسب والعمل وتأمين حقوق الأفراد ونظم ما يتصل بالأمور القضائيه، رغم أنّ البعض تصور أنّ الجمله:

«اسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا» تختص بإصلاح الأمور الماديه للناس، ولكن من البعيد يكون نظر الإمام عليه السلام مقتصرًا على هذا المورد، بل ناظر إلى إصلاح جميع الأمور الماديه والمعنويه.

وبعض العبارات الوارده فى كلام الإمام عليه السلام فى هذه الرساله تشير إلى أنّ الإمام ناظر فى هذا المورد بشكل عام وواسع بحيث يشمل جميع المسائل الأخلاقيه والاجتماعيه من قبيل قوله:

«ثُمَّ أَسْبَغَ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ وَغِنًى لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ».

الهدف الرابع: يتحدّث الإمام عليه السلام عن إعمار البلاد ويشمل ذلك إصلاح جميع ما يتعلق بأمور الزراعه والصناعه والتجاره، رغم أنّ الوارد فى هذه الرساله يختص بمسأله الصناعه والتجاره والكسب والعمل، ولم يرد كلام عن الزراعه، ولكن مع

الأخذ بنظر الحسبان أنّ مصر بلد زارعى وأنّ أهالى مصر يولون اهتماماً كبيراً بمسأله الزراعة، فكأنّ الإمام عليه السلام لم يجد حاجه لذكرها واقتصر على الإشاره إلى المشاكل الصناعيه والتجارويه، ولكن عندما يتحدّث عن أخذ الخراج يأمر مالك الأشر بأن يقوم، فى ذات الوقت الذى يأخذ الخراج، بمراقبه عمليّه الأعمار واستصلاح الأراضى واجتناب التشدد مع الزراع بما يتسبب فى قلّه المحاصيل الزراعيه.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يواصل استعراضه لهذه الأصول الأخلاقيّه الأربعة مخاطباً مالك الأشر، والتى تشكل فى الحقيقه الأركان الأصليّه المعنويّه للحكومه.

بدايه يقول:

«أَمْرُهُ بِتَقْوَى اللَّهِ».

إنّ خطب الإمام عليه السلام ورسائله وكلماته القصار فى نهج البلاغه زاخره بأمر التوصيه بالتقوى، التى تمثل رأس مال سعادته الإنسان فى الدنيا والآخرة، فالتقوى تعنى الاحساس بالمسؤوليه الباطنيه واجتناب كلّ أشكال الإثم والذنب والتعدى والإجحاف، وبعبارة أخرى أنّ التقوى تمثّل حاله معنويّه كابعه، تتولى حفظ مسيره الإنسان فى طريق الحقّ وتضمن عدم انحرافه عن الصراط المستقيم، ومعلوم أنّ مسؤوليه الإنسان كلّما إزدادت وثقلت فإنّها تستدعى حاله أعمق وأقوى من التقوى.

وفى التوصيه الثانيه يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَيْتَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ:

مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ، الَّتِي لَا يَشْعُدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا، وَلَا يَشْفَى إِلَّا مَعَ جُجُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا».

«الفرائض» و «السنن» تعنى عاده الواجبات والمستحبات، وقيل: إنّ «الفرائض» هى الواجبات الوارده فى كتاب الله، و «السنن» هى الأحكام والواجبات الوارده فى السنّه الشريفه وكلام النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله، وفى هذه الصوره تكون جمله:

«مِمَّا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ..» شامله للأمر بإطاعه النّبى فى بيان الأحكام الإلهيّه أيضاً، فيحتمل فى معنى هاتين المفردتين أنّ «الفرائض» إشاره إلى الواجبات المهمّه، و «السنن» إشاره إلى الواجبات التى تأتى بالدرجه الثانيه بعدها.

ص: ٢٩١

«وَلَا يَشْقَىٰ إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا..» أنّ طريق سعادته الدنيا والآخرة منحصر في هذا المسلك وأنّ الطرق الأخرى تقود الإنسان في خط الضلاله والمتاهه، وطبعاً فهذا لا يعنى نفى الإدراكات العقلية والحق الهدايه الباطنيه بها، لأنّ من جمله الأمور التي ورد التأكيد عليها في كتاب الله أتباع العقل، وهو ما ورد في عشرات الآيات الكريمة.

وفي التوصيه الثالثه يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَنْ يَنْصُرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسَانِهِ؛ فَإِنَّهُ، جَلَّ اسْمُهُ، قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ».

التعبير بنصره الله تعالى بالقلب واليد واللسان، كما ذكر بعض الشراح، إشاره إلى ما يتصل بالقلب من الاعتقادات، واليد إشاره إلى جهاد الأعداء، واللسان إشاره إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن البعض يعتقد أنّ القلب لا- يشير فقط إلى العقائد، بل إلى حالات النفور الباطني من القبائح والذائل والعشق لأعمال الخير أيضاً، وكذلك بالنسبه لليد فليست إشاره لجهاد الأعداء فقط، بل إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مورد الحاجه لمقدمات عمليه والتي تدخل عاده في وظائف الحكومه الإسلاميه، وأمّا اللسان فيشمل جميع أشكال التعليم والتربيه الصحيحه مضافاً إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

. عبارته

«قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ..» إشاره إلى ما ورد في الآيات القرآنيه الشريفه الناظره إلى هذا المعنى، ومن ذلك ما ورد في الآيه ٧ من سوره محمّد: «إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ».

وفي التوصيه الرابعه يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَمْرُهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَيَزَعَهَا (١) عِنْدَ الْجَمَحَاتِ (٢)، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَارَةً بِالسُّوءِ، إِلَّا مَا رَحِمَ اللَّهُ».

والحقيقه أنّ هذه التوصيات والذساتير الأخلاقيه الأربع تمثّل برنامجاً كاملاً

ص: ٢٩٢

١- (١) «يزع» من ماده «وزع» على وزن «وضع» بمعنى المنع النفس وحفظها من الجنوح والجموح، وأحياناً تأتي بمعنى جمع الأفراد حول بعضهم، لأنّ ذلك يمنعهم من التفرق والانتشار.

٢- (٢) «الجمحات» جمع «جمحه» على وزن «صدقه» بمعنى الحوادث أو عوامل التمرد والعناد.

لضمان سعادته جميع الناس، فلو أن روح التقوى وحاله الورع تعمقت وتجدرت في النفس، وتحرك الإنسان بعدها في خط إطاعه الأوامر الإلهية وأتباع التعاليم الواردة في الكتاب والسنة وتصدى لمواجهه المفسد الاجتماعي والقبايح الأخلاقية ومؤامرات الأعداء بالقلب واليد واللسان وكسر صنم الأهواء النفسانية، فمثل هذا الإنسان هو الإنسان الكامل وهو المخاطب بقول تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ» (١).

وجمله

«فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةً بِالسُّوءِ..» اقتباس من قوله تعالى: «وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي» (٢). (سواءً كانت هذه الجملة وارده على لسان يوسف عليه السلام أم على لسان زوجه عزيز مصر، وعلى أية حال فإن القرآن قد أمضى هذه المقولة).

ورغم أن الكثير من المتقين يخشون من وساوس الشيطان، ولكن هوى النفس والوساوس الشهوانية والنوازع النفسانية أخطر من ذلك بكثير، ولعل هذا هو السبب في أن الإمام عليه السلام يلفت نظر مالك الأشر إلى هذه المسألة أكثر.

وصحيح أن المؤمنين المخلصين والأولياء الإلهيين قد تجاوزوا مرحلة النفس الأمارة إلى النفس اللوامة ومنها إلى النفس المطمئنة، ولكن هذا لا يعنى أن نفوسهم الأمارة قد ماتت ولا حاجه إلى الحذر من أخطارها ودسائسها.

تأمل

أخطار النفس الأمارة

من المعلوم أن كبار العلماء والمفسرين، وبالاستلهام من آيات القرآن الكريم، قالوا بوجود مراحل ثلاث للنفس الإنسانية في حركتها المعنوية في خط التكامل:

النفس الأمارة، النفس اللوامة، النفس المطمئنة.

ص: ٢٩٣

١- (١) سورة الفجر، الآية ٢٧.

٢- (٢) . سورة يوسف، الآية ٥٣.

أمّا النفس الأماره فأشاره إلى الأهواء والشهوات المتمرده التي تأمر الإنسان دوماً بسلوك طريق الرذيله وإرتكاب المنكرات، والنفس اللوامه إشاره إلى حاله الندم الحاصل بسبب إرتكاب الإثم والمعصيه، وتنمو وتشتد هذه النفس من خلال تقويه روح التقوى فى الإنسان، أمّا النفس المطمئنه فهى المرحله العالیه من تكامل الروح الإنسانيه بحيث تصل إلى مرتبه تخضع لها جميع الأهواء والنوازع النفسانيه بشكل كامل من خلال آليات الضبط العقلى والإيمانى.

ويرسم الإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السلام فى المناجاء الثانيه من المناجاء الخمسه عشر المعروفه، النفس الأماره بكل وضوح ويشكو إلى الله تعالى منها بهذه الكلمات (بوصفه قدوه لعموم الناس) ويقول:

«إِلَهِي إِلَيْكَ أَشْكُو نَفْسًا بِالسُّوءِ أَمَّارَةً وَإِلَى الْخَطِيئَةِ مُبَادِرَةً وَبِمَعَاصِيكَ مُوَلَّعَةً وَبِسَخَطِكَ مُتَعَرِّضَةً تَسْلُكُ بِي مَسَالِكَ الْمَهَالِكِ وَتَجْعَلُنِي عِنْدَكَ أَهْوَنَ هَالِكٍ كَثِيرَةَ الْعِلَلِ طَوِيلَةَ الْأَمَلِ إِنْ مَسَّهَا الشَّرُّ تَجَزَّعَ وَإِنْ مَسَّهَا الْخَيْرُ تَمْنَعُ مَيْلَهُ إِلَى اللَّغَبِ وَاللَّهُوِ مَمْلُوءَةً بِالْغَفْلَةِ وَالسَّهْوِ تُسْرِعُ بِي إِلَى الْحَوْبَةِ وَتُسَوِّفُنِي بِالتَّوْبَةِ».

أجل فهذه معالم وخصائص النفس الأماره على نحو الدقه، ويستفاد من الروايات الشريفه أنّ النفس الأماره تزيّن للإنسان الذنوب وتقبح له الخيرات والطاعات، وعندما يرتكب الإنسان تلك القبائح والذنوب وتتجلى أمامه عواقب تلك الذنوب، تنكشف عن عينه ستائر الغفله، وأحياناً يوصد من خلفه باب العوده والإنباه فلا سبيل له للتوبه من الرذائل والمنكرات.

يقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام (كما ورد فى غرر الحكم) فى كلام موجز أنّ:

«النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ الْمَسْؤُولَةُ تَتَمَلَّقُ تَمَلَّقُ الْمُنَافِقَ وَتَتَصَيَّبُ بِشَيْمِهِ الصِّدِّيقِ الْمُوَافِقِ حَتَّى إِذَا خَدَعَتْ وَتَمَكَّنَتْ تَسِيلُطُ تَسِيلُطُ الْعِيدِ وَتَحَكَّمَتْ تَحَكَّمُ الْعُتُوُّ فَأُوْرَدَتْ مَوَارِدَ السُّوءِ»^(١).

ص: ٢٩٤

ومن هنا أوصى الأولياء وعلماء الأخلاق أن يراقب الإنسان هذه النفس مراقبه دقيقه لئلا يتورط في شراكها وينخدع بخداعها، ويقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في كلام آخر (طبقاً لما ورد في غرر الحكم):

«إِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ لِأَمَارَةٍ بِالشُّؤْمِ فَمَنْ أَهْمَلَهَا جَمَحَتْ بِهِ إِلَى الْمَآثِمِ» (١).

فالنفس الأماره تعتبر في الحقيقه أهم وسائل الشيطان وأدواته في إغواء الإنسان، فلو أنّ الإنسان تخلص من شراكها ومصائبها فإنّه يتخلص كذلك من شرّ الشيطان وتسويلاته.

أهميته بلاد مصر

تعتبر مصر أحد أقدم مراكز الحضاره البشريه وأقدم مهد للتمدن في التاريخ البشري، وهناك آثار تاريخيه مهمه في بلاد مصر احتار العلماء في كيفية تشييدها وبنائها حتى مع الأخذ بنظر الاعتبار الوسائل والأجهزه الحديثه، وكأنّ مقوله أنّ هذه الأرض كانت من قديم الأيام من أكثر البلدان تطوراً وإزدهاراً في العالم حقيقه لا غبار عليها.

والمدارك والأسناد التاريخيه تشير إلى أنّ مصر كانت ذات حضاره مزدهره منذ عشره قرون قبل ميلاد المسيح، فكانت تحتوى على مدارس كبيره ومكتبات ومراكز للتحقيق العلمى، وقد إقترنت الحضاره المصريه باليونانيه من قديم الأزمان وكانت العلوم والمعارف متبادله بينهما.

ومن النعم الإلهيه الكبيره على هذا البلد التاريخى، نهر النيل العظيم الذى يسقى أراضي مصر الواسعه، ولولا هذا النهر العظيم فإنّ قسماً عظيماً من أراضي هذا البلد ستتعرض للجفاف والتصحر، وتغدوا صحراء قاحله لا زرع فيها.

وفى السنه العشرين من الهجره وفى زمن الخليفه الثانى استولى المسلمون على

ص: ٢٩٥

هذا البلد، ومن عجائب التاريخ أن عمر بن الخطاب منع من دخول جيش الإسلام إلى مصر، ولكن عمرو بن العاص جهز جيشاً وتحرك بنفسه إلى مصر فوصل الخبر إلى عمر بن الخطاب، وقد كان يخشى أن جيش الإسلام إذا دخل مصر فسوف يتحد الرومان والمصريون ويهزموا الجيش الإسلامي، ولذلك كتب كتاباً إلى عمرو بن العاص وأرسله بيد عقبه بن عامر، وعندما وصل عقبه بن عامر إلى عمرو بن العاص وهو على مقربة من مصر، لم يسمح عمرو بن العاص لعقبه باللقاء به ولم يستلم الكتاب منه إلى أن دخل إحدى المدن الساحلية في مصر، ثم التفت إلى عقبه وقال:

هات الكتاب، فدفع إليه الكتاب، وكان عمر بن الخطاب قد كتب فيه أنك إذا لم تدخل مصر فعليك بالعودة فوراً، فقال عمرو بن العاص لجنوده: هل أن هذا المكان هو مصر أو خارج مصر فقالوا: لقد دخلنا مصر، فقال: إن الخليفة قد أمر أننا إذا لم ندخل مصر فعلينا بالعودة، ولكننا الآن في مصر ويجب علينا المضي والتقدم، ولكن عمرو بن العاص واجه مشكله في فتح مصر وخاف من الهزيمه، فكتب إلى عمر بن الخطاب وطلب منه إرسال التعزيزات والمعونات، فجهز الخليفة الثاني جيشاً من اثني عشر ألف نفر وأمر عليهم عدد من رجال الإسلام الشجعان وأرسله لنصرته، وأخيراً فتحت مصر واعتنق المصريون الإسلام بشوق بالغ، وأنتجت مصر الكثير من علماء الإسلام في فنون العلم المختلفة وفتحت المدارس الإسلاميه فيها واحده بعد الأخرى وازدهر العلم في هذا البلد.

ومن امتيازات مصر أن محبي أهل البيت عليهم السلام وعشاق المذهب العلوي كثيرون فيها، وحتى أن أهل السنه في مصر يعيشون أهل البيت عليهم السلام ويزورون «رأس الحسين» و «المرقد المنسوب للحوراء زينب» فيها حيث أضحى مزاراً عاماً لسكنه تلك الديار.

ولولا تدخل السياسه، لأمكن القول إن مصر بإمكانها أن تكون وسيله جيده لإيجاد الوحده والاتحاد بين المذاهب الإسلاميه، والشاهد على هذا المدعى الفتوى

المعروفه التي أصدرها «الشيخ شلتوت» عن أتباع فقه الإماميه وأن هذا الفقه يقع في عرض مذاهب أهل السنّه الأربعة ويجوز العمل به.

وعلى أيه حال فبسبب أهميه هذا البلد الإسلامى، اختار الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أقوى شخصيه من أنصاره وأصحابه وأعرفهم وأشجعهم، وهو مالك الأشر، لإداره أمور هذا البلد وكتب إليه العهد المعروف وهو مورد البحث الذى يشمل أدقّ التعاليم والتوصيات فى مسأله إداره الحكومه والولايه وسلّمه إليه.

ص: ٢٩٧

ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ أَنِّي قَدِ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُولٌ قَبْلَكَ، مِنْ عَدْلِ وَجُورٍ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلَاهِ قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ، وَإِنَّمَا يُسَيِّدُ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسِنِ عِبَادِهِ، فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَمَا لِكَ هَوَاكَ، وَشَحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ. وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعًا ضَارِيًا تَعْتَمُّمُ أَكْلِهِمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخَ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمْ الزَّلْمَ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلْمَ، وَيُؤْتِي عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمِيدِ وَالْخَطَا، فَمَا عَظِمَتْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَلاكَ! وَقَدْ اسْتَكْفَاكَ أَمْرُهُمْ، وَابْتَلَاكَ بِهِمْ.

الشرح والتفسير: احترام حقوق جميع المواطنين!

يتابع الإمام عليه السلام توصياته العميقة والشاملة التي ورد بعضها في القسم الأول من العهد، ويخاطب الإمام عليه السلام مالك الأشر مشيراً إلى عده نقاط خاصه، بدايه يقول:

«ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ، أَنِّي قَدِ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُولٌ قَبْلَكَ، مِنْ عَدْلِ وَجُورٍ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلَاهِ

قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ».

ثم يضيف عليه السلام:

«وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرَى اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسِنِ عِبَادِهِ».

فى هذا المقطع من كلام الإمام عليه السلام يشير الإمام من باب المقدمه إلى وضع مصر (وقطعاً لا ينحصر بمصر) وأنه قد كانت قبلك حكومات عادله وجائره، الحكومه العادله من قبيل حكومه مصر فى عصر النبى يوسف عليه السلام، وأما حكومه الجور فتمثّل فى الكثير من الفراعنه منهم فرعون المعاصر للنبى موسى بن عمران عليه السلام.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى هذا الموضوع المهم، وهو أنّ معيار تقييم الحكومات من حيث العدل والجور يرتبط بأفكار عامّة الناس وتصوّره عن حكومتهم، وهذا هو المتداول فى هذا العصر من أنّ رأى الشعب هو الميزان، رغم أنّ الغالب فى مقام العمل لا يؤخذ به تماماً، ولكن فى ذلك العصر وعندما تحدّث الإمام عليه السلام بهذا الكلام، قلّمَا كان شخص يعتقد بهذه العقيدة وكان الناس يتصورون أنّ الحكومه لا- يمكن أن تتحقق وتدوم إلاّ باليات الاستبداد، والاستبداد بدوره مقترن بالظلم والجور.

وقد جاء فى كلمات العلماء:

«أَلْسِنَةُ الْخَلْقِ أَقْلَامُ الْحَقِّ» أو

«أَلْسِنَةُ الرَّعِيَةِ أَقْلَامُ الْحَقِّ إِلَى الْمُلُوكِ» وهما بمعنى واحد، وهو أنّ كلام جمهور الناس يعتبر قلم الحقّ تعالى الذى يكتب توصياته ورسائله إلى الملوك والقاده، أو أنّ الله تعالى بهذه الوسيله يخاطبهم ويكاتبهم، وعلى أيّ حال فالغايه من ذلك أنّ الحكم الصادر من عامه الناس ومن الوعى الجمعى للأُمَّه هو المعيار الجيد لمعرفة قيمه الحكومات وصلاحيّتها ومصداقيّتها.

وطبعاً أحياناً تقوم الحكومات من خلال التبليغ الكاذب والتظاهر والرياء بتحريف وتشويش أفكار الناس، أو تقوم بعملية غسل الأدمغه، ففى مثل هذه الموارد يكون الرأى العام مريض ويفقد أثره المطلوب فى القضاء.

ومهما يكن من أمر فمن الجدير بقاده المسلمين الحاليين أن يكتبوا بعباره:

«وَإِنَّمَا يُشِدُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرَى اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسِنِ عِبَادِهِ»، بماء الذهب ويضعونها نصب أعينهم ويقرأونها كل يوم ويحفظونها في قلوبهم، ومن أجل تحقيق هذا المضمون يجب عليهم إبعاد المتملقين والانتهازيين من حولهم ولا يكتفون بشهاده أنصارهم وأصحابهم فقط، بل يعرفون صلاحيتهم ومصداقيتهم من خلال الإتصال المباشر مع الناس عامه.

وجاء في كتب التاريخ أنّ بعض القاده القدماء كان راغباً في إقامة العدله في حكمه فأحياناً كان يلبس ملابس أخرى ويخرج متكرراً ويطوف في المناطق المختلفه في المدينه وخاصه في المناطق المحرومه، ويدرس الأمور والأوضاع عن كثب بدون استخدام الوسطاء.

ثمّ يصدر الإمام عليه السلام في هذا المقطع من عهده ست توصيات مهمه لمالك الأشر ويقول:

«فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ».

ويقول القرآن الكريم: «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا» (١).

وفي آيه أخرى يقول: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ» (٢).

وفي تفسير آخر أنّ العمل الصالح يرفع الكلام الطيب ويعمل على ترسيخ العقائد السليمه في واقع الإنسان وقلبه.

ونقرأ في سورة العصر: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» (٣).

وفي التوصيه الثانيه والثالثه يقول الإمام عليه السلام

«فَأَمْلِكْ هَوَاكَ، وَشَحِّحْ (٤) نَفْسِكَ عَمَّا لَا

ص: ٣٠١

١- (١) سورة الكهف، الآية ١١٠.

٢- (٢) سورة فاطر، الآية ١٠.

٣- (٣) سورة العصر، الآيتان ٣ و ٤.

٤- (٤). «شَحِّحْ» في الأصل بمعنى البخل المقترن بالحرص، بحيث يصير عاده للإنسان، وهاتان الصفتان من الرذائل الأخلاقيه المهمه، وذكر بعض مفسرى القرآن أنّ «شَحِّحْ» أشد من البخل، والاستفاده من هذه المفرده من كلام الإمام عليه السلام إشاره إلى الالتزام بشدّه على اجتنابك للحرام وحفظ نفسك من هذه الرذيله كما يمنع البخل أمواله وثروته من بذلها للناس.

يَجَلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشَّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ».

إنَّ ضبط الأهواء النفسانيَّة وكبح جماحها، والذي يؤكِّد عليه الإمام عليه السلام، هو أن يستطيع الإنسان عند فوران الشهوة وثوره الغريزة أن يضبطها ويجعلها تحت إرادته، وبالعكس ذلك إذا سيطر هوى النفس على فكر الإنسان وعقله وقواه وملكاته الأخرى فإنَّه سيقود صاحبه إلى وادي الهلكة والخسران.

ونقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم فليس شيء أعدي للرجال من اتباع أهوائهم وخصائدهم» (١).

وجاء في حديث آخر في «غرر الحكم» عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«أملكوا أنفسكم بدوام جهادها» (٢).

فالشح بالنفس في مقابل المحرمات لا يعنى سوى أن يتصرف الإنسان كالبخيل الذي لا يجد في نفسه رغبة في إنفاق الدرهم والدينار من أمواله على الآخرين، فمثل هذا الإنسان يقف في مقابل المحرمات كالبخيل فلا يعطى من نفسه شيئاً يؤدى به إلى خسرانه دينه وإيمانه ويبعده عن طريق الإنصاف والصلاح، سواءً في الأمور التي يجد في نفسه ميلاً إليها أم في الأمور التي لا يشتهيها.

ثمَّ يشير الإمام عليه السلام في التوصية الرابعة إلى مسأله مهمه جداً تعكس عظمه القوانين الإسلاميَّة ويطرح أمراً لم يكن له وجود في ذلك العصر في المجتمعات البشريَّة، ويقول:

«وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ».

ومعلوم أنَّ «أشعر» من ماده «شعار» وشعار في الأصل يطلق على الملابس التحتانيَّة للإنسان والتي تلتصق مباشرة ببدنه، واختيار الإمام عليه السلام لهذا التعبير يشير إلى أنَّ قلبك يجب أن يلتصق بالرحمة والمحبة واللفظ بالنسبة للرعية.

ص: ٣٠٢

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ٣٣٥، ح ١.

٢- (٢) غرر الحكم، ح ٤٨٩٨.

ولعلَّ الفرق بين الرحمة والمحبة واللطف، أنَّ الرحمة تمثِّل المرتبة الأولى من الصداقه وحسن الخلق، والمحبة فى مرتبه أعلى منها، واللطف يمثِّل آخر مرتبه من التعاطف مع الآخرين، وربما يكون التفاوت فى هذه المراتب بالنسبه لمواقع أفراد المجتمع والرعيه، فبعضهم يستحق الرحمة، والبعض الآخر فمن هو أنفع للناس فإنه جدير بالمحبة، والأشخاص الذين يخدمون الناس ويسعون فى إيصال الخير أكثر فإنهم جديرون باللطف.

وقد ورد فى الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«لَا تَصْلُحُ الْإِمَامَةُ إِلَّا لِرَجُلٍ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ وَحُسْنُ الْوَلَايَةِ عَلَى مَنْ يَلِي حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ كَالْوَالِدِ الرَّحِيمِ»^(١).

ويتحدَّث الإمام عليه السلام فى التوصيه السادسة من موقع التأكيد على ما مرَّ فى التوصيه الرابعه ويقول:

«وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعًا ضَارِيًا»^(٢) تَعْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ:

إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ».

ولا شك ولا ريب فى أنَّ أركان الحكومه الصحيحه والمقتدره والعادله هى التى تمتد سيطرتها على قلوب الناس وعواطفهم لا على أساس القوه والسياف، فالولاه الذين يحكمون على قلوب الناس ويملكون عواطفهم فإنَّ المجتمع يعيش الأمن والأمان، أمَّا من كان يحكم باليات القوه والقهر فإنهم يعيشون هاجس الخطر دائماً.

ومن أجل تشويق مالك الأشر على أمر الحكومه على القلوب والعواطف يأمر الإمام عليه السلام بالتعامل مع الرعيه بلغه الرحمة والمحبة واللطف، ثم يبيِّن الإمام عليه السلام النقطه المقابله لذلك، وهى الحكومه التى تقوم على أساس البطش والقوه ويكون الحاكم فيها كالحيوان المفترس يأكل حقوق الرعيه ويحسبها غنيمه له، ثم يختار الإمام

ص: ٣٠٣

١- (١) الكافى، ج ١، ص ٤٠٧، ح ٨.

٢- (٢). «ضارياً» تعنى المتوحش، من ماده «ضرو» على وزن «ضرب» وفى الأصل بمعنى الهجوم الشديد على شخص أو شىء، ومن هذه الجهه اطلقت هذه الكلمه على هجوم الأغنام على الزرع أيضاً.

أفضل دليل على هذه التوصيات، وهو أنّ الرعيّة في الحكومه الإسلاميه ليس خارجه عن اثنين: فالغالبية مسلمون، ونعلم أنّ الإسلام يقرر أنّ المسلم أخو المسلم، أو أقلّيه من غير المسلمين الذين يعيشون مع المسلمين حياه سلميه، وهم بشر ويتصفون بالإنسانيّه، والإنسان يجب أن يتعامل مع الإنسان الآخر بأليه المحبّه والموّده.

وهذا الكلام في الحقيقه يشطب بخط البطلان على التبليغات المسمومه للأعداء الذين يقولون: إنّ المسلمين لا يعترفون بحق الحياه لغير المسلمين ويعتقدون أنّ جميع الأفراد من غير المسلمين يجب أن يقتلوا أو يسلموا كرهاً، أجل فإنّ كلام الإمام عليه السلام المذكور أعلاه يقرر أنّ جميع أفراد البشر وأتباع الأديان والمذاهب الأخرى بإمكانهم أن يعيشوا مع المسلمين حياه سلميه وطيبه ويتمتعون في داخل البلاد الإسلاميه في ظلّ قوانين الإسلام بكافه حقوقهم وتكون نفوسهم وأموالهم وأعراضهم وحيثياتهم محفوظه، خلافاً لما نراه في عالمنا المعاصر، فحتى الاختلاف في لون الجلد في بعض الدول التي تدعى التقدم والحضاره كأمریکا يكون سبباً للتمييز العنصري، وخلافاً لما يتبحون به في إعلاناتهم السياسيّه فإنّ البيض هناك يكرهون السود غالباً، والمراكز الاجتماعيه للبيض منفصله عن مراكز السود وهم غير مستعدين للتعاون في الكثير من المسائل الاجتماعيه.

ثمّ بيّن الإمام عليه السلام حقيقه تعتبر من أهمّ تعاليم وتوصيات الإداره الناجحه ويقول:

«يَفْرُطُ (١) مِنْهُمْ الزَّلُّ (٢)، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلْلُ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَا، فَأَعْطِيهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصِفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ».

وبديهي أنّ كلّ إنسان غير معصوم من الخطأ والزلل (سوى المعصومين عليهم السلام) وأنّ

ص: ٣٠٤

١- (١). «يفرط» من ماده «فرط» على وزن «شرط» بمعنى العجله والتسرع في أداء العمل. وهذه المفرده تستخدم في مورد أن يتحرك الشخص للتسابق في عمل معين.

٢- (٢) «زلل» و «زله» على وزن «غله» بمعنى الخطأ والزيغ.

الكبير والصغير، والعالم والجاهل كل واحد منهم يتلى بما يتناسب مع حاله بالأخطاء، ولا أحد بإمكانه أن يدعى أنه برىء من الخطأ والزيغ، بل ورد في حالات بعض الأنبياء الإلهيين أنهم كانوا يرتكبوا أحياناً ترك الأولى، ورغم أنه ليس بذنب ومعصية، ولكنه غير لائق بمقامهم.

وهكذا أحياناً يفقد الإنسان حالته العاديه بسبب بعض الآلام والمتاعب الجسميه والروحيه، وفقدان الأعزّه، الفشل في العمل وأمثال ذلك، ففي مثل هذه الحاله يسلك عاداه في دروب الزيغ والخطأ.

وبما أن الإمام عليه السلام يريد لمالك الأشر الولاية والحكوماه على جمهور كبير من الناس، يعنى أهالى مصر، فإنه يأمره بالعفو عن الزلل والخطأ (في الموارد الميسوره والممكنه)، ومن أجل إثاره الباعث في نفسه على هذا العمل وتقويته في نفسه يذكره الإمام بأخطائه وزلاته في مقابل البارى تعالى، ويقول: ألا ترغب في أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ويتجاوز عن أخطائك وسيئاتك؟ إذن فعليك بالعفو والصفح عن خطايا الرعيه ولا- تشدد عليهم، وطبعاً هذا في الموارد التي لا- يكون فيها العفو والصفح موجباً للاخلال في النظم وتضييع حقوق المظلومين.

ونقرأ في تاريخ صدر الإسلام عندما شاعت قضيه الإفك بين المسلمين بواسطه المنافقين وأتهم جماعه منهم زوجه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالانحراف عن جاده الشرف والعفّه، فإن جماعه من المؤمنين، سلکوا، عمداً أو سهواً، في مسير إشاعه هذه التهمه، فنزلت الآيات القرآنيه ونهت بشده عن هذا السلوك الشائن، بحيث إن بعض المسلمين عزموا على قطع رابطتهم مع هؤلاء الأشخاص من مثيرى الفتنة ومروجى الإشاعه، ويحرمونهم من معوناتهم الماديه، فنزلت الآيه الشريفه: «وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيُغْفُوا وَلْيُغْفُوا لَهُمْ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (١).

ص: ٣٠٥

والفرق بين العفو الصفح، أنّ العفو يعنى صرف النظر عن العقاب على الخطأ والزلل، وأمّا الصفح فى مثل هذه الموارد فهو إزاله العقوبه على الخطأ من ذهنه ووضعها فى زاويه النسيان.

وجمله:

«يُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ..» لا تعنى أنه يجب على الوالى أن يأخذ بيد المخطئين ويهديهم سواء السبيل كما ذكر ذلك بعض الشراح، بل بمعنى أنّ الأعمال الخاطئه تجرى على أيديهم.

ثم يتحرك الإمام على مستوى التوضيح والتأكيد أكثر ويقول:

«فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِىَ الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَّلَّاكَ! وَقَدْ اسْتَكْفَاكَ أَمْرُهُمْ، وَابْتَلَاكَ بِهِمْ».

فالإمام عليه السلام فى هذه العبارة يؤكد على هذه الحقيقه، وهى أنّ كلّ شخص يحكم على جماعه فهو بدوره يقع تحت حكمه شخص آخر، فإذا كنت حاكماً على مصر، فعليك بالانتباه بأننى حاكم عليك ومراقب لأعمالك، فإذا كنت حاكماً عليك فينبغى أن أنتبه إلى أنّ الله تعالى حاكم علينا، ومعلوم أنّ الالتفات إلى هذا الأمر يؤدى بالإنسان أن يتعامل مع الناس بآليات العفو والصفح والمحبه ما أمكنه ذلك لكى يتوقع بالتالى عفو الحاكم عنه وأعلى من ذلك يتوقع العفو الإلهى عنه.

ص: ٣٠٦

وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ، لِحَرْبِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يَدَّ لَكَ بِنِقْمَتِهِ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَلَا تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ، وَلَا تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبِهِ، وَلَا تُشْرِعَنَّ إِلَى بَادِرِهِ وَجَدْتَ مِنْهَا مَنُذُوحَهُ، وَلَا تَقُولَنَّ: إِنِّي مُؤَمَّرٌ أَمْرٌ فَأُطَاعُ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغَيْرِ. وَإِذَا أُخِذَتْ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أَوْ مَخِيلَةٍ، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللَّهِ فَوْقَكَ، وَقُضْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ، وَيَكْفُ عَنْكَ مِنْ غَرَبِكَ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ! إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللَّهِ فِي عَظَمَتِهِ، وَالتَّشْبُهَ بِهِ فِي جَبْرُوتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُدَلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهَيِّنُ كُلَّ مُخْتَالٍ.

الشرح والتفسير: لا تكن مغروراً أبداً!

يواصل الإمام عليه السلام في هذا المقطع من كتابه لمالك الأشتر ويوصيه بسبع توصيات مهمه أخرى.

بدايه يقول::

«وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ، لِحَرْبِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يَدَّ لَكَ بِنِقْمَتِهِ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ».

المراد من الحرب مع الله، كما ذكر الكثير من شراح نهج البلاغه، هو الظلم والجور على عباد الله وتضييع حقوقهم ولا يشمل كل معصيه وإثم، وصحيح أن جميع الذنوب قبيحه وذميمه، ولكن التعبير بالحرب مع الله يعني أكبر من ذلك.

والشاهد لهذا المعنى ما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام عن

«لَقَدْ أَسِيرَى رَبِّي بِي فَأَوْحَى إِلَيَّ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ مَا أَوْحَى وَشَافَهَنِي إِلَيَّ أَنْ قَالَ (١) لِي يَا مُحَمَّدُ مَنْ أَذَلَّ لِي وَلِيًّا فَقَدْ أَرَضَدَنِي بِالْمُحَارَبَةِ وَمَنْ حَارَبَنِي حَارَبْتُهُ» (٢).

ويستدل الإمام عليه السلام لعدم الحرب مع الله بأمرين: أحدهما، الحاجة إلى عفوهِ ورحمته، والآخر، اجتناب عقوبته وعذابه.

وفي التوصية الثانية والثالثة يقول عليه السلام:

«وَلَا تَنْدَمَنَّ عَلَيَّ عَفْوً، وَلَا تَبْجَحَنَّ (٣) بِعُقُوبِي».

وهذا الكلام إشارة إلى أنك يجب أن تلتزم جانب العفو ما أمكنك ذلك وقلل من موارد العقوبة، لأن أثر العقوبة إذا كان نافعاً لمدته قصيره فإن أثر العفو يمتد لمدته طويلاً.

وطبعاً فإن هذا الحكم يصدق على غالبية الناس، ولكن لدى بعض الناس - وهم أقلية تكون نتيجة العفو والصفح عكسيه ويتحمل الجناه ذلك على محمل الضعف والخوف من قبل الوالي، فلا بد من استخدام الشدة والقوة مع هؤلاء.

وفي التوصية الرابعة يقول عليه السلام:

«وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَيَّ بِأَدْرِهِ (٤) وَجَدْتَ مِنْهَا مَنُذُوحَةً (٥)».

ومعلوم أن الإنسان عندما يملكه الغضب فإنه يفقد اعتداله الفكري، وقد جربنا مراراً بأن كل قرار نتخذه في ذلك الوقت سيثبت خطأ بعد ذلك، وحتى أعقل الناس

ص: ٣٠٨

١- (١). هذا التعبير يساق ما ورد في القرآن الكريم: «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» (سورة الشورى، الآية ٥١).

٢- (٢) الكافي، ج ٢، ص ٣٥٣، ح ١٠.

٣- (٣). «تبجحن» من مادة «بجح» على وزن «وجب» بمعنى الفرخ والافتخار.

٤- (٤). «بادره» الأفعال والحركات المتسرعة التي تصدر من الإنسان في حالات الغضب والحدّة، من مادة «بدور» على وزن «صدور» وتعني السرعة في العمل.

٥- (٥) «مندوحة» بمعنى الوسع وطريق الحل من مادة «ندح» على وزن «مدح» وهذه المفردة ربّما تأتي اسم مفعول وتعني المكان الذي تمت توسعته، أو المكان الواسع.

ربما يتحول في صورته الغضب والحدّة إلى أجهل الناس، والمعروف بين العامة من الناس أنهم يقولون: عندما أغضب فإنّ الدم يغطي على عيني ويحول بيني وبين رؤيته الأشياء فأرتكب العمل الفلاني، وهذا في الحقيقة إشارته إلى هذه الحالة.

ولذلك ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«الغضبُ يُرَدِي صاحِبَهُ وَيُبدِي مَعايِبَهُ»^(١).

وجاء في حديث آخر عنه عليه السلام أيضاً:

«بَسَّ القَرِينُ العَضْبُ يُبَدِي المَعائبِ وَيُبدِي الشَّرَّ وَيُباعِدُ الخَيْرَ»^(٢).

وهذه الحقيقة تتضح أكثر عندما يأتي بعض الأشخاص من طرف واحد ويتحدّثون للوالى بكلام معين، فلو عزم على أمر في هذا الحال فسوف يندم، فيجب التريث قليلاً وسماع حجّة الطرف المقابل، فربما يختلف الحال بعد هذا التحقيق.

ومن هذا المنطلق ينبغي العمل وفقاً للمثل المعروف: «عند الغضب لا عقوبه ولا أمر ولا تصميم».

في التوصية الخامسة ينهاه الإمام عليه السلام بشدّه عن حاله الغرور والفخر ويقول:

«وَلَا تُقُولَنَّ: إِنِّي مُؤَمَّرٌ أَمْرٌ فَأُطَاعُ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِذْغَالٌ (٣) فِي القَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ (٤) لِلدِّينِ وَتَقَرُّبٌ مِنَ الغَيْرِ (٥)».

ولا شك أنّ أحد الآفات الخطيرة لمسألة الحكومه والولاية، الغرور والكبر والاستبداد، وكما قال الإمام عليه السلام أنّ ذلك ترتب عليه ثلاثة أمور خطيرة، الأول: أن

ص: ٣٠٩

١- (١) غرر الحكم، ح ٦٨٩٢.

٢- (٢) المصدر السابق، ح ٦٨٩٣.

٣- (٣). «إذغال» من مادة «دغل» على وزن «عقل» بمعنى الدخول في مكان بشكل خفي، وبما أنّ الفاسدين و المفسدين يدخلون بهذه الصورة عادة، فإنّ هذه الكلمة تستبطن غالباً معنى الفساد، و «دغل» على وزن «قمر» بمعنى الفساد، وأحياناً تأتي بمعنى الشخص المفسد، وفي العبارة أعلاه جاءت بمعنى الفساد.

٤- (٤) «منهكة» من مادة «نهك» على وزن «مدح» بمعنى المتعب والمضعف، وتطلق كلمة منهكة على الضعف والعجز أو على أسباب الضعف والعجز.

٥- (٥) «غير» بمعنى الحوادث المغيّرة للحال جمع «غيره» على وزن «غيبه».

يفسد فكر الإنسان وتنقلب لديه الحقائق ويتخذ قرارات عجوله وغير عادله ومجانبه للصواب، والآخر، أن الإنسان يتورط بأنواع المعاصي والذنوب والظلم ممّا يوهن إيمانه ودينه، والثالث، أن هذه الحاله تتسبب فى إيجاد متغيرات كثيره فيما يتصل بعلاقه الحكومه مع الناس والكثير من الانتفاضات والثورات على إمتداد التاريخ البشرى تنبع من هذه القضيه.

وبخلاف ذلك إذا كان الوالى متواضعاً وأخرج من ذهنه ربح الغرور والتكبر، فسوف يعتدل فكره ويتصرف بحكمه وكذلك لا يلوث نفسه بالذنوب ولا- يضعف إيمانه، ومن جهه أخرى يحفظ علاقته الحميمه مع الناس، وهذه العلاقه هى الأصل والأساس للحكومه الصالحه حيث تمنح الحكومه القدره والهيمنه.

ويقول الإمام عليه السلام فى كلماته القصار فى «غررالحكم» عباره مثيره فى مصير المغرورين وعاقبتهم الوخيمه:

«طوبى لِمَنْ لَمْ تَقْتُلْهُ قَاتِلَاتُ الْغُرُورِ»^(١).

وفى مورد آخر يقول:

«سُكْرُ الْغَفْلَةِ وَالْغُرُورِ أَبْعَدُ إِفَاقَهُ مِنْ سُكْرِ الْخُمُورِ»^(٢).

أجل، فإن سكر الشراب ربّما يزول بعد يوم أو ليله، ولكن سكر الغرور ربّما يستمر إلى خمسين عاماً.

ويشير الإمام عليه السلام فى آخر الخطبه التاليه من نهج البلاغه إلى جماعه من المنافقين والانتهازيين الذين تمردوا عليه ويقول:

«زَرَعُوا الْفُجُورَ وَسَقَوْهُ الْغُرُورَ وَحَصَدُوا الثُّبُورَ».

وبما أن عمل الأطباء الواعين لا يقتصر على تشخيص وعلاج الألم والمرض، بل يمتد إلى إراءه طرق العلاج أيضاً، ويعدّ ذلك من الأركان الأصليّيه لبرنامجهم الطبى، والإمام عليه السلام وهو الطبيب الإلهى، فى هذه الرساله بعد أن يذكر آفات الغرور، يشير إلى طريق علاجها ويقول:

«وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبْهَهُ»^(٣) أَوْ

ص: ٣١٠

١- (١) غرر الحكم، ح ٧١٧٥.

٢- (٢) المصدر السابق، ح ٥٧٥٠.

٣- (٣) . «أبهه» بمعنى العظمه، وأحياناً تأتي بمعنى الكبر والغرور، وفى الجمله أعلاه وردت بهذا المعنى.

مَخِيلَةً (١) ، فَانظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِكَ اللَّهُ فَوْقَكَ ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ (٢) إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ (٣) وَيَكْفُفُ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ (٤) وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ (٥) عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ».

فالإمام عليه السلام في هذه العبارات البليغة والعميقة المعنى، يقرر أنّ النظر إلى عظمة ملك الله تعالى وقدرته الواسعة من شأنه أن يخلف ثلاثة آثار إيجابية للمعتزين بقدرتهم:

الأول: أنه ينزلهم عن مركب الغرور.

والآخر: يخفف من شدّة عملهم.

والثالث: يعيد إليهم عقلهم الذي أسدل عليه الغرور ستار الغفلة.

أجل، فإنّ أقوى الأفراد يجد نفسه في مقابل الحوادث والمظاهر الطبيعيه التي تحدث بأمر الله كالريشه في مهب الريح، وقد سمعنا كثيراً أنّ السلاطين المستبدين قد أخذهم الأجل بين عشيه وضحاها بسكته قلبيه مختصره، ونعلم أنّ هذه العارضه تنشأ من إنسداد بعض الشعيرات في القلب ويترتب عليه جلطه دمويه، أو يموت بسبب السرطان، وهو ليس سوى طغيان خليه من خلايا البدن الضعيفه أو بواسطه المكروب أو فيروس الذي لا يرى بالعين المجرده، وأحياناً تحدث زلله وتهدم جميع قصورهم، أو يهب اعصار ليحطم جميع ما لديهم، أو يأتي سيل عظيم ويأخذ معه كلّ ما لديهم، وهكذا، هذه كلّها إشارات صغيره على قدره الله المطلقه، فلو أنّ الإنسان تفكر في هذه الأمور، فإنّه سيكون متواضعاً وبعيداً عن حالات الغرور في

ص: ٣١١

١- (١) . «مخيله» بمعنى العُجب والأنانيه.

٢- (٢) . «يطامن» من ماده «طمأنه» ويعنى إمتصاص الغيظ وتهدئت النفس وانزال الشىء إلى الأسفل.

٣- (٣) «طماح» بمعنى التمرد.

٤- (٤) «غرب» بمعنى الشدّه والحدّه.

٥- (٥) «عزب» بمعنى الغائب.

أى مقام ومنصب كان.

إنَّ التاريخ لا يذكر حكمه وسلطه أعلى من سلطه النبي سليمان عليه السلام، فالقرآن يتحدث عن سليمان عندما حان أجله فلم يمهل الموت حتى يجلس على الأرض بل أخذ روحه وهو واقف متكئ على عصاه وودع جميع ما لديه من إمكانات عظيمه فى لحظه واحده ولم يعلم بموته أحد من الناس إلا بعد أن أكلت الأرضه عصاه فاختل تعادله وسقط على الأرض.

ثم إنَّ الإمام عليه السلام، وفى التوصيه السابعه، يتحدث من موقع التأكيد على الأمور المذكوره آنفاً لغرض إزاحه حاله الغرور والتكبر عن الولاه والأمرء من خلال التهديد بالعقوبه الإلهيه ويقول:

«إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ (١) اللَّهُ فِي عَظَمَتِهِ، وَالتَّشْبَهُ بِهِ فِي جَبْرُوتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُدِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ (٢)».

وفى الحقيقه فإنَّ الأشخاص الذين ملكهم الغرور والتكبر يدعون عملاً- أنهم فى سياق واحد مع الله تعالى، فى حين أنهم لا يمتثلون سوى ذرات تافهه فى مقابل بحر العظمه الإلهيه، والعقوبه المترتبه على مثل هذا الغرور والشموخ العبثى هو أن الله تعالى سيدلهم ويهينهم، وإذا التفت المتكبرون والمغرورون إلى نهايه عملهم فسوف ينزلون من مركب الغرور والكبر.

وقد وردت أحاديث شريفه فى هذا المجال عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسائر الأئمه المعصومين عليهم السلام.

فنفراً فى حديث شريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال عندما سئل عن:

«أَدْنَى الْإِلْحَادِ». فقال عليه السلام:

«إِنَّ الْكِبْرَ أَدْنَاهُ» (٣).

وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً:

«الْكِبْرُ رِدَاءُ اللَّهِ فَمَنْ نَازَعَ اللَّهَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ أَكَبَهُ اللَّهُ فِي النَّارِ» (٤).

ص: ٣١٢

١- (١). «مساماه» بمعنى طلب العلو والمقابله فى المثل.

٢- (٢) «مختال» يعنى المتكبر والمغرور من ماده «خَيْلَاء» على وزن «جهلاء» وتعنى التخيلايت التى تدعو الإنسان لكى يتصور نفسه كبيراً وعظيماً.

٣- (٣) الكافى، ج ٢، ص ٣٠٩، ح ١.

٤- (٤) المصدر السابق، ح ٥.

ومعلوم أنّ جميع هذه الأمور بسبب الآثار والتداعيات السلبيّة الفرديّة والاجتماعيّة التي تستولى على الشخص المغرور والمتكبر، وقد ورد روايات متعدده أنّ الكبر يتسبب في تجاهل الإنسان للحق ويواجه أهل الحقّ من موقع التوبيخ والذم ويسحق حقوق الناس (١).

ونختم هذا الكلام بحديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«الْكِبْرُ أَنْ تَتْرَكَ الْحَقَّ وَتَتَجَاوَزَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَتَنْظُرَ إِلَى النَّاسِ وَلَا تَرَى أَنَّ أَحَدًا عَرِضُهُ كَعَرِضِكَ وَلَا دَمُهُ كَدَمِكَ» (٢).

ص: ٣١٣

١- (١) انظر: الكافي، ج ٢، باب الكبر.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٩٠، ح ٣.

أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصِّهِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوَى مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمُ! وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللَّهُ أَذْخَصَ حُجَّتَهُ، وَكَانَ لِلَّهِ حَرْبًا حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ.

وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمِهِ اللَّهُ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامِهِ عَلَى ظُلْمِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجِيعُ دَعْوَةَ الْمُضْطَّهِدِينَ وَهُيَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ.

الشرح والتفسير: إحذر من لعنه المظلومين!

في هذا المقطع من رساله الإمام عليه السلام لمالك الأشتر يوصيه الإمام عليه السلام بعبارات بليغه ومحكمه بإقامه العدالة ورفع كل أشكال التمييز:

«أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصِّهِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوَى (١) مِنْ رَعِيَّتِكَ».

ومعلوم أن المراد من الانصاف بالنسبه لله تعالى، إطاعه وأوامره ونواهيه، والانصاف بالنسبه للناس ترك كل أشكال التمييز والميل لبعض الأفراد دون البعض، كما هو الحال في سيره غاليه المسؤولين والقاده في الماضي والحاضر، فعندما يصلون إلى مسند القدره والسلطه يمنحون أقاربهم وأصدقاءهم امتيازات خاصه دون سائر الناس، وهذا التمييز يتسبب في أنواع من الخلل والإرباك في الحكومات.

وينبغي الالتفات إلى أن «الانصاف» من ماده «نصف» الذي يطلق على نصف كل شيء، وبما أن العدالة تؤدي إلى قيام الإنسان بتقسيم حقوقه الاجتماعيه بينه وبين

الآخرين بالعدالة، فمن هذه الجهة يطلق عليه «انصاف» وبعبارة أخرى أن الانصاف هو أن يحب الإنسان للآخرين ما يحب لنفسه وأقربائه وأصدقائه، ويكره للآخرين ما يكره لنفسه والأشخاص المتعلقين به.

ونقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«سَيِّدُ الْأَعْمَالِ ثَلَاثَةٌ: إِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى لَا تَرْضَى بِشَيْءٍ إِلَّا رَضِيتَ لَهُمْ مِثْلَهُ» (١).

وأما الانصاف بالنسبة لله تعالى فهو أن يقسم الإنسان المواهب الإلهية بشكل عادل، فنصفها ينفقها في سبيل الله ويبقى النصف الآخر لنفسه، وهكذا يقسم وقته وفكره وإمكاناته الأخرى بهذا المنوال حتى يراعى على الأقل الانصاف وإن لم يصل إلى حد الإيثار.

ومن الطبيعي أن هذا العمل ليس بالهين واليسير، لأن الإنسان يميل دوماً نحو ترجيح كفه نفسه وأقربائه على كفه الآخرين، ومن هنا ورد في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لأحد أصحابه:

«أَلَا اخْبُرُكَ بِأَشَدِّ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ»، قلت:

بلى. قال:

«إِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ وَمَوَاسَاتِكَ أَخَاكَ وَذِكْرُ اللَّهِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ...» (٢).

والفرق بين الانصاف والمواساة، هو أن الانصاف يكون في مورد الحقوق، والمواساة تقع في جميع مواهب الحياة ونعم الله تعالى على الإنسان.

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه ويذكر دليلاً على قوله، وهذا الدليل مركب، في الحقيقة، من صغرى وكبرى ونتيجته ويقول:

«فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمُ! وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ خَصِيْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصِمَهُ اللَّهُ أَدْحَضَ (٣) حُجَّتَهُ، وَكَانَ لِلَّهِ حَزْبًا حَتَّى يَنْزِعَ (٤) أَوْ يَتُوبَ».

ص: ٣١٦

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ١٤٤، ح ٣.

٢- (٢) المصدر السابق، ص ١٤٥، ح ٨.

٣- (٣) . «ادحض» من مادة «دحض» على وزن «محض» وتعني بطلان الشيء، وعندما تأتي من باب إفعال تعني إظهار البطلان، وإبطال الحجج في مورد بمعنى عدم قبول العذر.

٤- (٤) «ينزع» من مادة «نزع» على وزن «نظم» يعني قلع وفصل الشيء وتركه، وينبغي الالتفات إلى أن التناسب في الجملة أعلاه يقتضى أن تكون «أو» بمعنى الواو، وجاء في بعض نسخ نهج البلاغة واو بدل «أو».

ومن الواضح أنّ ترك الانصاف وممارسه أى شكل من أشكال التمييز يعتبر من الظلم الفاحش والجلى، ونعلم أنّ الله تعالى عادل وحكيم وعدوّ للظالمين ونصير للمظلومين، والملفت للنظر أنّ الإمام عليه السلام يؤكّد على هذا المعنى، وهو أنّ الله تعالى إذا خاصم أى شخص فإنّه لا يقبل منه أى عذر وحجّه، والتعبير

«أَدْخَصَ حُجَّتَهُ» إشاره إلى هذا المعنى، وربّما يملك الشخص المذنب بعض الأعذار غير الموجهه فى ذنوب أخرى ويشمله لطف الله تعالى وتكون أعذاره مقبولة بغفاريه البارى تعالى، ولكن بالنسبه للظلم والجور لا يقبل منه أى عذر وذريعه، والطريق الوحيد للنجاه من خصومه الله تعالى وعقوبته أن يرفع الإنسان يده من الظلم ويتوب من أعماله هذه ويعيد حقوق الناس إليهم ويجبر ما فات من أعماله.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام فى سياق كلامه هذا يبيّن العقوبه الشديد للظالمين وأنّها لا تشبهها أىه عقوبه أخرى:

«وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامِهِ عَلَى ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ (١) ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ».

وهذا الكلام يعدّ تحذيراً شديداً للظالمين ليعلموا أنّ عقوبتهم لا تنحصر بيوم القيامه، بل سيواجهون جزاء أعمالهم فى هذا العالم أيضاً، وليس فقط فى مدّه طويله بل فى مدّه قصيره، أجل فإنّ ما يسرع فى تغيير النعم الإلهيه وينزل العقوبه والعذاب الإلهى هو الإقامه والاستمرار على الظلم والإصرار على العدوان وسحق الحقوق.

ونقرأ فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال:

«مَا مِنْ أَحَدٍ يَظْلِمُ بِمَظْلَمَةٍ إِلَّا أَخَذَهُ اللَّهُ بِهَا فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ...» (٢).

وجاء فى الكلمات القصار للإمام عليه السلام فى غرر الحكم:

«مَنْ عَمِلَ بِالْجَوْرِ عَجَّلَ اللَّهُ هُلُكَهُ» (٣).

ص: ٣١٧

١- (١) «المضطهدين» جمع «مضطهد» بمعنى المظلوم، من ماده «ضهد» على وزن «مهد» وتعنى الظلم.

٢- (٢) الكافي، ج ٢، ص ٣٣٢، ح ١٢.

٣- (٣) غرر الحكم، ح ٨٠٤٧.

وكذلك ورد في روايه عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَى إِلَى نَبِيٍِّّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ فِي مَمْلَكَةِ جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَّارِينَ أَنْ ائْتِ هَذَا الْجَبَّارَ فَقُلْ لَهُ: إِنِّي لَمْ أَشِدَّ تَعْمَلْكَ عَلَى سَفْكِ الدَّمَاءِ وَاتِّخَاذِ الْأَمْوَالِ وَإِنَّمَا اسْتَعْمَلْتُكَ لِتَكُفَّ عَنِّي أَصْوَاتَ الْمَظْلُومِينَ، فَإِنِّي لَمْ أَدْعُ ظُلَامَتَهُمْ وَإِنْ كَانُوا كُفَّارًا» (١).

يقول ابن عباس، الذي اقتبس الكثير من علومه من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام على عليه السلام: «علمت من القرآن الكريم أن الظلم والجور يخرب البيوت، ثم أشار إلى هذه الآية: «فَتِلْكَ تُبَيِّتُهُمْ حَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا...» (٢) (٣).

وجاء في حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أَسْرِعُ الْخَيْرِ ثَوَابًا الثَّبْرُ وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَأَسْرِعُ الشَّرِّ عُقُوبَةً الْبَغْيُ وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ» (٤).

ص: ٣١٨

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ٣٣٣، ح ١٤.

٢- (٢) . سورة النمل، الآية ٥٢.

٣- (٣) التفسير الأمثل، ذيل الآية ٤٢ من سورة الكهف.

٤- (٤) سنن ابن ماجه، ج ٢، باب البغي، ح ٤٢١٢، ص ١٤٠٨.

وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وَأَعْمَمُهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سِيْخَطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سِيْخَطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ. وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَوْوَنَهُ فِي الرَّخَاءِ، وَأَقْلَلَّ مَعُونَهُ لَهُ فِي الْبَلَاءِ، وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ، وَأَسْأَلَ بِاللِّحَافِ، وَأَقْلَلَّ شُكْرًا عِنْدَ الْإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُدْرًا عِنْدَ الْمَنْعِ، وَأَضْعَفَ صَبْرًا عِنْدَ مُلِمَاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ. وَإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ، وَجَمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صِغُوكَ لَهُمْ، وَمِثْلِكَ مَعَهُمْ.

الشرح والتفسير: كن مع جمهور الناس!

يلفت الإمام عليه السلام النظر في هذا المقطع من الرسالة إلى نقطه مهمه ومؤثره في حياه الإنسان وبخاصه المجتمعات البشريه المعاصره وكيفيه عمل الحكومات، ويقول:

«وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا (١) فِي الْحَقِّ، وَأَعْمَمُهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ».

وبديهى أن القوانين والمقررات التى تملك هذه الخصوصيات الثلاث تكون أشمل من حيث الحقوق، وكذلك أشمل من حيث رعايه العدل، وأفضل فى كسب رضا عامه الناس، فإنها ستقع مورد رضا الله تعالى والخلق، وعندما يكون الله تعالى

ص: ٣١٩

١- (١). «أوسط» من ماده «وسط» بمعنى فى هذا المورد الأفضل من الأشياء، لأن الشىء الذى يقع فى الحد الوسط الاعتدال هو الأفضل والأكمل، يقول القرآن الكريم فى سوره القلم الآيه ٢٨: «قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ»، أى أعقلهم، وجاء فى لسان العرب: «أوسط الشىء أفضل الشىء وخياره».

راضياً عن حكمه معينه وخلق الله راضون كذلك، فإن ذلك يضمن بقائها ودوامها.

وهذا الكلام يعنى أنّ المهم هو تحقيق رضا الغالبية الساحقه من الناس لا الأقلية من أصحاب الثروه من الانتهازيين الذين يعيشون فى بلاط الحاكم أو السلطان.

ويقول الإمام عليه السلام فى سياق كلامه:

«فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ (١) بِرِضَى الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ».

ما ورد من الجمل القصيره أعلاه يمثّل فى الواقع البنيه التحتائيه للحكومات الثابته والمستقره، فأفراد المجتمع ينقسمون عادة إلى قسمين: فئه هى الأقلية من الأثرياء الذين يتمسكون بأطراف القاده والزعماء ويبرزون لهم مظاهر الإخلاص والتضحيه بدافع التملق ويهتمون دائماً بمنافعهم الذاتيه ومصالحهم الشخصيه، وفى مقابل هناك الغالبية من الناس الذين تقع على أيديهم تحريك عجله الحياه فى المجتمع، هؤلاء يعملون ويتعبون أنفسهم أكثر من الآخريين ويحبون بلدهم ويتفانون فى خدمته أكثر من الطائفه الأولى، فلو أنّ الطائفه الأولى لم تكن راضيه عن الوالى والحاكم وكانت الطائفه الثانيه راضيه ومسروره، فلا تحدث مشكله أو إرباك فى فضاء المجتمع، لأنّ مشاكل المجتمع تحلّ عادة بيد جمهور الناس ولا تؤثر صرخات الأقلية فى تغيير مسار المجتمع، ولكن إذا رجّح الوالى رضا الطائفه الأولى وهم الأقلية على حساب غضب عامه الناس وسخطهم، فحينذاك تتعرض أركان الحكومه للاهتزاز والضعف.

وفيما لو استمر سخط العامه فسوف ينتهى بهم الأمر إلى الثوره والانتفاضه ضد الحكومه.

إنّ سيره نبيّ الإسلام صلى الله عليه و آله والإمام على عليه السلام تعدّ أفضل نموذجاً حياً لهذه المسأله، فقد تحركا دوماً فى خط مواساة المحرومين ومساعدته ودعم الطبقة المتوسطة من

ص: ٣٢٠

١- (١). «يُجْحِفُ» من «اجحاف» ومن ماده «جحف» على وزن «جهل» فى الأصل بمعنى نزل جلد الشىء، ثم استخدمت هذه الكلمه بمعنى الايقاع فى المشقّه وتخريب الشىء واعطابه.

أفراد المجتمع ولم يهتما بمخالفه الخواص الذين يرون منافعهم فى خطر.

وهذا هو الأمر الذى يطلق عليه فى هذا العصر بالديمقراطيه الشعبيه، أو الديمقراطيه الدينيه، ولكن ربّما يكتفى السياسيون أحياناً بالألفاظ والظاهر لا- بالحقيقه والواقع، فالديمقراطيه فى الحقيقه تعتبر مفهوماً قديماً ولكنهم أظهروه للناس بقوالب جديده من الألفاظ والكلمات.

ونرى فى هذه الأيام نوعاً من الأساليب الشيطانيه المشبوهه من قبل هذه الطائفه من الخواص الذين يتحركون، وبواسطه استخدام وسائل الاتصالات الجمعيه، لخداع الرأى العام وكما يقال: يقومون بغسل الأدمغه بحيث يتصور الناس أنّ مطالب الخواص هى ما يريدّه عامّه الناس، ولكن مع قليل من الدقه يمكن كشف هذا الزيف والخداع فى مقولاتهم.

وأحياناً يستخدمون اسلوباً آخر، وهو أن يفتحوا الباب على مصراعيه للملذات والأهواء والغرائز البدنيه ويعملون على إلهاء الناس بهذه الأمور لكى لا يعرف الناس حقيقه ما يجرى فى المجتمع والحكومّه، فلو أنّ الأشخاص العارفين بهذه الأمور والمخلصين للشعب يتحركون على مستوى تنبيه الناس وإيقاظهم من غفلتهم لثلا يسقطوا فى هذه المصيده، فسوف تنفتح عيون الناس على الحقيقه ويتحركون على مستوى الثوره ضد النظام الحاكم ويلقوا بهؤلاء الانتهازيين فى مزبله التاريخ.

وبما أنّ هذه المسأله تتمتع بأهميه كبيره فى الإسلام، فالإمام عليه السلام عليه السلام فى سياق كلامه يتعرض لشرح أكثر لهذا الموضوع ويبحث فى تفاصيل هذه المسأله ويذكر صفات تلك الطائفه من الخواص، وكذلك يذكر خصوصيات الطائفه الأخرى من عامّه الناس والعاملين فى المجتمع، وبدايه يتحدّث الإمام عن الصفات الذميه للخواص المغرورين ويذكر لهم سبع صفات:

يقول عليه السلام فى الصفه الأولى والثانيه:

«وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرِّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِيِّ مَوْؤَنَهُ فِي الرِّخَاءِ، وَأَقْلَبَ مَعُونَهُ لَهُ فِي الْبَلَاءِ».

فهؤلاء يتوقعون الكثير من الوالى ومطالباتهم لا تعدّ ولا تحصى ولا تمتلىء جيوبهم بسهولة، وعند بروز المشكلات والأزمات يسحبون أنفسهم ويتراجعون إلى الوراء ويقولون بأن حفظ البلد والتضحية فى سبيله تقع على عهدہ العامه من الناس، ويتصورون أنّهم طبقه ممتازه من الصفوه والنخبه الذين يتكفلون مهمه الإشراف وإبداء الرأى فقط.

وفى الصفه الثالثه يقول عليه السلام:

«وَأَكْرَهَ لِلْإِنصَافِ».

لأنهم يعتقدون بأنهم شريحه ممتازه ونخبه مفضله لا ينبغى أن يجعلوا فى عرض الآخرين فى أى برنامج ومشروع.

ويقول الإمام عليه السلام فى بيان الصفه الرابعه:

«وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ (١)».

لأنهم يرون أنفسهم دائمين ومتفضلين، أضف إلى ذلك أنّهم من المقربين للولاه والحكّام ويامكانهم أن يطرحوا مطالبهم مرات ومرات، بخلاف الجمهور من عامه الناس الذين يطرحون مطالبهم باصرار أقل بكثير، وأساساً لا مجال لهم عادة للوصول إلى الحكّام والمسؤولين.

وفى الصفه الخامسه والسادسه يقول عليه السلام:

«وَأَقَلَّ شُكْرًا عِنْدَ الْإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْرًا عِنْدَ الْمَنْعِ».

لأنهم لا يرون العطاء والبذل خدمه من قبل الحاكم تستحق الشكر بل إنه أداء للدين، وفى مقابل الدين لا يستحق المدين شكراً ولا- ثناءً، فهم يتصورون غالباً أنه لولا نصرتهم للنظام وإشرافهم على أمر الحكومه، فإنّ هذه الحكومه لا يمكنها أن تستمر فى حياتها وتمارس دورها فى السيادة والهيمنه، ومن هذا المنطلق يرون لأنفسهم حقّ الحياه على الحكومه، فمهما اعطوا من المال والحقوق فهو قليل بحقهم.

ص: ٣٢٢

١- (١) «الحاف» من ماده «لحف» على وزن «حرف» فى الأصل تعنى تغطيه الشىء ووضع الستار عليه، ثم استخدمت للاصرار على شىء، وكأنه يصبر عليه إلى درجه أنه يغطى جميع وجود الطرف الآخر.

ومن هذا المنطلق أيضاً لو لم تتم الاستجابة لمطالبهم قلما يقبلون العذر في هذا المنع، ويرون أن جميع الأعذار في هذا المجال غير مقبولة وغير مبرره وأحياناً يكون العذر أقيح من الذنب.

وفي الصفه السابعه والأخيره يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَضْعَفَ صَبْرًا عِنْدَ مُلِمَاتٍ (١) الدَّهْرَ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ».

لأنهم عاشوا حياه الرفاهيه والنعمه وقلما واجهوا المشكلات والتحديات، فلم يشد لهم عود الصبر والاستقامه، على عكس الجماهير الكادحه فى المجتمع الذين تربوا فى أجواء المشكلات والأزمات وبنوا ذواتهم فى بوتقه المحن والابتلاءات فصاروا كال فولاد فى القوه والمتانه.

والحقيقه أنه لا- يوجد وصف أفضل وأبلغ وأكثر شفافية لهؤلاء القله من الخواص المغرورين بامتيازاتهم والذين يعاملون الناس من موقع الاستعلاء والفوقيه، ونعلم جيداً أن جميع هذه الخصائص والصفات ناشئه من تصوراتهم الموهومه عن امتيازاتهم الذاتيه وحاجه الحكومه لهم وأفضليتهم على سائر طبقات المجتمع، وهذه الأوهام والخيالات الطوباويه، قادتهم إلى هذه المنزلهات والمتاهات.

أمياً خصائص الجماهير الكادحه فى المجتمع الإسلامى، وحسب تعبير الإمام عليه السلام عامه الناس، فتتلخص فى ثلاثه أمور: يقول عليه السلام:

«وَأَيْمًا عِمَادُ الدِّينِ، وَجِمَاعُ (٢) الْمُسْلِمِينَ، وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صِغُوكَ (٣) لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ».

ما أبلغ هذه العبارات وما أعمق مدلولها، فلولا دفاع العامه من الناس فإن أصول الدين وفروعه ستطوى فى عالم النسيان ويصيب الخلل والإرباك مفاصل المجتمع

ص: ٣٢٣

١- (١). «ملمات» من ماده «لم» على وزن «غم» تعنى تجميع الشىء، ثم استخدمت للحوادث الشديده والمؤلمه، وكان مثل هذه الحوادث تجمع فكر الإنسان وتلفت نظره إليها.

٢- (٢). «جماع» فى الأصل مصدر وفى مثل هذه الموارد تأتى بمعنى الوصف يعنى الجامع والمجمع.

٣- (٣) «صغو» تعنى الميل إلى الشىء. «صغو» بفتح الصاد وكسرها تأتى بمعنى واحد كما ذهب إليه جماعه من المحققين.

الإسلامي، فلا توجد قوّه للدفاع أمام هجوم الأعداء، ومن هذا المنطلق فإنّ الحكومه يجب أن لا تهتم بادعاءات الأقلية المترفه وتحصر اهتمامها ورعايتها بالطبقه التي يتوقف عليها بقاء الدين والدنيا وهي الأساس والأصل في حركة المجتمع نحو الإزدهار والتطور.

ويستفاد من مجموع عبارات الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرساله أنّ الجماهير الكادحه من الناس تتمتع بعشر خصائص، وقد ذكر الإمام عليه السلام ثلاثه منها في المقطع مورد البحث وسبعه منها ذكرها الإمام عليه السلام عند بيان الصفات الذميمة للخواص المغرورين، وهي كالتالي:

١. أنّهم خفيفو المؤنه في حالات الاستقرار الاجتماعي.

٢. أنّهم يشمرون عن سواعدهم ويمدون يد العون في الحكومه في وقت الأزمات والمشكلات.

٣. أنّهم يفرحون من سلوك الوالى في خط الانصاف ورعايه الحقوق للجميع.

٤. عندما يطلبون شيئاً ممّا يحتاجونه في واقع الحياه لا يصرون كثيراً على مطالبهم.

٥. إنّهم يواجهون الهدايه والنعمه بالشكر والثناء.

٦. يقبلون العذر فيما لو وجدت موانع أمام تحقيق مطالبهم.

٧. يتمتعون بالصبر والاستقامه في مقابل المشكلات والتحديات.

وعبارهُ

«وَجَمَاعُ الْمُسْلِمِينَ» إشاره إلى أنّ هذه الشريحه من الجماهير الكادحه هي الركن الأساس للمجتمع الإسلامي، وهذا ما ورد في روايات أخرى بوصفهم «السواد الأعظم»، وبعبارة أخرى لو أخذنا بنظر الاعتبار انفكاك أفراد المجتمع فإنّه لا يبقى هناك مفهوم للمجتمع والأئمه، ولكن إذا توفرت عناصر التلاحم بين الأفراد، كما هو حال البناء الذي تشتد أواصره بقليل من الجص أو الاسمنت، فإنّ مفهوم المجتمع سيتحقق في الواقع الخارجى، وهذا الأمر لا يتسنى إلّا من خلال هذه

«فَلْيَكُنْ صِيغَةُكَ لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ» مقتبسه فى الواقع من القرآن الكريم، وذلك فى خطابه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» (١).

وليس النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقط مأموراً بالاعتماد على هذه الطبقة الفاعلة والتواصل معهم، بل إن جميع الأنبياء السابقين كانوا كذلك، فالقرآن الكريم يتحدث عن النبي نوح عليه السلام، عندما تجمع حوله بعض الشبان المؤمنين واعترض عليه جماعه من الأثرياء وأصحاب المواقع الاجتماعيه أنك إذا أردت أن ندخل فى دينك فيجب أن تطرد هؤلاء الفتيه من حولك، فأمره الله تعالى أن يقول لهم: «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» (٢).

تأمل

أنواع الحكومات

قسّم بعض العلماء الحكومات والنظم السياسيّه على إمتداد التاريخ البشرى إلى أربعة أقسام:

١. الحكومة المستبده: وهى الحكومة التى تحكم فيها شخص واحد على المجتمع ويديره بوحى من أفكاره الخاصّه دون الخضوع لقانون، فيفرض إرادته على جميع الأفراد (مثل حكومه رؤوساء القبائل فى العصور القديمه).

٢. الحكومة الملكيه: وفيها يكون الحاكم شخص واحد، ولكنها تملك قانوناً

ص: ٣٢٥

١- (١) سورة الكهف، الآيه ٢٨.

٢- (٢) سورة هود، الآيتان ٢٩ و ٣٠.

ونظماً لتيسير الأمور وتديير الحكومه.

٣. حكومه الأشراف (الأريستوقراطيه) وهى الحكومه التى يتولى أمرها طبقه الأشراف والنبلاء فى المجتمع.

٤. الحكومه الديمقراطيه: فيها يكون الشعب هو الحاكم الحقيقى لنفسه، ومن هنا يختار الشعب نوابه وحكامه من خلال صناديق الاقتراع، ويتولى هؤلاء الوكلاء والنواب ترتيب المسائل القانونيه والقضائيه والإجرائيه، وأحياناً تكون الانتخابات بواسطه، وأخرى دون واسطه.

وطبعاً فالحكومه الإلهيه، أى حكومه الأنبياء والأئمه المعصومين عليهم السلام، تتمتع بمكانه خاصه، وذلك أنهم منصوبون من قبل الله تعالى لهذه الحكومه ويهدفون لما فيه خير المجتمع وصلاح الناس، ومعلوم أن هؤلاء الأولياء، ومن أجل تيسير عملهم وكسب تأييد الجمهور، يستخدمون فى الكثير من المواقع عنصر البيعه، ومع بيعه الناس للحاكم الإلهى تزداد مشروعيه هذه الحكومه، وهذا الأمر تحقق بشكل كبير فى حكومه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأمير المؤمنين عليه السلام.

ص: ٣٢٤

وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ، وَأَشْنَاهُمْ عِنْدَكَ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ؛ فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوبًا، الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتِطَعْتَ يَسْتُرِ اللَّهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سِتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ. أَطْلِقِ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ، وَأَقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وَثْرٍ، وَتَغَابِ عَنِ كُلِّ مَا لَا يَضِحُ لَكَ، وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ.

الشرح والتفسير: عليك بستر العيوب!

فى هذا المقطع من الرساله يتحدّث الإمام عليه السلام عن أهميّه الستر على الناس من قبل الوالى والتأكيد بأنّ وظيفه الوالى لا تنحصر بمكافحه العيوب الظاهره، بل ينبغى اجتناب التجسس على الناس والتوغل فى أمورهم الشخصيه لمعرفة عيوبهم الباطنيه وكذلك الابتعاد عن الأشخاص الذين يتحركون على مستوى كشف عيوب الناس وفضحهم، يقول عليه السلام:

«وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ وَأَشْنَاهُمْ (١) عِنْدَكَ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ».

وعاده تجتمع حول الوالى أو الحاكم جماعه من هؤلاء الانتهازيين، الذين يبحثون عن عيوب الناس ونقاط الضعف والقصور فيهم من أجل التقرب إلى الوالى والقائد، فيهتكوا أستار الآخرين ممّا يبعث على تشويش ذهن الوالى بالنسبه لهم

ويعيش سوء الظن بالنسبه لكل فرد من الأفراد، فالإمام عليه السلام يقول: يجب أن تبعد هذه الجماعه عن نفسك لأنهم يتسبون فى إرباك الحكومه، فمن جهه يخلقون جو الفرقه والاختلاف بين الناس، ومن جهه أخرى يقومون بتوهين العلاقه بين الوالى والرعيه، ومن جهه ثالثه يغرسون سوء الظن فى فضاء المجتمع الإسلامى.

أجل، ينبغى على الوالى أن يسلك معهم بهذه الطريقه حتى لا يتصور أحد أنه، ومن خلال النميمه وافشاء عيوب الناس، يتقرب إلى الوالى ويكون من بطانته.

ولتأكيد هذا المعنى يبين الإمام عليه السلام دليلاً فى هذا الشأن ويقول:

«فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوبًا، وَالْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا».

ويضيف عليه السلام:

«فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ».

وقد ورد فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنْ أَصْحَابِي شَيْئًا فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أُخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمٌ الصَّدْرِ»(١).

إن ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من كلامه يبين هذه الحقيقه، وهى أن غالبية الناس لهم نقاط ضعف تخفى على الآخرين، فلو أن نقاط الضعف هذه ظهرت للملأ فإن هذا من شأنه إشاعه حاله سوء الظن بين الناس، والوالى بدوره سيعيش سوء الظن بالنسبه للرعيه، وهذه الحاله من سوء الظن، والتى أشار إليها النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً فى حديثه، من شأنها تقطيع أوصال المجتمع وتخريب الوحده بين أفراده وإضعاف عنصر الثقه فيما بينهم، فلايعيش مثل هذا المجتمع التكاتف والتواصل بين الأفراد، وبينهم وبين الوالى، وهذا هو ما ورد فى القرآن الكريم من النهى بصراحه عن التجسس والبحث عن عيوب الناس الخفيه تقول الآيه: «وَلَا تَجَسَّسُوا»(٢).

إن الواجب على الوالى أن يتصدى لمن يمزق ستار الحياء ويتجاهر بالفسق والفجوز ولا يأبى من إظهار عيوبه للناس، ويتعامل معه بآليات الاصلاح السلمى

ص: ٣٢٨

١- (١) بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢٣٠.

٢- (٢) سورة الحجرات، الآيه ١٢.

ومن خلال الموعظه والنصيحه، ولو لم يوفق من هذا الطريق فإنه يستخدم القوه والشده ويقيم الحدود الإلهيه فيما يتعلق بهذا الشخص، فذلك بمثابة العمليه الجراحيه الضروريه لإدماه حياه المجتمع.

ثم إن الإمام عليه السلام وفي سياق كلامه يتحدث عن هذا الموضوع من جهه أخرى ويقول:

«فَاسْتُرِ الْعُورَةَ مَا اسْتَطَعْتَ يَسْتُرِ اللَّهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سِتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ».

وهو إشاره إلى أن الإنسان ينبغي عليه ستر عيوب الناس ليستر الله عيوبه، وهذا بمثابة الثواب الإلهي في الدنيا، وهناك ثواب أعظم ينتظره في الآخرة.

وقد ورد في حديث شريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مَنْ سَتَرَ أَخَاهُ فِي فَاحِشِهِ رَأَاهُ عَلَيْهِ سِتْرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(١).

وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله:

«كَانَ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامٌ لَهُمْ عُيُوبٌ فَسَكَّتُوا عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ فَأَسْكَتَ اللَّهُ عَنْ عُيُوبِهِمُ النَّاسَ فَمَاتُوا وَلَا عُيُوبَ لَهُمْ عِنْدَ النَّاسِ»^(٢).

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه وخطابه لمالك الأشر وأمره بأربعة أمور أخرى، بدايه يقول:

«أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حَقْدٍ»^(٣).

ومن المعلوم أن هناك عوامل مختلفه ربما تثير العداوه بين الناس والوالى، فيجب على والى الأخذ بمقتضيات الحذر والانتباه إلى جذور هذه المسأله ونزع فتيل هذا الحقد والعداوه من صدورهم وذلك من خلال سلوكه الحسن معهم والتواصل معهم بشكل يمتص هذه العقد والأحقاد من نفوسهم.

ويحتمل أيضاً فى معنى هذه الجملة أن والى عليه أن يترك حالات الحقد على الناس، ولو أن أحداً ارتكب مخالفه فلا يضمها فى قلبه بحيث تتحول إلى عقده، بل عليه أن يتناساها، وقديماً قيل: لا تنسى الخير الذى جاءك من الناس وعليك جبرانه فى الوقت المناسب ولا تتذكر إساءتهم لك وتعيش حالات الانتقام تجاههم،

ص: ٣٢٩

١- (١) كنز العمال، ح ٦٣٩٢.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢١٣، ح ٤.

٣- (٣) «حقد» العداوه المخبوءه فى قلب الشخص وينتظر الفرصه لإظهارها وإبرازها.

ولكن المعنى الأول أنسب للعبارة.

ويقول الإمام عليه السلام فى التوصيه الثانيه:

«وَأَقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وَتْرٍ (١)».

لأننا نعلم أن العداوات لا تحدث بدون سبب، إما أن تكون بسبب سوء المعامله أو تضييع الحقوق أو التكبر والفخر على الآخرين وأمثال ذلك، فعندما يتم قلع هذه العوامل والأسباب فإن العداوات فى جو المجتمع تتبدل إلى محبه وموده.

ويقول الإمام عليه السلام فى التوصيه الثالثه:

«وَتَغَابَ (٢) عَنْ كُلِّ مَا لَا يَضِحُ (٣) لَكَ».

وهذه إشاره إلى أنه لا ينبغى لك الاصرار على التدخل فى تفاصيل حياه الناس وأعمالهم، وعليك بالتغافل مهما أمكنك ذلك، فإن التدخل فى جزئيات حياه الأفراد يعيقك عن الاهتمام بالمسائل الكليه والهامه ويعمق الخلافات والعداوات فى فضاء المجتمع.

وفى التوصيه الرابعه والخامسه يقول الإمام عليه السلام:

«وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ (٤) فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ (٥)، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ».

ونعلم أن المنام هو الشخص الذى ينقل الأخبار الصحيحه والسقيمه بين الأفراد ليوقع بينهم الشقاق ويزرع بذور العداوه فى صدورهم، وقديماً قالوا:

وَقَدْ قَطَعَ الْوَأَشُونَ مَا كَانَ بَيْنَنَا

وَنَحْنُ إِلَى أَنْ نُوصِلَ الْحَبَلَ أَحْوَجُ

رَأَوْا عَوْرَةَ فَاسْتَقْبَلُوهَا بِأَلْبِهِم

فَلَمْ يَنْهَهُمْ حِلْمٌ وَلَمْ يَتَحَرَّجُوا

وَكَانُوا أَنَاسًا كُنْتُ آمِنٌ غَيْبِهِم

فَرَأَوْهُ عَلَى مَا لَا نُحِبُّ وَأَدْلَجُوا

١- (١) «وتر» على وزن «فكر» و «وتر» على وزن «سطر» كليهما بمعنى الوحيد والمنفرد، وبما أنّ الإنسان عندما يقتل فإنّ أقرباءه يجدونه وحيداً، ومن الطبيعي أن يضمروا الحقد في قلوبهم، فاستخدمت هذه المفردة بمعنى اضممار الحقد والعداوة، وهو المراد في الجملة أعلاه.

٢- (٢) «تَغَاب» فعل أمر من ماده «تغابى» بمعنى تغافل من ماده «غباوه» بمعنى الجهل وعدم العلم، وكأنّ الشخص الذى يتغافل فكأنّه جاهل بذلك الشىء.

٣- (٣) «يضح» من ماده «وضوح» بمعنى وضوح الشىء.

٤- (٤) . «ساع» من ماده «سعى» فى الأصل بمعنى كلّ حركة ونشاط لإنجاز عمل معين، ولكن فى هذه الموارد يطلق على الشخص الذى يسعى فى النميمه وذكر عيوب الآخرين.

٥- (٥) «غاشّ» بمعنى الخائن والمسىء من ماده «غشّ» بمعنى الخيانه والإساءه.

ويعكس ذلك فقد أذن الإسلام في عمليته إصلاح ذات البين بالكذب لقلع فتيل العداوة وإزاحه غبار الكدوره عن القلوب،
ويعباره أخرى: على المسلم أن يصب الماء على نيران الخلاف والفرقة لا أن يضيف إليها حطباً ويزيدها اشتعالاً.

ونقرأ في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أَلَا أُتْبِئُكُمْ بِشِرَارِكُمْ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الْمَشَاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُفَرَّقُونَ بَيْنَ الْأَحْبَةِ الْبَاغُونَ لِلْبِرِّ آءِ الْمَعَابِ» (١).

تأمل

موارد الاستخبارات والتستر على عيوب الناس

ربّما يشار هذا السؤال بعدما رأينا ما يقوله الإمام عليه السلام في هذا القسم من الرساله فيما يتصل بالتستر على الناس وطرد
النمامين الذين يتحركون لفضح الناس أمام الوالى، والسؤال هو: إذن لماذا وضع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام
أمير المؤمنين عليه السلام نفسه العيون والجواسيس فى شتى نقاط البلاد الإسلاميه، والذين كانوا يوصلون إليه أخبار الأمراء
والولاه الخفيه والجليه، فهل يعتبر هذا العمل مخالفاً لمسأله التستر؟

أضف إلى ذلك أنه ورد فى التعاليم الإسلاميه فيما إذا استشارك شخص حول أحد الأفراد، فلو كنت تعرف منه بعض العيوب
الخفيه فعليك أن تذكر ذلك لمن يستشيرك فيه وأن هذه المسأله من الأمور المستثناه من الغيبه.

ولا يخفى الجواب عن مثل هذا السؤال، لأنّ كلام الإمام عليه السلام فيما يتصل بالتستر وعدم الكشف عن عيوب الناس، يخص
العيوب الشخصيه والخصوصيه التى لا تؤثر فى مصير الأُمّه أو يكون لها تأثير خفيف جداً، ولكن عندما تتعرض مصالح الأُمّه
والنظام الإسلامى للخطر ويدور الحديث حول وجود مؤامره تستهدف مصالح النظام والأُمّه، فهنا يكون لهذه المسأله حكم آخر،
وبديهى أنّ الواجب فى هذه

ص: ٣٣١

الحاله هو التحقيق والتجسس وإيصال الخبر إلى الوالى لثلا- يتسبب فى إيجاد الإريباك والخلل فى المجتمع الإسلامى وربّما تسفك بسببه الدماء وتنهب به الأموال وتنتهك به الحرمات، ففى هذا المورد لا- مكان للتستر عن العيوب ونقاط القصور والتقصير.

وهكذا إذا أراد المسلم أن يقدم على عمل معين، سواء يتعلق بأمر الزواج، أو المشاركة فى تجاره، أو اختيار شخص لوظيفه وأمثال ذلك، وسأل شخص خبير ومطلع واستشاره فى ذلك، فهنا يعتبر التستر على ذلك الشخص نوعاً من الخيانه، فلا يحق للمستشار أن يكتف عيوب الطرف الآخر الذى استشاره صاحبه فى هذه الأمور.

وعلى ضوء ذلك يتبين الحد الفاصل بين لزوم التستر على عيوب الناس وحرمة فضحهم وكشف أسرارهم، وبين عمل الاستخبارات فى الأمور الاجتماعيه والسياسيه وفى مقام المشوره.

ص: ٣٣٢

وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَيَعِدُّكَ الْفَقْرَ، وَلَا جَبَانًا يُضْعِفُكَ عَنِ الْأُمُورِ، وَلَا حَرِيصًا يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَّ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ عَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ.

الشرح والتفسير: إحذر هؤلاء المستشارين!

يتحدّث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رسالته وعهده عن مسأله المشاورين للوالى وصفاتهم وخصائصهم، والملفت للنظر أنّ الإمام لا يتحدّث عن لزوم المشوره لأنّه يعتبر أمراً مسلماً ومطلوباً بأن يكون للوالى مستشارون أكفاء في شؤون الإيداره السياسيه والعسكريه، ليستطيع من خلال الاستفاده من أفكارهم وآرائهم أن يختار الطريق الأفضل لتدبير الأمور ويتعد بذلك عن الإستبداد بالرأى والاعتماد فقط على أفكاره الفرديه، وبالتالي يمكنه مراعاة مصالح الرعيه مع المشوره بالمقدار الممكن.

يقول الإمام عليه السلام محدّراً مالك الأشر من مشاوره ثلاث فئات ويبين له الآثار والتداعيات السيئه لهذه المشوره، وذلك بعبارات بليغه وموجزه ويقول:

«وَلَمَّا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَيَعِدُّكَ الْفَقْرَ، وَلَا جَبَانًا يُضْعِفُكَ عَنِ الْأُمُورِ، وَلَا حَرِيصًا يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَّ (١) بِالْجَوْرِ».

وفى الحقيقه فإنّ الإمام عليه السلام يوصى بالتحلى بثلاث قيم وملكات مهمه ومؤثره

على مستوى التدبير والإدارة: السخاء، الشجاعه والقناعه، وبديهي أن استشاره الشخص البخيل سيقف حائلاً أمام السخاء والكرم، ومشاوره الجبان من شأنها اضعاف عزمه وجرأه الرجل الشجاع، وأما استشاره الحريص فإنها تضعف القناعه وتثير فى الإنسان الطمع، وبالتالي تقوده هذه الصفات والحالات السلبيه إلى ظلم الرعيه.

ومن جهه أخرى فإنّ البخلاء يعيقون كلّ عمل من شأنه الترفيه والترويح عن الرعيه، وأما فى الأمور الدفاعيه العسكريه فالجبناء يضعون العصى فى عجلات المواجهه مع الأعداء ويضخمون خطرهم ويحبذون للوالى حاله الخنوع، وأما فى الأمور الاقتصاديه فالحريص يقف حائلاً أمام الإزدهار الاقتصادى، وعلى هذا الأساس فالمشاورون للوالى يجب أن يتم انتخابهم بما يتنفع بهم فى شؤون إداره البلاد ومدد يد العون للوالى وتقويه عزمته وإرادته ويحذرونه من الأمور التى تؤدى إلى إرباك المجتمع وتعريض مصالح الناس للخطر.

وفى ختام هذا البحث يؤكد الإمام عليه السلام على البحث فى جذور هذه الصفات الذميه ويقرر أنها تمتد إلى أصل واحد ويقول:

«فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ (١) شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ».

فى هذه العبارة يدرس الإمام عليه السلام هذه المسأله من زاويه سيكولوجيه عميقه ويقول: إنّ البخلاء لا يبخلون بشيء من مالهم إلّ بسبب سوء ظنهم بالله بأنّه سيمنعهم من فضله ومواهبه ويتصوّرون أنّهم إذا أنفقوا اليوم من أموالهم فإنّهم سيكونون غداً فقراء ومحتاجين، أمّا الجبناء فإنّهم يسيئون الظنّ بالله فى وعده للمؤمنين بالنصر على أعدائهم ويتصوّرون أنّهم إذا لم يتراجعوا فى المعركه فربّما

ص: ٣٣٤

١- (١) «غرائز» جميع غريزه بمعنى الطبيعه والقريحه والدوافع المتمركزه فى باطن الإنسان أو الحيوانات الأخرى، وهى من ماده «غرز» على وزن «قرض» بمعنى ثقب الشيء أو إحداث ثقب فيه وكأنّ باطنه يثقب وتوضع الغريزه فى ذلك المكان.

بقوا لوحدهم وهلكوا فى مواجهه العدو، أما الأشخاص الذين يعيشون الحرص على المال والثروه، فإنهم لا يملكون حاله التوكل على الله، وفى الحقيقه أنهم يسيئون الظن بقدره الله تعالى.

والآيات القرآنيه بدورها شاهده على هذه الحقيقه، فى مورد يقول القرآن:

«الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا» (١).

وفى آيه أخرى يقول: «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (٢).

وفى مورد ثالث يقول: «وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (٣).

وما ورد من كلام الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الرساله، يماثل ما ورد فى كلام النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فى وصيته للإمام على عليه السلام. فنقرأ فى كتاب «علل الشرائع» حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله يخاطب الإمام على عليه السلام ويقول::

«يَا عَلِيُّ لَا تُشَاوِرْ جَبَانًا فَإِنَّهُ يُضَيِّقُ عَلَيْكَ الْمَخْرَجَ وَلَا تُشَاوِرِ الْبَخِيلَ فَإِنَّهُ يَقْصِرُ بِكَ عَنْ غَايَتِكَ وَلَا تُشَاوِرْ حَرِيصًا فَإِنَّهُ يُزِينُ لَكَ شَرَّهَا وَاعْلَمْ يَا عَلِيُّ أَنَّ الْجُبْنَ وَالْبُخْلَ وَالْحِرْصَ غَرِيزَةٌ وَاحِدَةٌ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ» (٤).

تأمل

أهميه المشوره فى حياه الإنسان

إنّ مسأله المشوره والاستشاره تعدّ من أهم المسائل الاجتماعيه، والدليل على ذلك واضح، لأنّ المشكلات الاجتماعيه وحتى الشخصيه تكون فى الغالب معقده

ص: ٣٣٥

١- (١) سوره البقره، الآيه ٢٦٨.

٢- (٢) سوره آل عمران، الآيه ١٣٩.

٣- (٣) سوره التغابن، الآيه ١٦.

٤- (٤) علل الشرايع، ج ٢، ص ٥٥٩، ح ١. وينبغى الالتفات إلى أنه عندما يقول الإمام عليه السلام «غرائز شتى» وفى كلام النبى صلى الله عليه وآله «غريزه واحده» وذلك بسبب النظره من زوايا مختلفه إلى هذه المواضيع الثلاثه وهى بحسب الظاهر منفصله عن بعضها ولكنها فى الواقع تعود إلى أصل واحد.

ومشوشه، هذا من جهه، ومن جهه أخرى فكل واحد من الأفراد يملك رأياً وفكراً ربّما يختلف عن الآخرين ويرى المسأله من زاويه واحده، فلو اجتمعت الآراء والعقول لحلّ مشكله معينه فرّبما نحصل على حلول ناجعه للمشاكل الفرديّه والاجتماعيّه.

ومن هذه الجهه نقرأ فى حديث شريف فى «غرر الحكم» عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«حَقُّ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يُضِيفَ إِلَى رَأْيِهِ رَأَى الْعُقَلَاءِ وَيَضُمَّ إِلَى عِلْمِهِ عُلُومَ الْحُكَمَاءِ»^(١).

وبديهى كلما إزداد الأمر أهميّه وخطوره فإنّ أهميّه المشوره ستزداد أيضاً، والتجربه تدل على أنّ الأشخاص الذين يتحركون فى أعمالهم المهمّه بآليه المشوره والتباحث مع العقلاء وأهل الخبره فى هذا الشأن فإنّهم قلّمَا سيواجهون الخلل والفسل، وبعكسهم المستبدون برأيهم الذين يشعرون بالاستغناء عن أفكار الآخرين نرى أنّهم فى الغالب يتورطون فى أخطاء وأخطار تعود عليهم بالضرر الفاحش، ولذلك نقرأ فى كلمات الإمام عليه السلام النورانيه:

«مَنْ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ وَمَنْ شَاوَرَ الرَّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُولِهَا»^(٢).

وجاء فى حديث عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام أنّه قال:

«مَا تَشَاوَرَ قَوْمٌ إِلَّا هُدُوا إِلَى رُشْدِهِمْ»^(٣).

وروى عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه نقل من التوراه هذه الحكمه:

«مَنْ لَمْ يَسْتَشِرْ يَنْدَم»^(٤).

ولا فرق أن يستشير الإنسان من هو أعلم وأعقل منه أو يستشير من هو أدنى منه فى المرتبه كما ورد عن على بن الجهم قال: كنّا عند أبى الحسن الرضا عليه السلام

ص: ٣٣٦

١- (١) غرر الحكم، ح ٤٩٦.

٢- (٢) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ١٦١.

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٠٥، ح ٤.

٤- (٤) المصدر السابق، ج ٧٤، ص ٤٣، ح ١٣.

فذكرنا أباه قال:

«كَانَ عَقْلُهُ لَا يُوزَنُ بِهِ الْعُقُولُ، وَرَبَّمَا شَاوَرَ الْأَسْوَدَ مِنْ سُدَانِهِ، فَقِيلَ لَهُ: تُشَاوِرُ مِثْلَ هَذَا؟ فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رُبَّمَا فَتَحَ عَلَيَّ لِسَانَهُ» (١).

والملفت للنظر أنَّ الغرض من المشوره، مضافاً إلى ما تقدّم بيانه من التأكيد البالغ على الاستشاره، أنَّ المستشار يفكر في المسأله بنزاهه وبفكر خالص في ذلك الموضوع في حين أنَّ صاحب المشكله الذى يفكر بمنافعه، فإنَّ فكره مشوب بالأهواء والمنافع الذاتيه:

«إِنَّمَا حُضُّ عَلَى الْمَشَاوَرَةِ لِأَنَّ رَأْيَ الْمُسْتَشِيرِ صَرَفٌ وَرَأْيَ الْمُسْتَشِيرِ مَشُوبٌ بِالْهَوَى» (٢).

كما ورد في كلام الإمام على عليه السلام في هذا العهد: لا يصح استشاره أياً كان، فالمستشار يجب أن يكون فرداً عاقلاً ومؤمناً لا يريد إلّا الخير لصاحبه، ولذلك نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ الْمَشُورَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِحُدُودِهَا، فَمَنْ عَرَفَهَا بِحُدُودِهَا وَإِلَّا كَانَتْ مَضْرَّتْهَا عَلَى الْمُسْتَشِيرِ أَكْثَرَ مِنْ مَنْفَعَتِهَا لَهُ:

أَوَّلُهَا: أَنْ يَكُونَ الَّذِي يُشَاوَرُهُ عَاقِلاً.

وَالثَّانِيهِ: أَنْ يَكُونَ حُرّاً مُتَدِيناً.

الثَّالِثَهُ: أَنْ يَكُونَ صَدِيقاً مُوَاخِيّاً.

الرَّابِعَهُ: أَنْ تُطْلِعَهُ عَلَى سِرِّكَ فَيَكُونَ عِلْمُهُ بِهِ كَعِلْمِكَ بِنَفْسِكَ، ثُمَّ يَسْتَرِ ذَلِكَ وَيَكْتُمُهُ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ عَاقِلاً انْتَفَعْتَ بِمَشُورَتِهِ، وَإِذَا كَانَ حُرّاً مُتَدِيناً جَهَدَ بِنَفْسِهِ فِي النَّصِيحَةِ لَكَ، وَإِذَا كَانَ صَدِيقاً مُوَاخِيّاً كَتَمَ سِرِّكَ».

وقال في ختام كلامه عليه السلام:

«إِذَا أُطْلِعْتَهُ عَلَيْهِ، وَإِذَا أُطْلِعْتَهُ عَلَى سِرِّكَ كَانَ عِلْمُهُ بِهِ كَعِلْمِكَ، وَتَمَّتْ الْمَشُورَةُ وَكَمَلَتْ النَّصِيحَةُ» (٣).

وفي عالمنا المعاصر أضحت المشوره والشورى أوسع بكثير من السابق،

ص: ٣٣٧

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٠١، ح ٢٥.

٢- (٢) غرر الحكم، ح ١٠٠٤٩.

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٠٢، ح ٣٠.

فأحياناً يظنّ الإنسان أنّ اتساع أمر المشوره من شأنه إصلاح أحوال الدنيا في حين أنّ مجالس الشورى هذه - وللأسف - ترتبط بصيغه سياسيه وتتحرك في خط المنافع الفرديه أو الفئويه، وفي الحقيقه أنّها تفقد الخلوص والقداسه، والشاهد على ذلك أنّ الكثير من الأشخاص أو الفئات يسعون من خلال بذل نفقات باهظه ليكونوا نواباً ينتخبهم الناس لمثل هذه المجالس، وهذا يبيّن بوضوح أنّ هدفهم ليس تأمين مصالح الأّمه، بل بما يعود عليهم أنفسهم بالنفع عاجلاً أم آجلاً.

والكلام عن المشوره كثير ومفصّل، والغايه هنا مجرد إشاره مختصره في هذا الباب وفي صفات المستشار الذي يتولى مسؤوليه ثقيله في هذا الأمر، ونختم هذا البحث بحديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«مَنْ اسْتَشَارَهُ أَخُوهُ الْمُؤْمِنُ فَلَمْ يَمَحْضُهُ النَّصِيحَةَ سَلَبَهُ اللَّهُ لُجْبَهُ» (١).

ص: ٣٣٨

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٠٤، ح ٣٦.

إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيْرًا، وَمَنْ شَرِكُهُمْ فِي الْإِثَامِ فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بَطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثْمَةِ، وَإِخْوَانُ الظَّلْمَةِ، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلْفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ وَأَثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوَنِ ظَالِمًا عَلَى ظُلْمِهِ، وَلَمَّا آثَمًا عَلَى إِثْمِهِ أَوْلِيَّتَكَ أَحْفُ عَلَيْكَ مَوْوَنَهُ، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَهُ، وَأَخْنَى عَلَيْكَ عَطْفًا، وَأَقْلُّ لِعَيْبِكَ إِفْلًا، فَاتَّخِذْ أَوْلِيَّتَكَ خَاصَّةً لِخَلْوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ، ثُمَّ لِيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلُهُمْ بِمِرِّ الْحَقِّ لَكَ وَأَقْلَهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ لِأَوْلِيَّائِهِ، وَإِقَاعًا ذَلِيَّتِكَ مِنْ هَيْوَكَ حَيْثُ وَقَعَ. وَالصَّقُّ بِأَهْلِي الْوَرَعِ وَالصَّدَقِ؛ ثُمَّ رُضُّهُمْ عَلَى أَلَّا يُطْرُوكَ وَلَمَّا يَبْجَحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ، وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ.

الشرح والتفسير: الوزير الجيد والوزير السيء!

بعد أن بين الإمام عليه السلام صفات المستشارين في المقطع السابق، فإنه يتحدث في هذا المقطع عن خصائص الوزراء والمعاونين في الحكومه، ففي البدايه يعرّف الإمام عليه السلام الأشخاص الذين يملكون صفات سلبيه، ثم يتحدث عن الواجدين للصفات الحسنه والإيجابيه، ثم يطرح توصياته اللازمه فيما يتصل بكيفيه التعامل معهم، يقول عليه السلام:

«إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيْرًا، وَمَنْ شَرِكُهُمْ فِي الْإِثَامِ فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بَطَانَةً (١)».

ص: ٣٣٩

١- (١) «بطانه» في الأصل بمعنى الملابس الداخليه (ضد «ظهاره» وهي الملابس الخارجيّه) ثم استخدمت هذه المفرده بمعنى الشخص الموثوق لدرجه حفظ الأسرار، محرم السرّ.

فى هذه العبارة يشير الإمام عليه السلام إلى مسأله حسن السابقه وسوء السابقه، ولزوم التحقيق فى سوابق الأشخاص الذين يروم اختيارهم لمنصب مهمه ومسؤوليات ثقيله، وهذا هو المتعارف عليه فى عالمنا المعاصر فيما يتصل بملف وسوابق المسؤولين.

ثم يذكر الإمام عليه السلام الدليل على ذلك بشفافيه ويقول:

«فَانَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثْمَةِ (١) ، وَإِخْوَانُ الظَّلْمَةِ».

وهذه إشاره إلى أن الشخص الذى عاش مع الظالمين وساند الجائرين والأشرار فإن هذه الصفه الذميه ستتحوّل فى نفسه ملكه وسجيه، فحتى لو أظهروا التوبه والإنابه فإنهم لا يصلحون للثوق بهم وبخاصه مع وجود الأفراد اللاتقين فى المجتمع الإسلامى الذين لا يملكون مثل هذه السوابق السيئه، ولذلك يقول الإمام عليه السلام فى سياق كلامه:

«وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلْفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَادِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ (٢) وَأَوْزَارِهِمْ (٣) وَأَثْمِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوَنُ ظَالِمًا عَلَى ظُلْمِهِ، وَلَا آثِمًا عَلَى إِثْمِهِ».

ويستفاد من هذه العبارة أن الأشخاص الذين يملكون نقطه سوداء واحده فى ملف أعمالهم السابقه، فلا ينبغى اختيارهم للأعمال المهمه كالوزارات وأمثالها، بل ينبغى أن يكون تاريخهم وسابقتهم الحسنه واضحه للجميع.

وفى ختام هذا الكلام يستنتج الإمام عليه السلام هذه النتيجة:

«أُولَئِكَ أَحْفُ عَلَيْكَ مَوْوَنَهُ وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَهُ، وَأَخْنَى (٤) عَلَيْكَ عَطْفًا، وَأَقْلُ لِعَيْرِكَ الْإِفَاءَ (٥) فَاتَّخِذْ أَوْلِيكَ

ص: ٣٤٠

١- (١) . «الأثمه» جمع «آثم» بمعنى المذنب.

٢- (٢) . «آصار» جمع «اصر» على وزن «مصر» فى الأصل بمعنى الحفظ والحبس، ثم اطلقت على الأعمال الثقيله التى تمنع الإنسان من النشاط والفعاليه وكذلك تطلق على الذنوب التى تثقل كاهل الإنسان، وفى الجمله أعلاه قصد بها هذا المعنى.

٣- (٣) «أوزار» جمع «وزر» على وزن «مصر» فى الأصل بمعنى الحمل الثقيل، وتطلق على الذنوب الكبيره التى تثقل مسؤوليتها كاهل الإنسان، وذهب البعض إلى أن الوزر ذنوب أكبر وأثقل من الاصر.

٤- (٤) . «أخنى» فى الأصل بمعنى عطف وإفات نظر أو الشىء، والعطف هنا بمعنى المحبّه.

٥- (٥) «الف» بمعنى الفه وأنس.

خَاصَّةً لِخَلْوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ (١)».

فى هذه العبارات الموجزه والعميقه فى معناها يطرح الإمام عليه السلام أربع نقاط القوه للذين ليس لهم سابقه سيئه فى تاريخهم وحياتهم، ويقول:

١. أن هؤلاء الأفراد لا يثقلون على كاهل الوالى فى النفقات، لأنهم فى السابق لم تكن لهم منافع غير مشروعه مع حكام الجور والظلم ليتوقعوا أكثر من حقهم.

٢. أن مساهمتهم فى تحمل المسئوليه أفضل وأكبر لأن نياتهم خالصه فى هذا السبيل وما يقدمونه من معونه فى أمور تحمل المسئوليه يقصدون بها الخير للناس والقربه إلى الله.

٣. أن حبههم للوالى أكثر من غيره، لأنهم يتفقون معه فى الفكر والدوافع والنيات مما يتسبب فى فوران محبتهم وشده تعاطفهم مع الوالى.

٤. أن هؤلاء لا يرتبطون برابطه مشبوهه مع الأجانب والغرباء، فلا يتواصلون إلا معك ولا يرون سواك.

ومن الجلى أن أنصار الظلمه السابقين ليسوا فقط غير صالحين للتعاون معهم، بل بما أن الناس يعرفون سوابقهم السيئه مما يؤدى إلى ضعف اعتمادهم على الوالى وعدم التعاون معه بشكل جيد.

وينقل ابن أبى الحديد هذه القصة بعد أن يروى هذا الخبر الوارد فى الروايات:

«يُنَادى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ مَنْ بَرَى لَهُمْ - أَى لِلظَّالِمِينَ - قَلَمًا» أتى الوليد بن عبد الملك برجل من الخوارج، فقال له: ما تقول فى الحجاج؟ قال: ما عسيت أن أقول فيه، هل هو إلا خطيئه من خطاياك، وشرر من نارك؟ فلعنك الله ولعن الحجاج معك، وأقبل يشتمهما، فالتفت الوليد إلى عمر بن عبدالعزيز فقال: ما تقول فى هذا؟ قال: ما أقول فيه، هذا رجل يشتمكم، فإما أن تشتموه كما يشتمكم، وإما أن تغفوا عنه، فغضب

ص: ٣٤١

١- (١) «حفلات» جمع «حفلة» على وزن «حرب» فى الأصل يعنى المحل الذى يتجمع فيه الماء، ثم اطلق على المحل والمجلس الذى يجتمع فيه كثير من الناس، ويقال للمجلس محفل أيضاً.

الوليد وقال لعمر: ما أظنك إلا خارجاً، فقال عمر: وما أظنك إلا مجنوناً، فقام وخرج مغضباً، ولحقه خالد بن الريان صاحب شرطه الوليد، فقال له: ما دعاك إلى ما كلمت به أمير المؤمنين، لقد ضربت يدي إلى قائم سيفي أنتظر متى يأمرني بضرب عنقك، قال: أو كنت فاعلاً لو أمرك؟ قال: نعم، فلما استخلف عمر جاء خالد بن الريان فوقف على رأسه متقلداً سيفه، فنظر إليه وقال: يا خالد، ضع سيفك، فإنك مطيعنا في كل أمر نأمرك به - وكان بين يديه كاتب كان للوليد، فقال له: ضع أنت قلمك، فإنك كنت تضر به وتنفع، اللهم إني قد وضعتهما فلا ترفعهما، قال: فوالله ما زالا وضيعين مهينين حتى ماتا(١).

وبعد أن ذكر الإمام عليه السلام مسأله حسن السابقيه فى الوزراء والمسؤولين تطرق إلى ذكر الصفات والخصوصيات لدى الجيدين منهم، بدايه يقول:

«ثُمَّ لِيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقُولُهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ».

وفى الخصوصيه الثانيه يقول:

«وَأَقْلَهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَأَقْعَا ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ».

وهذه إشاره إلى أنك لو سلكت سبيل الخطأ أحياناً فإنهم سوف لا يساعدونك فى ذلك، لتكون منتبهاً وتتجنب التورط فى الخطأ والضلاله وتعود إلى خط الصواب، وبعباره أخرى أنهم يملكون شخصيه مستقله وتفكيراً مستقلاً، فهم يعينونك فى الحق ولا يعينونك فى الباطل.

وفى الخصوصيه الثالثه والرابعه يقول الإمام عليه السلام:

«وَالصَّقُّ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصَّدَقِ».

«الورع» يعنى التقوى فى حدّها الأعلى، و«الصدق» هو الإخلاص فى المشوره وإيصال الأخبار الحسنه والسيئه للوالى.

وعباره »

بِمُرِّ الْحَقِّ» الوارده فى العبارة أعلاه، تبين أن بيان الحق أحياناً يكون

ص: ٣٤٢

مستساغاً وحلواً ولكن في الكثير من الأوقات يكون مرّاً وصعباً، ولكنّه بمثابة الدواء الشافي الذي ربّما يكون مرّاً لشاربه بصوره مؤقتة، إلّا أنّه يبعد عن الإنسان المرض الخطير، وهذه إحدى الاختبارات للخواص والمعاونين للوالي، وذلك بأن يملكون الجرأه والشجاعه لقول الحقيقه للحاكم ولو كانت مرّه ولكنّها مفيده، فلا يخشون سخط الحاكم لأجل قول الحقيقه.

وفيما لو سلك الحاكم طريق الخطيئه والزيغ فإنّ ذلك يشكل امتحاناً آخر لبطانته، بأن يتحلوا بالشجاعه اللازمه ولا يعينونه أو يتماهوا معه في هذا الطريق بل يعيدونه إلى صوابه وينبهونه من غفلته ولا يتبعونه أتباع الأعمى ويرجعون رضاه على رضا الله والخلق.

وفي ختام هذا المقطع من التوصيات يقول الإمام عليه السلام فيما يتصل بالوزراء والمعاونين:

«ثُمَّ رُضُّهُمْ عَلَى أَلَّا يُطْرُوكَ وَلَا يَبْجَحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْأِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزُّهْوَ (١)، وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ (٢)».

ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ «رضهم» من ماده «رياضه» فإنّه في هذا المورد تعنى التمرين والتربيه، وجمله «يطروك» من ماده «اطراء» بمعنى المدح والثناء الكثير، و«بجحوك» ما ماده «بجح» (على وزن فرح) وتعنى الفرح، وغرض الإمام عليه السلام أنّه لا ينشرح صدرك وينفتح وجهك في مقابل مدح المداحين، فلا ينبغي أن تظهر السرور لذلك، سواء فيما يتصل بأعمالك الحسنه أو ترك الأعمال السيئه، لأنّ تكرار هذا العمل من قبل الحاشيه سيؤدّي تدريجاً إلى التأثير في قلب الوالي، وزرع الغرور والعجب في نفسه، ومعلوم أنّ الغرور بذاته منبع الكثير من الانحرافات الخطيره.

وجاء في الحديث الشريف عن ابن عباس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«لَا تُطْرُونِي

ص: ٣٤٣

١- (١) «الزهو» بمعنى التكبر والعجب.

٢- (٢) «العزه» في هذا المورد تعنى الغرور، وجاء في بعض النسخ «غره» واستعمالها في هذا المعنى أوضح.

كَمَا أَطْرَثَ النَّصَارَى عِيسَى بِنَ مَرْيَمَ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُهُ» (١).

ونقرأ في روايه معروفه:

«اخْشَوْا فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابِ» (٢).

وجاء في حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في كتاب «غرر الحكم»:

«إِيَّاكَ أَنْ تَتَّبِعَنِي عَلَى أَحَدٍ بِمَا لَيْسَ فِيهِ فَإِنْ فَعَلَهُ يَصَدَّقُ عَنْ وَصْفِهِ وَيُكَذَّبُكَ» (٣).

ومعلوم أنّ هذا العمل ليس باليسير بأنّ تتحدّث البطانه والحاشيه مع الحاكم بدون خوف وخشيه منه وبدون توقع للصله والثواب، فيمحضوه النصيحه ويخبروه بالحقائق دون أن يخافوا بطشه ولا يتوقعون ماله ورضاه، وهذا هو شأن الموحددين الحقيقيين.

وكما قال الخطيب المعروف: إنّ النصيحه للملوك هي من شأن من لا يخاف ولا يطمع.

وطبعاً فإنّ هذا الكلام يعدّ توصيه أكيدته لجميع المسؤولين في مراكز القدره والسلطه بأن يعلموا مشاوريهم وبطانتهم على قول الحقّ وأن يكونوا مستعدين لقبول الحقائق المرّه (٤).

ص: ٣٤٤

١- (١) الموطأ، ج ١، ص ١٢ وكتب أخرى.

٢- (٢) من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ١١.

٣- (٣) غرر الحكم، ص ٤٦٦، ح ١٠٧٣٥.

٤- (٤) تحدّثنا عن المدح والثناء في غير محلّه وحالات التملق والتلف بشكل مفصّل في الجزء الثامن ذيل الخطبه ٢١٦.

وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلِهِ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَرْهِيداً لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ، وَتَدْرِيباً لِأَهْلِ الْإِسَاءِ عَلَى الْإِسَاءِ! وَالزَّمُّ كُلُّهُ مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرِعْيَتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِهِ الْمَوْنَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَزْكَكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قَبْلَهُمْ. فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرِعْيَتِكَ فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلًا. وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حُسْنُ ظَنِّكَ بِهِ لَمَنْ حُسْنُ بِلَاؤِكَ عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بِلَاؤُكَ عِنْدَهُ. وَلَا تَنْقُضْ شَيْئاً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الْأُمَّه، وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلْفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ. وَلَا تُحَدِّثَنَّ شَيْئاً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تَلَمَّكَ السُّنَنِ، فَيَكُونَ الْمَاجِرُ لِمَنْ سَبَّهَا، وَالْوَرُورُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا. وَأَكْثَرُ مِدَارَسَةِ الْعُلَمَاءِ، وَمُنَاقَشَةِ الْحُكَمَاءِ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرٌ بِلَادِكَ، وَإِقَامِهِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ.

الشرح والتفسير: إحيى السنن الحسنه

يوصى الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة العهديه لمالك الأشر بعهده وصايا أخرى.

بدايه يؤكد الإمام عليه السلام على الإحسان للمحسنين وإنزال العقوبه بالمسيئين ويقول:

«وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلِهِ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَرْهِيداً لِأَهْلِ

الإِحْسَانِ فِي الإِحْسَانِ، وَتَدْرِيباً (١) لِأَهْلِ الإِسَاءَةِ عَلَى الإِسَاءَةِ وَأَلْزَمَ كُلَّ مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ.

ما بيّنه الإمام عليه السلام في هذه التوصية يعتبر أحد الأصول المهمّة للإدارة الجيدة، من إداره الله تعالى والأنبياء للبشرية إلى إداره ربّ الأسره لعائلته وأبنائه.

القرآن الكريم يأمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالبشاره والإنذار ويعتبره «مبشراً» و «نذيراً»، وكذلك وعد الله تعالى الصالحين بالثواب الجزيل والنعيم الدائم في الجنّه، ووعده المسيئين بالنار والعذاب الأليم.

وهذا الأصل موجود في جميع الأقوام البشريه مع تنوعهم واختلافهم في العقائد والثقافات والأنظمة الحكوميه، ويندرج تحت عنوان الترغيب والترهيب، والدليل على ذلك بين، لأن استمرار عمليته الإحسان وإسداء المعروف للآخرين يتطلب تحفيز الباعث النفسى، ومنع المخالفات أيضاً يستدعى وجود المحفز والباعث، فربما تؤثر الدوافع المعنويّه والعقائد الدينيه في هذا المجال، ولكن هذا الدوافع لا تتوفر في جميع الأفراد، أضف إلى ذلك فإن وجود مسأله الثواب والعقاب من قبل الوالى والحاكم من شأنه تجميد البواعث السلبيه وترشيد الدوافع الخيره.

وجمله »

وَأَلْزَمَ كُلَّ...» إشاره لطيفه لهذه النقطه، وهى أنّ المرء عندما يتقبل شيئاً لنفسه فلا مسوغ لأن يقوم الحاكم بمنعه، فالمحسن اختار الثواب لنفسه، والمسيء اختار العقاب لنفسه، ومن هذا المنطلق ينبغى اعطاء كلّ ذى حقّ حقه.

والأهم من ذلك أنّ الإحسان للمحسنين يؤثر على عمل المسيئين ويرغبهم في ترك الإساءه، وعقوبه المسيئين تدعو بدورها المحسنين للاستمرار في إحسانهم كما ذكر الإمام عليه السلام في كلام آخر له في نهج البلاغه:

«أزجر المُسيء بِثَوَابِ المُحْسِنِ» (٢).

وهذه إشاره إلى أنّ المسيء عندما يرى نفسه محروماً من الثواب المادى

ص: ٣٤٤

١- (١). «تدريب» بمعنى الاعتياد على شيء أو عمل معين، وفي هذا المورد تعنى التشويق في مقابل «تزهيد».

٢- (٢). نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ١٧٧.

والمعنوى للمحسنين ينتبه إلى خطئه ويثوب إلى رشده وربما يتوب من عمله ويرتدع عن سلوكه.

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه في بيان التوصيه الثانيه ويبيّن أفضل وسيله لجلب حسن الظن تجاه الوالى وكسب محبّه الرعايا له ويقول:

«وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرِعَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِهِ الْمُنُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ».

والتعبير ب »

مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ» مع الالتفات إلى أنّ «قَبِيل» تأتي أحياناً بمعنى «عند» وأحياناً أخرى بمعنى «القدره»، يمكن أن يكون معنى الجملة: الشىء الذى ليس عندهم (وليس فى عهدتهم) أو الشىء الذى لا يقدرّون عليه ولا يطيقونه(1).

وهذه الحقيقه قد أثبتتها التجارب الكثيره، فالوالى إذا كان يفكر بأمر الرعيه، وتحرك المسؤولون للتخفيف عن الضرائب التى تثقل كاهلهم ولم يحملوهم ما ليس فى طاقتهم من الوظائف والتكاليف، فإنّ ذلك من شأنه تقويه رابطه العاطفيه وتوثيق العلاقه بينهم وبين الحكومه، هذه العلاقه الحميمه يمكنها أن تلعب دوراً فاعلاً فى حلّ الأزمات والمشاكل المعقده.

وهنا نقطه مهمه أيضاً، وهى أنّ الإمام عليه السلام يتحدّث عن عوامل حسن الظن للوالى برعيته لا حسن ظن الرعيه بالوالى، فى حين أنّ المناسب حسب الظاهر أن يكون التعبير الأوّل فى مثل هذه الموارد أنسب، ولكن مراد الإمام عليه السلام التأكيد على أنّ الولاه وزعماء الأمه يسدون الخير والمعروف للرعيه إلى درجه أنّهم يطمنون إلى تأييدهم ووفائهم لهم.

وعلى هذا الأساس يقول الإمام عليه السلام فى سياق كلامه:

«فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرِعَّتِكَ فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً (٢) طَوِيلًا».

ص: ٣٤٧

- ١- (١). رغم أنّ البعض يعتقد بأنّ «قَبِيل» إذا اضيفت للضمير فإنّها تعنى القرب، وإذا استعملت منفصله تعنى القدره والقوه.
- ٢- (٢). «نَصَب» بمعنى التعب والمشقه، من ماده «نَصَب» على وزن «نصر» وتعنى إثبات الشىء، مثلاً عندما يضعون الرمح فى الأرض ويثبتونه يقال نصب الرمح، وبما أنّ التعب يؤدّى إلى توقف الإنسان عن العمل فأطلقت هذه الكلمه عليه، ويطلق على أعداء أهل البيت عليهم السلام نواصب لأنّه رفعوا لواء العداوه لهم.

ويديهي أنّ الوالى عندما يسيء الظن برعيته فإنّه يحتمل دوماً أن يثور الناس ضده أو يتعاملون معه بآليات التآمر والخيانة، وهذا التذكير والموقف السلبي من الرعيه يجعله يعيش دائماً حالات التوجس والخوف وعدم الاطمئنان، ولكن عندما يطمئن الوالى لوفاء الرعيه له وتأبيدهم لحكومته فإنّه سيتحرك على مستوى تدبير ونظم الأمور وإعمار البلاد ودفع شرّ الأعداء براحه بال وثقه بالنفس.

ثمّ يواصل الإمام عليه السلام شرحه لهذه التوصيه بعبارات بليغه أخرى يقول:

«وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسَنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسَنَ بَلَاؤُكَ (١) عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ».

وهذه إشاره إلى أنّ الإحسان للرعيه يسبب حسن الظن بهم، فكلما زاد إحسانك لهم زاد حسن الظن بهم، وكما أنّ الإساءه لهم تتسبب فى سوء الظن، فكلما ازدادت الإساءه ازداد سوء الظن أيضاً.

وجاء فى كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبه: «كان ابن عباس يقول: ما رأيت رجلاً- أوليته معروفًا إلاّ أضاء بينى وبينه، ولا رأيت رجلاً أوليته سوءً إلاّ أظلم ما بينى وبينه» (٢).

ونستوحى ممّا تقدم هذه النتيجة، وهى أنّ الأشخاص الذين وقعوا مورد العقوبه والمؤاخذه، مهما كان الدليل والمسوغ، فإنّ على الوالى والحاكم أن يلتزم جانب الحذر منهم ويتجنب حسن الظن بهم.

ص: ٣٤٨

١- (١). «بلاء» الاختبار والامتحان، وأحياناً يكون الاختبار بواسطة النعم وأخرى بواسطة المصائب، من هذه الجبهه تطلق كلمه بلاء بمعنى النعمه وبمعنى المصيبه أحياناً أخرى، وفى الجمله أعلاه اريد بها كلا المعنيين أى بعنوان حسن البلاء وسوء البلاء (وهذه المفرده من ماده «بلى يَبْلُو»).

٢- (٢). عيون الأخبار، لابن قتيبه، ج ١، ص ٦٤، حسب نقل شرح نهج البلاغه، للعلامة التستري، ج ٨، ص ٥١٩.

يذكر الإمام عليه السلام في سياق كلامه نقطه مهمه أخرى، ويحذر مالك الأشتر من نقض السنن والتقاليد الصالحه، ويقول:

«وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةَ صَالِحٍ عَمِلَ بِهَا صُدُورٌ (١) هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأَلْفُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ».

وتأتى كلمه «سنه» على معنيين: فأحياناً يراد منها العادات والتقاليد الموروثة من الأسلاف والقدماء، وهذه بدروها على قسمين: حسنه وسيئه، كما ورد هذا المعنى فى الحديث الشريف المعروف عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله:

«مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً عَمِلَ بِهَا مَنْ بَعْدَهُ كَانَ لَهُ أَجْرُهُ وَمِثْلُ أُجُورِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُضَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهُ وَمِثْلُ أُوزَارِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُضَ مِنْ أُوزَارِهِمْ شَيْءٌ» (٢).

والمعنى الثانى للسنة: كلام النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وفعله وتقريره، وكلام الإمام عليه السلام فى هذه العبارة ناظر إلى المعنى الأول بقريته جملة:

«وَلَا تُحَدِّثَنَّ سُنَّةً تَصُورُ...» مثلاً: أن يقوم شخص أو جماعه فى كل اسبوع معين من السنه بوصفه اسبوع الإحسان إلى اليتامى أو اسبوع تنظيف المساجد، أو غرس أنواع الأشجار دون أن ينسبوا هذا الأمر للشرع المقدس وتبقى هذه السنة الصالحة ويعمل بها جملة من الناس وتفرض معطيات حسنه على المستوى العام، فالإمام عليه السلام يأمر مالك الأشتر بأن لا ينقض مثل هذه السنن الخيره بل يترك الناس يعملون بها وينتفعون من بركاتها.

وطبعاً إذا كانت السنن فاسده ومفسده من قبيل ما كانت متداولاً فى زمان الجاهلية من ظاهره الثأر والانتقام ووآد البنات وأمثال ذلك، فينبغى التصدى لمثل هذه السنن الخرافيه والخاطئه وغير الإنسانيه.

ويشير تاريخ الإسلام إلى أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قد أمضى السنن الصالحه للقدماء

ص: ٣٤٩

١- (١). «صُدُور» تعنى المتقدمين ومن كان يجلس فى الصدر، وكذلك مسلمى صدر الإسلام.

٢- (٢). كترالعمال، ح ٩١٠، ووقد ورد مثل هذا الحديث فى المصادر الشيعيه عن الأئمة المعصومين عليهم السلام بطرق مختلفه وبتعبيرات متفاوتة. انظر: بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٢٥٧ و ٢٥٨.

ولم ينقضها أبداً، من قبيل السنن التي تركها عبدالمطلب في قومه، ولكنه حارب السنن الخرافية والسيئه ودعا إلى تركها ونبذها.

ثم بيّن الإمام عليه السلام هذا الموضوع بصورة أخرى ويقول:

«وَلَا تُحَدِّثَنَّ سُنَّةَ تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ، فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا، وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا».

وفي الحقيقة يريد الإمام عليه السلام القول: إنّ السنن الصالحة للقدمات لا ينبغي لك نقضها لا بصورة مباشرة ولا من خلال إيجاد العوائق أمامها ليركها الناس، بل عليك بحفظ هذه السنن والتقاليد لينتفع الناس منها في حال ممارستها والمداومه عليها.

وحول أهميته السنن الحسنه وفرقها مع البدع وكذلك مع السنن السيئه وإفرازاتها في المجتمعات البشريه، سنتحدث عن ذلك في خاتمه هذا البحث.

وفي آخر توصيه الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرساله العهديه، يأمر الإمام عليه السلام مالك الأشر بأن يكون إلى جانب العلماء والحكماء ويقول:

«وَأَكْثَرُ مَدَارِسَ الْعُلَمَاءِ، وَمُنَاقَشَهُ (١) الْحُكَمَاءِ، فِي تَثْبِيْتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرٌ بِلَادِكَ، وَإِقَامِهِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ».

وفي الحقيقة فإنّ الإمام عليه السلام في هذا المقطع من وصاياه لمالك الأشر يؤكد له السعي في الاستزاده من العلم والمعرفه فيما يتصل بالأحكام والموضوعات وذلك من خلال الارتباط بالعلماء وأهل الخبره ومجالستهم حتى يتعرف أكثر على الأحكام الإلهيه وكيفيه إداره الأمور في حكومته وينتفع من تجاربهم في تشخيص الموضوعات المهمه، وعندما تزداد معرفه الوالي بالنسبه لهذين القسمين، فإنّ ذلك من شأنه إصلاح أمر البلاد وبقاء السنن الحسنه للماضيين في واقع الحياه الاجتماعيه.

وينقل الشيخ الكليني في الجزء الأول من اصول الكافي في باب تحت عنوان

ص: ٣٥٠

١- (١). «مُنَاقَشَهُ» من ماده «نقش» في الأصل تعنى اخراج الشوك من البدن بواسطه المنقاش، ثم اطلقت على كلبحث دقيق وحساب كامل، وعليه فإنّ مناقشه الحكماء تعنى البحث الدقيق مع العلماء.

«بَابُ مُجَالَسَةِ الْعُلَمَاءِ وَصُحْبَتِهِمْ» عَدَّهُ رَوَايَاتٍ فِي هَذَا الْمَجَالِ، مِنْهَا:

عَنِ الْإِمَامِ صَادِقٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حَدِيثٍ أَنَّهُ قَالَ:

«لَمَجْلِسٍ أَجْلِسُهُ إِلَيَّ مَنْ أَتَقُّ بِهِ أَوْتَقُّ فِي نَفْسِي مِنْ عَمَلِ سَنَةٍ» (١).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنِ لِقْمَانَ يَنْصَحُ فِيهِ ابْنَهُ وَيَقُولُ:

«يَا بُنَيَّ اخْتَرِ الْمَجَالِسَ عَلَى عَيْتِكَ فَإِنْ رَأَيْتَ قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ جَلًّا وَعَزًّا فَاجْلِسْ مَعَهُمْ فَإِنْ تَكُنَّ عَالِمًا نَفَعَكَ عِلْمُكَ، وَإِنْ تَكُنَّ جَاهِلًا عَلِمَوكَ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُظَلِّهُمُ بِرَحْمَتِهِ فَيَعُمَّكَ مَعَهُمْ، وَإِذَا رَأَيْتَ قَوْمًا لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فَلَا تَجْلِسْ مَعَهُمْ، فَإِنْ تَكُنَّ عَالِمًا لَمْ يَنْفَعَكَ عِلْمُكَ، وَإِنْ كُنْتَ جَاهِلًا يَزِيدُوكَ جَهْلًا، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُظَلِّهُمُ بِعُقُوبِهِ فَيَعُمَّكَ مَعَهُمْ» (٢).

وَفِي الدَّعَاءِ الْمَعْرُوفِ بِدَعَاءِ أَبِي حَمَزَةَ الشَّمَالِيِّ يَتَحَدَّثُ الْإِمَامُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ عَوَامِلِ سَلْبِ التَّوْفِيقِ وَيَقُولُ:

«أَوْ لَعَلَّكَ فَقَدْتَنِي مِنْ مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ فَخَذَلْتَنِي».

وَمِنْ جَمَلِهِ بَرَكَاتِ مَجَالِسَةِ الْعُلَمَاءِ وَمَحَادَثَتِهِمْ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَنْسَى عُلُومَهُ وَمَعَارِفَهُ، وَلَوْ لَمْ يَعْرِفْ شَيْئًا فَإِنَّهُ سَيَتَعَلَّمُهُ كَمَا وَرَدَ عَنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي كَلَامٍ آخِرِ لَهُ، قَالَ:

«مَنْ أَكْثَرَ مُدَارَسَةَ الْعِلْمِ لَمْ يَنْسَ مَا عِلِمَ وَاسْتَفَادَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» (٣).

تأمل

سبب ظهور السنن

كَلِمَةُ «سَنَّةٌ» فِي الْأَصْلِ مِنْ مَادَّةِ «سَنَّ» (عَلَى وَزْنِ فَن) وَتَعْنِي إِجْرَاءَ الْمَاءِ عَلَى الْوَجْهِ، ثُمَّ أُطْلِقَتْ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ فِيهِ جَرِيَانٌ وَسَرِيَانٌ، وَتَشْمَلُ جَمِيعَ الْعَادَاتِ وَالْآدَابِ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ مِنْ قَبْلِ شَخْصٍ أَوْ فَنَةٍ فِي الْمَجْتَمَعِ، وَلِهَذَا السَّبَبُ قَسَمَتْ إِلَى سَنَّةٍ حَسَنَةٍ وَسَيِّئَةٍ، مَثَلًا: إِقْرَارُ بَرْنَامِجٍ مُسْتَمَرٍّ فِي كُلِّ عَامٍ مِنْ أَجْلِ إِكْرَامِ الْيَتَامَى، أَوْ الْمَصَالِحِ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ وَالْمُتَشَاحِنِينَ، هَذَا يَعْتَبَرُ سَنَّةً حَسَنَةً، وَأَمَّا مَا جَرَتْ عَلَيْهِ

ص: ٣٥١

١- (١). الكافي، ج ١، ص ٣٩، ح ٥.

٢- (٢). المصدر السابق، ح ١.

٣- (٣). غرر الحكم، ص ٤٩، ح ٢٧٣.

عاده العرب فى الجاهليته من وأد البنات فى التراب أو ما عليه بعض الشبان فى عصرنا الحاضر من اللعب بالمواد المتفجرة فى يوم الأربعاء من آخر كل سنة يعتبر سنه سيئه.

وقد ورد فى الروايات الإسلاميه بحوث كثيره عن الأشخاص الذين يضعون سنه حسنه أو سنه سيئه، وقد تقدمت بعض النماذج والأمثله عن هذه المسأله فى البحوث السابقه، وقد ورد التأكيد فى هذه الروايات على أن من يضع سنه حسنه فله أجر وثواب بقدر الأشخاص الذين يعملون بها دون أن ينقص من ثوابه شىء، وأما الأشخاص الذين يضعون سنه سيئه فإنهم يحملون وزراً بعدد الأشخاص الذين يعملون بها وتكتب فى صحيفه أعمالهم دون أن يقل من عقوبه المرتكبين لهذه الأعمال السيئه، وهذا فى الواقع من قبيل التسبب والتعاون على الخير والشر، لأننا نعلم أن الإنسان تاره يقوم بعمل بشكل مباشر وأخرى بالتسبب بإيجاد سنه حسنه أو سيئه مما يدعو الآخرين للإقتداء به.

ومعلوم أن مسأله السنن والتقاليد الاجتماعيه لا ترتبط بالبدع كما تصور بعض الوهابيين المتعصبين، لأن البدعه هى ما ينسب إلى الشارع المقدس والقرآن الكريم وسننه نبي وليست منها، ولكن السنن والتقاليد المتداوله هى نوع من البدع العرفيه والاجتماعيه دون إسنادها إلى الشرع المقدس، فلو أنها كانت تصب فى مسير أهداف الشريعه المقدسه، مثل إكرام اليتامى ومساعدته المحرومين فهى سنه حسنه ومحبذه وإذا كانت على خلاف ذلك مثل وأد البنات فى الجاهليه فهى سنه سيئه وغير محبذه.

ومن هنا يتبين ما عليه الوهابيون المتعصبون من موقفهم المخالف لبعض المظاهر العرفيه والدينيه من قبيل الاحتفال بميلاد النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أو إقامه مراسم العزاء على الأموات، وهو ناشىء من سوء فهمهم وخلطهم السنه بالبدعه، فى حين أن الروايات التى تتحدث عن السنه الحسنه والسيئه وارده فى كتبهم ومدوناتهم(1).

ص: ٣٥٢

١- (١). سنن البيهقى، ج ٤، ص ١٧٦؛ مسند أحمد، ج ٤، ص ٣٦٢.

وَاعْلَمَ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصِلُ لِحُجْبِ بَعْضِهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، وَلَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ فَمِنْهَا جُنُودُ اللَّهِ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ وَمِنْهَا عُمَّالُ الْأَنْصَافِ وَالرُّفُقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجَزِيَّةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذَّمِّ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصَّنَاعَاتِ وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْمَسْكِينِ، وَكُلٌّ قَدْ سَمَى اللَّهُ لَهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَى حُدِّهِ فَرِيضَةً فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّهَ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَهْدًا مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظًا.

الشرح والتفسير: الطبقات الاجتماعية المختلفة

فى هذا المقطع من عهد الإمام عليه السلام المعروف يتطرق الإمام لأحد أهم البحوث الاجتماعية والسياسية ويقسم الناس فى المجتمع إلى سبع طبقات أو سبع شرائح وفئات، وقبل أن نستعرض هذه الأقسام والفئات نشير إلى هذه النقطة التى أشار إليها بعض شراح نهج البلاغه، وهى أنّ الإنسان خلق اجتماعياً «مدنى بالطبع» لأنه من جهة يعيش حاجات متنوعه وكثيره لا يستطيع كلّ فرد لوحده أن يؤمن هذه الحاجات، مضافاً إلى أنّ كلّ فرد لا يقنع بحياه تسير على وتيره واحده، بل إنّ المجتمع البشرى يسير دائماً نحو التحوّل والتكامل، وهذا التكامل يستدعى تنوع الحاجات وزيادتها، ومن أجل حلّ المشكلات وإشباع هذه الحاجات المتنوعه لا يوجد طريق عقلاى سوى أن تقوم كلّ جماعه بإشباع بعض هذه الحاجات، ويتمّ التبادل مع الآخرين فى واقع الحياه الاجتماعيه لينتفع الجميع من عملهم وأتاعبهم،

فجماعه منهم يتولون مسؤوليّه النظم والأمن، وجماعه أخرى يهتمون بالزراعه والرعى لتأمين المواد الغذائيّه، وفئه منهم يختصون بأمر التعليم وتربيّه الأبناء والجيل الناشئ، وفئه يتجهون نحو الصناعات المختلفه، آخرون يتكفلون مسأله الطب وعلاج المرضى، وجماعه يأخذون على عاتقهم أمر القضاء وفصل الخصومات و... الخ.

وقد وصل الحال في هذا العصر إلى حدّ أنّ تأمين حاجات البشر في مورد واحد يستدعي وجود مئات أو آلاف الفروع التخصصيه، وكل جماعه يعملون في فرع خاص منها.

وعلى هذا الأساس قسّم الإمام عليه السلام المجتمع إلى سبع طبقات، وهى فى الواقع سبعة أعمده لخيّمه الحياه الاجتماعيه، رغم وجود طبقات أخرى أيضاً يمكن فرضها فى واقع المجتمع، ولكن العمده والأساس هى سبع طبقات أو سبع شرائح اجتماعيه.

يقول الإمام عليه السلام: «يا مالك» اعلم أنّ الناس فى المجتمع أو البلد يتشكلون من فئات متعدده وأنّ كلّ فئه منهم لا تستغنى فى صلاحها إلّابالأخرى، وكل واحد منها تحتاج إلى أخرى.

فجماعه يمثّلون جنود الله (وهم الذين يتكفلون حفظ الأمن والنظام فى المجتمع ويتولون الدفاع عنه فى مقابل الأعداء).

وفئه أخرى هم الكتّاب من العامّه والخاصّه (ومسؤوليّتهم حفظ الحسابات المائيه للحكومه وتنظيم الميزانيّه وتثبيت الأسناد والوثائق وتعليم وتربيّه الناس).

وفئه ثالثه هم القضاء الذين يتولون إقامة العدل والفصل بين الخصومات وإحقاق الحقوق.

وفئه أخرى هم العاملون بالانصاف والرفق، وهم الموظفون فى الدوائر الحكوميه.

وفئه تتولى أخذ الجزيه والخراج من غير المسلمين الذين يعيشون فى ظلّ الحكومه الإسلاميه، (ويدفعون الضرائب فى مقابل حفظ أنفسهم وأموالهم من قبل الحكومه الإسلاميه).

والمسلمون الذين يعملون فى الأراضى الخراجية ويدفعون خراجها إلى الدولة.

وجماعه أخرى من التجار وأهل الصنائع، وجماعه من الطبقة السفلى من المحرومين والمساكين (والعجزه والمسنيين الذين لا يقدرّون على الكسب والعمل:

«وَأَعْلَمُ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصِيْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، وَلَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ فَمِنْهَا جُنُودُ اللَّهِ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ وَمِنْهَا عَمَالُ الْإِنصَافِ وَالرَّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجَزِيَّةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذَّمِّ وَمُسْلِمِي النَّاسِ وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصَّنَاعَاتِ وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْمَسْكِينِ».

ثم يشير الإمام عليه السلام إشاره إجماليه لحقوق ووظائف كلّ منها، ثم يفصل الكلام عن خصوصيات وصفات ووظائف وحقوق كلّ واحده من هذه الفئات والطبقات.

ويقول عليه السلام فى إشاره إجماليه:

«وَكُلُّ قَدْ سَمَى اللَّهُ لَهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ فَرِيضَةً فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّه نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَهْدًا مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظًا».

ومعلوم أنّ المراد من جنود الله هم أفراد الجيش الذين يتولون حفظ الثغور وحدود البلد الإسلامى فى مقابل هجوم الأعداء.

أمّا الفئة الثانيه التى عبر عنها الإمام عليه السلام بكتّاب العامه والخاصه، فالكتّاب الخاصه هم الذين يكتبون الكتب الرسميه للوالى والمسؤولين ويحفظون أسرار الحكومه ويوقّعون على العقود المهمه كعقود الصلح وأمّثالها، وأمّا الكتّاب العامه فهم جميع الموظفين الذين يتولون أمر حساب النفقات والواردات لخزينه الدوله ويتولون أمور القروض وتسديدها ويجمعون مطالب الناس، وربّما يشمل هذا المعنى فى عصرنا مراكز التعليم والتربيه للشبان والفتيات.

أمّا قضاة العدل فيشمل جميع الموظفين فى جهاز القضاء الإسلامى وعلى رأسه القضاة.

وأمّا عمّال الانصاف والرفق، فهو إشاره للأمرء والولاه على المحافظات لإداره المدن والمناطق المختلفه فى البلد الإسلامى، وإضافه كلمه «الإنصاف والرفق»

إشاره إلى أنه يجب انتخابهم من بين الأشخاص الذين يتمتعون بهاتين الصفتين:

الانصاف من خلال إيصال الحقوق إلى أصحابها، وكذلك يتعاملون مع الناس بآليات الرفق والمداراه والمحبّه.

وأما أهل الجزية والخراج فهي إشاره إلى فئتين من المواطنين في البلد الإسلامي، فأهل الجزية إشاره إلى غير المسلمين من أهل الكتاب الذين يعيشون في كنف الحكومه الإسلاميه ويدفعون ضرائب سنويه، وهي في الغالب مبلغ زهيد، للحكومه، وفي مقابل ذلك تتولى الحكومه الإسلاميه الدفاع عن حقوقهم وحفظ أرواحهم وأموالهم وأعراضهم.

والقسم الثاني هم الزراع الذين يتولون زراعه الأراضى المتعلقة بالمجتمع الإسلامى، (وتدعى الأراضى الخراجيه) ويقومون بأمر الزراعه والبستنه في مقابل دفع مبلغ من المال في كل عام بعنوان الخراج، وهو في الواقع ثمن اجره تلك الأراضى.

أما التجار وأهل الصناعات الذين يذكروهم الإمام عليه السلام بوصفهم شريحه مهمّه من شرائح المجتمع الإسلامى في ذلك الوقت وكذلك في هذا العصر، الإمام يوصى بعده وصايا في هذه الرساله العهديه فيما يتعلق بهم.

وآخر فئه من الفئات السبع هي الطبقة السفلى ويتشككون من العجزه والمسنين والمعاقين وأهل الحاجات الخاصه الذين يؤكّد الإمام عليه السلام كثيراً في هذه الرساله على ضروره الاهتمام بأمرهم أكثر من أى فئه أخرى من هذه الفئات السبع التي ذكرها الإمام عليه السلام في كلامه.

تأمل

الشرائح الاجتماعيه

يعبر عنها أحياناً الطبقات الاجتماعيه، كلمه «طبقه» في اللغه تأتي لمعانٍ كثيره

ص: ٣٥٦

متقاربه، من قبيل: جماعه، مرتبه، نسل، صنف، وطبقات الأرض أو طبقات البنايه، وفي هذا المقطع من الرساله جاءت بمعنى الشريحه الاجتماعيه، ولكن هذه المفرده تستخدم في عصرنا الحاضر للإشاره إلى الفئات التي تعلق كل واحد منها على الأخرى في الامتيازات والمقامات، ومن هنا فإن الحياه الطبقيه تشير إلى الحياه التي يعيش فيها جماعه من الأثرياء وجماعه من الفقراء في المجتمع، ومن هذه الجبهه يتبادر إلى الذهن مفهوم سلبي عن هذه الكلمه، وطبعاً فإن هذا المفهوم السلبي ليس هو المعنى اللغوي في الأصل، وكلام الإمام عليه السلام بدوره لا يشير إلى هذا المعنى السلبي للطبقيه.

وهذه الكلمه من ماده «طَبَق» وتعنى المساواه بين شيئين، ولذلك تستخدم كلمه المطابقه والتطابق بهذا المعنى.

وربما يتصور البعض وجود مجاميع وفئات أخرى في المجتمع البشرى لا ينضون تحت أى عنوان من هذه العناوين السبعه، ومن ذلك: طبقه العمّال، الاستخبارات، عمّال الحسبه، وهم الأشخاص الذين يتولون الإشراف على الأمور الأخلاقيه في المجتمع والمسؤولين عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأمثال ذلك.

ولكن مع التدقيق في المسأله يمكننا إدخال كل هذه الفئات تحت مجموعه من هذه المجاميع السبع المذكوره، مثلاً عمّال الحسبه يدخلون تحت مظلّه جماعه القضاة، والعمّال يندرجون في فئه «أَهْلَ الصَّنَاعَاتِ»، والكسبه يدخلون تحت عنوان التجّار، وأفراد الاستخبارات تحت عنوان «عُمَالُ الْإِنصَافِ وَالرَّفْقِ».

فَالْجُنُودُ، بِإِذْنِ اللَّهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوُلاةِ، وَعِزُّ الدِّينِ، وَسُبُلُ الْأَمْنِ وَلَيْسَ تَقْوَمُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ. ثُمَّ لَأَقْوَامٌ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوُونَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْرِلِحُهُمْ وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ. ثُمَّ لَأَقْوَامٌ لِهَادِي الصَّنَفَيْنِ إِلَّا بِالصَّنْفِ الثَّلَاثِ مِنَ الْقَضَاءِ وَالْعَمَالِ وَالْكِتَابِ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاوِدِ، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَيُؤْتَمِنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا. وَلَا قَوَامٌ لَهُمْ جَمِيعًا إِلَّا بِالتَّجَارِ وَذَوَى الصَّنَاعَاتِ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ، وَيَقِيمُونَ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفِّقِ بِأَيْدِيهِمْ مَا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقٌ غَيْرِهِمْ. ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكِينِ الَّذِينَ يَحْتَقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ. وَفِي اللَّهِ لِكُلِّ سَعَةٍ، وَلِكُلِّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْرِلِحُهُ، وَلَيْسَ يُخْرِجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْإِهْتِمَامِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ، وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقَلَ.

الشرح والتفسير: الأواصر بين الطبقات الاجتماعية

أشار الإمام عليه السلام فى المقطع السابق من هذه الرسالة إشارة إجمالية شاملة إلى سبع فئات أساسية فى المجتمع الإسلامى، ثم شرع فى هذا المقطع والمقاطع التالية بشرح الوظائف والمسؤوليات الملقاه على عاتق على كل واحد من هذه الفئات، وبما أن قوات الأمن والجيش تعد أهم ركن من أركان المجتمع فقد بدأ الإمام عليه السلام

بهذه الشريحه.

يقول عليه السلام:

«فَالْجُنُودُ، بِإِذْنِ اللَّهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوُلَاهِ، وَعِزُّ (١) الدِّينِ، وَسُبُلُ الْأَمْنِ وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ».

فى هذه الجمل الوجيزه يبين الإمام عليه السلام خمسه نتائج ايجابية ومعطيات مهمه لوجود أفراد الأمن والجيش المخلصين.

الأولى: أنهم حصون الرعيه، وهذا يعنى أن البلاد ومن أجل حفظها من خطر الأعداء تحتاج إلى حصن حصين وملجأ آمن، وهذا الحصن والملجأ يتمثل بأفراد الجيش الإسلامى المقتدر، لأن كل أشكال الضعف والفتور فى القوات العسكريه يؤدى إلى طمع الأعداء ويورث أنواع المشكلات للمجتمع الإسلامى، وفى الماضى وبما أن الأسلحه كانت بسيطه جداً وابتدائيه فإن وجود الحصون والقلاع القويه من شأنه أن يمنع الكثير من الأخطار والأضرار، رغم أن وجود هذه الحصون فى هذه الأيام ومع تطور الأسلحه من طائرات حربيه وصواريخ ومدافع بعيدة المدى لم يعد مؤثراً كثيراً فى ميزان القوى.

الثانيه: يعتبر الإمام عليه السلام أن الجيش زينه القياده والحكوم، لأن الحاكم أو القائد يحضى باحترام عامه الناس ويملك القدره والنفوذ فى أمر الولايه، وهذه القدره تتمثل فى الدرجه الأولى بوجود جيش قوى ومطيع لأوامر القياده.

الثالثه: أن الجيش سبب عزه الدين وقدرته، وهذه إشاره واضحه إلى هذه الحقيقه، وهى أن الأمور المعنويه للناس لا تيسر من دون وجود جيش قوى وفاعل، وقسم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحقاق الحقوق وإجراء الحدود وبسط العدل وإقامه القسط، يحتاج إلى القدره الكافيه لتجسيدها وترجمتها

ص: ٣٦٠

١- (١). «عزّ» و «عزیز» من ماده «عزت» تعنى فى اللغه كلّ شىء يصعب الوصول إليه، ومن هذه الجبهه يقال للأرض التى يصعب عبورها أو إيجاد الشق فيها أرض «عزاز»، وكذلك يطلق على كلّ شىء يصعب الوصول إليه بسبب قلته فيقال عزير، وكذلك يطلق على الأشخاص الأقوياء الذين يصعب التغلب عليهم أو يستحيل الغلبه عليهم، ولذلك أتى «عزه» بمعنى القدره والندرته، وأيضاً بمعنى الثمين، وفى العبارة أعلاه جاءت بمعنى القدره.

على الأرض والواقع الاجتماعى، وهذا مرتبط بوجود جيش قوى.

الرابعة: يتحدّث فيها الإمام عليه السلام عن حالة الأمن الذى يتحقق بواسطة الجيش القوى، ويشير إلى أنّ الجيش القوى ليس فقط يتولى اخراج العدو من أراضى المسلمين: بل «تُزْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ»^(١)، أى يخيف أعداء الداخل أيضاً، أو بمعنى أنّ الجنود فى هذا المورد أعم من قوى الأمن والجيش، أو يراد بذلك أنّ الحكومه الإسلاميه وفى موارد استثنائيه لا تتمكن فيها قوات الأمن والشرطه من تحقيق الأمن فى ربوع المجتمع الإسلامى، فإنّها تعتمد على الجيش فى هذا الأمر لتحقيق الأمن فى فضاء المجتمع.

الخامسه: يقول الإمام عليه السلام: إنهم قوام الرعيه، وربّما تكون هذه الجمله بمشابه النتيجة لما سبق بيانه فى الجمل الأربع السابقيه، ويحتمل أيضاً أن تكون جملته مستقله، والمراد منها أنّ الجيش فى الكثير من المواقع يهب لمساعدته الناس فى الزلازل والسيول والحوادث الطبيعيه الصعبه، بحيث تضطر الدوله للإستعانه بقوات الجيش لمساعدته الناس.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام الإرتباط الوثيق بين هذه الفئه من المجتمع مع الفئات الأخرى، ويتحدّث عن الرابطه بين الجيش وعمال الخراج:

«ثُمَّ لَأَقِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقُودُونَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُضِلُّهُمْ وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ».

ويستفاد من تاريخ الإسلام أنّ الجيش الإسلامى لم يكن فى عصر رسول الله صلى الله عليه وآله بشكل شريحه منفصله ومستقله عن المجتمع، بل إنّ كلّ أفراد المجتمع من الشبان والشيوخ، الكبار والصغار الذين يستطيعون حمل السلاح يهبون للدفاع عن الإسلام والمسلمين فى مقابل الأعداء ويتجهون مع النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى ميادين الحرب والقتال، وفى الغالب يهيئون سلاحهم ودوابهم بأنفسهم، ومعلوم أنّ النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله

ص: ٣٤١

١- (١) . سورة الأنفال، الآية ٦٠.

وقبل حركة الجيش نحو ميدان القتال يأمر بتجهيز الزاد والمتاع لأفراد الجيش من طريق الزكاه والتبرعات التي يقدمها المسلمون في سبيل الله.

ولكن في العصور اللاحقه وبعد أن اتسعت الدوله الإسلاميه وإمتدت إلى مساحات وبلدان كبيره ولضطرت الحكومه لتجهيز جيش مدرّب ومهني لمقابله الأعداء، واضطر المسلمون لتنظيم جيشهم وتوفير المعسكرات اللازمه له (١).

وأساساً فإنّ مدينه الكوفه عرفت بأنّها «كوفه الجند» وكانت بمثابة معسكر كبير للجيش الإسلامى.

طبعاً كان الأفراد العاديون يلتحقون بالجيش فى المواقع الحساسه ويؤدّون دورهم تحت عنوان الجهاد فى سبيل الله والذى هو وظيفه جميع الأفراد القادرين على الجهاد.

على أيه حال فإنّ هذه الفئه التى وضعت نفسها فى خدمه الإسلام وحفظ ثغور المسلمين والدفاع عن حياضهم ينبغى أن يعيش أفرادها الطمأنينه وفراغ البال من معيشتهم وممّا يحتاجونه فى حياتهم الماديه، ولذلك وضع الإسلام ضرائب خاصه تدعى بالخراج وكذلك وضع سهماً من الزكاه بعنوان: فى سبيل الله، لهؤلاء الجند.

والجمل الثالث المذكوه أعلاه ربّما تكون إشاره إلى حاجات الجند المختلفه، فجمله

«الَّذِينَ يَقْوُونَ بِهِ عَلَىٰ جِهَادٍ عَدُوَّهُمْ» إشاره للحاجات التى تتصل بالحرب والقتال من قبيل السلاح والمركب.

وجمله:

«وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيْمَا يَصْلِحُهُمْ» إشاره لتأمين ضروريات الحياه.

وجمله:

«وَيَكُونُ مِنْ وَّرَائِهِ حَاجَتِهِمْ» إشاره إلى الأمور الترفيهيه، وذهب بعض الشراح إلى أنّ المراد من هذه الجملة أنّ أفراد الجيش لابدّ أن يكون لهم مرتب مستمر وحقوق ماليه من شأنها رفع جميع حاجاتهم.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يبيّن إرتباط هاتين الفئتين مع الفئه الثالثه والرابعه والخامسه، أى

ص: ٣٦٢

القضاء والموظفين والمحاسبين، ويقول:

«ثُمَّ لِقَوَامِ لِهَذَيْنِ الصَّنِفَيْنِ إِلَّا بِالصَّنْفِ الثَّلَاثِ مِنَ الْقَضَاءِ وَالْعَمَالِ وَالْكَتَابِ، لِمَا يُحْكَمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ (١)، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا».

وفى الواقع أنّ الإمام عليه السلام فى هذه العبارة النورانيه أدغم ثلاث فئات من الفئات الاجتماعيه فى صنف واحد، وبعنوان الصنف الثالث فى مقابل الصنفين السابقين، أى الجيش وعمّال الخراج، وذكر لكل واحد من هذه الأصناف أثر اجتماعى مهم.

فبالنسبه للقضاء يقول عليه السلام: إنهم يعملون على إحكام العقود، لأنه لولا إشرافهم ومراقبتهم لهذه العقود والمواثيق فإنّ الكثير من الناس يجدون الفرضه فى عدم الالتزام بعهودهم، ولكن وجود المحاكم العادله يعمل على ضبطهم والتزامهم بالعقود، لأنهم سيكونون ملاحقين من قبل المحاكم ويعاقبون على مخالفتهم.

ويتحدّث الإمام عليه السلام عن العمّال أى الموظفين والولاه والمسؤولين الذين يتولون الإشراف على جمع المنافع، فصحيح أنّ المأمورين على جمع الضرائب والخراج يتحركون على مستوى جمعها وإرسالها لبيت المال، ولكن المشرف على أعمالهم وسلوكياتهم هم العمّال، يعنى الولاه ورؤساء مجالس المحافظات والنواحى التابعه لهم.

ويبين الإمام عليه السلام فائده وجود الكتاب، وذلك فى ضبط الأمور العامه والخاصه والنفقات وحساب بيت المال والميزانيه فى الحكومه الإسلاميه، وعندما تتضامن وتتكاتف هذه الفئات الثلاثه فسيتمّ إصلاح أمر الخراج والضرائب، ومع إصلاحها سيتمّ إصلاح وضع الجنود وقوات الحرس والأمن.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ هذه الفئات الثلاثه صنف واحد وتتلخص فى القضاء والعمّال، وما ورد فى الجمل الثلاثه يعود إلى القضاء، فى حين أنّهم ثلاث

ص: ٣٤٣

١- (١). «معاقِد» جمع «معقِد» على وزن «مسجد» فى الأصل بمعنى محل العقده فى الخيط أو الحبل، ثمّ اطلقت على كل معامله وعقد اعتبارى لمناسبه وجود عقدته تربط بين الطرفين، والجذر الأصلى لها «عقد» بمعنى ربط الطرفين.

فئات اجتماعية قطعاً، وسبق أن أشار إليها الإمام عليه السلام في كلامه، وفي هذا المورد أيضاً، ذكر الإمام عليه السلام وظيفه وبرنامج كل واحد منها، بالرغم من وجود الارتباط القريب والوثيق بينها، ومن هنا ذكرت هذه الفئات بوصفها صنف ثالث.

وربما يطرح هذا السؤال نفسه، وهو أنّ الإمام عليه السلام سبق وأن أشار إلى صنفين، وطرح مسأله جمع الخراج بوصفها الصنف الثاني فكيف يكون العمّال هنا واحده من الفئات الثلاثة التي يتشكل منها الصنف الثالث؟

والجواب على هذا السؤال أنّ الإمام عليه السلام كان يتحدّث في بدايه كلامه عن الجيش والمزارعين الذين يزرعون الأراضي الخراجية ويدفعون الخراج إلى الحكومه، ولكنّه في هذا المورد يتحدّث عن عمّال الدوله، أى الولاة والمحافظين الذين يقع على عاتق أمر الإشراف على جمع الخراج ويتصدى موظفيهم لجمعه.

والجدير بالذكر أنّ العمّال جمع «عامل» وردت في كلمات الإمام عليه السلام كرات عديده ويراد بها منصب المحافظ والقائم مقام وغير ناظر إلى ما ورد في القرآن الكريم في مورد الزكاه من قوله: «

عَامِلِينَ عَلَيْهَا» أى المأمورون على جمع الزكاه.

والتعبير بـ «

خَوَاصُّ الْأُمُورِ وَعَوَامُّهَا» إشاره إلى أنّ عمل الكتاب تاره يتحدد في إثبات وضبط المسائل السريه، وأخرى يرتبط بإثبات النفقات والموارد الماليه الاعتياديه، فهؤلاء يتولون وظيفه حفظ الاسناد والوثائق وترتيبها، وكذلك حساب النفقات والواردات.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام إرتباط فئه أخرى مع الأصناف السابقه ويقول:

«وَلَمَّا قَوَّامٌ لَهُمْ جَمِيعاً إِلَّا بِالتِّجَارِ وَذَوَى الصَّنَاعَاتِ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ (١)، وَيُقِيمُونَ مِنْ أَسْيَاقِهِمْ وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرْفُقِ (٢) بِأَيْدِيهِمْ مَا لَا يُبْلَغُهُ رِفْقٌ غَيْرِهِمْ».

ص: ٣٦٤

١- (١). «مرافق» جمع «مرفق» على وزن «مسجد» وكذلك جمع «مرفق» على وزن «محور» ويعنى الأمور التي ينتفع بها الإنسان.
٢- (٢). «الترفق» يعنى الاستفادة والانتفاع من الشىء، وجمله (ما لا يُبْلَغُهُ رِفْقٌ غَيْرِهِمْ) إشاره إلى أنّ الله تعالى قد خلق للإنسان قابليات وملكات مواقع اجتماعيه مختلفه، فكثير من الأعمال التي يستطيع البعض القيام بها لا يستطيع البعض الآخر، وهذه هى طبيعه الحياه الاجتماعيه، بحيث إنّ كل شخص يشتغل بعمل ينسجم مع استعداده وطاقاته، والآخرين ينتفعون من عمله وينتفع بدوره من أعمالهم وطاقاتهم.

ومعلوم أنّ جملة: »

فِيمَا يَجْتَمِعُونَ...» و »

يُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ» إشاره إلى التّخيار والكسبه الذين يقع على عاقتهم تجميع وتوفير ما يحتاجه الناس من المناطق القريبه والبعيده وعرضها في الأسواق ووضعها تحت اختيار المستهلكين، ولكن جملة »

وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرْفُقِ بِأَيْدِيهِمْ...» إشاره إلى أهل الصنائع الذين يوفرون بتعبهم وعملهم الوسائل التي تحتاجها الناس في معيشتهم، وذلك بصناعتها بأيديهم (طبقاً لظروف ذلك الزمان) ويضعونها في اختيار من يحتاجها من الناس.

وربّما يتصور البعض أنّ التّخيار ليس لهم دور مهم في حياه الناس، فلا يقومون بعمل إنتاجي ولا صناعي، ولا يعملون بالزراعه والرعى، فكيف جعلهم الإمام عليه السلام من أركان المجتمع البشري، ولكن إذا كان التاجر ملتزماً بالقيم الإيمانيه والأخلاقيه فإنّه يلعب دوراً مهماً في نسيج المجتمع، لأنّه من جهه يقوم بتوفير الأجناس والبضائع من مناطق مختلفه من العالم لا تتوفر في مناطق أخرى، فلو أنّ الناس أرادوا الانتفاع من جميع النعم والبركات الإلهيه على الأرض، فينبغي أن تتولى جماعه نقل هذه البضائع التي يحتاجها الناس من نقطه إلى أخرى، وهذه الجماعه هم التّجار، ومن جهه أخرى ففي الموارد التي يتولى فيها أهالي المدينه الواحده إنتاج ما يحتاجونه من البضائع واللوازم المعيشيه فإنّ المنتجين في الغالب لا يستطيعون عرض ما ينتجونه في السوق ويبيعونه إلى المشترين، بل يضطرون لبيع منتوجاتهم جملة واحده لشخص يملك رأس مال كافٍ، ويتولى ذلك الشخص بيعها إلى الكسبه في السوق، والكسبه بدورهم يبيعونها إلى المشترين.

ومن جهه ثالثه فإنّ الكثير من المحاصيل الزراعيه والمنتوجات الصناعيه التي ربّما لا يتسنى لها التصريف والبيع في محل إنتاجها وينبغي جمعها وعرضها على السوق، فهنا يجب أن تتولى جماعه هذا العمل على أساس أنّه من الصادرات

والواردات، وهذه الجماعه هم التجار وبخاصه المحاصيل التى تحتاج فى حفظها وإدخالها إلى مخازن مجهزه خارجه عن عهده المنتج وأرباب الصناعات، فالتجار لهم دور مهم فى هذه الأمور الثلاثه، وهذا يعنى أن وجود هاتين الواسطتين «التجار والكسبه» ضرورى لغرض تداول أموال المحاصيل والمنتجات بشكل صحيح، ولكن إذا تعددت الوسائط وأرادت كل جماعه أن تستغل التجار بدون أن توفر عملاً إيجابياً وتريد زياده ثمن البضاعه أو المنتجات الزراعيه والصناعيه، أو يقوم بعض التجار والكسبه باحتكار البضائع أو تداولها من يد إلى أخرى وتشكيل سوق سوداء بأثمان زائفه ووهميّه، فذلك يعدّ انحرافاً فى التداول الاقتصادى للمال ولا يرتبط بمسأله التجاره.

ولهذا السبب نرى أن جميع الحكومات جعلت إحدى الوزارات باسم وزاره التجاره من أجل الإشراف على أمر التجاره، بل تساهم فى مدّ يد العون للتجار واعطائهم رؤوس أموال لازمه للقيام بعمليّته الصادرات والواردات، وهذا العمل يمثّل فى الواقع حلقة مكمله لعمل أصحاب الصناعه والزراعه والرعى.

ثمّ يتحدّث الإمام عليه السلام عن الطبقة الدنيا فى المجتمع ويقول:

«ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ (١) وَمَعُونَتُهُمْ».

ومن المعلوم أنّ فى كلّ مجتمع بشرى هناك أفراد لا يستطيعون العمل والكسب وهم مستهلكون فقط، وذلك بسبب الشيخوخه، المرض المزمن، الإعاقة فى الأعضاء، وبسبب الحوادث المختلفه، المتخلفون ذهنياً وعقلياً وأمثالهم من ذوى الحاجات الخاصه، فالكثير من أفراد هذه الفئة كانوا فى السابق وفى أيام الشباب يعيشون سلامه الجسم والروح ومن المنتجين والفاعلين فى المجتمع، ولكن بسبب مرور الزمان والحوادث المختلفه صاروا بهذه الحاله، فلا العقل ولا الوجدان يقبل أن يهمل هؤلاء ولا تتمّ حمايتهم على المستوى الاجتماعى والاقتصادى، ولهذا السبب

ص: ٣٦٦

١- (١). «رِفْدٌ» يعنى العطاء والعفو.

نجد في كفافه أقطار الدنيا أنهم يفتحون حساباً خاصاً لهؤلاء المقعدين ويخصصون قسماً من ميزانيته الدوله لانفاقه عليهم ويفتحون لهم مراكز لاحتضانهم وحمايتهم، وقد وردت التوصيات الأكيده في الإسلام فيما يتصل بالتواصل مع هذه الفئة المحرومه، وقد فرضت الشريعه الإسلاميه سهماً خاصاً لهم من الخمس والزكاه.

أضف إلى ذلك لو اهتمت هذه الشريعه فإن ذلك من شأنه إفراز مشكلات مهمه لباقي الشرائح والفئات الأخرى في المجتمع، فمن جهه ربما يسعى أفراد هذه الفئة المحرومه ومن أجل تأمين معيشتهم، لإرتكاب جرائم مختلفه وسلوك طريق الانحراف والجنوح، أو ترى الفئات الأخرى حال هؤلاء فيؤثر ذلك على معنوياتهم ويفكرون في أنهم إذا حل بهم يوماً ما حلّ هؤلاء فماذا يكون مصيرهم؟ ولكن عندما يرون أنّ الحكومه والمجتمع سيعتنى بهم ويهب لحمايتهم في حال إعاقتهم وعجزهم عن العمل والكسب، فإنهم سيعيشون الأمل في مستقبلهم.

وعبارهُ »

أهل الحَاجَةِ وَالْمَسِيكِنَةِ...» إشاره إلى طائفتين: أهل الحاجه هم الأشخاص الذين يعملون للكسب وتوفير المعيشه ولكن عائلهم المالي لا يسد نفقاتهم، وأهل المسكنه إشاره إلى العجزه والمقعدين الذين ليس لهم وارد مالي ولا يتمكنون من العمل مطلقاً.

وبعد أن ذكر الإمام عليه السلام وضعيه الترابط بين هذه الطبقات الاجتماعيه، أشار إلى نقطه مهمه وقال:

«وَفِي اللَّهِ لِكُلِّ سَعَةٍ، وَلِكُلِّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ».

وهذه إشاره إلى أنّ جميع هذه الطبقات والفئات ومن أجل التوصل لتحقيق مرادهم، فإنهم يستمدون المعونه من مصدرين: الأول: مصدر الخلق والرزق، وهو الله الذي خلق كل هذه المواهب والنعم والإمكانات في هذا العالم، وكل واحده من هذه الفئات بإمكانها الانتفاع من هذه المواهب من خلال السعي وبذل الجهد، هذا بحسب عالم التكوين، أمّا بحسب عالم التشريع، فالحكومه الإسلاميه موظفه بمد يد العون لجميع هذه الفئات لإيصالها إلى مقاصدها، لأنّ الحكومه تملك القدره المائيه

ص: ٣٦٧

من جهه، وتملك من جهه أخرى أخرى القدره التنفيذيه، وبإمكانها من خلال هاتين القدرتين مساعده جميع الطبقات الاجتماعيه.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه فى كيفية أداء الوظيفه الشرعيه للوالى بصوره صحيحه، ويقول:

«وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِى مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْإِهْتِمَامِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ، وَتَوْطِينِ (١) نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ».

وفى الواقع ذكر الإمام عليه السلام ثلاثه شروط لنجاح الوالى فى أداء وظيفته فى مقابل هذه الفئات الاجتماعيه وقال: الشرط الأول: السعى وبذل الجهد فى هذا السبيل، الشرط الثانى: الاستمداد من لطف الله وكرمه، والشرط الثالث: الاستعداد لتحمل الصعاب والمشكلات فى هذا الطريق، ومعلوم أنّ الوالى إذا توكل على الله تعالى وسعى جاهداً ومخلصاً، ولم يتردد فى طريق أداء الوظيفه من مواجهه المشكلات والتحديات، فإنّه سينجح فى عمله وسيكتب له التوفيق فى إدارته.

ص: ٣٦٨

١- (١). «توطين» يعنى دفع الشخص باتجاه معين و «توطين النفس» يعنى جعل النفس تعمل العمل الفلانى، فى الأصل من ماده وطن، وكأنّ الإنسان يجعل هذا العمل وطناً له ويتوقف فيه، وتأتى هذه المفرده أحياناً بمعنى الاعتقاد على شىء أيضاً.

قَوْلٌ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ، وَأَنْقَاهُمْ جَيْبًا، وَأَفْضَلَ لَهُمْ حِلْمًا، مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُدْرِ، وَيَزَافُ بِالضُّعْفَاءِ، وَيَثْبُو عَلَى الْأَقْوِيَاءِ، وَمِمَّنْ لَمَّا يُبِيرُهُ الْعُنْفُ، وَلَمَّا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعِيفُ. ثُمَّ الصِّقُ بِسَدْوَى الْمُرُوءَاتِ وَالْأَحْسِيَابِ، وَأَهْلِي الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلِي النَّجْدِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاخَةِ؛ فَإِنَّهُمْ جَمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ، وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ. ثُمَّ تَفَقَّدُوا مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا، وَلَا يَتَفَقَّمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّبَتْهُمْ بِهِ، وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفًا تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ؛ فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بِيْذَلِ النَّصِيحَةِ لِمَكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِحِكِّكَ. وَلَمَّا تَدَعَّ تَفَقَّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ اتِّكَالَاً عَلَى جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْضِعًا لَا يَسْتَعْنُونَ عَنْهُ.

الشرح والتفسير: شروط قادة الجيش

في هذا المقطع من الرسالة العهديه يتحدث الإمام عليه السلام بالتفصيل عن شروط قادة الجيش، وهذا من قبيل ذكر التفصيل بعد الاجمال، وفي المجموع يذكر الإمام عليه السلام أربعة عشر صفة لقاده الجيش، ويقول:

«قَوْلٌ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ، وَأَنْقَاهُمْ جَيْبًا (١)، وَأَفْضَلَ لَهُمْ حِلْمًا».

ص: ٣٦٩

١- (١). «جيب» في الأصل بمعنى الشق في الثوب من جهة الصدر، وبما أنَّ هذا القسم من الثوب يكون على الصدر، والصدر بدوره مجاور للقلب، فستخدم هذه المفردة على الصدر وأحياناً أخرى على القلب.

وهذه الصفات الثلاث اللانزم توفرها في قاده الجيش، تؤدي: أولاً: أن يعيش القائد العسكري هاجس الحقّ ويفكر في نصره الدين واعلاء كلمه التوحيد ونصره النبي الأكرم صلى الله عليه و آله والإمام عليه السلام، وثانياً: أن يسعى في هذا الطريق من موقع الإخلاص والتفاني، ثالثاً: يعمل على تدبير أمور الجيش بآليات المداراه والعقلانيه والخبره الكافيه.

مفرده «حلم» في هذا المورد يمكن أن تشير إلى العقل(1) ويحتمل أن تأتي بمعنى الصبر وضبط النفس، ولكن الجمل اللاحقه تقوى المعنى الثاني.

وبعد أن يذكر الإمام عليه السلام هذه الصفات الثلاث يشير إلى صفتين آخرين، وهما في الواقع من باب التفصيل للصفه الأخيره، يقول:

«مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ».

وبديهي أن مراده عليه السلام ليس التساهل وقبول العذر في مقابل المسائل المهمه والمصيريه بل المراد التسامح في مقابل الأخطاء الجزئيه التي ربّما يمكن صدورها من جميع الأفراد، فالقائد العسكري يجب أن يتعامل مع هذه الأخطاء بدم بارد وبآليات التسامح وقبول العذر.

وفي سياق هذا الكلام يتعرض الإمام عليه السلام للصفه الرابعه ويقول:

«وَيَزَافُ بِالضُّعْفَاءِ، وَيَنْبُو (٢) عَلَى الْأَقْوِيَاءِ، وَمِمَّنْ لَا يُثِيرُهُ (٣) الْعُنْفُ، وَلَا يَتَعَدُّ بِهِ الضَّعْفُ».

وهذه الصفات الأخلاقيه من شأن الأشخاص الذين يتمتعون بشخصيه قويه وشجاعه، فمثل هؤلاء يتعاملون مع الضعفاء من موقع المحبه والشفقه، ويتحركون لحمايتهم ومدّ يد العون إليهم، أمّا في مقابل أصحاب القدره والثروه فإنهم يقفون موقفاً صلباً ولا يطأطؤون برؤوسهم لهم، ويحلّون المشاكل التي تواجههم بآليات

ص: ٣٧٠

١- (١) . يقول القرآن الكريم في الكافرين: «أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ». (سوره الطور، الآيه ٣٢).

٢- (٢) . «يَنْبُو» من ماده «نَبُو» على وزن «نذر» في الأصل بمعنى عدم تأثير السيف والسهم وأمثال ذلك، ثم اطلقت على عدم التوافق وعدم التسليم، وفي العبارة أعلاه قصد بها هذا المعنى.

٣- (٣) . «لَا يُثِيرُهُ» من ماده «إثاره» بمعنى تحريك الشيء أو دفعه باتجاه معين.

العقل والتدبير والحزم، ولا يبدون حالات الضعف والتراجع أمام أى شخص وأى عمل.

وبعد أن بين الإمام عليه السلام هذه الصفات التسع، يشير إلى ثمان صفات أخرى لابد أن يتمتع بها القائد اللائق أو الوالى المحنك، ويقول:

«تُعَمُّ الصِّقُّ بِمَدَوِي الْمُرُوءَاتِ وَالْأَحْسِيَابِ، وَأَهْلِي الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحِيهِ، وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنِيهِ، تُعَمُّ أَهْلِي النَّجْدِيهِ وَالشَّجَاعِيهِ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاحِيهِ».

«مُرُوءَاتٍ» جمع «مروه» من ماده «مرء» وتأتى عادة بمعنى أصحاب الشخصيه المتميزه.

»

أَحْسِيَابٍ» جمع «حَسَب» إشاره إلى أصاله النسب والأبعاد الإيجابيه فى الوراثة، كأن نقول إنَّ الشخص الفلانى من طائفه بنى هاشم ومن السادات المحترمين.

»

أَهْلِي الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحِيهِ» إشاره إلى الأسر والعوائل النظيفه والمرموقه فى المجتمع.

و

السَّوَابِقِ الْحَسَنِيهِ» ناظره إلى الأسر التى تملك سمعه حسنه، ليس فقط فى هذه الأيام بل فى الماضى بسبب أعمالهم الصالحه بحيث إنهم تركوا سمعه حسنه فى الذهنيه العامه.

»

النَّجْدِيهِ» فى الأصل تعنى الارتفاع وفى هذا المورد تعنى الرفيع فى المقام والكبير فى الروح والعالى فى مكانته الاجتماعيه.

»

الشَّجَاعِيهِ» وتعنى من يملك الجرأه فى مواجهه الصعوبات.

»

السَّخَاءِ» يعنى الكرم والجود.

و

السَّمَاحِ» تعنى سعه الصدر والتحلى بالحلم.

وعلى هذا الأساس فإنّ لكلّ وحده من هذه الكلمات الثمان معنًى مختلفاً وتشير إلى إحدى الفضائل والصفات المتميزه للإنسان،
رغم أنّ بعض شراح نهج البلاغه

ص: ٣٧١

ذهبوا إلى أن بعض هذه الكلمات مترادفه، مثل: «النجده» و «السخاوه»، وكذلك:

«السخاء و «السماحه»، وهكذا في «أحساب» و «أهل البيوتات الصالحه».

وعبارته »

أُصِقُّ» إشاره إلى الروابط القريبه والعلاقات الوثيقه، وهذا يعنى لزوم إيجاد رابطه عميقه مع هذه الجهات التى تملك هذه الخصائص المتميزه لغرض اختيار قاده الجيش منها.

ولا شك أن الأشخاص الذين يملكون مثل هذه الصفات المتميزه يكونون جديرين بالاعتماد عليهم ويتحركون بفاعليه أكثر فى مسأله كسب النصر والظفر.

أمّا الحسب والوراثه وحسن السابقه والأعمال التى تشير إلى الحلم والشجاعه والسخاء والفتوه فإنّها تصلح أن تكون دليلاً على شخصيه صاحبها الساميه، وفى الحقيقه فإنّ الإمام عليه السلام فى هذا المورد يتحدّث بمنطق علم النفس والتحليل النفسى ليمكن مالك الأشر من اختيار أفضل الرجال لقياده الجيش.

ومن هذه الجبهه يواصل الإمام عليه السلام كلامه ويقول:

«فَإِنَّهُمْ جَمَاعٌ (١) مِنَ الْكُرَمِ، وَشُعْبٌ مِنَ الْعُرْفِ».

كلمه »

عُرْفٌ» إشاره إلى جميع أنواع المحاسن والفضائل، وهذه المفرده من ماده «عرفان» و «عرفه» وتأتى بمعنى المعروف أيضاً، وبما أنّ الفضائل معروفه لدى عقل الإنسان وروحه، فقد وردت التعبير عنها بالمعروف أو العرف، خلافاً للقبائح والردائل التى لا تتناسب وفطره الإنسان النقيه، فهى أمور منكره وغير معروفه، فيقول الإمام عليه السلام فى هذه العبارة إنّ الأشخاص الواجدون لهذه الصفات الثمان يمثلون مركزاً مجسداً للفضائل والصفات الإنسانيه المتميزه.

وبعد أن ذكر الإمام عليه السلام هذه الصفات المهمه والمتميزه، يتحرك على مستوى بيان أربع توصيات لقاده الجيش فيما يتصل بسلوكهم ونشاطهم بدايه يقول:

«ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا».

ص: ٣٧٢

١- (١). «جماع» كما قلنا سابقاً إنّها فى الأصل مصدر، وفى هذه الموارد جاءت بمعنى الوصف أى الجامع والمجمع.

وعلى ضوء ذلك فقائد الجيش ينبغي أن يتعامل مع القاده فى المراتب الأدنى، بل مع جميع أفراد الجيش، كالوالد الحنون والأم العطف، ويتواصل معهم من موقع المحبة والسؤال والاستفسار عن حاجاتهم وتعميق علاقه العاطفيه معهم فيما يتسبب فى بقاء وفائهم وإخلاصهم وطاعتهم لقائد الجيش وثباتهم فى ميدان القتال.

ويضيف الإمام عليه السلام فى التوصيه الثانيه:

«وَلَا يَتَّفَاقَمَنَّ (١) فِى نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ».

وهذه إشاره إلى أنّ خدماتك مهما تكن كبيره وكثيره فينبغى أن تعدّها صغيره وتفكر فى الإتيان بالأفضل منها.

وفى التوصيه الثالثه يقول عليه السلام:

«وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفًا تَعَاهَدْتَهُمْ (٢) بِهِ وَإِنْ قَلَّ».

ثم يقيم الإمام عليه السلام دليلاً لهذه المقوله (وهى الاهتمام بالأمر الكليه والجزئيه لقاده الجيش والجنود) ويقول:

«فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَىٰ بَدْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ».

وفى التوصيه الرابعه يقول عليه السلام:

«وَلَا تَدْعُ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ اتِّكَالًا عَلَىٰ جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْضِعًا لَا يَسْتَعْنُونَ عَنْهُ».

وهذه النقطه جديره بالانتباه والتدقيق، وهى أنّ القاده بل جميع مدرء المجتمع الإسلامى لا ينبغى أن يغفلوا عن الأمور الصغيره والكبيره، أو يهتموا فقط بالأمر الكبيره والمصيريه ويعتنوا بالحاجات المهمه للمجتمع، بل يضعون كلّ واحده فى مكانها، لأنّه أحياناً تكون الغفله عن الأمور الفرعيه مضرّه بقدر الغفله عن الأمور الكليه.

والنقطه الملفت للنظر أنّ الإمام عليه السلام فى جميع المسائل السابقه وبدلاً من اهتمامه

ص: ٣٧٣

١- (١). «لَا يَتَّفَاقَمَنَّ» من ماده «تفأقم» بمعنى الكبير والخطير، من ماده «فقم» على وزن «فهم».

٢- (٢). «تَعَاهَدْتَهُمْ» من ماده «تعاهد» ومن ماده «عهد» وأحياناً تأتى بمعنى إيجاد العقد والمعاهده، وأخرى بمعنى القوامه على الشىء وبالاهتمام به، وما جاء فى بعض الروايات أنّ المسلم عندما يدخل إلى المسجد يتعاهد النعالين، إشاره إلى هذا المعنى والتحقق فى نعليه لئلا يكونا ملوثتان، وجاء فى حديث شريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: «تَعَاهَدُوا نِعَالَكُمْ عِنْدَ أَبْوَابِ مَسَاجِدِكُمْ» (بحار الأنوار، ج ٨٠، ص ٣٦٧). وجاءت فى عبارته أعلاه بهذا المعنى أى الاهتمام بأمر الجيش.

بمسائل التعليم والعسكري والأمر المتعلقه بالأسلحه وأمثال ذلك يهتم بالأمر المعنوي والأبعاد الروحيه لقاده الجيش، لأنّ العنصر الأساس في تحقيق النصر هو هذه الأمور رغم أنّ الأمور الأخرى لها مكانها المناسب.

في عالمنا المعاصر قلّما يُبحث، في مسأله اختيار القاده العسكريين ومدراء المجتمع، عن الخصائص العائليه والصفات المعنويّه وحالات الكرم والتقوى والطهاره من الرذائل في شخصيّه الأفراد، ومن هذه الجبهه حدثت الكثير من الخيانات الكبيره من قبل هؤلاء المدراء والمسؤولين الكبار.

ص: ٣٧٤

وَلْيَكُنْ آثَرُ رُءُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَسَايَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلُ عَلَيْهِمْ مَنْ جِدَّتْهُ، بِمَا يَسِيْرُهُمْ وَيَسْعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمًّا وَاحِدًا فِي جِهَادِ الْعِدُوِّ؛ فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ، وَإِنْ أَفْضَلَ قَرَّهُ عَيْنِ الْوَلَمَاءِ اسْتِقَامَهُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ. وَإِنَّهُ لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامِهِ صُدُورِهِمْ، وَلَا تَصِحُّ نَصِيْحَتُهُمْ إِلَّا بِحَيْطَتِهِمْ عَلَى وُلَاهِ الْأُمُورِ، وَقَلَّةِ اسْتِثْقَالِ دَوْلِهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِثْنَاءِ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ، فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ، وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى دَوُو الْبَلَاءِ مِنْهُمْ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَعْمَالِهِمْ تَهْزُ الشُّجَاعَ، وَتُحَرِّضُ النَّاِكِلَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ. ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِيٍّ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى، وَلَا تَضُمَّ مَنْ بَلَاءِ امْرِيٍّ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا تُقْصِرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَاءِهِ، وَلَا يَدْعُونَكَ شَرَفُ امْرِيٍّ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلَاءِهِ مَا كَانَ صَغِيرًا، وَلَا ضَعْفُ امْرِيٍّ إِلَى أَنْ تَسْتَضْعِرَ مِنْ بَلَاءِهِ مَا كَانَ عَظِيمًا.

الشرح والتفسير: أفضل قادة الجيش

فى هذا المقطع من الرسالة يتابع الإمام عليه السلام توصياته فى اختيار قادة الجيش، ويتجه نحو الاهتمام بأمر الجند وأفراد الجيش ويوصى مالك الأشر باختيار القادة والضباط من الذين يهتمون بأمر الجيش بشكل أفضل، يقول عليه السلام:

«وَلْيَكُنْ آثَرُ (١)»

ص: ٣٧٥

١- (١). «آثر» صيغه أفعال التفضيل، وتعنى الأفضل، من مادة «إيثار» وتعنى أفضيله الآخر وترجيحه على النفس.

رُءُوسِ جُنُودِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَسَايَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَّتِهِ (١)، بِمَا يَسِدُّهُمْ وَيَسِعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ (٢) أَهْلِيهِمْ، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمًّا وَاحِدًا فِي جِهَادِ الْعُدُوِّ.

وفى عالمنا المعاصر نرى أنّ العلاقة بين قادة الجيش والجنود تتميز بالجفاف وانعدام الاحساس العاطفى، وتكون العلاقة عسكريه أكثر منها عاطفيه، فمثل هذه العلاقة تدور فى الغالب حول محور العقوبه والسجن والتهديد، فى حين أنّ الإمام عليه السلام أكد قبل أربعة عشر قرناً على أن تكون العلاقة عاطفيه، وينبغى على قادة الجيش أن يأخذوا بنظر الاعتبار مشاكل الجنود وحتى مشاكل عائلاتهم أيضاً ويوفروا لهم معيشه مقبوله وبالمقدار الممكن، كيما يتحرك الجنود فى ميدان القتال بالتركيز على مسأله الجهاد وقاتل الأعداء لا غير، وبديهي أنّ مثل هذا الجيش سيكون أقرب لتحقيق النصر والغالبه.

عندما ينظر الجيش بعين إلى ميدان المعركه وبالعين الأخرى إلى الأهل والأولاد ويعيشون القلق تجاههم فإنّ إرادتهم على قتال العدو ستضعف وترتبك.

واللافت أنّ الإمام عليه السلام راعى فى حياته الشخصيه الحد الأعلى من الزهد وقد أمر الولاة والقاده أيضاً بهذه التوصيه، وقد سبق الحديث عن ذلك فى شرح رساله الإمام عليه السلام لعثمان بن حنيف، ولكن بالنسبه للمجموعات الخاضعه لكفالتة أوصى بتوفير المعيشه الكافيه والمعقوله.

ثمّ يتحدّث الإمام عليه السلام فى مقام بيان العله لهذه التوصيه يقول:

«فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ».

ص: ٣٧٦

١- (١). «جِدَّة» بمعنى القدره المائيه، وهذه المفرده مصدر من ماده «وجود».

٢- (٢). «خُلُوف» جمع «خُلُوف» بمعنى من يبقيه المسافر فى بيته ووطنه ويتركهم ويسافر، وعاده تطلق على النساء والأطفال والصغار والعاجزين.

ومع الالتفات إلى أن الضمير في

«عَلَيْهِمْ» و

«قُلُوبُهُمْ» يعود إلى أفراد الجيش ظاهراً، فإن معنى هذا الكلام: عندما تتواصل مع أفراد الجيش بالمحبة من خلال محبتك قادة الجيش فإن أفراد الجيش سيمنحوك حبهم ووفائهم من صميم القلب (١).

ثم يواصل الإمام عليه السلام هذا الكلام ويشير إلى نقطه مهمه هي السبب في دوام الحكومه والدوله، ويقول:

«وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوُلَاةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ».

وهذه إشاره إلى أن إقامة العدل والقسط تتسبب في تقوية العلاقات العاطفية بين الناس من جهة، والقاده والولاه من جهة أخرى، ولذلك يعتبر إقامة العدل أفضل وسيله لحفظ الحكومه ودوامها.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى عوامل ظهور الموده والمحبة من قبل الناس تجاه الوالى ويقول:

«وَإِنَّهُ لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامَةٍ صُدُورِهِمْ».

وسلامه الصدور إشاره إلى حسن الظن ونفى كل أشكال الحقد والعداوه، وبديهي أن الرعيه إذا كانت تملك حسن الظن بأعمال الولاه والمسؤولين ولم يشعروا نحوهم بأى حقد وعداء، فإن مظاهر المحبة والوفاء تجاه الحكومه ستظهر جلياً.

وربما تكون هذه العبارة إشاره إلى الكثير من الناس وبحكم الاجبار والخوف يتحركون على مستوى المدح والثناء للوالى والمسؤولين فى حين أنهم لا يعيشون سلامه الظهر وحسن الظن بهم، فالموده الواقعيه لا تظهر إلا إذا كانت القلوب تعيش الموده والمحبة تجاه المسؤولين.

ويضيف الإمام عليه السلام:

«وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحَيْطَتِهِمْ عَلَى وُلَاةِ الْأُمُورِ، وَقَلْبِهِ»

ص: ٣٧٧

١- (١). انظر إلى أن هذا الكلام ينطلق من العلاقة العاطفية بين قادة الجيش والجنود ولا ينطلق من علاقه مالك الأشر بأفراد الجيش، ولذلك جاء مرجع الضمائر أعلاه بشيء من عدم الاتساق والتناسب، ولكن إذا التفتنا إلى هذه الحقيقه وهى أن المرحوم السيد الرضى قد حذف العبارات والجمل التى تقع فى مطاوى هذا الكلام وهى الجمل التى وردت فى كتاب «تحف العقول» وكذلك كتاب «تمام نهج البلاغه» فحينئذ يتبين أن الإمام عليه السلام كان قد أوصى مالك الأشر بالاهتمام بأموال قادة الجيش وقال: «ثُمَّ وَاتَرِ إِعْلَامَهُمْ ذَاتَ نَفْسِكَ فِي إِيْتَارِهِمْ وَالتَّكْرِمَةِ لَهُمْ، وَاللَّارْصَادِ بِالتَّوَسُّعِ وَحَقِّقْ ذَلِكَ بِحُسْنِ الْفِعَالِ وَالْأَثَرِ وَالْعَطْفِ فَإِنَّ

عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ». وبذلك يتبين أنّ ضمائر الجمع تعود إلى قادة الجيش وعلاقه مالك الأشر بهم. «فتدبر».

اسْتَيْقَالَ (١) دَوْلِهِمْ، وَتَزَكَّ اسْتَيْطَاءِ (٢) انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ».

واللافت للنظر أنّ الإمام عليه السلام ولأجل بقاء واستمرار الحكومات لا يعتمد على عنصر الاقتدار الظاهري وتسلط الجيش وقوى الأمن والاستخبارات على الناس، بل يعتمد تماماً على قلوب الناس والبعد العاطفي لهم ويهتم بكيفية كسب محبتهم وجذبهم، في حين أنّ الكثير من الحكومات في الماضي وحتى في الحال الحاضر يعتقدون أنّ بقاءهم على رأس السلطه منوط بالقدره الظاهريه على الناس، ونرى غالباً أنّ الناس الذين يعيشون عدم الرضا عن الحكومه بمجرد أن تتوفر لهم الفرصه فإنهم يثورون ضد الحكومه ويزيحونها ويلقونها في مزبله التاريخ.

وجاء في شرح نهج البلاغه للعلامة التستري أنّ الزهري قال: دخلت يوماً على عمر بن عبدالعزيز، فبينما أنا عنده إذا أتاه كتاب من عامله أنّ المدينه قد احتاجت إلى مرّمه، فقلت له: إنّ بعض عمّال علي بن أبي طالب كتاب بمثل هذا، فكتب عليه السلام إليه:

«أَمَا بَعْدُ، فَحَصَّنْهَا بِالْعَدْلِ وَتَقَّ طُرُقَهَا مِنَ الْجَوْرِ» فكتب (عمر بن عبدالعزيز) ذلك إلى عامله (٣).

ثم يتحدّث الإمام عليه السلام عن مسأله التشويق المادى ويقول:

«فَأَفْسَحْ فِي آمَالِهِمْ (٤)».

للآمال مفهوم واسع يشمل جميع الحاجات الضروريه والترفيهيه، وبديهي أنّ قادة الجيش والجنود إذا لم يعيشوا راحه البال والفكر من جهه تأمين معيشتهم فإنّ أداءهم العسكري في ميدان القتال سيشهد الضعف والفتور.

ص: ٣٧٨

١- (١). «اسْتَيْقَالَ» من ماده «ثَقَلَ».

٢- (٢). «اسْتَيْطَاءِ» بمعنى المشى الخفيف من ماده «بُطِءَ» على وزن «قطب».

٣- (٣) شرح نهج البلاغه، للعلامة التستري، ج ٨، ص ٥٣٨. وردت هذه القصه في تاريخ يعقوبى، ج ٢، ص ٣٠٦.

٤- (٤). يتصور أحياناً أنّ ضمير في «آمالِهِمْ» وضمائر الجمع التي تأتي بعد ذلك ينبغي أن تعود إلى الرعيه، لوجود ضمائر مشابهه قبل ذلك تعود جميعها عليهم، ولكن القرائن الموجوده في عبارته (كلمه شجاع وناكل) تشير إلى أنّ الجمل تعود إلى المسائل المتعلقة بقاده الجيش. مضافاً إلى ذلك أنّ المرحوم السيد الرضى عندما انتقى هذه الجمل والعبارات، حذف الجمل في الوسط، في حين أنّ هذه الجمله تبين عوده هذه التوصيات إلى قادة الجيش، وجاء في كتاب «تحف العقول» بعد ذكر جملته «انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ»: «ثُمَّ لَا تَكَلَّنْ جُنُودَكَ إِلَى مَعْنَمٍ وَرَزَعْتَهُ بَيْنَهُمْ». (تحف العقول، ص ٨٩).

ويتحدّث الإمام عليه السلام فى سياق كلامه هذا عن التشويق النفسى والمعنوى ويقول:

«وَوَاصِلٌ فِي حُسْنِ التَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلَاءِ (١) مِنْهُمْ فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أفعالِهِمْ تَهْزُ (٢) الشُّجَاعَ وَتَحْرِضُ (٣) النَّاكِلَ (٤) إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

ومعلوم أنّ مسأله تشويق أفراد الجيش اللاتقنين والفعالين سيقع مؤثراً فى تطوير وتفعيل النشاطات الاجتماعيه، وخاصه أنه يحضى فى عالمنا المعاصر بالأهميه القصوى، فاختيار الاستاذ النموذجى، والعامل النموذجى، والمزارع النموذجى، والقاده المشاليين وإعطائهم لوحات التقدير والجوائز الكبيره وذكر أسمائهم فى أجهزه الإعلام العام يدخل كله فى هذا الباب.

والجدير بالذكر أنّ مثل هذا التشويق، كما ذكر الإمام عليه السلام فى كلامه أعلاه، له أثر من جهتين: فمن جهه يحثّ الأفراد اللاتقنين على العمل والفعاليه، ومن جهه أخرى يؤثر على الأفراد الكسالى الذين يرون أنفسهم فى هذا الحال منكسرين فيفكرون فى تغيير سلوكهم وتنشيط أدائهم.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يتابع فى كلامه هذا، أى فى مسأله التشويق، ليتعرض لتوضيح أكثر فى هذا المجال ويقول:

«ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى، وَلَا تَضْمَنْ (٥) بَلَاءَ امْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا تُقْصِرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَائِهِ».

فى هذه العبارات الثلاث والى تتضمن كل واحد منها إشارة نقطه خاصه فى ذات الوقت مكمله للأخرى، يؤكّد الإمام عليه السلام لمالك الأشر أن يكون منتبهاً ومراقباً

ص: ٣٧٩

١- (١). «بلاء» الاختبار والامتحان، وأحياناً يكون الاختبار بواسطة النعم وأخرى بواسطة المصائب، من هذه الجهه تطلق كلمه بلاء بمعنى النعمه وبمعنى المصيبه أحياناً أخرى، وفى الجمله أعلاه اريد بها كلا المعنيين أى بعنوان حسن البلاء وسوء البلاء (وهذه المفرده من ماده «بلى يبلو»).

٢- (٢). «تهزّ» من ماده «هزّ» على وزن «حظّ» بمعنى التحريك الشديد والتثوير.

٣- (٣). «تحرّض» من ماده «تحريض» بمعنى الترغيب لعمل معين أو لشيء وإيجاد الدافع له.

٤- (٤). «الناكىل» يعنى الشخص الجبان أو المتكاسل والمتراجع عن العمل، من ماده «نكول» بمعنى الخوف والتراجع.

٥- (٥). «لا تضمّن» من ماده «تضمّن» على وزن «تعهد» بمعنى أخذ الشيء وتحمل مسؤوليته، وفى الجمله أعلاه إشارة إلى أنّك لا ينبغى أن تجعل نقاط قوه شخص إلى آخر وتضمه إليه.

لأعمال وسلوكيات من هم تحت إمرته ويقدر لهم أتعابهم، فإذا قام أحدهم بعمل مهم فينبغي أن ينسب له ذلك العمل، ومضافاً إلى لزوم معرفه الشخص الجيد والذي يقدم خدمه جليله للجيش، أن يتعرف بدقه على مقدار خدمته أيضاً.

ثم يبين الإمام عليه السلام توصيتين اخريين فى سياق إكمال هذه التوصيات ويقول:

«وَلَا يَدْعُونَكَ شَرَفُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تُعْظَمَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ صَغِيرًا وَلَا ضَعْفُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تَسْتَضَعَرَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ عَظِيمًا».

وبعبارة أخرى أن تنظر إلى العمل نفسه ثم إلى العامل، بخلاف ما هو متداول لدى غالبية الناس أنهم ينظرون إلى العامل أولاً ثم إلى عمله، وهذا الأمر يتسبب فى وقوع الخطأ فى تقييم أعمال الأشخاص.

والجدير بالذكر أن الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من كتابه لمالك الأشرى يبين فى البدايه الصفات البارزه فى قادة الجيش، ثم يبين التوصيات اللازمه بالنسبه لأفراد الجيش، وبعد ذلك يتحدث عن عامه الرعيه، وفى الختام يتحدث مره أخرى عن المسائل المتعلقة بتشويق وحث قادة الجيش ويبين توصياته المؤكده لهم.

ومن هنا يبدو أن الإمام عليه السلام فى ثنايا البحوث المتعلقة لقاده الجيش وجنوده وبشكل جمله معترضه، يتوجه فى كلامه مخاطباً جميع أفراد المجتمع الإسلامى.

وَأَرْدُدْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضِلُّعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَسْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» فَالرَّدُّ إِلَى اللَّهِ الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفْرَقَةِ.

الشرح والتفسير: طرق حل المشكلات

فى هذا المقطع من الرسالة بين الإمام عليه السلام وظيفه مالك الأشر فيما يتصل بأحكام الشرع، وكما يقال فى الشبهات الحكيمه وطريق الكشف عن الأحكام الإلهيه فى المسائل المتعلقة بالجيش والحرب والصلح وسائر المسائل التى تتصل بشأن الحكومه وإداره البلاد حيث يدعو الإمام عليه السلام للاجتهاد فى الأحكام الإلهيه من خلال استفاده من المنابع الأصلية، لأنه يرى فيه القابليه لمثل هذا الاستنباط الشرعى يقول عليه السلام:

«وَأَرْدُدْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضِلُّعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَسْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ».

ثم يستند الإمام عليه السلام إلى الآيه الشريفه ويقول:

«فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» (١)».

ثم يضيف عليه السلام:

«فَالرَّدُّ إِلَى اللَّهِ الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرَّقَةِ».

وجمله »

ما يُضْمَلُ عَيْتُكَ» مع الالتفات إلى أنّ «ضَمْعٌ»؛ (على وزن منع) في الأصل تعنى الحمل الثقيل الذى يجعل حامله يميل من هذه الجهة إلى الأخرى، وهذه إشارته إلى أنّ كلّ حكم مشكل ومعقد يواجهه الإنسان لابدّ له لحمله من مراجعته الكتاب والسنة.

وكلمه

«خُطُوبٌ» جمع «خطب» (على وزن ختم) ويعنى الأمر المهم، تطلق على أى نوع من الأعمال، وهذه إشارته إلى أنّ الإنسان المؤمن يجب عليه، سواءً فى الأمور الهامة أم فى الأمور العادية، الرجوع إلى نصوص الكتاب أو السنة أو العمومات والإطلاقات، فيما لو واجه مشكله فى حكم من الأحكام الشرعية ويستوحى من النصوص الشريفة الحلول لتلك المشاكل.

وعبارته

«أولى الأمر» تعنى أصحّاب الاختيار وذوى الشأن، وهذه إشارته إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام ومصدقها البارز فى ذلك الوقت الإمام على عليه السلام نفسه.

وعبارته

«مُحْكَمٌ كِتَابِهِ» إشارته إلى محكمات الآيات القرآنية التى لا شك ولا شبهة فى مفهومها وتفسيرها.

وعبارته

«السنة الجامعة غير المفترقة» إشارته إلى الأحاديث النبوية وسيره النبي الأكرم صلى الله عليه وآله المقبوله والمشهوره بين المسلمين ولا يتسبب الأخذ بها الخلاف والفرقة بأى شكل من أشكال.

وهنا ربّما يثار هذا السؤال: لماذا لم يتحدّث الإمام عليه السلام عن دليل العقل والإجماع اللذين يعتبران من الأدلة القطعية فى عمليته الاستنباط الفقهي فى دائره الأدلة الأربعة المعروفة؟

والجواب عن هذا السؤال يبيّن، لأنّ الكتاب والسنة أبدا بصراحة حجّيه دليل العقل وحجّيه الإجماع أيضاً، سواءً قلنا بأنّ الإجماع يعدّ دليلاً مستقلاً أو أنّه يعود إلى السنة وكلام المعصوم.

من هم اولوا الأمر؟

بالنسبة لتفسير «أولوا الأمر» هناك خلاف بين المفسرين، فالمفسرون من أهل السنه يرون أنّ أولى الأمر هم القاده والولاه والحكام فى كل عصر، والعجيب أنّهم لم يقولوا بوجود استثناء من هذه القاعده، وبالتالي يجب على المسلمين اتباع كل شكل من أشكال الحكومه حتى لو كانت حكومه المغول والتر، ولكن بعض المفسرين المتأخرين منهم، الذين يتمتعون بأفق أوسع وذهن أرحب كصاحب تفسير «المنار» و «فى ظلال القرآن»، يعتقدون بأنّ المراد من أولى الأمر هم نواب الشعب والعلماء وأصحاب المناصب الذين لهم دور مهم فى حياه الناس، ولكنهم يشترطون بأن لا يسير هؤلاء بخلاف مقررات الإسلام وأحكامه. هذا والحال أنّ البعض الآخر يحصر اولوا الأمر بالعلماء والزعماء المعنويين فقط، وذهب آخرون إلى أنّ أولى الأمر هم الخلفاء الأربعة عشر ولازمه عدم وجود اولوا الأمر فى الأزمنه الأخرى.

وذهب بعضهم إلى أنّ الصحابه من أولى الأمر أيضاً، حيث يرد عليه نفس الإشكال والايراد.

ولكنّ المفسرين الشيعه متفقون بأنّ أولى الأمر هم أئمه المعصومين عليهم السلام فقط وهم قاده الخلائق إلى الله فى جميع الأمور الماديّه والمعنويّه، والدليل على ذلك واضح، وهو أنّ إطاعه أولى الأمر الوارد فى الآيه الشريفه مطلقه، وبديهي أنّ الطاعه المطلقه للشخص الذى يتورط فى الذنب أو الخطأ لا معنى لها، وخاصه أنّ أولى الأمر معطوفه مباشره على رسول الله صلى الله عليه وآله، وجمله «اطيعوا» التى جاءت قبل ذلك تشمل الإطاعه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأولى الأمر على حدّ السواء.

والجدير بالذكر أنّ بعض المفسرين من أهل السنه تحركوا فى هذا المورد من موقع الانصاف واعترفوا بهذه الحقيقه، يقول الفخر الرازى فى تفسيره فى ذيل هذه

الآية: «إِنَّ قَوْلَهُ «وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ» يَدُلُّ عِنْدَنَا عَلَى أَنَّ إِجْمَاعَ الْأُمَّةِ حُجَّةٌ وَالِدَلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِطَاعَةِ أُولَى الْأَمْرِ عَلَى سَبِيلِ الْجُزْمِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَمَنْ أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَتِهِ عَلَى سَبِيلِ الْجُزْمِ وَالْقَطْعِ لِابْتِدَاءِ وَأَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا مِنَ الْخَطَا، وَإِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ مَعْصُومًا عَنِ الْخَطَا كَانَ بِتَقْدِيرِ إِقْدَامِهِ عَلَى الْخَطَا يَكُونُ قَدْ أَمَرَ اللَّهُ اجْتِمَاعَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيَ فِي الْفِعْلِ الْوَاحِدِ بِالْإِعْتِبَارِ الْوَاحِدِ، وَأَنَّهُ مُحَالٌ، فَثَبَتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِطَاعَةِ أُولَى الْأَمْرِ عَلَى سَبِيلِ الْجُزْمِ، وَثَبَتَ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَتِهِ عَلَى سَبِيلِ الْجُزْمِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا عَنِ الْخَطَا فَثَبَتَ قَطْعًا أَنَّ أُولَى الْأَمْرِ الْمَذْكُورَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، لِابْتِدَاءِ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا، وَبِمَا أَنَّ الْفَخْرَ الرَّازِيَّ لَمْ يَعْتَقِدْ بِعَصْمِهِ أَتَمَّهُ أَهْلُ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يَقُولُ: «ذَلِكَ الْمَعْصُومُ إِذَا مَجْمُوعُ الْأُمَّةِ أَوْ بَعْضُ الْأُمَّةِ، لَا جَائِزُ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ الْأُمَّةِ لِأَنَّ بَيْنَنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ طَاعَةَ أُولَى الْأَمْرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَطْعًا (وَهُمُ الْأُمَّةُ)» (١). النَّتِيجَةُ أَنَّ أُولَى الْأَمْرِ يَقْصُدُ بِهِ الْإِجْمَاعُ!

ولكن الفخر الرازي غفل عن هذه النقطة، وهي أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَقُولُ إِنَّ الْمَسَائِلَ الْمَشْكَلَةَ وَالْمَعْقَدَةَ الَّتِي تَوَاجَهَكُمْ فِي الْحَيَاةِ، عَلَيْكُمْ حَلُّهَا بِوَسْطِهِ إِطَاعَةَ أُولَى الْأَمْرِ، وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ الْمَسَائِلَ مُورَدَ الْإِتْفَاقِ مَحْدُودَةٌ وَمَعْدُودَةٌ وَلَا- يُمْكِنُ حَلُّ جَمِيعِ الْمَشْكَلَاتِ عَنْ طَرِيقِ تَحْصِيلِ إِتْفَاقِ جَمِيعِ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ أَوْ عِلْمَائِهَا، أَضْفَ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ الْمُسْتَفَادَ مِنَ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَجِبُ أَنْ يَدْعُوا الْحُكُومَةَ أُولَى الْأَمْرِ، وَحُكُومَةَ مَجْمُوعِ الْأُمَّةِ وَإِتْفَاقِهِمْ غَيْرَ مُمْكِنٍ حَتَّى لَوْ اسْتَخْدَمْنَا آلِيَةَ الْإِنْتِخَابَاتِ لِاخْتِيَارِ نَوَّابِ الْأُمَّةِ لِمِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ، فَقَلَّمَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَّفَقَ النَّاسُ عَلَى اخْتِيَارِ هَؤُلَاءِ النُّوَّابِ، وَمِنْ هَذَا الْمُنْتَلَقِ فَإِنَّ إِطَاعَةَ أُولَى الْأَمْرِ بِمَعْنَى حُكَّامِ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَجَانِبٌ لِلصَّوَابِ.

يبقى سؤال مهم، وهو أَنَّ أُولَى الْأَمْرِ بِمَعْنَى الْإِمَامِ الْمَعْصُومِ لَمْ يَكُنْ مُوجُودًا فِي زَمَانِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَكَيْفَ أَمَرَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بِطَاعَتِهِمْ؟

ص: ٣٨٤

١- (١). تفسير الفخر الرازي، ج ١٠، ص ١٤٤، مطبوعه مصر، سنة ١٣٥٧.

والجواب عن هذا السؤال بيّن، لأنّ المخاطبين لهذه الآية ليسوا فقط الأشخاص الذين كانوا في زمن النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله وفي عصر نزول هذه الآية، بل الآية ناظره لجميع الأزمنة والعصور، ولذلك فجميع القاده والحكّام مشمولون لمدلول الآية، وحتى الفخر الرازي الذي يرى أنّ أولى الأمر تعنى إجماع المسلمين، يرى أيضاً أنّ المعيار هو تحقيق الإجماع في كلّ عصر وزمان.

وينبغي القول أنّ المنابع الإسلاميّة، من الشيعة وأهل السنّة، ذكرت روايات عديدة في أنّ المراد من أولى الأمر على بن أبي طالب عليه السلام (بوصفه المصداق الكامل)(1).

ص: ٣٨٥

١- (١). لمزيد من الاطلاع على هذه الأحاديث انظر: إحقاق الحقّ، ج ٣، ص ٤٢٥ والتفسير الأمثل، ذيل الآية ٥٩ من سوره النساء.

ثُمَّ اخْتَرْنَا لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ، مِمَّنْ لَاتَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ، وَلَمَا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ، وَلَمَا يَتِمَّ آدَى فِي الزَّلَّةِ، وَلَا يَحْصِرُ مِنْ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ، وَلَمَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ، وَلَمَا يَكْتَفِي بِأَذْنَى فَهْمٍ دُونَ أَفْصَاهُ؛ وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ، وَأَخَذَهُمْ بِالْحَجِيحِ، وَأَقْلَهُمْ تَبَرُّمًا بِمَرَاجِعِهِ الْخُصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكْشُفِ الْأُمُورِ، وَأَصْبَرَ مَهْمُهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لَا يَزِدُّهُ إِطْرَاءٌ. وَلَمَا يَسْتَمِيلُهُ إِعْرَاءٌ وَأَوْلِيَتِكَ قَلِيلٌ، ثُمَّ أَكْثَرَ تَعَاهُدِ قَضَائِهِ، وَأَفْسَحَ لَهُ فِي الْبِذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ، وَتَقَلَّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ. وَأَعْطَاهُ مِنَ الْمَنْزِلِ لِمَدِيكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ، لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ. فَانظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا بَلِيغًا، فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى، وَتُطَلَّبُ بِهِ الدُّنْيَا.

الشرح والتفسير: يجب أن يتصف القضاة بهذه الصفات الاثني عشر!

يتحدث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رسالته لمالك الأشتر عن موضوع مهم في شأن القضاة، ويجعله بحثاً مستقلاً عن البحوث السابقة، للإشارة إلى مسأله الاستقلال القضائي المتداوله في عالمنا المعاصر والذي يحضى بأهميته كبيره حيث تكون السلطه القضائيه قوه مستقله في عرض السلطه التنفيذيه (الحكومه) والسلطه التشريعيه (البرلمان)، مضافاً إلى ذلك فإن الإمام عليه السلام ذكر خصائص القضاة بعد ذكر خصائص قاده الجيش مما يوحى إلى أن الجيش الإسلامى يحفظ الأمة في مقابل

الأجانب، والسلطة القضائيّة تحفظ الأّمه في مقابل المخاصمات والنزاعات الداخليّة، وبعبارة أخرى أنّ أحدهما يؤدّي دور حفظ الأّمه من الخارج، والآخر حفظ الأّمه من الداخل.

بدايه يقول عليه السلام:

«ثُمَّ اخْتَرْتُ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ».

وهذا التعبير يوحي أنّ الحاكم في مورد اختيار القضاة يجب أن يختار الأفضل والأجدر منهم، لأنّ مسألة القضاء أمر حساس وخطير جدّاً وأنّ الأفضل والأجدر من الجميع هو الذي يستطيع تولى هذا المنصب.

وجمله

«اخْتَرْتُ» تشير إلى أنّ القضاة لا ينتخبون بآراء الناس، كما هو المتداول في بعض البلدان المعاصره، بل يختارهم القائد والإمام بشكل مباشر أو بواسطة الأفراد الموثوقين، لأنّ مسألة صلاحية القضاة ليست شيئاً يمكن الرجوع فيه إلى آراء الناس للحكم في ذلك.

ثمّ يعدد الإمام عليه السلام اثني عشر صفة لابدّ من توفرها في القاضي، وهذا في الواقع من قبيل التفصيل بعد الاجمال، ويشير إلى من هو الأفضل والأجدر لحيازه هذا المنصب المهم:

١. يقول عليه السلام:

«مِمَّنْ لَاتَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ».

وهذه إشاره إلى أنّ معرفه القاضي فيما يتصل بالمسائل المختلفه والقوانين الإسلاميه ومعرفه الموضوعات إلى درجه من التعقيد في كلّ مسألة بحيث ينبغي للقاضي معرفه طريق الحلّ فيها ولا يواجه مشكله في هذا الأمر، وبعبارة أخرى أن يكون عارفاً بأحكام الشرع من جهه، وله معرفه في تشخيص الموضوعات أيضاً من جهه أخرى، ليستطيع ردّ الفروع على الأصول واستنباط الفروع من الأصول، وهذه الصفة لا توجد إلّا في المجتهدين المبرزين.

٢. ويقول عليه السلام في بيان الصفة الثانيه:

«وَلَا تُمَحِّكُهُ (١) الْخُصُومُ».

ص: ٣٨٨

١- (١). «تُمَحِّكُهُ» من ماده «مَحَكَ» على وزن «مَكَر» بمعنى اللجاجه والعناد والتعدي.

يعنى أن يملك من سعه الصدر بحيث لو تنازع المتخاصمين فى مجلسه وارتفعت أصواتهم فلا يثيره ذلك ولا يخرج به عن حد الاعتدال، بل يصدر الحكم الإلهى العادل فى حقهما مهما كانا شرسين وعدمى الإِدب.

٣. ويقول الإمام عليه السلام فى بيان الصفه الثالثه للقضاه الموثوقين واللائقين:

«وَلَا يَتَمَادَى (١) فِي الزَّلَّةِ».

ومعلوم أن الشخص اللجوج والمعاند عندما يرتكب خطأ ويلتفت إلى هذا الخطأ لا يجد فى نفسه استعداداً للاعتراف بهذا الخطأ وتغيير مساره والعوده إلى الصراط المستقيم، وهذا بدوره يتسبب فى أن يصدر أحكاماً جائره وغير واقعیه، وهو من الظلم المتعمد وغير القابل للمغفره.

ويتحدث القرآن الكريم عن جماعه من الكفار: «وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» (٢).

وكثيراً من يؤثر العناد والتعصب فى فكر الإنسان إلى درجه أنه يرى الباطل حقاً والحق باطلاً، يقول أميرالمؤمنين عليه السلام:

«اللَّجَاجُ يُفْسِدُ الرَّأْيَ» (٣) ويقول فى مورد آخر:

«اللَّجَاجُ أَكْثَرُ الْأَشْيَاءِ مَضَرَّةً فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ» (٤).

٤. ويقول عليه السلام فى بيان الصفه الرابعه:

«وَلَا يَحْضُرُ (٥) مِنَ الْفِئَةِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ».

وهذه الصفه فى الحقيقه وجه آخر لعدم العناد واللجاج، وبعباره أخرى هى نتيجه لها، فالإنسان إذا لم يتحرك فى خط اللجاج والعناد وتبين له الحق فى المسأله فإنه

ص: ٣٨٩

١- (١). «يَتَمَادَى» من ماده «تمادى» ومن ماده «مدى» على وزن «دوا» ويعنى الاستمرار والدوام والإصرار على عمل شىء.

٢- (٢). سوره المؤمنون، الآيه ٧٥.

٣- (٣). غرر الحكم، ص ٦٥، ح ٨٥٣.

٤- (٤). المصدر السابق، ص ٤٦٣، ح ١٠٦٤٠.

٥- (٥). «لايُحْضِرُ» من ماده «حصر» على وزن «نصر» ويعنى الوقوع فى مضيقه، وكثيراً ما تطلق على التوقف والعجز عن الاستمرار فى الكلام، وفى العبارة وردت بكلا المعنيين.

سيعود إليه بكل سهوله ويصلح جميع تداعيات الخطأ الذى اقترفه، ويعباره أخرى هو الشخص الذى يملك الشجاعه للاعتراف بخطئه وإصلاح هذا الخطأ والاشتباه، ومثل هذه الشجاعه تعتبر من أهم أغصان الفضيله الإنسانيه.

٥. قوله عليه السلام:

«وَلَا تُشْرِفْ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ».

وبديهى أن القاضى إذا كان يعيش حالات الطمع، حتى فى أدنى مستوياته فبالإمكان إغوائه بسهوله عن طريق تقديم الرشوه وبالتالي منعه من إصدار الحكم بما يتفق مع الحق فى الحكم.

ونقرأ فى حديث شريف عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«رَأْسُ الْوَرَعِ تَزَكُّ الطَّمَعِ» (١).

ونقرأ أيضاً فى الكلمات القصار لأمير المؤمنين عليه السلام:

«أَكْثَرُ مَصَارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْمَطَامِعِ» (٢).

وبيان آخر، مع الالتفات إلى أن الإشراف يعنى النظر إلى الشىء من جهه العلو فهذا الكلام من الإمام عليه السلام يشير إلى أن الإنسان الطامع من شأنه أن يسقط من ذروه الفضيله إلى هوه الرذيله.

٦. قوله عليه السلام:

«وَلَا يَكْتَفِي بِأَذْنَىٰ فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاءَ».

وهذه إشاره إلى أن القاضى ينبغى، فى مجال فهم المسائل، أن يملك من سعه الصدر بحيث يحيط بجميع جوانب المسأله، سواء فى الشبهات الحكميه أم فى الشبهات الموضوعيه، ويحقق فى شروط المتخصصين الذين حضرا عنده فى القضاء والحكم بينهما، ثم بعد ذلك يصدر حكمه من موقع الوضوح فى الرؤيه.

٧. يقول عليه السلام:

«وَأَوْفَقَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ».

ونعلم، كما ورد فى الحديث النبوى المعروف، أن الأمور على ثلاثه أنحاء: فمنها ما يكون الحق فيها جلياً، والآخر ما يكون الباطل فيها جلياً، ولكن القسم الثالث هو

- ١- (١) . غرر الحكم، ص ٢٧٢، ح ٥٩٥٤.
- ٢- (٢) . نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٢١٩.

الشبهات، يعنى الأمور التى لا يتسنى للإنسان الاحاطه بها بسهولة، ففى مثل هذه الموارد يجب أخذ جانب الاحتياط، والشخص الذى يتحرك فى وادى الشبهات فسوق يقوده ذلك إلى دورب المحرمات والغرق فى المتاهات، والشخص الذى يجتنب الشبهات فإنه يترك المحرمات الواقعيه بشكل أفضل ويجتنبها.

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله:

«حَلَالٌ بَيْنَ وَحَرَامٍ بَيْنَ وَشُبُهَاتٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَمَنْ تَرَكَ الشُّبُهَاتِ نَجَا مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ وَمَنْ أَخَذَ بِالشُّبُهَاتِ ارْتَكَبَ الْمُحَرَّمَاتِ وَهَلَكَ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ» (١).

وهذا الكلام لا يعنى أن القاضى يمتنع من إصدار الحكم لأن وظيفته الشرعيه فصل الخصومه وانهاء النزاع، بل المراد أن يتوقف ويحتاط ويدرس جميع جوانب المسأله ويزيل ظلمه الشبهات بنور العلم والمعرفه، وأحياناً يقوم بمصالحه طرفى النزاع فيما تدعوه مواقف الاحتياط.

٨. يقول عليه السلام:

«وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ».

إن أهم عمل القاضى التحقيق فى أدله الطرفين، فأخذ بالأدله القويه والمقبوله، ويمتنع عن قبول الأدله الضعيفه والمهزوزه.

ويحتمل أيضاً أن مراده من هذه الجملة أن القاضى يجب أن يتحرك أكثر من أى شخص آخر فى البحث عن الدليل، بمعنى أنه أحياناً لا يوجد أى دليل حسب الظاهر فى المسأله مورد الخصومه ليبيّن الحق فى المسأله، ولكن القاضى يستطيع ومن خلال البحث والتدقيق فى زوايا القضيّه، أن يعثر على أدله قويه لكشف الحق من الباطل، كما هو الحال فى الكثير من قضاء أميرالمؤمنين عليه السلام، إذ أن الإمام عليه السلام ومن خلال استخدام أساليب نفسيه يستطيع إمّا فى أخذ الاعتراف والإقرار من المجرم، وإمّا أن يتوفر له العلم من مجمل القرائن والشواهد المتوفره، مثلاً فى قضه اختلاف امرأتين على طفل واحد، وإصرار كل واحد منهما على أن هذا الطفل هو ابنها،

ص: ٣٩١

فحسب القاعده يجب على القاضى فى هذا المورد اللجوء إلى القرعه للفصل بينهما، ولكن الإمام عليه السلام تحرك على مستوى البحث عن الأدله، فأمر بأن يأتوا له بالسيف وقال: سوف أشق هذا الولد إلى نصفين، فكل واحده منكما تأخذ نصفاً من هذا الطفل، فصاحت الأم الحقيقه بأنى تنازلت عن حقى فادفعوا هذا الطفل إلى المرأه الأخرى، فعرف الإمام عليه السلام بهذه الطريقه المدعى الحقيقى من الكاذب، وهناك الكثير من هذه الأمثله فى قضايا أمير المؤمنين عليه السلام وقضائه (١).

٩. وقوله عليه السلام:

«وَأَقْلَهُمْ تَبْرُماً (٢) بِمُرَاجَعِهِ الْخَصْمِ».

فى الكثير من الحالات يكون لكل واحد من الطرفين المتخاصمين أدله وشواهد عديده ويطرحها بالتالى على القاضى ممّا يسبب له إزعاجاً وإرهاقاً، وإذا كان القاضى ضيق الصدر وسريع الانفعال فسيقوم بطردهما، وما أكثر الأدله الواقعيه التى تبقى طى الكتمان بهذا العمل، ولكن إذا كان يملك سعه الصدر ولا ينفعل بسهولة فإنه يستطيع إعادته الحق إلى أهله.

يجب على القاضى أن يمنح طرفى النزاع مقداراً كافياً من الوقت ليبيّن له ما أمكنهما من الشواهد والأدله لإثبات الدعوى.

١٠. وقوله عليه السلام:

«وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكْشُفِ الْأُمُورِ».

وبديهى أنّ القاضى لو كان عاجولاً ومتسرعاً فسوف لا تتضح لديه حقيقه الأمر وبخاصّه فى الدعاوى المعقده، ولكن إذا كان يتحلّى بالصبر والتريث ولا يصدر حكمه النهائى بسرعه، فإنه يستطيع بشكل أفضل أن يكشف الستار عن وجه الحق فى المسأله، وهذا الكلام لا- يعنى أنّ الملفات القضائيه، كما هو الحال فى زماننا، يتم تأخيرها إلى أيام وشهور عديده بحجّه التحقيق فى الملف، وأحياناً يتأخر الحكم

ص: ٣٩٢

١- (١). وسائل الشيعه، ج ١٨، ص ٢١٢، ح ١١؛ بحار الأنوار، ج ٤٠، ص ٢٥٢، ح ٢٦، ولاطلاع أكثر انظر: وسائل الشيعه، ج ١٨، كتاب القضاء الباب ٢١.

٢- (٢). «تَبْرُماً» من ماده «برم» فى الأصل بمعنى حياكه الحبل وأمثاله، ثم اطلقت على كلّ شىء يشير التعب والملل، وفى العبارة إعلان وردت بمعنى الانزعاج الشديد والتعب.

فى قضيه معينه لسنوات عديده، وخاصه إذا قام المحامون بوضع العصى لإعاقه عجله الحكم، فأحياناً وبذريعه بسيطه يتم تأخير إصدار الحكم فى القضيه فى الحكم.

١١. قوله عليه السلام:

«وَأَصْرَمَهُمْ (١) عِنْدَ اتِّصَاحِ الْحُكْمِ».

وهذه إشاره إلى أن الاحتياط الذى يمارسه القاضى والصبر فى مقابل بيان حجج الطرفين والتحقيق فى الأدله لا يعنى أنه سيتردد فى مقام إنشاء الحكم ويبتلى بالوساوس ويوكل إنشاء الحكم إلى غدٍ وبعد غد، بل ينبغى أن يكون كالسيف الصارم فى الحزم وفصل الخصومه بإنشاء الحكم القاطع ولا يفكر بتداعياته وآثاره فيما بعد، لأن إنشاء الحكم عاده يقع بنفع أحد الطرفين ويؤدى بالتالى إلى امتعاض الطرف الآخر وعدم رضاه وسيلجأ للمحامين والأصدقاء وأحياناً للقبيله والطائفه لفرض رأيه على القاضى، وهذه المسأله من اللوازم الطبيعيه للقضاء، ومن يفكر فى هذه الأمور ويتحرك على مستوى الاحتياط فى إصدار الحكم لا ينبغى أن يجلس على كرسى القضاء.

١٢. وفى آخر صفه من الصفات القاضى اللاتق يقول الإمام عليه السلام:

«مِمَّنْ لَا يَزِدُّهُ (٢) إِطْرَاءً (٣) وَلَا يَسْتَمِيلُهُ (٤) إِغْرَاءً (٥)».

وغير خفى عن البيان أن الأشخاص المغرورين والمعجبين بأنفسهم عندما يسمعون عبارات المدح والثناء والتمجيد من قبل البعض تجاههم، فربما ينحرفون عن مسير الحق ويؤثر حب الذات فى ميلهم إلى جهه المداحين، وبسبب هذه العلاقه النفسيه يحكم هذا القاضى بما يصب فى نفع هذا الشخص ظلماً وعدواناً، وهنا يؤكد

ص: ٣٩٣

١- (١). «أَصْرَمَ» من ماده «صرم» على وزن «سرد» بمعنى قطع الشىء، وتأتى أحياناً للقطع المعنوى والقاطعيه والحزم فى إداره الأمور.

٢- (٢). «يَزِدُّهُ» من ماده «إزدهاء» ويعنى العجب والغرور والأنانيه.

٣- (٣). «إِطْرَاءً» بمعنى المدح والثناء الكثير والتبجيل.

٤- (٤). «يَسْتَمِيلُهُ» من ماده «استماله» بمعنى جذب الشخص أو الشىء نحوه.

٥- (٥). «إِغْرَاءً» فى الأصل بمعنى الصاق شىء بشىء آخر، ثم استخدمت بمعنى التشويق والتحريك لإنجاز لعمل معين، وفى الجملة أعلاه وردت بمعنى التشويق الكثير.

الإمام عليه السلام أنّ مثل هؤلاء الأشخاص ليسوا جديرين بمنصب القضاء بين المسلمين حتى لو توفرت فيهم الصفات الأخرى.

ثم إنّ الإمام عليه السلام بعد أن ذكر هذه الصفات الإثني عشر، التي كلّ واحد منها أهم من الأخرى، يتوجه نحو القضاء الذين يستطيعون، عند مواجهه أعقد المسائل وأصعب الملفات، من تشخيص الحقّ من الباطل بكل شجاعه وفطنه ويحكمون وفق ما توفر لديهم من أدلّه وشواهد ويعيد الحقّ إلى صاحبه حتى لو كان من أضعف الأفراد في المجتمع، وكان مخالفه من أقوى الأفراد، وطبعاً كما قال الإمام عليه السلام في نهايه حديثه عن هذه الصفات:

«وَأَوْلَيْكَ قَلِيلٌ».

ولكن المهم للوالى أن يدرس جميع جوانب المسأله بصبر وأناة وللعثور على هذا القليل ممّن تتوفر فيهم هذه الشروط من بين المرشحين لهذا المنصب ووضعه على كرسى القضاء بين المسلمين.

وبعد أن ذكر الإمام عليه السلام خصوصيات وصفات القاضى اللائق، تحدّث عن وظائف الوالى فى مقابل هؤلاء القضاة ويأمره بثلاثه أوامر مهمّه جداً.

بدايه يقول عليه السلام:

«ثُمَّ أَكْثَرُ تَعَاهُدٍ (١) قَضَائِهِ»، وهذه إشاره أنه مهما كان هؤلاء القضاة واجدين لهذه الصفات ومورد الاعتماد، فمع ذلك وبما أنّ مسأله القضاء مهمّه جداً وربّما يبتلى القاضى بالخطأ والزيف أو الانحراف، فمن الضرورى أن ترسل بعض المفتشين ليحققوا فى الأحكام القضائيه الصادره عنهم، أو تتولى هذه المسأله بنفسه وتحقق عن كذب فى بعض الأحكام القضائيه لهم، ومثل هذا العمل يمنح القاضى قوّه فى التزامه الواعى بقيم العدالة.

طبعاً فإنّ هذا الكلام لا- يعنى وجود مسأله الاستئناف والتمييز فى نظام القضاء الإسلامى بل بمعنى أنّ الوالى لو عثر على خطأ مسلّم فى الحكم وجب عليه ابطاله وتجري إعاده التحقيق مرّه أخرى.

ص: ٣٩٤

١- (١). «تَعَاهُدٌ» بمعنى التحقيق والدراسه وقد ورد ذكر هذه المفرده فيما سبقها من الصفحات.

وفى التوصيه الثانيه يقول عليه السلام:

«وَأَفْسَحَ لَهُ فِي الْبُذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَّتُهُ إِلَى النَّاسِ».

وهذه إشاره إلى أنّ أحد عوامل الفساد فى السلطه القضائيه، قلّه الحقوق المائيه للقضاء والموظفين فى الجهاز القضائى، فينبغى أن يضع الوالى لهم مخصصات ورواتب شهريه كبيره ليتنسى لهم العيش بشكل معقول وشريف ولا يفكروا بعد ذلك بقبول الرشوه.

يقال إنّ فى بعض البلدان فى هذا العصر يصدرّون صكاً أيضاً ويسلموه للقضاء ليكتبوا فيه أى رقم يريدونه لتمرير المسأله لصالحهم.

وهذا الكلام، سواءً كان صحيحاً أو مبالغ فيه أو كان كاذباً يعكس لنا هذه الحقيقه، وهى أنّ القاضى يجب أن يكون له نصيب من بيت المال يتناسب مع حياته ومعيشته.

والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام بالنسبه لمسأله تأمين الحقوق المائيه لضمان معيشه محترمه، سواءً بالنسبه للقضاء أم بالنسبه لقاده الجيش كما تقدّم سابقاً، يبرز الإمام عليه السلام حساسيه شديده تجاه هذه المسأله، فصحيح أنّ جميع الموظفين والمسؤولين وحتى أفراد الجهاز القضائى وأفراد الجيش الإسلامى يجب أن تتوفر لهم معيشه كافيه، ولكنّ تأكيد الإمام عليه السلام على هاتين الفئتين بالخصوص يشير إلى لزوم الاهتمام أكثر بأعمال هاتين الفئتين من أجل حفظ الحدود والثغور وكذلك من أجل حفظ حقوق الناس.

ثمّ يتطرق الإمام عليه السلام للتوصيه الثالثه ويقول:

«وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ لِئَامَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالًا (١) الرَّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ».

وهذه النقطه مهمه، وهى أنّ القاضى يجب أن يعيش الحريه الكامله فى إنشاء الحكم العادل ولا- ينبغى أن يخضع تحت آيه ضغوط اجتماعيه وفئويه، وهذا لا يتسنّى إلّا إذا كان القاضى أقرب الناس إلى الوالى والقائد، لأنّه لو كان هناك أفراد

ص: ٣٩٥

١- (١). «اغْتِيَالًا» فى الأصل بمعنى إغفال الشخص الإضرار به، وأحياناً تطلق على القتل غدراً، وفى العبارة أعلاه وردت بالمعنى الأوّل.

أقرب منه إلى الوالى، فسوف لا- يشعر القاضى بالأمن من حكمه وقضائه، فربما يتوجه الخصم إلى حاشيه السلطان ويسعى فى تشويه سمعه القاضى لديه فيضطر القاضى إلى إصدار حكمه وفقاً لما يريده الخصم، وبعبارة أخرى يجب أن يكون القضاء مصونين من كل جهه ليحفظوا لهم استقلالهم القضائى.

وبعد هذه التوصيات الثلاث يقول الإمام عليه السلام مؤكداً:

«فَانظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا بَلِيغًا».

وكلمه

«ذَلِكَ» ربّما تشير إلى التوصيه الأخيره أو إلى التوصيات الثلاث بل حتى إلى الصفات الاثنى عشر للقاضى، بمعنى ينبغي أن تنظر بدقه فى اختيار القضاء وكذلك فى التحقيق فى أعمالهم ورفع حاجاتهم وضمان حريتهم فى ممارسه دورهم القضائى.

وفى نهايه هذا المقطع من الكلام يتجه الإمام عليه السلام لذكر الدليل على كل هذه التأكيدات التى سبق ذكرها، ويقول:

«فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى، وَتُطَلَّبُ بِهِ الدُّنْيَا».

ومعلوم أنّ هذا الكلام يشير إلى زمان الخليفه الثالث عثمان حيث أمسك بعض الأفراد الفاسدين والمفسدين من بنى اميه وبنى مروان زمام السلطه والقدرة ونهبوا أموال بيت المال ولم تكن مسأله حفظ الإسلام والرساله الإلهيه مطروحه فى قاموسهم.

أمّا أنّ الفساد الإدارى والمالى فى زمن عثمان قد امتد بشكل واسع فى تفاصيل وأبعاد الحكومه فلا يشك أحد من المؤرخين فى ذلك، غايه الأمر أنّ بعض علماء أهل السنّه ومن أجل حفظ مكانه عثمان قالوا: كان رجلاً ضعيفاً لم يتمكن من السيطرة على هذه الجماعه الشريره وبالتالى فلت زمام الأمور من يديه وتولى رجال بنى اميه الحكم، ومن هنا فهو معذور!! وأمّا الكلام فى معقوليه مثل هذا العذر، فهى مسأله أخرى.

وقد أشار الإمام عليه السلام فى الخطبه الشقشقيه إلى هذه المسأله حيث قال:

«وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَعُونَ مَالَ اللَّهِ خِضْمَةَ الْإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ».

ملاحظه: قمنا بتقسيم عهد مالك الأشتر رحمه الله التاريخى إلى ثلاثين مقطعاً، تحدّثنا عن ١٥ مقطعاً منها فى الجزء العاشر، وسيأتى الكلام عن ١٥ مقطع آخر فى الجزء الحادى عشر، وذلك لحفظ التعادل فى صفحات الكتاب.

ولا يسعنى فى هنا إلّا أن نذكر صديقنا العزيز المرحوم حجّه الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ محمّد جعفر الإمامى الذى واكبنا إلى آخر لحظه ثمّ وافاه الأجل ولبى دعوه الحقّ وانتقل إلى رحمه الله الواسعه، وكذلك الصديق الوفى المرحوم حجّه الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ إبراهيم البهادرى حيث انتقل إلى رحمه قبل فتره وجيزه، وكان المرحومين من المخلصين والملتزمين والمؤمنين وباحثين ومحققين جادين فى عملهما وعالمين عاملين، فبقيت ذكرياتهم فى خواطرننا ولا ننساهم إن شاء الله، ونسأل الله الغفور الرحيم أن يجعلهما فى غريق رحمته الواسعه.

اللهم! لك الحمد ولك الشكر على هذه النعمه العظيمه أن وفقتنا لإكمال هذا المشروع المبارك وإدامه شرح نهج البلاغه حتى أتممنا الجزء العاشر منه ببركه مولى الموحدين - عليه آلاف التحية والثناء - وقريباً سنقدم للقرآء الأعرآء الجزء الحادى عشر منه، والذى به ينتهى قسم الكتب والرسائل فى نهج البلاغه، وفى القريب العاجل سنقدم للطبع الأجزاء الخاصه بشرح وتفسير الكلمات القصار للإمام أمير المؤمنين عليه السلام وبذلك يكتمل هذا الشرح الجامع فى أربعة عشر جزءاً (بحول الله وقوّته وبمنّه وكرمه).

نهايه الجزء العاشر

ربيع الأول ١٤٣١ هـ - ٢٠٠٩ م

ص: ٣٩٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

